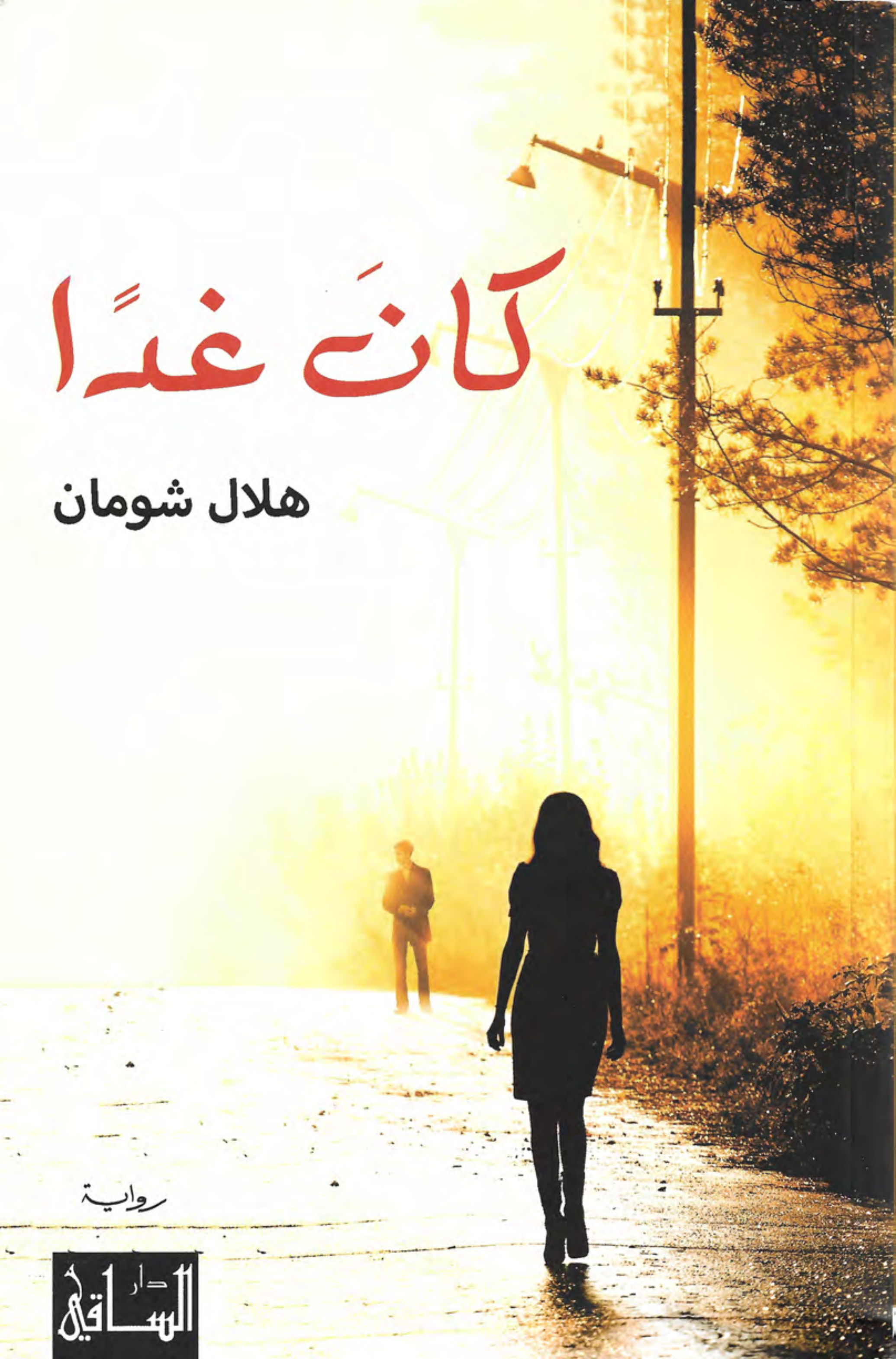


كانَ غداً

هلال شومان

رواية

دار الساقي

كان غدًا

تصميم الغلاف: سومر كوكبي

هلال شومان

كان غدًا

دار الساقي

Mathematician
31.10.2018

الطبعة الأولى 2017

ISBN 978-6-14425-959-7

دار الساقي
بناية النور، شارع العويني، فردان، ص.ب: 113/5342، بيروت، لبنان
الرمز البريدي: 2033–6114
هاتف: 442 866-1-961+، فاكس: 443 866-1-961+
email: info@daralsaqi.com

يمكنكم شراء كتبنا عبر موقعنا الإلكتروني
www.daralsaqi.com

تابعونا على
@DarAlSaqi
دار الساقي
Dar Al Saqi

إلى العابرين سريعًا،
يبقون لأنَّهم عبروا.

إلى أحداث تخذلنا، وتنعطف فجأة نحو البعيد،
إلى الصحافي المِصري هاني درويش (١٩٧٤ - ٢٠١٣).

رغم كونها تُعيد ترتيب الأحداث العامة على طريقتها، وتوسِّع الهامش التخييلي في بعضها، وتبتدع أحداثًا أخرى لم تقع أصلًا، يمكن القول إنَّ معظم الأخبار المُدرَجة في هذه الرواية قد حدثت فعلًا في لبنان في العام ٢٠١٦ أو قبله بأعوام، أو إنَّها ستحدث على الأرجح في العام ٢٠١٧ أو بعده بأعوام.

"لبنان معين لا ينضب. ومن خلاله يمكن أن نستشفّ العالم، مثلما أستشفُّ البحر من وراء نافذتي على المَطَلّ. وإلى ذلك كم أخشى، لفرط التبحُّر في هذه البلاد والكلام عليها، أن أشيع الملل في السامع والقارىء على السّواء".

(ميشال شيحا، **لبنان في شخصيته وحضوره**).

"... إنَّا نموتُ على رجاءِ قيامةِ الأمواتِ".

[كلام منقوش في العام ١٨٩٢ على رخام مقام بمقبرة مار متر للروم الأرثوذكس في منطقة الأشرفيّة شرق بيروت].

لعبة سباق بسيطة بين أولاد ثلاثة في جُلول سوق الغرب كشفَت بالصدفة عن وجود خمسة هياكل عظميَّة في بئر مهجورة.

كان الأولاد الذين تتراوح أعمارهم بين التاسعة والعاشرة قد تراهنوا على نزولِ خاسر السباق منهم إلى البئر الحجرية القريبة على حبل، ليبقى في قعرها خمس دقائق قبل الصعود من جديد.

عندما انتهى السباق، باشر الخاسر منهم تنفيذ الاتفاق، لكنَّ الولد أفلت الحبل أثناء نزوله، ووقع في عمق البئر. وبعد قيام الولدَيْن الآخرَيْن بمناداته، أعلمهما أنَّه لا يستطيع الوقوف على قدميه، فهرع الولدان إلى ساحة البلدة يطلبان النجدة من الأهالي. ثمَّ حضرَت قوات الدفاع المدني إلى مكان الحادث، واستطاع أحد المسعفين أن ينزل في فوهة البئر، وأن ينجح بمساعدة رفاقه في الأعلى على ربط الولد، وسحبه إلى الخارج.

ولم تنتهِ القصة هنا. فأثناء وجوده في قعر البئر ومعاينته للمكان، عثر المسعف على أربعة هياكل عظمية وكيس يحتوي هيكلًا خامسًا. وعلى الفور، أعلم المسعف زملاءه بما وجد، فاتصلوا بفصيلة الدَرَك في المنطقة لتأتي قوة منها لمعاينة المكان، والإشراف على إخراج الهياكل.

وتخمِّن القوى الأمنية أن تكون الهياكل قد أُلقيَت في البئر في بدايات الحرب الأهلية اللبنانية من القرن الماضي، وقد أخذت منها عيّنات الحمض النووي. لكنَّ هذا لا يعني أنَّ هويّات الهياكل ستُعرَف بسهولة، إذ إنَّ الدولة اللبنانية لا تملك بنكًا وطنيًا للحمض النووي، والأمر محصور بتقدُّم بعض المواطنين أنفسهم كأقارب مُفتَرَضين، ليجري عندها مقارنة أحماضهم

النووية بأحماض الهياكل المُكتَشَفة.

وستشمل التحقيقات التدقيق مع أصحاب العقار، ما إن يُعثَر عليهم. لكنَّ مصدرًا أمنيًا أوضح أنَّه من الصعب اتهامهم، خاصةً أنَّ الجريمة حدثت خلال الحرب الأهلية، عندما كانت الممتلكات العامَّة تُنتَهَك من دون علم أصحابها ورضاهم، ممَّا سيصعِّب العثور على الفاعلين، إلا إذا بيَّنَت التحقيقات بعض القرائن الدامغة.

وأضاف المصدر الأمني نفسه أنَّ المعلومات المتوفِّرة حتَّى الآن عن مالكي العقار تفيد بأنَّهم هجروا المشاع في ثمانينيات القرن الماضي، قبل أن تتعاقب على احتلاله أكثر من عائلة مهجَّرة، وتتَّخذ قوات الجيش اللبناني من المبنى الواقع فيه ثكنةً لها، نظرًا لإشرافه الاستراتيجي على العاصمة والقرى المحيطة.

صُحُف الأيام المقبلة: حادث ساسين

قال شهود عيان إنّهم شاهدوا المواطن خ. ل. يقود سيارته في ساحة ساسين، قبل أن تندفع السيّارة وتصطدم بمقدمة تاكسي صودف وقوفه إلى جانب الطريق. وهُرِع المارة ومُلّاك المحالّ إلى السيّارة، ليجدوا خ. ل. فاقد الوعي، فأخرجوه، ونقلوه إلى مستشفى رزق القريبة. وبعد الكشف عليه، تبيّن أنّه مات قبل وصوله بنوبة قلبية.

وأفاد مصدر أمني أنّ المرجّح أن تكون النوبة القلبية قد انتابت المواطن خ. ل. وهو يقود السيّارة، ممّا أدّى إلى فقدانه السيطرة عليها. وتابع المصدر أنّ سائق التاكسي قد أصيب بجروح طفيفة ونُقِل إلى مستشفى أوتيل ديو، داعيًا أهل المواطن خ. ل. أن يتقدّموا لتسلّم جثته من مستشفى رزق.

الطريق إلى عاليه

اتّصل روجيه بخالد، وقال إنّه سيمرُّ عليه ليتّجها معًا إلى ذلك المطعم الجبلي في عاليه. على الطريق السريع، حدّق خالد في أنوار أعمدة الكهرباء وهو يستمع إلى الراديو. تقوقع في المقعد الأمامي، وانزلق نحو الأسفل. مع هبوط جسمه، صار يركّز نظره على لمبات الأعمدة على يمينه. تلاحقَت الأضواء برتابة. ثمّ فجأة، انكسر الإيقاع. لمبة منطفئة. قبل أن تعود الأنوار لتتتابع، أو تنقطع بلوحات إعلان، أو تنطفئ كليًا.

لم يشعر خالد بالنعاس، أو بصداع أو غثيان، بل أخذ يستعيد الأشياء في رأسه بوضوح أكثر. وكعادته، سأله روجيه ثلاث مرات من وراء المقود إن كان قد نام. ردَّ خالد في المرَّة الأولى، وفي المرَّة الثانية، ثمَّ تجاهل السؤال في المرَّة الثالثة، فدسَّ روجيه أسطوانة مدمجة، وأمضيا ما تبقى من الطريق مع أغاني عبد الوهاب.

الطريق إلى عاليه أقل زحمة في الشتاء. أصحاب المطعم لا يعتبرون الموسم موسمهم، لكنهم باتوا يعرفون الرجلين، ويرحّبون بهما كلما جاءا، ويفسحون لسيارتهما موقفًا في ركن مسقوف خلف المطعم.

إلى جانب طاولتهما، كان المطر يطرق الشبابيك. أكثَرَ روجيه من الحديث، فيما قصر خالد إجاباته على جمل مقتضبة وإيماءات رأس.

كم مرَّة سأله روجيه عن بيروت والعمل؟

كم مرَّة، قبل أن يذكر أمامه اسم سهى؟

راديو السيَّارة: مبادرة تقنين

أطلقَت بلديات عدة في محافظة جبل لبنان مبادرة لمؤازرة وزارة الطاقة اللبنانية. وأعلن رؤساء البلديات في مؤتمر صحافي عقد في دارة بلدية بعبدا أنَّهم سيلجأون إلى التقنين في الأنوار العامة. وبدلًا من إضاءة كل أنوار أعمدة الكهرباء على الطرقات، فإنَّهم سيعمدون إلى إضاءة نصف عددها فقط.

وردًّا على أسئلة صحافيين حول مدى خطورة هذه الخطوة، وتعريضها حياة السائقين اللبنانيين للخطر، انبرى أحد اعضاء بلدية صوفر، معرِّفًا عن نفسه بأنَّه مهندس كهربائي، وشرح أنَّ عدد أعمدة الكهرباء المضاء عادةً يفوق الحاجة، وأنَّ المسافات الفاصلة بين الأعمدة المتتالية الموزّعة على الطرقات قصيرة للغاية. وأضاف المهندس "عمود إي عمود لأ"، شارحًا أنَّ هذا لن يؤثر سلبًا على الإطلاق على الرؤية على الطرقات أثناء الليل، مستشهدًا بتجربة

قامت بها البلدية في شارع فرعي من شوارع صوفر.

وتابع المهندس قائلًا إنَّ من شأن هذه الخطوة تخفيف الحمل والعبء عن معامل الكهرباء، وصرف الطاقة في موضعها الأصلي، أي في البيوت، خاصةً مع حاجة المواطنين إلى التدفئة في فصل الشتاء الحالي، الذي بدأ قاسيًا، مقارنةً بالأعوام الماضية، حيث يُتوقَّع أن تزداد قسوته مع توقع وصول عاصفة ثلجية أخرى الأسبوع القادم.

كلام روجيه

في كلامه، حاول روجيه أن يردم صمتًا متوقَّعًا من رجل انفصل للتو عن زوجته، حبِّ حياته، لكنَّ تكرار المواضيع صعَّب الأمر، ورغم ثقته بأنَّ خالد يحفظ آراءه، لكنه لا يستطيع التوقف عن تكرارها. لا خيار آخر لديه، وخالد لم يُبدِ له أيَّ انزعاج.

عندما استنفد الحديث عن العمل، وعن بيروت التي تزداد فيها الزحمة نهارًا بعد نهار، سأله عن سهى.

"ما عم نِحكي"، أجابه خالد بحزم.

كاد روجيه يعتذر، ثم قرر تمرير الوقت بمناقشة بعض هراء السياسة اليومي غير الضارِّ، وانتهى به الأمر رافعًا هاتفه، ومستغرقًا في لمس الشاشة، قبل أن يستلَّه منه خالد، ويسأله عن كلمة الدخول، موضحًا أنَّه يريد تفقُّد أخبار البلد، فهو لم يتابعها منذ مدَّة. بدت تلك الحركة غريبة من خالد، لكنَّ روجيه ذكر له أرقام الدخول فحسب، وتركه يفعل ما يريد.

ما لم يقله خالد

"مْبلا. شِفتا. مبارح. كنت نازل ع مطعم بأسواق بيروت. جيت لإقطع. لقيتا

واقفة عم تتطلّع على واجهة محل. كان محل مجوهرات. عرفتا من ضهرا. ومن شعرا. أو يِمكن من شكل جسمها. ما بعرف كيف عرفتا. عم بحكي عن أول لحظة. اللحظة اللي دغري بتعرف فيها العالم. بس هيي ما شافتني. ضلّت فترة دايرة ضهرا وعم تتطلّع ع الواجهة، وضليت أنا واقف بمطرحي عم إتطلّع فيها من ورا. وبعدين كمّلِت طريقا، وفاتِت بقلب الأسواق. ورجعت أنا. ما حبّيت إلحقا.

وما تغدّيت. هيداك النهار، ما تغدّيت".

ثلاثة اتصالات

مضى أسبوعان على تركه الشقّة لسهى. أسبوعان لم يكفياه بعد ليعتاد مساحة الإستديو الصغيرة.

في الأيام الأربعة عشر الماضية، اتّصل خالد بسهى من هاتف الإستديو الثابت ثلاث مرّات.

المرّة الأولى كانت نهار الأربعاء، بعد مرور يومَيْن على انتقاله.

المرّة الثانية كانت نهار الأحد من الأسبوع الأول.

والمرّة الثالثة والأخيرة كانت نهار الإثنين من الأسبوع الثاني.

في الاتصالات الثلاثة، كان بإمكان خالد أن يقيس فترات الصمت الطاغية في أحاديثهما. كان السكوت فائضًا. كثُرَت الإجابات التي تقطع أيَّ كلام تالٍ. لم يكونا كذلك يومًا. حتّى في أصعب المراحل، لم يبلغا هذا الحد من الافتعال. خمسة أعوام من العلاقة بنشواها، ومللها، ومشاكلها، وعاديّاتها، لم ينقطع فيها يومًا الكلام.

"إنتي منيحة؟"، سأل خالد سهى في الاتّصال الأول، وهو يذكر العنوان ويصف الشارع الذي تقع فيه البناية. سمعٍ منها همهمة، فتابع يعلك أرقام هاتف الإستديو رقمًا رقمًا، كأنّه يأمل في مطّ فترة المحادثة. "قيّدتيه؟".

"معي رقم السليولير"، قالت وأنهَت المكالمة.

"شو في ما في؟"، سألها في الاتِّصال الثاني. "رواق"، أجابَته.

"بدِّك نشرب قهوة بكرة؟".

"عجقة"، قالت متأفِّفة.

"أنا بجي لعندك"، قال وانتظرها لتردَّ.

"خالد... بحكيك بعدين... بحكيك بعدين"، قالت اسمه لأول مرَّة ثم قطعت الاتصال.

أما الاتِّصال الثالث فردَّت عليه وهي تتثاءب.

"فيَّقتِك من النوم؟"، سألها.

"كانْ لازم فيـــق"، أجابَته. لم تقل "كان" و"لازم" بوضوح. لكنَّ خالد فهم الكلمتيْن، فهو يستوعب كلامها المعتاد المبهم في الصباح، عندما تكون على الحافة بين النوم والوعي.

لا يذكر خالد ما قاله في الاتِّصال الثالث، لكنه يتذكَّر أنَّها كانت ترد على كل أسئلته وكلامه بـ"إممم". وقف أمام باب الشرفة الصغيرة الزَجاجي. قالت سهى "إممم" أخرى، فسكت لدقائق طويلة سمع فيها تنفُّسه. انهمر المطر بخفَّة في الخارج. حدَّق في الرذاذ. ترك الخط ميتًا لدقيقة لم تجهد سهى نفسها فيها لتقول شيئًا، فأنهى هو الاتصال هذه المرَّة، ومن دون أن يودِّعها.

الطريق إلى ساسين

كان يمشي في شارع منزله متَّجهًا إلى المول، عندما زعقَت وراءه سيَّارة إسعاف. تراجع خالد مفسحًا لها المجال. مشى خطوتيْن، ثم انتبه إلى أنَّه صار على الرصيف، فخرج من جديد إلى الشارع، وتابع سيره. وصلت السيَّارة أعلى الطريق. ضوَّى ضوؤها في عينيه، فاختلط بلون الغروب المحيط، ثم أكملَت طريقها واختفَت.

تابع مشيه صعودًا حتّى استوَت الأرض. وصل إلى أحد الشوارع المؤدية إلى ساحة ساسين. هناك، توقّف قليلًا، انحنى واضعًا يديه على ركبتَيْه. كان يلهث. تسارعَت دقات قلبه حتّى خُيِّل إليه أنّها تخرج من صدره. "باك شي؟"، مرَّ شابٌّ وسأله. ردَّ خالد بحركة من يده اليمنى ورأسه أنَّ كل شيء على ما يرام.

ظلَّ منحنيًا لدقائق، ولمّا هدأت ضربات قلبه، أحسَّ بالعرق على جبهته وعنقه. كان قميصه مبتلًّا. رفع وجهه، ووجد كل شيء غريبًا. كأنَّ ما مضى من الوقت، وهو منحنٍ، تعدّى الدقائق المعدودة. كأنّه نزل في مدينة غريبة لم يعتَدْ ألوانها.

مشى الناس ببطء حوله كأنهم يسبحون. كانوا كلّما وصلوا قربه، رمقوه بنظرات غاضبة ثمّ تخطّوه. شخصًا إثر آخر، تكرَّرت النظرات، وصار خالد يشعر أنّه مستهدَف. حجب نظره بساعديه وأغمض عينيه. بالغ هذه المرّة في إغماضهما لعلّه يطرد الهجوم، وعندما فتحهما من جديد، وجد بلاط الرصيف أمامه، وشعر بيد تربِّت على كتفه.

اعتدل واقفًا. نظر حوله فرأى ساحة ساسين على طبيعتها. كيف انتقل من الشارع الفرعي إلى هنا، لا يعرف. نظر إلى الشاب، ومن ساعة المعصم، عرفه. الشاب نفسه.

"باك شي؟ موجوع؟"، كرَّر الشاب سؤاله.

"منيح. أنا منيح. ميرسي. ميرسي"، أجابه خالد.

أسرع الخطى وترك الشاب خلفه. مرَّ أمام سلسلة متراصّة من محلات للساندويشات السريعة، توقّف أمام محلٍّ فلافل قديم، كان الزبائن فيه يأكلون ساندويشات لُفّت بأوراق جرائد. قطع الطريق إلى الجهة المقابلة، وما إن وصل إلى الرصيف الآخر، حتّى اندفعت سيارة مسرعة باتجاه مسرب السوديكو واصطدمت بسيارة تاكسي.

لكنّه لم ينظر خلفه، ولم يركّز في الضجّة حوله. كان يريد الوصول إلى المول فقط.

صحيفة الفلافل: إعلان

فُقِدَت جانيت الخوري زوجة ضرغام الصليبي في الطريق بين سوق الغرب وبيروت منذ الثلاثاء الفائت. يُرجى ممَّن يعرف عنها شيئًا الاتصال بزوجها السيد ضرغام على رقم الهاتف التالي... وله جائزة.

الاتّصال الثاني

صعدت سهى إلى السيَّارة في كاراج منزلها. كانت الساعة تقارب الثالثة ظهرًا. وجدَت سيارة تقطع عليها الطريق، فترجَّلَت، واتجهت إلى الإنترفون، وأعلمت جارها صاحب السيَّارة أنَّها تودُّ الخروج، ثمَّ عادَت. حاولت تشغيل المحرك، لكنَّه أبى الاستجابة. كرَّرَت محاولتها فلم تنجح. انتظرَت دقيقة، ثم أعادَت المحاولة لمرَّة ثالثة، فدارت السيَّارة، واندلع صوت المذيعة في البرنامج الإذاعي. أرادَت إطفاء الراديو بالانتقال إلى خاصية البلوتوث، لكن هاتفها لم يشبك مع نظام السيَّارة. بحثت عن الهاتف، فلم تجده. نظرت مليًّا في الأرض وفي جانبَي الكرسيِّ، فلم تعثر على شيء. كان الجار في هذه اللحظة، يخرج من باب البناية. سلَّم عليها برفع يده وأومأ برأسه. ترجَّلَت سهى، واتجهت نحوه مسرعة وسألته إن كان يستطيع الانتظار لتعود إلى شقتها من أجل غرض نسيَتْه. ردَّ الجار بلطف، فأعلمها أنَّه سينتظرها في السيَّارة، وقال: "خلِّي سيَّارتك دايرة".

كان المصعد ينتظرها. ما إن حاولت فتح بابه حتَّى رأته يعود صعودًا. انتظرته دقيقة، ثم قرَّرَت أن تصعد الدرج. وصلَت إلى الطابق الرابع لاهثةً. فتحَت باب الشقَّة، ودخلت محاولةً أن تتذكر بسرعة أين وضعت الهاتف. استقبلها تايغر بموائه الاستقبالي المعتاد. تفقَّدَت سهى أولًا غرفة الجلوس، ونظرَت إلى الطاولة والكنبة ومنضدة التلفاز، ثمَّ انتقلت إلى غرفتها.

عند العتبة، نقّلَت نظرها من السرير إلى المنضدتين الصغيرتين حوله، وطاولة المرآة، ثم اقتربَت من حمام الغرفة. لحق القط بها وصعد إلى المغسلة وماء، ففتحَت له سهى الحنفية، ثم خرجَت مسرعةً باتّجاه المطبخ.

هناك، وجدَت الهاتف قرب صحن الكورنفليكس الذي لم تُكمِل أكله. رمت ما تبقّى في الصحن في برميل القمامة، ووضعته في المجلى. حملت الهاتف، وأسرعت عائدة إلى باب المنزل، وخرجت، وأقفلت الباب. تذكّرت أنّها تركت الحنفية مفتوحة لتايغر، فعادت أدراجها، وسكّرت الحنفية، وقفلَت عائدة. تبعها القط، فأغلقت الباب في وجهه، ونزلت الدرج مسرعة.

لوَّحَت شاكرةً لجارها وصعدت إلى سيارتها. وضعت الهاتف على المقعد، وانطلقت. كان البرنامج الإذاعي قد انتهى وظهرت أغنية جديدة. تخطّت سيارة الجار، ووصلَت إلى زاروب المدخل. كادت تلتفت إلى اليمين لكنّ دراجة ظهرت فجأة، فداسَت على المكابح بسرعة، وتوقفت تلتقط أنفاسها.

رنّ هاتفها. شبكته مع بلوتوث السيَّارة، وأغلقت نافذتها، ثمّ أجابت.

كان خالد.

- شو في ما في؟
- رواق.

التفّت بسيارتها، فلاحظت أنّ تجمهرًا من الشباب يغلق آخر الشارع. نظرت إلى ساعة السيَّارة، ثمّ في المرآة الخلفية. وجدت الشارع قد ازدحم بالسيارات وراءها، ولم تجد مهربًا من أن تمضي إلى الأمام باتجاه الزحمة...

واصل خالد الكلام.

- بدِّك نشرب قهوة بكرة؟
- عجقة.

قالت سهى، بلهجة متأفِّفة. ردَّ خالد بجملة أخرى لم تعد تتذكّرها. نظرت سهى مرّة أخرى في المرآة. كانت أبواق السيارات تزعق، والسائقون قد

فتحوا أبوابهم وخرجوا ليتبيّنوا ما يحدث.

مرَّ فتى على موتوسيكل صغير بجانبها، ودقَّ على نافذتها وهو يصرخ: "مات... مات..."

"خالد... بحكيك بعدين... بحكيك بعدين"، أنهت المكالمة، ونزلت من سيارتها، ومشت باتجاه الشباب.

راديو السيّارة: أصدقائي

"لازم كلّْنا نوقف حد بعض. العالم كلن بيحسدونا عاللي عنا ياه. هاي حقيقة، يا أصدقائي. كل مين بيجي لهون ما بيصدِّق كيف منحكي هيك ع بلدنا. ما بيصدِّق كيف المحلات بتضلّا فاتحة للصبح. ما بيصدِّق الطقس الحلو. ولك حتّى بالشتي، بيقلّك، إنُّو هيدا شتي، مش متل عنا. عندو يعني. اللي عم حاول قولو، أصدقائي، إنُّو ما تخجلو بحالكن. ما تخجلو ببلدكن. نحنا عنا بلد حلو كتير. وقد ما الأمور خربِت بيضل حلو. فكرو فيها شوي، بتلاقوها مظبوطة. كم مرّة الواحد منا سبّ وقرف هوّي علقان بالعجقة، وبعدين نسي كل شي عشيّة لمّا شرب كاس مع رفقاتو؟ هيدا مثل بسيط. مثل واحد بس. وفي غيرو أمثلة كتير. أصدقائي، منتابع حديثنا بس حَ بلِّش آخد كم اتصال منكن وشوف شو عندكن تقولولنا ياه. آلو؟"

مع موظّف الأمن

أخذت سهى تستجدي موظف الأمن ليسمح لها بالدخول. قالت له إنّها لا تستطيع تفويت موعد تقديم أوراق الفيزا، وإنّ عليها السفر قبل موعد محدَّد، وإنّها تأخَّرَت رغمًا عنها، فأجابها أنّ آخرين قد وصلوا في مواعيدهم. صارت سهى تتحدث أكثر. رَوَتْ كيف مات الولد فجأة، وكيف اضطُرَّت لحمله

في سيّارتها إلى المستشفى، وكيف أوصلوه إلى الطوارئ، وكيف طلبوا المال هناك، فجمع الحاضرون مبلغًا لم يكفِ كدفعة مسبقة، فاضطرّت إلى استخدام بطاقتها المصرفيّة، وكيف اتّضح أنّ الولد لم يمتْ، بل كان يعاني من اختناق رئوي حاد، وكيف نقلوه إلى غرفة العناية المركّزة.

نظر الموظف إليها نظرة استغراب، وهي تستفيض في التبريرات التي رآها غير مقنعة، وصار يمعن في تجاهلها. كانت سهى قد وصلت إلى حافة البكاء حين مرّت موظّفة أخرى، واستفهمَت عن سبب المشادّة. ردّ موظّف الأمن قائلًا إنّ الآنسة تأخرت على موعدها ما يقرب الساعة. نظرت السيدة إلى وجه سهى الهلع، ثمّ طلبت من الموظّف إدخالها على مسؤوليتها.

شكرت سهى السيدة وهي ترافقها للداخل، فسألتها الأخيرة إن كانت بخير.

سهى نفسها لم تكن تعرف الإجابة.

راديو جار خالد: مشادّة

حدثت مشادّة بين وزيرَي الإعلامِ والصحة في برنامج "كلام مسؤول" التلفزيوني مع الزميل جان سالم. وبدأت المشادّة بعد فتح الهواء أمام اتصالات من المواطنين يسألون فيها عن حالات موت فجائية حدثت في أحيائهم وأحياء أقرباء لهم، مشدّدين على أنّ تكرُّر الحالات يتعدّى احتمال الصدفة. وعقّب وزير الإعلام على اتصالات المشاهدين بالقول: "لازم نسأل زميلنا وزير الصحة"، وقد اتصل وزير الصحة بعدها نافيًا الموضوع جملةً وتفصيلًا، شارحًا أنّ الحالات التي حُصِرت في مستشفيات العاصمة لا تتجاوز أصابع اليد الواحدة، وهي حالات متفاوتة وفردية. واستهجن الوزير وجود اتصالات هاتفية منظمة عن موضوع صحي في حلقة لا تتناول موضوع الصحة، فما كان من الزميل سالم إلا أن اعترض على هذا التلميح، ليردّ الوزير "ماشي

الحال". ثمَّ تابع رده معيبًا على وزير الإعلام تملُّصه بهذه الطريقة، مذكِّرًا إياه بالتضامن الوزاري المتَّفَق عليه، حتَّى "لو بتنا على مقربة من إقرار القانون الانتخابي"، على حد قول الوزير. وكان أن اشتعلَت المشادَّة فورًا بين الوزيرين تخلَّلتها اتهامات بالفساد والعمالة، ما اضطرَّ الزميل سالم إلى الدخول في فاصل إعلاني، ليعلن من بعده أنَّ الحلقة المقبلة ستستضيف وزير الصحة لإعطائه حق الرد، ويتابع الحلقة مع وزير الإعلام كأنَّ شيئًا لم يكن، سائلًا إياه عن برامج المنجِّمين التي استفحل انتشارها في الآونة الأخيرة.

الاتِّصال الثالث

في الاتِّصال الثالث، ردَّت سهى على خالد بين النوم واليقظة. اعتدلت في سريرها، جاءها شعور الغثيان، فكتمته. قامت إلى الحمَّام، ورفعَت غطاء الكرسي، وجلست. نظرت إلى السمَّاعة وهي نصف نائمة. ضغطَت على زر الـ (Mute)، وأخذت تتبوَّل. حدَّقت في أرض الحمام، ولاحظَت أنَّها المرَّة الأولى التي تنتبه فيها للشكل الذي تتَّخذه البلاطات. بقيَت تنظر إلى الأرض حتَّى نسيَتْ وجود خالد معها على الخط. وعندما انتبهت لسكوته، أخذت تتحدَّث. لكنَّ صمته استمر. وعندما قالت: "خالد؟" لتتفقَّد ما إذا كان لا يزال معها، سمعت زمور انقطاع الخط.

انتبهت عندها إلى أنَّها لم توقف تفعيل زرِّ الـ (Mute).

راديو جار خالد: الغاز

تقدَّم عدد من النواب بطلب رفع الحصانة عن النائب سالم القاروط إثر تصريحاته التلفزيونية الأخيرة المتعلقة بحوادث الموت الفجائية التي تردَّد تكرار حدوثها في الآونة الأخيرة في شوارع العاصمة بيروت.

وظهر النائب قاروط في وقت الذروة المسائي في أحد أشهر البرامج التلفزيونية السياسية عارضًا خريطة مفصلة لبيروت شارحًا أنّها تظهر انتشار حوادث الموت حاصرًا إياها بالقسم الغربي من بيروت، الأمر الذي عدّه مقدّم البرنامج، الإعلامي جان سالم، استدرارًا عاطفيًّا خطيرًا لفئة من الناس من أجل أغراض انتخابية. وذكر الإعلامي عدة أسماء قال إنَّه استقاها من أخبار صحافية لأشخاص ماتوا في أحياء ببيروت الشرقية، فردَّ النائب القاروط بعرض جدول بالأسماء التي ذكرها سالم، مبيِّنًا أماكن إقامتهم التي تقع كلُّها في بيروت الغربية، ومفرِّقًا بين المكان الذي حدث فيه الموت وبين محلِّ إقامة الشخص الميت. وواصل النائب القاروط شرح نظريته، مذكِّرًا بظهور سيارات مبيدات في شوارع بيروت الغربية يوميًّا قبالة المغيب. وقال النائب إنَّه إذا كان ظهور هذه السيَّارات معهودًا لأهل المدينة في أيام الصيف، فإنَّه من غير المفهوم ظهورها في أيام الشتاء القارس، خاصةً أنّها غير تابعة للبلدية ولا أحد يعرف من وراءها.

وختم النائب كلامه موجِّهًا سؤالًا للحكومة: "ما الذي تفعله سيارات الغاز في أحياء بيروت؟ ما هو هذا الغاز؟ وماذا تريدون من أهل بيروت الغربيَّة؟".

وقد تلقى البرنامج بعدها مجموعة من الاتصالات الغاضبة، بعضها جاء مؤيدًا للنائب القاروط، وبعضها الآخر عارض كلامه ووصل إلى حدِّ الفخر المناطقي والشتم الطائفي.

وقرر الزميل جان سالم التوقف عن تلقِّي الاتصالات الهاتفية، وفضَّل إكمال الحلقة من دونها، وذلك درءًا للفتنة، على حد قوله.

حلم ما قبل الاتصال الثالث

رأَت سمكًا في بطنها.

عندما نظرَتْ، وجدت بطنها شفافًا، مملوءًا بسمك ذهبيٍّ صغير. لم

تندهش لهذه الرؤية. كأنها كانت تعرف، أو رأتْ السمك من قبل. لمَّا تفحَّصَت جلستها أكثر، اكتشفت أنَّها جالسة على حصاة كبيرة، أنَّها في الماء، وأنَّها تتنفَّس بلا جهد. لم يكن بطنها فقط شفافًا. كان جسمها كله. لظرت حولها، وتابعت بعينيها سربًا من أسماك مختلفة الأنواع يسبح حولها. مدَّت يدها ناحية الأسماك لتلمسها فلم تستطع الوصول إليها.

عادت بنظرها إلى بطنها. وضعت كفَّيْها عليه. ضغطت برفق، فخرجت سمكتان ذهبيَّتان منه وصعدتا لتقفا قبالة وجهها، قبل أن تغادرا مبتعدتيْن. ضغطت أكثر، فصعدت أسماك أكثر، ثمَّ خرج السمك كله، وأحاط بها حاجبًا عنها الرؤية، ثمَّ حملها السرب ومشى بها.

تكلَّمَت سهى، أو حاولت أن تتكلَّم، لكنَّها لم تكن قادرة على سماع صوتها. كان يضيع قبل أن يحدث.

نظرتِ أمامها فلم تجد إلا الماء.

ظنَّت أنَّها في المحيط.

لم تعرف أنَّها في أكواريوم.

المدينة قد تغرق

صحا خالد عند الفجر على صوت الرعد. أراد التوجه إلى الحمَّام. قام فارتطمت قدمه بأشياء تركها على الأرض. لم يحفظ المكان بعد. عند عودته من الحمَّام، سمع طرقًا آتيًا من ناحية الشرفة. عاد إلى سريره. لكن النعاس كان قد اختفى نهائيًّا. لم يجد نفسه إلا واقفًا عند باب الشرفة، يفتحه. دخل الهواء الغرفة وطيَّر بعض الأوراق على الأرض، فخرج إلى الشرفة مسرعًا وأغلق وراءه الباب.

في الشرفة، وجد سطلًا بلاستيكيًّا تُحرِّكه الريح فيضرب بالجدار. حمله ووضعه في الزاوية، وأثقله بحجر رفعه عن البالوعة، ثمَّ وقف هناك ينظر إلى

المطر يخفُّ ويشتدُّ، يسرع ويبطئ. كانت شرفات البنايات حوله فارغة من الناس. لمع البرق متبوعًا بالصوت العظيم. مدَّ كفه اليمنى وشعر بقوة الماء المنهمر على جلده. عرف هذه القوة. القوة نفسها التي باغته بها المطر في شهرِ عسله مع سهى في موريشوس.

فكر خالد أنَّ المدينة قد تغرق الآن.

راديو جار خالد: تنبُّؤات

ملأت تصريحات لمنجِّمين ومتنبِّئين لبنانيين قنوات تلفزيونية لبنانية مختلفة. وبعد أن انحصرَت هذه التوقعات بليالي رأس السنة، صار لكل شاشة من الشاشات اللبنانية منجِّمها الذي يظهر دوريًّا ليدلي بتوقعاته عن الأوضاع العامة.

والمشترك بين تصريحات المنجمين اللبنانيين قتامتها بالنسبة إلى الوضع اللبناني بالرغم من عدم إفصاحها عن الكثير من التفاصيل. فرالف غالي مثلاً حذَّر من أنَّ "الماء سيغمر بيروت" رافضًا أن يؤكِّد ما إذا كان يتنبأ بتسونامي على السواحل اللبنانية أم أنَّه يقصد شيئًا آخر. بدورها أعلنت سيِّدة الإلهامات الأكثر شهرةً نايلة عبد الحميد على شاشة أخرى أنَّها ترى "الأموات يعودون، والأحياء يذهبون". وذهب المنجِّم المعروف باسم حليم على شاشة أخرى أبعد، بالقول إنَّ لبنان سيشهد سلسلة من الانفجارات داعيًا إلى الحذر من عمال النظافة والورَش، ووضعهم تحت المراقبة.

وقد قامت إذاعتنا بجولة في الشوارع، واستطلعَت آراء المواطنين حول هذه الظاهرة:

مواطن ١: "الله أعلم. ان شا الله لأ. إنُّو شو بدِّي قلِّك. إن شا الله لأ".

مواطن ٢: "والله عم يصير أسوأ من اللي عم يقولو عنُّو. إنُّو يشدُّولي حالن شوي، ويشتغلو ع حالهن أكتر من هيك. أنا عندي هون صبي

بالمحل. هيديك المرّة عملنا قعدة، وقلي أكتر. وكلُّو صار ع فكرة. أحمد؟ وينوّي أحمد. عيّطولو. قوم يا وائل. قوم نط عيِّط لأحمد قلُّو بدنا ياه يعطي تصريح".

مواطن ٣: "ما في حدا بدُّو خير لهالبلد. أنا عم قلِّك. ما حدا. سجّلي عندك. لعبة أمم هيدي".

مواطن ٤: "هني هيك قالوا؟ (...) ميّ ح تغرق بيروت؟ ما هيّاها بيروت عم تطوف مع كل شتوة. شو الجديد؟ (...) أموات بدن يرجعوا، قالوا؟ شو فيلم زومبي هوّي؟ وَحّدو الله يا عمّي".

المسّاحات

صمت الراديو بعدما دسّ روجيه أسطوانة مدمجة. انسابَت موسيقى كلاسيكيّة خافتة من مكبرات السيّارة. سألت سهى روجيه عن عمله، فردَّ وهو مشغول بهاتفه: "منيح". سألَته عن لينا. "منيح"، أجاب من جديد ثمَّ استدرك:

– منيحة... منيحة... بتسلِّم عليكي!

– وَيْنا ما عم تبيِّن؟

– عندها (campaign) جديد لوزارة الداخلية. وفي برنامج جديد مبلّش بعد كم يوم. هالكين ربّا.

– وزارة الداخلية؟

– اي...

– مش ع بنا بس ح تشتغل برامج بالمحطة؟

– ...

– روجيه!

أعاد روجيه هاتفه إلى جيبه واعتذر: "Sorry، الشغل ما بيخلص. كل الوقت إيميلات. شو كنّا عم نحكي؟".

تأفَّفت سهى ولم ترد. شتمَتْ أحد سائقي التاكسي قربها، وتخطَّته. ثمَّ لم تلبث أن تجاورت السيارتان من جديد. لكنَّ سهى لم تنتبه. كانت تركِّز في أحمر الإشارة الضوئية. إلا أنَّ يدًا امتدَّت من سيارة التاكسي، ودقَّت على شباكها. فتحت سهى الشباك لترى ما يريده الراكب، فقال لها إنَّ سائق التاكسي يريد التحدث معها.

خفضَت سهى رأسها لترى السائق.

"مين معلِّمك سواقة إنتِ؟"، سألها.

"Sorry؟"، ردَّت سهى.

"مين راميكن علينا بالشارع هيك؟"، تابع السائق.

بدا الراكب محرجًا وحاول تهدئة السائق، وكذلك فعل روجيه فأمسك بسهى التي أخذت شتائمها تتطاير منها وهي تحاول فتح الباب.

انطلقت زمامير السيارات وراء السيارتيْن. كانت الإشارة قد صارت خضراء. أغلقت سهى الباب، وانطلقت تقود بسرعة مهولة وهي تشتم البلد ورجاله. وبعد دقائق، وجدت نفسها على الكورنيش توقف سيارتها في أول مساحة فارغة، وتشد مكابح اليد بعنف.

نظر إليها روجيه من دون أن يتكلم. كانت سهى تركِّز في المساحة الضيقة أمامها، ثمَّ التفتت ومدَّت يدها إلى المقعد الخلفي محاولة أن تصل إلى علبة المحارم فأخفقت بسبب حزام أمانها المقفل.

"روقي"، قال لها روجيه.

نهض من كرسيه والتقط العلبة. سحب منها محرمتيْن وأعطاها إياهما، فشكرته من دون أن ترفع صوتها.

– شو في؟

لم تُجبه. كان المطر ينهمر خفيفًا.

أدارت سهى المساحات، ونظرت إلى الزجاج يغبِّشه المطر، وتمسحه المسَّاحة.

يغبِّشه المطر وتمسحه المسَّاحة.
يغبِّشه المطر وتمسحه المسَّاحة...

راديو جار خالد: طرد العربات

ما إنْ توقَّف هطول المطر حتَّى عادت عربات الغاز للظهور في أحياء بيروت، ممَّا جعل بعض المواطنين الذين كانوا قد تابعوا مقابلة النائب القاروط التلفزيونية أو سمعوا عن مضمونها، يتجَّمعون عند النواصي في أكثر من منطقة. ولم تهدأ الجموع قبل أن تحاصر العربات وتطردها من المناطق التي دخلَتْها، ثمَّ احتفل البعض بما سمُّوه حماية أبناء المناطق من خطر الموت بإطلاق النار في الهواء ابتهاجًا، فيما اكتفى آخرون بإطلاق الألعاب النارية.

وأفيد عن موت شخصيْن وجرح أربعة برصاص مبتهج. وقام النائب القاروط بزيارة منطقتي المصابين والقتيلين معزِّيًا، وما إن غادر المنزل الثاني حتَّى حمله الشباب على الأكتاف وهتفوا بحياته.

وقد اختفت عربات الغاز تمامًا من شوارع العاصمة، ولم يبلِّغ أحد عن رؤية عربة مشابهة بعدها.

سترى أشياء جديدة

حضن خالد رأسه بيدَيْه، ونعَّم نظره دقائقَ في سواد القهوة أمامه، ثمَّ رفع رأسه، فرأى في الشارع أناسًا يحتمون بالمظلات ويمشون ببطء غير آبهين تحت المطر، وآخرين بمعاطف يركضون على الرصيف تحت مظلات واجهات المحلات.

دقَّق في ساعة هاتفه. كان قد وصل متأخرًا، ولا يرى لينا في أي مكان. هل انتظرته ثمَّ رحلت؟

رفع الفنجان ورشف منه، فأحسَّ للحظة بالكافيين يسري في جسمه.

نظر حوله. وجد رجلًا عجوزًا يقرأ صحيفة، امرأة متبرجة تقرأ مجلة فنية، خادمة أجنبية سوداء البشرة تعتني وحدها بولد مخدوميها، وعلى مبعدةٍ وقف نادل واجم.

فكَّر أنَّ ما يراه غاية في التنميط، خاف من حقيقة اجتماع كل هذه المنمَّطات في مكان واحد، أمامه ومعه. ماذا يمثل هو الآن في هذه الباقة؟ مطلَّق يعاني من الكآبة وفقدان الشهية؟

حاول طرد خاطره بالنظر في كتابه، فطالعته جملة "نظرتُ حولي فرأيتُ أشياء جديدة". أغلق الكتاب ووضعه على الطاولة. شرب رشفة أخرى من القهوة. ثم رشفة ثانية، وثالثة... حتَّى أنهى ما في الفنجان. وقبل أن يعيده، حدَّق في التّفل الباقي فيه، فغيَّر رأيه، وقَلَبَهُ فوق الصحن.

رفع نظره، فوجد النادل الواجم يتَّجه إلى طاولة عجوز الصحيفة حاملًا قالب جاتوه بشمع مضاء، ولحق به رفاقه النُّدُل يغنون ويصفقون على أنغام أغنية الاحتفال بالميلاد التي صدحت من مكبِّرات الصوت.

كان قد انضمَّ للعجوز امرأة كبيرة في السن لائقة الملبس بدَا أنَّها زوجته، وأخذت تغني مع الذين يغنُّون. وفي خضمِّ الاحتفال، حملت الخادمة الطفل، ووقفت قرب رجل بدا لبنانيًا، فأحاطها الأخير بذراعه كما يفعل المتزوجون. أما المرأة المتبرجة فجالسها شاب أصغر منها بالعمر، وانهمكت بإزالة مكياجها أمام مرآة صغيرة نصبتها أمامها على الطاولة، ولم يمضِ دقيقة قبل أن يأخذ الشاب القطنة منها، ويمسح لها وجهها بشكل غير احترافي، فأخذت المرأة تضحك.

استمرَّت أغنية الميلاد متبوعة بأغانٍ أخرى. أطفأ العجوز الشمعات. أخذ الرجل الطفل من المرأة داكنة البشرة. ضحك الشاب وقبَّل وجه المرأة الملوَّث ببقايا الماكياج. عانق الرجل العجوز زوجته. وعاد النُّدُل إلى الداخل وهم يتضاحكون.

بدا المشهد لخالد مصطنعًا. لا يعرف إن كانت جملة الكتاب هي السبب في شعوره، أم أنَّها الطفرة الإيقاعية التي هزَّت سكون مشهده السابق، أم هو حكمه الأول على المشهد. لكن كل هذه الأفكار خفَتَت ما إن جلسَتِ امرأة على مقربة منه.

عرفها.

ريم، صديقة سهى.

وقف النادل الواجم أمام طاولته يسأله إن كان باستطاعته أخذ الفنجان، لكنَّ خالد لم يكن منتبهًا لوجوده. كان نظره راحلًا باتجاه ريم. كان لا يرى سواها، وكان لا يسمع.

– إستاذ؟

صحيفة عجوز المقهى: الخوف؟

ما الذي أخاف منه؟ سألتُ نفسي أكثر من مرة. فكَّرتِ بأشياء أقرف منها. قذارة، قرون استشعار مخلوق غريب، حشرات، حيوانات... لكني وجدتُ الخوف هذا خوفًا مضبوطًا أساسه القرف لا الخطر. انتقلتُ أفكِّر في كل ما حولي هنا. الحرب الماضية. ما يحدث اليوم، وما ننتظر جميعًا حدوثه، ولا يحدث. فكَّرتُ في شكل الحرب المقبلة، ثمَّ قلتُ إنَّ هذا عامل خارجي مسرف في التعقيد يطال الكل. ليس فريدًا، ولا يمسُّني وحدي.

هل أخاف إذًا منِّي، ممَّا في داخلي؟

أحيانًا، أقعد أفكر كيف تمشي السوائل في أوعيتي الداخلية، وفي احتمال أن يتوقف الجريان. أفزع من ورم يبدأ فيَّ، ويتضخَّم ثمَّ ينتشر، حتَّى لا أعود أنا. ويحيلني هذا الخوف إلى خوف آخر لديَّ من الوقت. هل أستخدم الزمن كما يجب؟ يُقال إنَّ الزمن يكون في الأحلام مطَّاطًا، وقد يكون خليطًا من أزمنة متوازية. فيما لو صحَّ ذلك، لِمَ أرتعب إذاً من

ذلك الحلم المتكرِّر، الذي أشعر فيه أنِّي أهوي من عَلٍ من دون أن أتبين من أين أسقط، وإلى أين أسقط؟ وكيف أشعر بالاختناق كلّ مرة رغم درايتي المسبقة بمضمون الحلم الممل؟ هل أخاف الإعادات؟ أينتهي كل شيء، وأعود بعدها لأعيد كل خياراتي على النمط الذي خبرته؟

صرصور في المطبخ

وقع وعاء الكورنفليكس من يدها على الأرض. لم تتمالك نفسها عندما رأَته بالقرب من البالوعة، عند عتبة باب شرفة المطبخ. مشى الصرصور مسافة بسيطة. توقَّف للحظة، ثمَّ اتَّجه بسرعة إلى الزاوية. "خالد!"، صرخت سهى قبل أن تتذكَّر أنَّها وحيدة في المنزل. ظهر تايغر عند مدخل المطبخ، وانطلق نحو فريسته. "تايغر"، صرخت سهى من جديد، هذه المرَّة لتثني القط عن إتمام مهمته، لكنَّها كانت قد تأخرت.

كان الصرصور قد صار بين مخالب القط الذي أخذ يلاعبه لدقائق، قبل أن يفقد اهتمامه به، ويقوم بالإجهاز عليه.

تلفاز سهى: الغزو

ما إن انحسرت العاصفة التي تضرب لبنان، حتَّى أفيد عن ظهور غريب مبالغ به للحشرات في بيوت المدن الساحليَّة على طول الشاطئ. وفيما أعلن مسؤولون في شركات التنظيفات عدم ملاحظة أي وضع غير عادي لدى جمع القمامة من مستوعبات الشوارع، استمرَّ المواطنون بالشكوى في البرامج الإذاعية، وترافق ذلك مع ازدياد الطلب بشكل ملحوظ على مبيدات الحشرات التي نفدت من بعض المحالّ، ممَّا دعا لجنة مستوردي هذه البضائع إلى عقد مؤتمر صحافي، طالبةً من الناس الاقتصاد في استخدام

المبيدات، وشارحةً أنَّ التجار طلبوا كميات إضافية من عبوات مبيدات الحشرات من دول مجاورة لتلبية الطلب المتزايد عليها.

وسرعان ما شهدت الصُحُف والقنوات التلفزيونية زيادة ملحوظة في عرض إعلانات المبيدات وشركات الرَّش. ولم تقتصر الإعلانات على وسائل الإعلام المعهودة، إذ فوجئ المواطنون بإعلانات مبيدات الصراصير والحشرات تطغى على طول الطريق الساحلي بين بيروت والشمال، ومع الزحمة المستفحلة وجد المواطنون أنفسهم محاصرين في سياراتهم وسط صور الصراصير والحشرات العملاقة المتكررة على نحو غير اعتيادي على جانبَيِ الطريق.

ليش؟

كانت تضع سماعات الأذنين، وتلمس بإصبعها شاشة هاتفها حين اقترب خالد منها، وسألها:

– ريم؟

نزعت السمَّاعات من أذنها، ووضعت الهاتف على الطاولة، ووقفت مرتبكة ترحِّب به. بدَت للحظة أنَّها لم تعرفه. ولاحظ خالد ارتباكها الممتزج بشيء من الانزعاج، كأنَّه قطع عليها خلوتها، فأعاد تذكيرها باسمه.

– خالد!

– أكيد، أكيد. كنت شاردة شوي... كيفَك؟

– منيح. إنتي منيحة؟

– رواق. ماشي الحال. منيحة، منيحة!

– شو الأخبار؟

– تفضل اقعود.

لكنَّه كان قد جلس قبل أن تنهي جملتها الأخيرة، فرشفَت من فنجان

الشاي أمامها، وابتسمت له. ساد الصمت للحظة، فوقف خالد وقال:

– رح روح.

– ليش بدَّك تروح؟ خلِّيك. ما عندي شي من هلَّأ لساعة. بعدين بدِّي إرجع عالمكتب. شو بتشرب؟

– شاي.

نهض الرجل العجوز قربهما وغادر مع زوجته، بعد أن ترك وراءه بقشيشًا، فأنزل النادل الواجم جريدة كان يقرأ فيها، وجاء ينظِّف الطاولة.

جلس خالد من جديد.

سماعات الأذنيْن: الزحمة

شهدت مداخل بيروت الجنوبية زحمة خانقة صبيحة هذا اليوم من دون أن يُعرَف السبب، ممَّا جعل المواطنين يعلقون لساعات عدة في سياراتهم. وفيما نفت وزارات عدة مسؤوليتها عن الزحمة الطارئة، ومنها وزارتا الأشغال والداخلية، ترجَّل الكثير من المواطنين من سياراتهم، وتركوها في وسط الشوارع، واتَّجه بعضهم لشرب القهوة في مقاهٍ قريبة، الأمر الذي فاقم الزحمة حتَّى منتصف اليوم.

أما المواطنون المحاصَرون في الأوتوسترادات والأنفاق، فقد كانوا محظوظين، إذ قامت بعض المقاهي والمطاعم بإرسال دراجات نارية محمَّلة بالطعام والشراب لمن يرغب. وأفيد عن شجار تطوَّر إلى عراك بالأيدي بين سائقي دراجات المطاعم في نفق المطار على مدخل بيروت الجنوبي نتيجة التنافس على الزبائن.

وقد فتحت إذاعتنا الهواء لتلقِّي اتصالات المواطنين للتبليغ عن أماكن الزحام ليتفاداها مواطنون آخرون، وهذه عيِّنة من الاتصالات الناقمة التي تلقيناها...

حديث القهوة والشاي

أخبرَته عن عملها. تؤجِّر في شركة "ليوناردو" اللافتات الإعلانية على الطرقات. الزبون اللبناني يعشق إعلان الطريق، وهم، شركات إعلان وأصحاب آرمات، إضافةً إلى المحلات التي تشغل جوانب الطرقات، أكثر من يستفيد من الزحمة المتفاقمة في البلد.

– وبيّاعي جلد الغزال والإشيا الصينية اللي بْيِبرمو بين السيارات كمان بيستفيدو!

– وشو آخر الإعلانات اللي طلعت ع الآرمات عندكن؟

– صراصير!

– نعم؟

– إعلانات مبيدات حشرات وشركات رشّ. مش عم نلحّق!

ضحكت فابتسم لها، ثمَّ أخبرها عن عمله. في البداية، وجد صعوبة في الشرح، كأنَّه نسي كيف يستفيض، ثم انساب الكلام فجأة. تحدَّث عن التقارير التي يترجمها للمنظمات الدولية والمحلية غير الحكومية، فأبدَت تفاجؤها، إذ كانت تعتقد أنَّه يعمل في قسم التحقيقات في الصحيفة. ردَّ عليها أنَّه ترك "من زمان". "مش من زمان كتير"، استدرك. "من لمَّا تركنا أنا وسهى"، أردف. رشفت ريم من فنجانها ولم تعلِّق. تابع خالد يشرح عن العمل الجديد الذي حصل عليه بعلاقات خاصة مع معارف كان يتواصل معهم منذ عمله في الجريدة. العمل يناسبه. ليس كثيرًا، ولا يضطره للخروج من البيت. كاد يستطرد عن مضمون ما يترجمه، لكنه انتبه أنَّه لم يحدِّثها عن البيت، فانتقل يُخبرها عن الإستديو الذي استأجره، وموقعه، وفراغه رغم صغر حجمه من الأثاث.

"بس فيه الإشيا الضرورية"، قال.

وصل شاي خالد.

كان يتطرّق إلى تفاصيل كثيرة بلا توقف. فكّر إنْ كان من اللائق سردها أمامها. لم يلتقِ بها كثيرًا عندما كان زوجًا لسهى. رآها في ثلاث مناسبات جامعة أو أربع، ولم تتخطَّ حواراتهما السلام واللياقات الاجتماعية. خالد خارج هذه اللقاءات لم يختلط إطلاقًا بأصدقاء وصديقات سهى، وهي فعلَت مثله مع قليلٍ من أصدقائه الذين أخذوا يتناقصون بمرور الأشهر. كان نوعًا من اتفاقٍ غير مخطَّط له. وحدهما روجيه ولينا ظلّا صديقيْهما المشتركيْن. منذ أيام الجامعة كانا الاستثناء، وبقيَا.

لم يعرف خالد أين يضع كيس الشاي. ارتبك، فقرّبت ريم صحنها إليه. أخبرَته أنَّ نكهة الشاي هذه ستعجبه. لم تجرِّب بعد كل النكهات المتوفّرة. جرَّبَت منها سبع نكهات فقط. ردَّ خالد أنَّه (coffee guy)، فقالت ريم إنَّها لا تحب القهوة، وعندما تضطرُّ لشربها، تشربها بلا متعة. أضافَت أنَّها تترك طعمًا كريهًا في الفم، تكرهه، حتَّى إنَّها تحمل معها فرشاة ومعجون أسنانها في الحقيبة، لتتخلص من الطعم كلما اضطرَّت لشربها.

"بهالشنطة؟"، سألها.

"بدّك تشوف؟"، أجابَت.

"إيه!"، قال.

فتحَت شنطتها وأخرجت الفرشاة والمعجون.

"وشو كمان فيه؟"، سأل.

"بس هالأدّ بقدر طلّع"، أجابت مبتسمة وأعادت شنطتها إلى الكرسي بجانبها.

أخبرها عن جارة دقَّت بابه من يومين لتسأله إن كان يملك بعضًا من السكّر. ردَّت ريم أنَّ هذه حيلة قديمة يلجأ إليها سكّان البنايات لتفقُّد شقق الجيران الجدد. أخبرَته عن جار يرفض الصعود معها في المصعد كلما انتظراه معًا متذرِّعًا كل مرَّة بانتظار أحد. أخبرها عن الناطور الذي يناديه "دكتور"، ردَّت أنَّ تعظيم اللقب يكبِّر البقشيش. أخبرته عن زملائها في

العمل يتفرجون على البرامج الاجتماعية في الليلة السابقة لنهار العمل، وأنّهم يردّدون ما قيل فيه وما حدث أثناء جلسات القهوة. ردَّ أنّها تخترع ذريعة أخرى لتكره القهوة، ولا ينبغي أصلًا ربط فكرة شرب القهوة بالنميمة أو الحصول على الكافيين، فكرَّرَت ريم أنّها تشرب القهوة فقط لتطرد النعاس.

قال إنَّ عليها شرب القهوة لا من أجل الكافيين، فأجابته أنَّ ذلك صعب.

"وبتضلّك نعسانة؟"، سألها.

"هاي قصة طويلة"، قالت.

خرج النادل الواجم من المقهى خالعًا ملابس العمل، وودَّع زملاءه، واتّجه إلى الشارع. كان قد استبدل وجوم العمل بابتسامة انتهاء الدوام.

صحيفة النادل: شبكة السلامة

بيروت – نقلت أكثر من صحيفة لبنانية صدرت اليوم عن جمعية "شبكة السلامة" لرصد وحماية المباني والمعمار اللبناني أنَّ "ما يفوق خمسة عشر ألف مبنى قديم مهدَّد بالانهيار في مختلف المناطق اللبنانية في حال حدوث زلزال بقوة ٦ إلى ٧ درجات".

وأشارت تقديرات الجمعية الإحصائية إلى أنَّ أكثر من تسعة آلاف مبنى في محافظة بيروت معرَّضة للانهيار، بينما تتوزَّع المباني الباقية على مختلف المناطق اللبنانية خارج العاصمة.

ويأتي هذا التصريح عقب حالة الهلع التي انتشرت بين المواطنين وفي الإعلام، بعد الهزات الأرضية الخفيفة التي ضربت البلد في الأيام الأخيرة، وظهور أكثر من منجِّم على الشاشات للتحذير من حدوث زلزال عنيف شبيه بزلزال ١٩٥٦ الذي هدم سنتها ما يقرب من ستة آلاف منزل.

صوت راديو الجار

عاد خالد من المول، ورمى جسده على السرير. نام أربع ساعات متواصلة، لم يحلم فيها بشيء. كان نومًا خالصًا متخلِّصًا من أيِّ رؤيا.

عندما صحا، وجد نفسه كما رمى نفسه. أحسَّ بحلقه جافًّا. هي المرَّة الأولى منذ زمن التي يشعر فيها بالعطش عند الاستيقاظ. عزا الجفاف الذي يشعر به إلى حديثه مع ريم، فهو لم يتحدَّث مع أحد منذ أسابيع. حتَّى روجيه لم يعد يراه. ولم يكن يشعر بالرغبة في الرد على اتصالاته التي ظلَّت تصل على هاتفه من غير أن يجيب عليها.

لكنَّ روجيه سيتفهَّم. لا مشكلة في روجيه. المشكلة فيه هو.

قام وفتح البراد وأخذ قنينة ماء باردة، وأغلقه. شرب، ثمَّ حمل القنِّينة والصحيفة، وخطا باتجاه الشرفة. سمع الصوت المعتاد العميق لراديو جاره. وعندما فتح الباب، علا مستوى الصوت قليلًا. جلس على الكرسي، ووضع القنِّينة أمامه على الطاولة، وفتح الجريدة وأخذ يقرأ فيها.

بعد دقائق، علا صوت راديو الجار بشكل واضح، حتَّى ظنَّه خالد صادرًا من شرفته. سمع فتحة باب، فأنزل الجريدة، ليجد نفسه قبالة شخص عجوز على كرسي مُدَوْلَب في الشرفة المواجهة، فوقف خالد لاشعوريًا كأنَّه يستقبل أحدًا.

كان العجوز يضع في جانب كرسيه الراديو الذي ينبعث منه موجز الأخبار، وفي حضنه صينية عليها إبريق شاي وكوب من زجاج.

تقدَّم الكرسي نحو الطاولة. حملت اليدان المرتجفتان الصينيَّة ووضعتها عليها. رفع العجوز الراديو القديم ووضعه في حضنه، وأخذ يغيِّر الإبرة من محطة إلى أخرى.

كل هذا، وخالد لم يجلس. كان اهتمامه مصوَّبًا على اليدَيْن اللتيْن توقَّفتا عن تغيير الإبرة فجأة.

رفع خالد نظره. وجد العجوز ينظر إليه، فاستدرك: "مرحبا".
"بتشرب شاي؟"، سأله العجوز.

صحيفة عجوز المقهى: فيبروميالجيا

كشف تقرير صادر عن تجمُّع جمعيات صحية غير حكومية عن انتشار مطّرد لمرض "الفيبروميالجيا" في لبنان. وشرح ياسر حلبي، مدير إحدى الجمعيات المشاركة في إعداد التقرير، عن أعراض المرض قائلًا إنَّها تتضمن آلامًا مزمنة تنتشر في الجسم مصحوبة بالتعب الحاد واضطرابات النوم والتوتر والاكتئاب، أما السبب المؤدِّي إلى مرض كهذا، فيمكن حصره بالتعرض لصدمات جسدية ونفسية متكررة.

وأضاف السيد حلبي أنَّ "الفيبروميالجيا" عصيٌّ على التوصيف أحيانًا، وكثير من الاطباء لا يشخصونه إلا بعد استبعاد كافة التفسيرات المحتملة الأخرى للأعراض المرضية.

وتنعكس حالة ضياع التشخيص هذه لدى المرضى أنفسهم الذي يلجأون إلى العقاقير المختلفة لتسكين أوجاعهم أو لتهدئة واستقرار أمزجتهم. ومن العقاقير التي يشتريها مرضى هذا المرض أملًا منهم في استقرار حالاتهم "كونكور" لدقات القلب السريعة، و"بروزاك" للاكتئاب والقلق، و"سيروكال" لاستقرار المزاج، و"كزاناكس" لتهدئة الأعصاب.

وفي ردٍّ على التقرير، نفَتْ وزارة الصحة الأخبار المتداولة عن انتشار "الفيبروميالجيا" مؤكدة أنَّ الأخبار المتناقلة هذه تستند إلى اجتهادات إحصائية غير دقيقة تستفيد من الوضع الدقيق الذي يعاني منه البلد في ظل الظروف الإقليمية المحيطة التي يعرفها الجميع.

النوم في الوطى

في غرفة، في بيت بمنطقة وطى المصيطبة، وضعت ريم حقيبتها على الكنبة وجلست. ظهرت أمها، وسألتْها: "بحطللك تاكلي، ماما؟ بكي شي يا حبيبتي؟".

أغمضت ريم عينيها، وشعرت بيد أمها على جبينها تتحسَّس حرارتها، ثمَّ قامت، واتَّجهت إلى غرفتها. أسندت ظهرها إلى الباب المغلق. كانت عتمة المغيب طاغية في الشرفة. شلحت ملابسها بسرعة. وتركت الجينز والبلوزة على الأرض. التقطت البيجاما المتروكة على السرير، ولبستها. أحسَّت بالراحة قليلًا. جلست أمام المرآة، خلعت حلقها، ونظرت إلى وجهها.

قامت إلى الحمام. نظَّفت وجهها بقطنة ومنتج تنظيف بشرة خاص. ثم غسلت وجهها بالماء البارد، وعادت إلى سريرها. رفعت الغطاء واندسَّت تحته.

سمعت أصواتًا عالية من الشارع، فنهضت. فتحت باب الشرفة، واتَّكأت على الدرابزين تتفرج على عراك حول موقف سيارة. فعل مثلها الكثيرون في الشرفات المحيطة، ومنهم من أخذ يتبادل الأحاديث أو يساهم في اقتراح الحلول من عليائه. بقيت ريم في الشرفة حوالى عشر دقائق، ثمَّ شعرَت أنَّ الحوار في الخناقة قد بدأ يعيد نفسه وصار مملًا، فآثرت العودة إلى السرير.

هذه المرَّة، شعرت بالبرد. ضمَّت رجليها محاولةً طرد الشعور، وأغمضت عينيها، لكنها لم تستطع النوم.

فكَّرت في لقائها بخالد. لم تُخبره عن شجارها مع مديرها. انساقت تجيب عن أسئلته وتُخرج منها مواضيع أخرى تتحدَّث فيها، وأشعرها ذلك كلُّه بالراحة بعد الانزعاج الذي خلَّفته عندها خناقة المكتب.

فكَّرت بالصدفة التي جعلتها تلتقيه بعد طلب سهى منها، الذي ستبدأ تنفيذه الأسبوع المقبل، واستعادت كيف رافقها خالد إلى خارج المقهى، والتقط في طريقه جريدة تركها زبون على طاولة مجاورة.

"بدك تشوف شو في بقلبا كمان؟"، سألته.

"لأ. أنا بحبْ بس جمِّع الإشيا"، ردَّ.

"بحب جمِّع اللحظات"، أضاف مستطردًا كأنَّه يصحِّح لنفسه.

نظرت ريم إلى هاتفها. تنقَّلت بين الأيقونات. تفتح أولى وتتفحَّص مضمونها، ثم تغلقها وتذهب إلى أيقونة أخرى، ثم إلى ثالثة. وصلت إلى أيقونة الاتصال، ففتحتها وأخذت تقلِّب في الأسماء، وتوقَّفت عند اسم خالد.

كبست على اسمه، لترى رقمه الذي أعطاها إياه قبل مغادرتها للمقهى. بلمسة خاطئة منها، وجدت الهاتف يتصل به. أنهت ريم الاتصال مسرعة. "Shit"، قالت. نهضت من سريرها متوترة، وأخذت تتجول في الغرفة وتعيد النظر إلى الهاتف، ثمَّ قرَّرت إطفاءه، ففتحت الدرج قرب السرير، ورمته فيه.

حدَّقَت من بعد بالدُرْج، كأنَّها تعاين جريمة ملقاة فيه. خرجت من الغرفة، وعادت لتجلس على كنبة غرفة الجلوس، والتقطت الريموت كونترول.

من مكانها، رأت والديْها في الشرفة يشربان الشاي.

قلَّبَت القنوات بشكل سريع. لفتت نظرها الجريدة الملقاة على الكنبة المجاورة، فحملتها ورجعت إلى سريرها، تاركة التلفاز مضاءً على نشرة أخبار.

كانت المرَّة الأولى منذ زمن التي تتعمَّق فيها بقراءة جريدة محلية باللغة العربية على هذا النحو. كانت تفتِّش عن شيء لا تعرف ماهيته، لكنَّها لم تجد أيَّ تفصيل يلفت النظر. وعندما وصلت إلى الصفحة الأخيرة، انتبهت

أنَّها قضت ما يقارب الساعتيْن وهي تقرأ.

رمت الجريدة على الأرض، وحاولت النوم من جديد. وبعد نصف ساعة من الفشل، أخرجت من الدرج ظرف دواء، أخذت منه حبتيْن وابتلعتهما، ثم عادت ورمت الظرف في الدرج قرب الهاتف المطفأ.

وضعت رأسها تحت المخدة.

مرَّت دقائق قليلة. وهذه المرَّة، نامت.

صحيفة الكنبة: مقابلة

– لِمَ هذا الاختلاف الصارخ في طريقة السرد عن فيلمك السابق؟

– في يوم ما منذ عامين، استيقظتُ ليلًا على غير عادة. فأنا من هؤلاء الذين ينامون باكرًا خارج أيام التصوير، وإذا ما ناموا لا يستيقظون إلا في الصباح. تلك الليلة، لمَّا صَحَوْتُ، كنتُ كأنِّي أتعرَّف على البيت للمرة الأولى. كان مختلفًا، ولم أكن أعرفه. أخذتُ أجول فيه من دون أن أضيء الأنوار، وذهلتُ كيف أنِّي أحفظ المسافات برغم أنِّي أرى الأشياء مختلفة ومبهمة وغريبة. فكرتُ وأنا أمشي بفكرة الفيلم الذي أكتبه. رحتُ وجئتُ في الرواق كثيرًا. أكثر من خمسين مرة. كان عندي قصة قوية جدًّا. كنت واثقًا من قوتها. كان يمكنني ببساطة أن أنقلها بأمانة. لكنِّي لم أرِدْ أن أكون مجرَّد ناقل لها. كان مزاج القصة على تضادٍّ تامٍّ مع خيار كهذا. كنت أكيدًا أنَّ النقل الكرونولوجي المعهود سيُضعف القصة، لا بل قد يسطِّحها ويجعلها مجرد قصة عادية أخرى. كنتُ أود أن أراها مبهمة، وأن أعرفها في الوقت نفسه. ورأيتُ أنَّه عليَّ، كي أفعل ذلك، إدخال تلك الأشياء التي تبدو مقحمة، ولكنَّها تبني ذاك المزاج الذي يبدو في لحظة غير محسوس، وفي لحظة أخرى طاغيًا. باختصار، وجدتُ أنَّ نجاحي في رواية القصة على الشاشة، لا نقلها فقط، محكوم بشرط يترافق مع تلك الإقحامات:

عليّ تمزيق البنية القصصية وجعلها أشلاء. عليّ تشظيتها بمشوّشات تدخل القصة وترحل. تبدو في غير مكانها لوهلة، ثم تبدو في مكانها الطبيعي مع تتابع القصة. تظنُّها لا تضيف، ثم تعرف في لحظة تالية أنَّها تضيف، تضيف جدًّا، بل إنَّها ليست مشوِّشة على الإطلاق. كان ذلك ملائمًا. فحياتي حاليًّا مجموعة من المشوِّشات التي لم تعد تؤثِّر عليَّ. حياتي باتت تمامًا كالرواق في تلك الليلة. معروفة وغريبة. أتعثَّر فيها، ثم لا أعود أتعثَّر. حياتي تغيرت جذريًّا منذ الفيلم السابق. ربما أنا الذي لم أعد أنا.

اسمه ضرغام

كاد خالد أن يقرع الباب، إلَّا أنَّه انشقَّ بمجرد أنْ لمسته قبضته. انبعث من الداخل خيط نور خفيف، وترك أثره على أرضية الشقة وصولًا إلى بلاطات رواق الطابق حيث يقف. دخل فوجد الضوء منبعثًا من شمعة وُضِعَت في شمعدان رخيص على منضدة قريبة. كانت الغرفة مظلمة إلا من نور الشمعة وشاشة الكمبيوتر المستقرّ في زاوية الغرفة.

كان واضحًا، برغم الظلام، أنَّ شقة العجوز أوسع من شقته بكثير، وتحتوي على أكثر من غرفة. بيد أنَّ خالد لم يمضِ كثيرَ وقتٍ في تبيُّن المكان. كان يتّجه إلى ما ظنه باب الشرفة، ولمَّا رفع الستارة الداكنة، لم يجد بابًا وراءها. فهِمَ بعدها أنَّه فَقَدَ حسَّ الاتجاهات، وأنَّ تقطيع الشقَّة يختلف عن تقطيع شقته. وبعد أن فكَّر لدقيقة بالوجهة المحتملة التي يجب أن يسلكها، قرَّر دخول الغرفة الأخرى، ففتح بابها، ليجدَها مشعة بالضوء الداخل من الشرفة.

خرج ليجد العجوز جالسًا كما تركه حين دعاه لشرب الشاي معه. سلَّم عليه وجلس معرِّفًا عن نفسه، ففعل العجوز مثله، وقال: "ضرغام".

بدا الاسم غريبًا على سمع خالد. وضع هاتفه على الطاولة ثمَّ حدَّق في

شرفات المباني حوله. كان يراها من هذه الجهة للمرّة الأولى، واكتشف بنايات أخرى لا يراها من شرفته.

صبَّ ضرغام له الشاي، وهو يلاحظ شروده، وسأله: "كلو تمام؟ إلك زمان هون؟".

"أقل من شهرين"، أجاب خالد.

"كم ملعقة سكر؟"، سأل ضرغام.

"بلا سكر" أجاب خالد، وهو يقترب ليأخذ كوب الشاي من يد العجوز المرتجفة التي كانت تحاول رفع الكوب.

"بعرف. إسمي غريب شوي"، قال ضرغام وهو يرشف من كوبه.

وأضاف: "هلّأ بخبرك شو قصتو".

بينما كان ضرغام يخبر خالد بقصة اسمه، رنَّ هاتف الأخير قاطعًا الحديث، فاعتذر خالد، ونظر إلى شاشة الهاتف ليجد إشارةَ اتصالٍ من ريم.

دفتر يوميّات ريم

تختلف الأشياء عندما تنظر إليها من زاوية أخرى.

البارحة، مثلًا، لمّا دخلتُ إلى مكتب ألبير، وجدتُه منحنيًا على مكتبه، يكتب على ورقة. أعطى ظهره لي وهو يتحدَّث. طلب منّي، من غير أن يلتفت، إغلاق الباب ورائي. من مكان وقوفي، لاحظتُ مؤخرته الكبيرة. وفي انحناءته، كاد بنطاله الرسمي يتفتق. كان الأمر باعثًا على القرف.

ليست السمنة. كان لي أصدقاء سمينون. صاحبتُ بعضهم، ونمتُ مع بعضهم. أنا نفسي لا تنقصني كيلوغرامات زائدة في بطني وفخذيَّ. ليست السمنة على الإطلاق. لعله انعدام التناسق؟ أو لعله الإظهار المقصود منه لهذا الانعدام عن قصد أو جهل؟ لستُ أعرف. لكني أكيدة أنَّ الأمر

شخصي محض، يرتبط بهذا الشخص تحديدًا، وربما بي أيضًا.

أذكره عندما بدأ عمله مديرًا للشركة. لم يمضِ الكثير من الوقت قبل أن يتطبّع بطباع أهل هذا البلد. حتّى إنّه جاء مرة وأعاد أمامي تكرار كلام فصيل حزبي في مسألة عامة. فجعتُ حينها. فرنسي منعدم القدرات، لا يعرف شيئًا عن هراء هذه المنطقة، صار يتحدث على هذا النحو خلال أقل من شهر!

عند العتبة، أخذتُ أنظر إلى مؤخّرة ألبير. شعرتُ بالقرف، ولازمني الشعور طيلة النهار. زمليتان لي سألتاني إنْ كنتُ بخير. قالَتا لي إنَّ وجهي متصلب، وشفتيَّ مزمومتان، وفي جبهتي تجعُّدات لم تعتاداها. ذهبتُ إلى الحمام ونظرتُ. كانتا على حق. ما الذي يحدث معي؟ لِمَ كلُّ هذا الانزعاج والغضب؟ اكتشافي لكبر مؤخرته هو السبب، أم استعادتي لكلامه القديم؟ أم لأنَّ هذه المؤخّرة الكبيرة، ببساطة، نامَت فوقي أكثر من مرة، بموافقتي؟

الرقم غير متاح حاليًّا

وقف خالد قرب شاشة كمبيوتر ضرغام المظلمة محاولًا الاتصال بريم. امتدَّت يده بشكل لا إرادي إلى فأرة الكمبيوتر وحرَّكتها. سمع الرسالة الصوتية من شركة الاتصالات تُنبئه أنَّ الرقم الذي يطلبه خارج الخدمة. قرَّر الانتظار دقيقة، ومعاودة الاتصال. في وقفته، أخذ ينظر إلى زوايا الغرفة. لم تكن بائسة لكنَّ العتمة جعلَتها كذلك. بقي غير قادر على تمييز أشياء كثيرة فيها، ففكّر في البحث عن زرّ الإنارة، لكنه آثر إعادة الاتصال بريم أولًا. من جديد، استقبله المجيب الصوتي.

"استاذ خالد!"، أتاه صوت ضرغام مناديًا من الشرفة، فوضع هاتفه في جيبه، وعاد إلى العجوز.

شاشة الكمبيوتر: الهجوم

حذَّرت المديرية العامة لقوى الأمن الداخلي من فايروس شديد الخطورة أصاب ويصيب الأجهزة الالكترونية في لبنان من حواسيب وهواتف محمولة.

وأوضحت المديرية، في بيان رسمي صدر عنها يوم الأربعاء، أنَّ "مكتب مكافحة جرائم المعلوماتية وحماية الملكية الفكرية في وحدة الشرطة القضائية تحقَّق من قيام مقرصنين إلكترونيين ببثِّ فايروس شديد الخطورة إلى الأجهزة الواقعة في عدد من بلدان الشرق الاوسط، وتركَّز جزء كبير من الهجوم على الأجهزة المشغَّلة في نطاق الأراضي اللبنانية".

ولم توضح المديرية اسم هذا الفايروس أو أيَّ معلومات تفصيلية أخرى قد تؤدِّي إلى كشف هويته، ولم تُشِرْ إلى كيفية إصابة الأجهزة به. لكنَّ مصدرًا من داخل المديرية قال إنَّه "بواسطة الفايروس، يمكن للمقرصن تعطيل مهام نظام التشغيل وسحب معلومات مهمة من الجهاز".

وصرَّح مصدر نيابي أنَّ القرصنة أمنية بامتياز و"يمكن قراءتها في ظل الهجمة الشرسة التي يتعرض لها لبنان للحياد عن ثوابته المعروفة وإغراقه في المأساة التي تلف المشرق العربي والتي استطاعت الحكومة اللبنانية حتَّى الآن تفاديها". وتابع المصدر أنَّه "قد يكون من أهداف الهجوم إظهار لبنان في حالة العاجز تقنيًا عن حماية نفسه وعن مواكبة التطورات في المجالات التقنية".

تايغر والفقاعات

سرَحَت سهى في أشياء كثيرة والماء يغمر جسمها في البانيو. كانت الفقاعات تصعد فوقها حتَّى ارتفاعات قليلة وتفقع. هذا السائل غريب،

وغرابته لم تخفت رغم أنَّها تجرِّبه للمرة الثانية مذ أحضرته لها لينا من لندن. وهي تنظر إلى الفقاعات، لاحظت وقوف تايغر عند عتبة باب الحمام. كان واقفًا هناك بلا أدنى اكتراث. بدا لها تعبًا. جُنَّ في المرَّة الأولى لاستخدامها السائل، وصار يلاحق الفقاعات. لكنه الآن يكتفي بالوقوف والتحديق بها. ما إن نظرت سهى باتجاهه حتَّى غادر عتبة الحمام بصمت متجهًا نحو غرفة النوم. فكَّرت أن تقوم لترى ما به، لكنها كانت قد بدأَت تشعر براحة غريبة، وبتَنَمُّل في أطراف جسمها. أطبق عليها الارتخاء، وانخفض صوت التلفاز الآتي من غرفة الجلوس. بدأ السائل يعمل. ومن دون أن تدري لماذا، قرَّرت أن تهبط بوجهها تحت سطح الماء.

ما رأَته تحت الماء

فستان أبيض. لا. سكريُّ اللون. يبدو قديمًا. إلبسيه. العزف في الشارع. الغرباء ينظرون. طعام ملوَّن. ملوَّن كثيرًا. تخمة من الألوان تخِيف البصر. ذُق هذه. الغرباء يبتسمون. الشراشف البيضاء. الشراشف المرميَّة. الحب المتَّقد. صوت التلفاز. أين الريموت؟ الضحك. الموسيقى. الباب يدق. العربة تدخل. الموسيقى تعلو. كأسان من النبيذ الأبيض. كأسان أُخريان. كأسان أخيرتين. نعاس. السرير. الحبُّ غير الكامل. القيام. الهواء مرقِّصًا الستائر. النظر إلى الجسد النائم. الخروج إلى البحر. الرمل الحار يلفح باطن القدمين. البحص على الرمل الرطب يطبع آثارًا على قفا القدم. سلحفاة بحرية تحمي بيضها. "وينك؟" أُنظُر. سلاحف صغيرة تخرج من البيض. أُنظُر. صغيرة صغيرة جدًا. اليد وراء الظهر. العناق من الخلف. أُنظُر. لحظة الغروب الأخيرة. اكمشي الشعاع الأخير. يد تمتد. غاب الخط. حل السواد. أُنظُر. حفلة شاطئ. البيرة. الكثير من البيرة. العودة للغرفة. العناق. الحبُّ. التعب. النوم. الحلم. الفقاعات من جديد. فقاعة

تطير تلحق بها أخرى، تفترقان، تتقاربان، تفقعان. استيقاظ. شهقة. صعود فوق الماء. سعال.

أيُّ الفقاعتيْن أماتَت الأخرى؟

تلفاز سهى: عراك بالأيدي

"كانوا موَّتو بعض!".

بهذه الكلمات وصف نادل المطعم ما حدث ليل الجمعة الفائت بين وزيرِي الإعلام والطاقة. فعلى خلفية اللقاء التلفزيوني مع الإعلامي المشهور جان سالم، الذي تخلّله اشتباك لفظي بين الوزيريْن، استجدَّ العراك بينهما، وهذه المرَّة بالأيدي.

لكن كيف حدثت الواقعة؟

ليل الجمعة السبت، وأثناء وجود وزير الإعلام في مطعم "آلْ دينتي" في منطقة الأشرفية لتناول العشاء، فوجئ الحاضرون بوصول وزير الصحة مع مرافقيه الأمنيين إلى المكان. وما إن رأى وزيرُ الصحة وزيرَ الإعلام، حتَّى اتَّجه إلى طاولته للتحادث معه.

هنا، تفترق الروايات حول ما حدث بعدها. هناك من يقول إنَّ العراك بدأ حال وصول الوزير إلى الطاولة، وهناك من يقول إنَّه وقع بعد حديث بينهما تحوَّل إلى تلاسن كلامي، أما الرواية الأخيرة فتشرح أنَّ سبب العراك عائد إلى تلاسن كلامي بين مرافقي وزير الصحة وضيوف وزير الإعلام.

ولم يمرَّ وقت طويل حتَّى تحولت الملاسنة الكلامية إلى تضارب بالأيدي، قبل أن تسود حالة من الهرج والمرج في أنحاء المكان. ويوضح الفيديو المرفوع على موقع يوتيوب تحول المكان إلى فوضى كاملة مع إطلاق مرافقي أحد الوزيرين النار في السقف، وقيام مرافقي الوزير الآخر بالردِّ، ما أسقط ثريا بأذرع نحاسية من السقف وحطَّمها على إحدى

الطاولات من دون أن تصيب الحاضرين إصابات مباشرة.

وزير الإعلام لم يرد على أسئلتنا، ومكتبه الإعلامي أكّد في بيان أنَّ "الأخبار المتداولة حول العراك ليست أكثر من فقاعات إعلامية في بلد باتت السياسة فيه مفتَقَدة بسبب بؤسها وانعدام ابداعها"، من دون أن يتطرق للفيديو المرفوع على يوتيوب.

الرفض نفسه وُوجِهْنا به حينما حاولنا التحدث معِ وزير الصحة، واكتفى مكتبه الإعلامي بالإشارة إلى أنَّ المصابين سيُعالَجون على نفقة وزارة الصحة.

سأنتقم عندما تحين الفرصة

امتدَّ الحوض من أقصى اليمين إلى أقصى اليسار.

تساءلَت ريم كم تكلَّف ألبير ليُركِّب فيه هذا الوعاء الزجاجي الضخم. فكَّرَت أنَّ تكلفة التركيب ليست شيئًا يُذكَر أمام سعر السمكِ الغريب الذي يسبح فيه. هذا سمك من النوع الذي يحدِّق في الناظرين إليه، كأنَّه يقول لهم: "أراكم جميعًا، أعرفكم جميعًا، وسأنتقم منكم عندما تحين الفرصة".

ظلَّت تنظر في الأسماك وهي تسبح، حتَّى أحسَّت بيد ألبير تكشف الغطاء القطني، وتلمس فخذها. سحبت ريم الغطاء والتحفته وقامت من السرير. وقفت تتفحَّص محتويات الأكواريوم عن قرب. انقلب ألبير مستلقيًا على ظهره، وأخذ يراقبها. راحت تتلمَّس الحوض وهي تتتبَّع بأصابعها حركة السمك غير المبالي. بان ظهرها من تحت الغطاء، ثم وقع الغطاء عن كامل جسمها ولم تأبه، لكنَّ صوت ألبير الناشز الآتي من السرير خرق السكون.

– سمنتِ في منطقة الحوض منذ لقائنا الأول.

– ليس أكثر من مؤخرتك!

- أنا رجل.
- جميل. جملة جديدة علّمك إياها مخبولو هذا البلد!
- ردُّك المفضل!

مدَّ يده إلى علبة السجائر، أخرج سيجارة منها، وأخفى انتصابه بحركة اعتيادية من يده اليسرى. رمى الأطراف المحترقة من السيجارة في المنفضة التي وضعها فوق بطنه وسألها:

- أحبَبتِه؟ الأكواريوم؟
- السمك ينظر.
- يُخيَّل لكِ!
- ذاكرته قصيرة.
- كيف عرفتِ؟
- ينام بعينيْن مفتوحتيْن...
- عليك أن تتوقفي عن مشاهدة قناتَيِ الطبيعة والحيوانات!
- هل يحلم السمك؟

التفتَت إليه، لكنّه لم يجبها. لم يكن سؤالًا على أي حال. رنَّ هاتفها بالقرب منه، فحمله ونظر إلى اسم المتَّصل، ودعاها بنظرة أن تقترب لتردّ.

ثلاثة أيام قبل الرحيل

حضَّرَت سهى الشنطة قبل ثلاثة أيام من سفرها بلا سبب. قالت إنَّه الفراغ، ثمَّ قالت إنَّه البطء المفاجئ للزمن والمزاج العام الذي أصاب البلد وناسه.

"المزاج"، كلمة روجيه المفضلة. كلّما دسَّ لها أسطوانة موسيقى كلاسيكية في السيَّارة، ذكر الكلمة.

"هاي كَتَبَا موزارت بعمر... هاي تطوير للمقطوعة اللّي سمعناها المرّة الماضية... هاي كَتَبَا فلان لما كان معو حمّى... هاي ألفها هيداك بعد ما

ماتت مرته... هاي ضَلّ يسمع نغمتا براسو ولمّا كِملِت، عزفا ونوّتها ع الورق..."، كان يضيف شارحًا.

البارحة اعترفَت له: "كَا روجيه، أنا ما بسمع كلاسيك. شو باك نازل فيي!"

"بتصيري تسمعي"، رَدّ.

"يا خيي روح عند مرتَك، سمِّعها. شو بدّك فيي؟"، قالت مستنكرة.

"لينا؟ اللي بتعمل برامج منوّعات بدّا تسمع هول؟ شو بدّك يانا نتطلّق؟"، قال روجيه جملته ثمّ انتبه.

"يلعن أبوه هاللسان على أبو الكلاسيك!"، صرخ.

"عادي، عادي. تعوّدت"، ضحكَت.

وأضافت: "عالطلاق، مش ع لسانَك"، أكملت تضحك.

هل اعتادت فعلًا؟ يصعب أن تجزم سهى بذلك. مع روجيه، الذي تكاد تلتقيه يوميًا، تقول إنّها اعتادت. في لقائها بريم، استخدمت عبارة "هالوضع الجديد". هي تعرف أنّها حتّى لو اعتادت، فإنّها لن تستطيع النسيان.

كلما تنقّلَت في زوايا الشقّة، تأكّدَت أكثر أنّها ستفشل في صدّ الذكريات.

في المطبخ، في الدرفة الثانية من الخزانة العلوية، يقبع صحنه المفضل. استخدمته أخيرًا كصحن طعام لتايغر. لم تتعمّد ذلك. وضعته في المرّة الأولى بلا انتباه، وخرجت مسرعة إلى العمل. عندما عادت ورأت القط يأكل منه، بكت. فكّرت أن تغسله وتعيده إلى الخزانة لكنّ الأوان كان قد فات. كان الأمر يتعلّق بعدم انتباهها، لا بإصلاح ما حدث، ولمّا لم تكن تقوى على حمل الصحن من جديد، واصلت وضع طعام القط فيه.

تمرُّ في غرفة الجلوس، قرب الكنبة الصغيرة، حيث كان يجلس. تضع هاتفها على المنضدة حيث كان يترك كوبه. تجلس على الكنبة الطويلة،

حيث كانا يستلقيان، ويحضنها. تنظر إلى تايغر يقف في الزاوية التي اكتشفها حديثًا. هنا كان يُراكِمُ صحفه حتّى تستحيل عمودًا وصل مرّة إلى السقف!

أما مجموعة الأسطوانات ففي مكانها في الزاوية الأخرى. وما يُكثِر الاستماع إليه منها موضَّب في رفوف بمستوى تناول اليد. كلّما سمعَت أغنية من الأسطوانات، تذكَّرَت فشلها معه. كلّما انزلقَت يدَاها على بطنها تأكَّدَت من الفشل.

تقف سهى وراء باب الشرفة الخشبي، وتنظر من شبابيكه الزجاجية إلى الخارج.

كان خالد يفتح الباب ويخرج، ثم يتراجع إلى الوراء ويشدُّ الباب المشقوق نحوه بلا سبب، فينغلق الباب كليًّا ولا يعود يستطيع فتحه من الخارج. وعندما ينهي وقوفه، يعود وينقر نقرات إيقاعيَّة على الشبابيك، ثمَّ يقتنع أنَّ صوته صالح للغناء، فينطلق يغنّي غير آبه بنظرات عجائز الشرفات المحيطة به، حتّى تقوم من الكنبة، وتفتح له، وتسحبه إلى الداخل.

مرّة، اتّصل بها على هاتفها، وكانت في اجتماع عمل، ودعاها للقدوم سريعًا. ظنّت أنَّ حدثًا جللًا قد وقع، فسألته. "عِلْقِتْ عالبراندة. تعي افتحيلي!"، ردّ.

بعدما أخبرته برغبتها في الانفصال عنه، صار يُكثِر من الوقوف الصامت وراء شبابيك الباب. كانت تراه يرحل إلى عالم آخر، قبل أن يفتح الباب، ويخرج، ويتركه... مفتوحًا.

اليوم، فعلَت مثله. أطالت الوقوف وراء شبابيك الباب علّها ترى شيئًا لم تكن منتبهة له، لكنّها لم ترَ شيئًا جديدًا. خرجَت إلى الشرفة. كانت السماء الملبّدة تحمل رائحة غريبة، أشبه برائحة الحريق. خمَّنَت أنّهم يحرقون النفايات في مستوعبات أول الشارع. لم تكترث كثيرًا، وظلّت واقفة تحدّق في المساحة التي تفصل البنايات المجاورة عن بعضها. كان

الفضاء يزدحم بشبكة من الشرائط والأسلاك. هذا خط ستالايت، وهذا خط موتور، وذاك خط إنترفون داخلي...

اتّكأت على الدرابزين، وتفقّدت أصص الزرع التي علّقها خالد في بداية انتقالهما إلى هنا، وظلّ يعتني بها ويسقيها حتّى الأيام الأخيرة.

لم تَروِها منذ ترك الشقّة. عادت إلى الإنترفون وطلبت من الناطور الصعود إلى الشقّة.

"يا مدام. هيدول ميتين. وما ح يعيشو حتّى لو سْقِيناهُن"، قال لها العجوز.

"معليه أبو أحمد، اسقيهُن"، أمَرَته سهى وهي تشير إلى الزرع الأصفر الذابل.

مقدِّمة نشرة المساء: وحدة وطنيَّة

ليس جبل نفايات هذا الذي عرفته بيروت اليوم. ليس جبلًا محترقًا. البلد كله كان في السماء، غمامة سوداء أعْمَت النظر، ورائحة حريق زكمت الأنوف. هُرِعَت عربات الإطفاء تحاول إطفاء ما استطاعت إطفاءه. هرب السكان من البيوت حول الجبل. أصيب بعض الأطفال بالاختناق وحملهم ذووهم إلى المستشفيات القريبة. وقام من بقي من المواطنين في المنطقة بمساعدة الإطفائيين. ولمّا لم تؤدِّ جهودهم إلى أيِّ تقدم، انضمّت مروحيات الجيش ترفع الماء من البحر وترميه فوق الجبل، ثمّ التحق بالمروحيّات أصحاب خزانات الماء الخاصة في المناطق القريبة وأتوا بشاحناتهم للمساعدة.

لم يتوقّف المشهد هنا، فقد تابع اللبنانيون عبر الشاشات وصول عناصر حزبية من خلفيات متناحرة في السياسة إلى موقع الحدث. وساد الترقُّب للحظات، لكنَّ المفاجأة كانت أنَّ العناصر استبدلوا خراطيم الماء بأسلحتهم المعهودة، بإيعاز من قياداتهم إثر الاتصالات بينها، والتي نتج

عنها قرار بتنحية الخلافات السياسية مرحليًّا، والتنسيق معًا لمواجهة الحريق.

ورغم كل الجهود، لم تُحاصَر نار الجبل العائم، بل كان حجمها يتعاظم بمرور ساعات النهار، وكاد اللهب يلامس البيوت القريبة. ولولا أمر الطبيعة لكان الوضع تدهور إلى ما هو أسوأ، فقد أبَتِ السماء إلا أن تهدي هذا المشهد الوطني الجامع مطرًا انسكب غزيرًا وأطفأ النيران، ومعه جَزَعَ سكّان المنطقة.

اليوم، احترق جبلٌ من النفايات. لوّث السماء والبحر ورئات الأطفال والعجائز. لكن ما ينتظر هذا البلد أخطر. فكما الجبال الجليدية، لم نشهد من الجبل غير ثلثه الظاهر فوق سطح الماء. وبقي أكثر من ثُلثَيْه خبيئًا، لا نعرف متى يباغتنا، ويظهر، فهل تتفاجأ الدولة عندها من جديد؟

من الحقيبة إلى الخزانة

أطفأ خالد التلفاز قبل أن تبدأ المذيعة تلاوة مقدِّمة نشرة الأخبار.

اشترى التلفاز مع خزانة لملابسه. حطّت الخزانة على الجهة اليسرى من مكتبه الصغير، الذي لم يكن أكثر من طاولة عُلِّق فوقها على الحائط لوح بنيُّ اللون تناثرت عليه قصاصات صحافيّة، وقبع التلفاز في الجهة اليمنى على منضدة خشبية أعطتها لينا لروجيه، وأعطاها الأخير له.

قرَّر أخيرًا أن ينقل ثيابه من الشنطة التي تركها لأسابيع في الزاوية. روجيه في زيارته الأولى للاستديو، شهق عندما عرف أنّه ما زال ينتقي ملابسه من الشنطة واستنكر: "ليش محسِّسْنا إنك لاجئ؟".

كانت جملة غير موفَّقة من روجيه، كعادة ما يتلفَّظ به عندما يندهش أو يفرح أو يغضب. لكنَّه، على فوضى انتقائه لألفاظه، كان محقًّا بالمعنى الكامن وراء جمله. فكّر خالد أنَّ تصديق وَهْمِ الاستقرار في مكان جديد،

ولو أنَّه مقتنع بكونه مجرَّد وهم، يتطلَّب على الأقل أن يشتري بعض الأثاث للاستديو.

وهكذا رافق روجيه ليشتري خزانة...

لم ينتبه خالد يومًا للطريقة التي يُعرَض فيها الأثاث في المحلات. وجد عرض الأثاث فوضويًا في المحل الأول، ولم يقدر أن يلاحظ أي قطعة جديرة بالشراء. شعر بالتوتُّر، ولم يُرِحْهُ وجود روجيه إلى جانبه.

بعد قرارهما بالزواج، صحبَته سهى معها في زيارات شرفيَّة إلى محلات الأثاث. رافقها مرَّة ومرَّتين، ثم طلب منها أن تذهب وحدها، وقال إنَّه سيوافق سلفًا على أي قطعة تنتقيها. كانا يجتمعان فقط قبل نزولها لتحديد الأولويات والميزانية المتوفِّرة لمحتويات كل غرفة والقطع المطلوبة لملء المساحات، فإذا حدث أنْ فاق سعر قطعة توقعاتهما المتَّفَق عليها، أو إذا أحبَّت سهى قطعة ليست ضمن لائحة الأولويات، كانت تتَّصل به لتقنعه، وتُرسل له الصورة عبر الهاتف، حتَّى تحصل على موافقته. في النهاية، كان يقول نعم لكل خياراتها، ويُعيدان تحديث الميزانية.

لم تُرِدْ سهى أن تشتري خزانة. فالشقَّة احتوَتْ على غرفة صغيرة ملحقة بغرفة النوم بباب جرَّار، غرفة ملابس تحوي رفوفًا للملابس المطويَّة، وقضبانًا للملابس المعلَّقة. هذه من التفاصيل التي جعلت سهى تتمسَّك بشراء هذه الشقَّة تحديدًا، رغم بؤس الخدمات في البناية. غُرَفُ الملابس غير منتشرة في شقق بيروت المتواضعة. السمسار الذي باعهما البيت أخبرهما قصة الزوجة الأجنبية التي حوَّلَت الحمام الملحق بغرفة النوم الرئيسية إلى غرفة ملابس، وسحبَت مساحة من غرفة مجاورة لتجعلها حمَّامًا.

كان واضحًا من حماسة سهى أنَّ خالد سيحظى بمساحة محدودة من الغرفة لملابسه، وهذا ما حدث فعلًا. بدأ الأمر برفَّيْن وبعض الشَّمَّاعات للملابس التي يستخدمها، ورُحِّلَت ملابس الفصول الأخرى إلى خزانة

حائط في الغرفة الصغيرة، ثمَّ انتهى الأمر بأن صارت جميع ملابسه في خزانة الحائط.

لم يعد خالد يدخل غرفة الملابس، وحظيَت سهى بمملكتها الصغيرة.

"مش ح يمشي الحال"، قال خالد بعصبية وخرج مسرعًا من الغاليري من دون أن يشترِيَ شيئًا.

صُحُف لينا: رمزي مخطوف

بعد أيَّام من عرس الوحدة الوطنية أمام جبل النفايات المحترق، تعرَّض المواطن رمزي ح. للخطف بقوة السلاح من أمام منزله في شارع الماما في محلَّة المصيطبة، غرب بيروت. وقام مجهولون بنقله بسيارة إلى جهة مجهولة بعدما عصبوا عينيه بقطعة قماش، قبل أن يعيدوه صبيحة الأحد إلى المنطقة ذاتها.

وعُلِمَ أنَّ الخاطفين أطلقوا سراح رمزي لدى إعلامهم بطائفته وبانتمائه السياسي، وقد قاموا بعدها بالاعتذار منه قائلين إنَّهم اختطفوا الشخص الخطأ.

ولاحقًا، قام وزير الداخلية بزيارة المخطوف العائد في بيته، وألقى كلمة مختصرة بدأها بتهدئة الصحافيين الحاضرين في المكان بالقول: "مشي الحال... مشي الحال... هيَّاه قدامكن ما بوه شي..."

وشدَّد الوزير في كلمته على أهميَّة تعاون اللبنانيين جميعهم للعبور نحو الدولة، وعندما سُئِل عن تفشي عمليات الخطف والسلاح، أجاب محتدًّا أنَّ الوزارة تقوم بواجبها سائلًا مَنْ مِنَ اللبنانيين لا يملك سلاحًا في منزله. وقد انبرى أحد الصحافيين للوزير وأجابه: "أنا ما عندي سلاح"، فاستدرك الوزير قائلًا: "إنت أكيد لبناني؟ مش مخلَّط يعني؟".

ثمَّ ضحك الحاضرون.

تدخُّل لينا

وصلَت لينا تحمل صحفًا ومجلاتٍ وملفاتٍ لتجدَ روجيه واقفًا عند باب الغاليري.

"تأخرتي"، قال معاتبًا وقبّلها على خدِّها.

"لخلِّص قرف المونتاج. بدنا نسلِّم الحلقة الليلة. وَيْنو؟"، سألَت.

"جوَّة. إلنا ساعتين ونص عم نبرم ع محلات. ما عجبو شي. ليكي أنا ح فلّ. هلكْتْ. وأصلًا، تأخَّرْتْ ع الشغل"، ردّ.

قبل أن يذهب، حمَّلَته ما كانت تحمله، وقالت شيئًا عن سائق التاكسي، وعن ضرورة أن يترك لها السيَّارة في المرَّة المقبلة. انطلق روجيه حاملًا الملفات والصحف والمجلات، وقطع الطريق باتجاه السيَّارة، ثمَّ التفت ليُعلمها أنَّه سيتَّصل بها عندما ينتهي من العمل، لكنَّها كانت قد دخلت الغاليري.

ابتسمَت لينا لخالد عندما رآَته، وفتحَت يديْها تعانقه. وضع خالد رأسه على كتفها وأبقاه لدقيقة. لم ترد لينا مقاطعته، لكنها عندما انتبهَت لنظرات رواد المعرض إليهما، أنهَت العناق بأن ربتَت بيديها على ظهره، وأبعدَت جسمها إلى الوراء.

أمسك خالد أنفه بإصبعَيْ كفه الأيمن وحدَّق إلى الأرض وقال شاعرًا بالحرج:

– بَعَت وراكي وفلّ؟

– هلأ إنت من كل عقلَك روجيه كان ح يقدر يساعدك بهالشغلة؟

– لا. هوي ما خصُّو. أنا...

– إنت شو؟

– أنا ما منيح...

– طيب، شو رأيك نروح نشرب فنجان قهوة، قبل ما نكمِّل؟

لاحظت ثيابه. قميصه مجعلك، لون بنطاله لا يليق بلون القميص، وينتعل حذاءً قديمًا لم ترَه ينتعله منذ زمن، فسألته:

- أديش إلَك ما اشتريت تياب؟

ما لم يقله خالد

انتقينا خزانة وحيدة. لكنها كانت خزانة مختلفة. كانت صغيرة الحجم بدرفتَيْن، طولها يكاد يصل إلى كتفي فقط. خشبها مطليٌّ بمشحات زرقاء وقبضاتها حديدية. على درفتها اليمنى رُسِم فيل أزرق مبتهج. خرطومه يتخذ شكل نصف حرف S ويمتد حتَّى الدرفة الثانية. حوله نجوم ونغمات موسيقية وطيور صغيرة وفراشات تحاول تصدير مناخ احتفالي طفولي.

وضعناها في البداية في غرفة نومنا. في الزاوية قرب السرير، مكان الكومودينة التي نُفيَت إلى الغرفة الصغيرة. ظلَّت هناك لأشهر، حتَّى مات المولود الأول. لا أعرف إن كان ممكنًا القول إنَّه مات، لأنِّي لا أعرف إن كان فعلًا حيًّا. أتذكَّرها عندما عرفَت أنَّها أسقطَت الطفل. وضعَت رأسها على كتفي وبكَت.

والآن، وأنا أضع رأسي على كتف غيرها، أشعر برغبة جامحة في البكاء. أنظر إلى محتويات الغاليري ثم يخترق نظري الباب الزجاجي حتَّى يصل إلى الشارع. أرى الناس، والأشياء الجامدة والحيَّة، وأشعر بوخز يستولي على رأسي، ثم يتراجع الوخز، فأبدأ أفكِّر بـ...

لكنِّي أرفع رأسي قبل أن أستعيد القصة الأخرى، وأشكر صاحبة الكتف.

صُحُف لينا: رمزي يشكر خاطفيه

"على وجه المسلحين الذين خطفوني، رأيتُ عمق المأساة التي يعيشونها

بصمت. وفي بريق عيونهم، وجدتُ الصدق والحزن. حين تحدثتُ معهم، عرفتُ أنَّهم خطفوني لينقذوا أخوة لهم مخطوفين. ولمَّا عرفوا أنِّي أخٌ من إخوتهم، عاملوني معاملة الأخ لأخيه وأكرموني إكرام الصديق لصديقه. إلى هؤلاء، وإلى قياداتهم أتوجَّه بشكري، متمنِّيًا أنْ يتفهَّم كل الإخوة حقيقة صراعنا، عندئذ ستنتصر المحبة على الحقد ويعود السلام إلى ربوعنا التي يودّ لها كثيرون أن تحترق".

تسوّق لحياة أخرى

وقف خالد في غرفة القياس يحاول لبس البنطال الذي انتقاه. لم يفلح مباشرةً في قفل السحاب والزر. نظر إلى جسمه في المرآة، فوجد أنَّه راكم وزنًا عند خصره وبطنه، ولاحظ أنَّ ظهره منحنٍ. متى كبر في العمر؟ عندما دخلت سهى إلى غرفة الجلوس وقالت له إنَّ عليهما أن يفترقا؟ قالت "لفترق"، ولم تستخدم كلمة "الطلاق". لكنَّه فهم منذ اللحظة الأولى قصدها. عرف طلبها ولم يعرف السبب. أم لعلَّها كثرة الأسباب؟

متى بدأ السقوط؟ عندما ابتعد عنه والده؟ أو عندما ابتعد هو عنه؟ لا. كان هذا في البداية. حتَّى قبل أن يتزوج سهى، وهي قالت له إنَّها ستبقى معه حينها، وإنَّ أباه لم يقصده هو، وإنَّه غادر إلى حيث يحظى بمساحة خاصة بعد وفاة زوجته. لِمَ لَمْ يقل لي، إذًا، أين ذهب قبل أن يختفي؟ لماذا تركني أبحث عنه أيَّامًا؟ ولِمَ لَمْ أغادر أنا؟ أليست أمي؟ سألها خالد. أجابت سهى أنَّ هذا مختلف. قالت إنَّه قد لا يفهم الآن، لكنه قد يفهم لاحقًا. وأكَّدت له أنَّها هنا، وستبقى هنا.

ثم أتاه الاتصال الأول من أبيه بعد مغادرته، يُعلمه فيه عن مكان وجوده. دار تليق بالعجائز أمثالي، قال. من هنا أرى البحر. الآن، وأنا أتحدث معك أرى البحر تحت التل. طعامهم طيب. يعتنون بي. هذا رقمي. تستطيع أن

تطلبني عليه. من الممكن أن تزورني أيضًا. لكن ليس الآن. بعد أسبوع. أو ربما أكثر. إسمع. سأعلمك عندما أستطيع استقبالك.

كان خالد يستمع إلى حوار من طرف واحد، يحمي نفسه من التفاعل بسرعة الكلام. ميَّز لهاث أبيه وهو يلقي خطابه المحضَّر سلفًا، وأراد في لحظة، أن يسأله ما إذا كان بخير. لكنَّ الخاطر خفت ما إن أكمل الأب خطابه، وماتَت رغبته بالسؤال تمامًا مع نهاية الخطاب.

بعد شهور، بعد زواجه بسهى، وانتقالهما إلى البيت الجديد، أتَته الرسالة النصية الموعودة من أبيه، يبارك له فيها على الزواج، ويدعوه أخيرًا لزيارته. كيف عرف، لا يعرف. محا خالد الرسالة مباشرةً، وأطفأ الهاتف، وصنع طفله الأول مع سهى على الكنبة، أو لعله يودُّ التصديق أنَّه صنع طفله الأول حينها، طفله الأول الذي مات قبل أن يحيا، أو عاش قليلًا قبل أن يموت، لا فرق.

"قد تفهم لاحقًا"، قالت سهى.

هل قصدَتْ قصته السابقة مع أبيه، أم قصته اللاحقة معها؟ هل كانت تعرف منذ البداية أنَّهما سينتهيان هكذا؟

متى بدأ السقوط فعلًا؟ عند خسارة الطفل الأول؟ يحدث هذا في معظم العائلات، وهو حدث يُنسى مع الطفل التالي.

متى بدأ السقوط إذًا؟ مع الطفل التالي؟

طرد خالد الأسئلة من رأسه وهو ينجح أخيرًا في قَفْلِ زر البنطال. نظر إلى نفسه في المرآة. رفع كتفيْه قليلًا، وحاول عقد حاجبيه، لكنه لم يستطع. بقي وجهه محتفظًا بنظرة ضائعة لم يفهمها ولم يقدر أن يصفها. ودَّ لو يشكر أحدًا في هذه اللحظة بالذات. لكن من يشكر؟ لينا وروجيه من النوع الذي يشكره كل الوقت، وريم من المبكر أن يشكرها. ضرغام! أين ضرغام؟ يودُّ أن يشكر ضرغام؟ ولماذا يشكره؟

"تسوَّق لحياة أخرى"، قالت الملصقات على واجهة المحل.

"يلّا تعا نقعد نحكي"، قالت له لينا، واتّجها نحو مقهى قريب.

ما قالته لينا

ما بك؟ كلما التقيتُك وجدتُك أكثر صمتًا ووحدة. لا الصمت يوصل الوحدة بالضرورة، ولا الوحدة تستدعي الصمت بالتأكيد. هذه تنميطات، وأنت تعرف. أنت، مع سهى مثلًا، كنتَ أكثر وحدة، لكنَّك كنتَ تتكلم، وتبتسم على الأقل. أنتَ وأنا نعرف ذلك، لكنَّك لا تعترف به. لن أقول إنَّك كنت فرحًا. أقول فقط إنَّك كنتَ تبتسم. خالد، أنا أعرفك تمامًا، وسأسمح لنفسي أن أكلمك من جديد في هذا الموضوع. أنت عادةً تطلب الوحدة والشراكة معًا. تودُّ أن يكون هناك أحد ما في الدائرة التي تحيط بك. أحد يفهمك وتفهمه، تحبه ويحبك. ترمي له الحبل، وتتركه يشد ويصعد حتّى يدخل فقاعتَك، وبقدرته على الوصول ودخول الفقاعة يكون قد استحقَّ الاستثناء. لكنَّك لا تقوم بجهد من أيِّ نوع. وهذا صعب يا خالِد، صعب على الناس. الناس لا يستثمرون في الآخرين إلى هذا الحد. حسنًا. لقد دخلَت سهى البلّورة. فهمَتك، وفهمتَها. لكنها لم تكن مسؤولة عن تلك اللكزات التي هشَّمَت الإيقاع داخلها. نحن نأتي بلكزاتنا يا خالد. نأتي مع أشياء لن نستطيع ضبطها. نحملها داخلنا، وترافقنا من الخارج، من دون أن نعرف. نظنُّ أنَّ الأشياء تحت السيطرة. ثم يحدث ما لم نتوقّعه. يضطرب الإيقاع، وتتهشَّم معه أنظمة وضعناها وظننَّاها ساكنة، وتضيع أنت. غيرك يا خالد يسعى وراء هذه الاضطرابات ويتعقبها. يقبض عليها، ويودُّ أن تكون هناك كل الوقت ليشعر باللذّة وبالحياة. أنا أعرفك يا خالد، ولا أقول إنَّك لم تحاول. لقد حاولت. عندما غادر أبوك وتزوَّجتَ سهى، حاولت. وعندما فقدتما طفلكما الأول يا خالد، وبقيت معها وقربها، كنت تحاول أيضًا. لكن الأمر استمرَّ يصعد سلم الصعوبة، فأُجبِرتَ على مغادرة بلورتَك إلى

بلّورة سهى. كانت تضحية من النوع الكبير بالنسبة لك. أفهم ذلك. وأفهم المستحيل الذي تخطيتَه مع فقدكما للطفل الثاني. أستطيع فهم شعورك بالعجز عن حمايتها وحماية ابنك. أستطيع فهم إحساسك بالاستهداف بعدها عندما طلبت سهى الطلاق. لكنْ، ألا تظنُّ أنَّ الأمور لا تقاس على هذا النحو، وأنَّها لا تُختصَر بك؟ أنَّ سهى أيضًا عانت؟ وأنَّ الأمر أعقد من أن تختصره بقدرتك على حماية جنين أو بكونك ضحية علاقة استثمرتَ فيها؟ ها أنت ذا قد عدت إلى بلورتك؟ ثمَّ ماذا؟ أنا أحفظك تمامًا، وعلى كل هذا أن ينتهي. هذه المرَّة، لستَ في البلّورة. أنت على حافة وادٍ. وأنا لا أرغب في أن أراك تتابع سقوطك نحو قاعٍ قد لا يكون موجودًا أصلًا.

المدينة عبر توم

"استرخِ. استوعِب الموضوع. لأنَّه لا يوجد شيء يمكن أن نفعله. استرخِ. استوعِب الموضوع. ألقِ اللوم عليَّ أو لُمْ نفسك"، اندلع صوت ميكا من المكبِّرات. قلَّبَت ريم في أغنيات الأسطوانة فظهر أنَّ كل الأغنيات لِميكا. ألبير يحبه، لكنَّ الوقت ليس وقته. ليس في السادسة والنصف في صبيحة يوم أحد. تنقَّلَت بين محطات الراديو المحفوظة، ثمَّ تذكَّرَت أنَّها تمتلك أغاني على هاتفها، فشبكَته مع نظام الاستماع في السيارة، وانطلقَت.

كانت الطرقات فارغة إلا من بعض السيارات. ضجيج المدينة لم يكن قد راكم بعد صوتًا فوق صوت. نهارات الآحاد تبدأ متأخرة في بيروت. "لنضع معطفًا جديدًا من الطلاء على هذه البلدة الوحيدة القديمة"، قال توم وايتس في مكبِّرات سيارة ألبير.

بدأت ريم ترى المدينة عبر توم: "أنت، يا حبِّي، تلبسين فستانًا، وأنا أرتدي ربطة عنق". كانت ظلال الليل قد بدأت تختفي. "سنضحك على القمر القديم المحتقن بالدم في تلك السماء الخمرية". فتَّشَت ريم عن

القمر، أرادت التأكد ممّا إذا كان بلون العظم، كما يؤكد توم في أغنية أخرى، لكنها لم تجده. كانت السماء صافية، وتستعد لاستقبال النور الكامل. مرَّت بسيارتها قرب أناس غير مهتمين، يمشون بسرعات متفاوتة على الأرصفة، ثمَّ اقتربت من المقبرة. كان هناك حركة خفيفة على المداخل، امرأتان سمينتان تحملان الآس الأخضر، وحارس المدخل يتجاذب أطراف الحديث معهما. إحداهما أخذت تضحك، ثم انحنت توضب الآس في الغطاء الملقى قربها على الأرض. فكّرت ريم بكمّ الأموات القابع تحت التراب داخل المقبرة، وإن كانت ضحكة المرأة، التي على الأرجح تداوم يوميًّا هنا، تصلهم. فتّشَت عن مكان لتركن فيه، فلم تجد. دخلَت الشارع الخلفي، وهناك وجدَت مساحات فارغة، فتهيَّأت لركن سيارتها.

"كل أحلام الحب المخربشة ستضيع أو تُهدَر / هنا، وسط مراوغة يوم مكتظ". فكَرَت ريم أنَّ صوت توم الأجش يلائم صفاء البدايات، حتّى تلك العاصفة منها. صوته ينحدر ويتلوّى في القاع قبل أن يصعد من جديد بوحشية، وقد يبقى عالقًا في مستوى معيَّن، فيعيد ويزيد فيه بتكرار غير قابل للفناء.

ما الذي سيفعله ألبير عندما يصحو ويفتّش عن مفتاح السيَّارة ولا يجده؟ الأرجح، لا شيء. سيظنُّ أنَّها خرجت لتشتري فطورًا.

لا شيء؟ نظرت ريم إلى السيَّارة التي تركن قربها. وجدتها سيارة مُعدَمة، إطاراتها على الأرض، حديدها محفوف، وبعض زجاج نوافذها مكسَّر، والغبار والنفايات تحتلّ جزءًا كبيرًا من مقاعدها.

انتابتها رغبة غريبة بأن تحفّ الجانب الأيمن من سيَّارتها بجانب السيَّارة المهترئة. نفَّذت فكرتها، وسمعَت صوت حفيف الحديد، ثمَّ عادت بالسيَّارة إلى الوراء، وأعادَت ركنها.

خرجَت تتفحَّص الإصابة، فوجدَت خطًّا أزرق وخدشًا وانبعاجًا خفيفًا على سيَارة ألبير. ابتسمَت، وانطلقَت إلى باب المقبرة، حيث طلبَت باقة

آس من إحدى المرأتيْن السمينتيْن، فأخذت المرأة تعدِّد لها مزايا النبتة، وهي ترشُّ عليها الماء من قنينة ماء كانت بحوزتها.

حملت ريم الباقة، ودخلت المقبرة. كانت تمرُّ محاذرة أحيانًا قرب بعض حافات القبور الرخامية المتلاصقة، وتقفز فوق أخرى عندما ينسدُّ الطريق أمامها، وتدعس على حافات أخيرة من دون أن تقصد. وفي أذنيْها كان توم قد وصل ليقول: "حبنا يحتاج نقل دم، فلنطلقه مملوءًا بالنبيذ"، قبل أن يعيد: "لنضع معطفًا جديدًا من الطلاء على هذه البلدة الوحيدة القديمة".

توقَّفَت ريم عن المشي، ووضعت الآس على قبر والديْها.

راديو السيَّارة: خطف الرموز؟

صحا المواطنون اليوم على خبر فقدان الاتصال بالنائب سالم القاروط. ولم تُعرَف معلومات كثيرة عن الحادث، مع رفض المصادر الأمنية التصريح. وكان الخبر قد تسرَّب للإعلام عبر أقرباء النائب القاروط. فهل يرتبط هذا الحادث بمواقف النائب الأخيرة؟ وهل وصلت تجارة الخطف التي بدأَت تروج في الآونة الآخيرة لتستهدف رموز الدولة؟ وإذا كان الأمر كذلك، فمن يكون الهدف التالي؟

ظهور كريم

توقَّفت سهى بسيارتها أمام كشك الصحف عند رأس زاروب بيتها. أرادَت الاستعلام عن الصبي الذي أوصلته للمستشفى. نادَتْ أحد الأولاد الذي كان يلعب الكرة في الشارع، فاقترب منها ولحقه أصدقاؤه. سألَت سهى الولد عن الصبيِ المصاب الذي أوصلَته، فأجابها أنَّهم نقلوه إلى مستشفى

آخر، لكنه لا يعرف مكانه. ثمَّ صرخ ينادي صاحبه: "يا كريـــــم". ولم يكد ينهي صرخته حتَّى أطلَّ ولد آخر بدا أنَّه في الثامنة من عمره من شرفة قريبة حاملًا منقوشة وردَّ عليه:

– وطي صوتك! شو في؟!

– المدام عم تسأل عن المستشفى اللي أخدو عليها أحمد.

– يلا. نازل.

أجاب كريم وهو يكدش المنقوشة، ثم اختفى في الداخل. ركنَت سهى سيارتها تحت الشرفة تنتظره. لم تمضِ دقائق حتَّى ظهر كريم ثانيةً عند المدخل، بملابس مختلفة عن تلك التي ظهر بها في الشرفة. وقف للحظة يسرّح شعره المبلول بمشط صغير يحمله في يده، ثم اتَّجه ناحية السيَّارة. فتحَت سهى نافذتها لتتحدث معه، لكنَّ كريم كان قد واصَل مشيه باتجاه باب المقعد الأمامي الآخر، وحاول فتح الباب.

عندما وجد كريم الباب مغلَقًا، دقَّ بقبضته على النافذة، وسأل بحركة من يده ومن دون أن يتكلم: "شو؟". فتحَت سهى له الباب، فصعد وجلس، وأغلقه، ثمَّ أنزل زجاج النافذة، وتابع يسرِّح شعره بعجلة وهو ينظر في المرآة الجانبية. وعندما انتهى، وضع المشط على التابلوه وقال: "يلا!"

سألت سهى غير فاهمة: "يلّا شو؟"

– عالمستشفى!

– إي. قلّي اسما، وأنا بروح اليوم بالنهار.

– ليش عندك شي هلّأ؟

– أنا هيك هيك كنت رايح اليوم. ف منروح سوا.

– بس...

– عندك شي؟

بدا على سهى الانزعاج.

– انزال عيِّط لأهلك.

- مو هون. خلص اتّكلي ع ألله.

وخبط على التابلوه خبطتيْن كأنَّه يعلن إشارة الإنطلاق...

- إنتَ قلّي ع اسم المستشفى وأنا بروح لحالي بعدين...

- عندك شي؟

أعاد كريم سؤاله وهو يضمُّ أصابعه توكيدًا لمعناه، فردَّت سهى مستغربة.

- لأ...

- إي يلّا. منروح سوا. أصلًا ما رَحْ تعرفي توصَلي لحالك ع برج حمود. في حفريات.

نظرت سهى إلى كريم، وقد زادت دهشتها. كانت قد فقدت كل الحيل أمام إصرار الصبي، فحاولت أن تسأل من جديد:

- وأهلك ما...؟

قاطعها كريم وقد بدأ صبره ينفد:

- ما حدا سَألان! رَحْ نمشي اليوم ولّا لأ؟

تحرَّكت سهى ببطءٍ إلى الوراء وهي تنظر في مرآتها الأمامية.

- أنا كريم.

قال كريم معرفًا بنفسه ومدَّ يده ليسلم عليها، فسلَّمت عليه وقالت:

- وأنا سهى، وما عارفة شو عم ساوي.

- بعرفك. ساكنة بالطابق الرابع بالبناية جوَّة!

انطلقت السيَّارة، وسط تشجيع أصحاب كريم الذين لحقوا بها حتَّى مسافة قصيرة، قبل أن يعودوا إلى لعب الكرة.

صُحُف الكشك: ليلة القاروط

بعدما فقد الاتصال بالنائب القاروط منذ ما قبل البارحة، أكَّد مصدر أمني أنَّ الأخير لم يتعرَّض لعملية خطف، بل بات ليلته في أحد فنادق العاصمة

بيروت، وغادره عند الثامنة والنصف من صباح اليوم التالي.

وكان خبر الخطف قد انتشر عندما اتصلت زوجة النائب القاروط بشخصيات من الأمن الداخلي والجيش، طالبةً المساعدة في العثور على زوجها الذي كان قد اتصل بها يوم اختفائه ظهرًا، وأبلغها أنَّه آتٍ من مكتبه في الأشرفية إلى منزله الكائن في فردان. ولمّا لم يصل النائب إلى المنزل بعد فترة طويلة من اتصاله، حاولت الزوجة الاتصال به مرات عدة، إلاّ أنَّ هاتفه كان دائما خارج الخدمة، فقامت عندها بإبلاغ القوى الأمنية باختفائه.

ولم تتَّضح أيُّ تفاصيل إضافية عن الليلة التي أمضاها النائب في الفندق، ولا الأسباب التي حَدَتْ به ليغلق هاتفه طيلة هذه المدَّة. ولوحظ أيضًا أنَّ السياسيين والصحافيين الذين روَّجوا خلال اختفاء القاروط لفكرة أن تكون تجارة الخطف قد وصلت لتقنص رؤوسًا من الطبقة السياسيَّة، قد تجاهلوا الموضوع تمامًا بعد ظهوره.

فضول كريم

تحرَّكت السيَّارة خمسمئة متر فقط في ربع ساعة، وما إن انفتحت الطريق، حتّى علق كريم وسهى من جديد في زحمة سير أخرى. كانا بمحاذاة حوض نهر بيروت. أطلَّت سهى لتتبيَّن سبب الزحام، فلم تستطع أن تلمح أكثر من جمهرة آخر الاتجاه الذي سلكته. كانت السيَّارة قد حُوصِرَت تمامًا من الأمام والخلف بالسيارات وببضع دراجات نارية، ولم يعد في الإمكان التراجع.

"قلتلّك روحي بحري. ما قنعتي"، قال كريم.

نظرَت إليه سهى غاضبة، لكنها تذكَّرت مجدَّدًا أنَّه مجرد ولد، وهو على أي حال لم يكن ينظر إليها فقد كان مشغولًا بتقليب إذاعات الراديو، حتّى استقرَّ على أغنية لأم كلثوم، فانتهى يقول: "الله يا ست".

اعتدل كريم ونظر خارج نافذته، ثمَّ التفت ناحية سهى ليجدها تحملق فيه، فسألها بثقة:

– في شي؟

– أدِّيه عمرك كريم؟

– تمانة. وإنتي؟

– خمسة وتلاتين.

– ووين راح جوزك؟ كنت شوفكن تقعْدو ع البلكون سوا. ما عاد بيِّن.

– مش عيب تسأل هيك أسئلة؟

– عيب؟

– إنُّو إيه!

– لا. مو عِيب. بس إذا ما بِدك تردي، ما تردي. عادي يعني.

عاود كريم وسهى التحديق خارج النافذتيْن، كلٍّ على جهته. كانت أم كلثوم تتابع أغنيتها وسط أبواق السائقين الغاضبين الذين لم يلبث بعضهم أن ترجَّل من سيارته واتَّجه ناحية تجمهر الناس للاستعلام.

راديو السيَّارة: دم النهر

استيقظ سكَّان بيروت صباح الأربعاء ليجدوا نهر بيروت مصبوغاً باللون الأحمر ممَّا دعا الجهات المختصَّة للتحرُّك استقصاءً للأمر. وقام المواطنون بالتجمهر الكثيف حول ضفَّتَي النهر، وعطَّلوا سير السيارات في الاتجاهين.

ولدى سؤاله، أجاب مواطن بالقول إنَّه ينتظر ظهور الجثث لدى انخفاض منسوب النهر رابطًا الحدث بالمعارك التي تدور وراء الحدود. وأضاف المواطن أنَّه سيعود ورفاقه للانتظار كل يوم، ويقسِّمون أوقات

الانتظار في ما بينهم.

وطالب النائب في البرلمان اللبناني بيار ربّاط الحكومة اللبنانية بالتحرك لاستقصاء القضية، متهمًا قوىً خارجية بتصدير أزمتها إلى لبنان، وردَّ عليه زميله النائب كميل الرافعي بضرورة التروّي وعدم تسييس القضية داعيًا إلى انتظار نتائج التحقيقات.

ليست هذه المرّة الأولى التي يتلوّن فيها نهر بيروت، لكنها المرّة الأولى التي يكتسب فيها لونًا مميزًا وواضحًا للعيان إلى هذه الدرجة وفقًا لعدة صحف لبنانية محلية.

البقعة

استيقظ خالد على صوت هَمهَمات قريبة. نظر إلى جانبه، فوجد سهى نائمة. كانت تقول جملًا غير مفهومة. حدَّق في عتمة السقف لدقائق وأنصَت. حاول التركيز في الكلام المبهم. كان كل شيء ينتهي قبل أن يُكمِل معناه. كلّما التقط بداية كلمة وظنّ أنّه فهمها، أتى بقية لفظها لينفي اعتقاده ويُلبسها معانِيَ أخرى.

خفتَتِ الهمهمات، فانقلب خالد في مكانه ليحضنها. عانقها بيده ودسَّ رأسه في بطن مخدته. سمع تنفسها قربه بطيئًا، وعندما انحرف بيده ناحية الأسفل، شعر بلزوجة تلوِّث كفه، فاعتدل في السرير، ورفع الغطاء عنها.

رأى خالد بقعة من الدم على بطن سهى. كانت تلفظ طفله الثاني. قام مبتعدًا عن السرير. يده ملوثة بالدم، وهو ينظر إليها. اقترب منها ثم تراجع. سلك الدم طريقه على الغطاء، بلّله، وأخذ ينقط من جانب السرير حتّى وصل إلى الأرض. وهناك، مشَتِ البقعة مقتربة منه.

شعر خالد بجسمه يلفظ العرق، وببرودة تلفح جلده، وبقواه تخور.

خرجت الطاقة من جسمه وظنَّ أنَّه سيهوي، لكنَّ جسمه تصرَّف بشكل يخالف توقعاته، فبقي واقفًا في مكانه. مضَت البقعة تقترب منه. كان قد قرَّر ما سيفعله. كان يعرف، وابتسم لأنَّه يعرف، وقبل أن يباشر في تنفيذ قراره، شعر بصداع رهيب يطبق على رأسه. أمسك رأسه بكلتا يديه محاولًا إيقاف الألم، وقبل أن يُميت الألم بيديه، قطع صوت الهاتف قراره، واستيقظ.

راديو ضرغام: ليس دمًا

أفاد مصدر أمني لبناني أنَّ اللون الأحمر الذي تلوَّنت به مياه نهر بيروت ليس دمًا، بل هو ناجم عن مواد صناعية تُستخدم للصباغة. وقام وزير البيئة بتحويل هذه النتيجة إلى مختبرات الجامعة الاميركية لتحديد ومعرفة ماهية المواد، وكشف المعمل الذي يستخدمها. ولفت المصدر أنَّ "العينات التي أُخِذَت من الصبغ الأحمر قد تكون آتية من معامل الألبسة والجلود في المناطق المحاذية للنهر". وتابع المصدر يشرح أنَّه من المرتقب صدور النتائج النهائية بعد سبعة أيام، مشيراً إلى أنَّ "القوى الأمنية تجري التحريات اللازمة للتأكُّد من مصدر التلوُّث".

قُمِ افتح الباب

طلب منه روجيه في الرسالة النصِّيَّة أن يفتح الباب عندما يدق. لم يكد خالد ينهي قراءة الرسالة حتَّى سمع خبطًا خافتًا. اتَّجه ناحية الباب وفتحه ليجد امرأة لا يعرفها تنتظر عند العتبة. كانت المرأة تقف وقفة واثقة كأنَّها تزور أحدًا تعرفه، ثم تخطَّته ودخلَت من دون انتظار دعوته، وجلسَت على كرسي المكتب الذي وجدَته في آخر الغرفة.

نزعَت المرأة إسكربينتها وهي تحدِّق في المقتطعات الصحافية المعلقة على اللوح فوق طاولة المكتب، ثمَّ وقفت حافيةً وباشرت بتفحُّص شيء في حقيبتها التي تركتها على الطاولة. راقبها خالد من مكانه، وقبل أن يبدأ سؤالها عمَّا يجري، رنَّ هاتفه ليجد روجيه على الجانب الآخر.

استمع خالد لروجيه أكثر ممَّا تحدث. ضبط نفسه، ولم يصرخ فيه، واكتفى بنبرة ناقمة. وقف خالد قرب الباب. تحدَّث مغطيًا فمه بكفِّه، ولمَّا فشل في كظم غيظه، خرج إلى رواق الطابق. هناك، أفرغ كل ما في فمه من شتائم في حق روجيه. ظلَّ الأخير يضحك، ويقول له أن يدشِّن "تخته" الجديد. طلب منه خالد أن يأتي ليأخذ المرأة، فأجابه روجيه أن "يتصرف هو". هدَّده وقال إنَّه سيخبر لينا، فردَّ روجيه منهيًا المكالمة: "ما بتعملها!".

بينما كان خالد يُجري اتِّصاله، كانت المرأة قد سلكَت طريقها حافية إلى الشرفة. وقفت مستندة إلى الدرابزين، وأخذت تحدِّق في وطاويط المغيب التي كانت تطير بسرعة على غير هدى في المساحة الضيقة بين البنايات من دون أن تقترب من الشرفات والناس. في الشرفات المواجهة والجانبية وجدت المرأة شابًّا يقوم بالحركات الرياضية، وعجوزًا تضرب سجادتها، وفتاة تقرأ في كتاب مدرسي وهي تروح وتجيء واقفة، وشابين بفانيلَّتيْن بيضاوين يشربان القهوة، وامرأة أربعينية تسقي زرعها، وأمًّا تتحدث مع ابنها الواقف في الأسفل، وشابًّا ينشر ملابسه المغسولة.

كان الجميع يواصل حركته على إيقاع الأصوات التي ينتجونها مختلطة مع أصوات محرِّكات خزانات المياه الموضوعة في الأسفل. ظلَّت المرأة واقفة تحدق في حركة أُناس الشرفات، ثم التفتت نحو صوت راديو قريب، لتجد ضرغام في شرفته يحدِّق في ثوبها.

سلَّم العجوز عليها، وسألها إن كانت تريد شرب الشاي.

راديو ضرغام: الاشتباكات

تستمرُّ المعارك بالأسلحة البيضاء فوق أسطح البنايات بين شباب في منطقة وطى المصيطبة منذ نهار السبت الماضي. وكانت الخلافات قد بدأت بعد اتهام شباب من بناية "الزهرة" لشباب في بناية "الشروق" المجاورة بسرقة المياه من خزانات سطح بنايتهم، قبل أن تحدث اشتباكات بالأيدي، سرعان ما توسَّعَت مع انضمام شباب آخرين من بنايات أخرى. ولم تمضِ ساعات قبل أن تجتمع فعاليات المنطقة لمناقشة الوضع، وذلك بعدما رفض الشباب النزول وبقوا على الأسطح لحماية الخزانات. لكنَّ الاجتماع لم ينجح في حلِّ المسألة، وانفضَّ سريعًا مع انسحاب بعض الحاضرين، وسرعان ما تسلَّمت القوى الحزبية الحاضرة في المنطقة الأمر مباشرةً وظهرَت أسلحة متوسطة بين أيدي الشباب على الأسطح.

هذا وقد حذَّرت فعاليات المنطقة المكتظة سكنيًّا من اندلاع معركة بالسلاح من على أسطح البنايات، وطالبوا الجيش بالتدخل. وردَّ وزير الداخلية بأنَّ الجيش حاضر عند حدود المنطقة من دون اتخاذ أيِّ إجراءات أمنية فيها فاسحًا المجال أمام الوساطات الأهلية والحزبية، حاصرًا دور الجيش بتأمين المنطقة عبر التدقيق في هويَّات الداخلين إلى المنطقة وتفتيش السيارات حتَّى بيان نتيجة المفاوضات.

نذكِّر هنا أنَّ قناتنا ستبدأ من الغد تغطيةً إعلاميةً فريدةً من نوعها لهذه الأزمة، حيث ستقوم كاميرات طائرة بتصوير الانتشار الحزبي المسلَّح من الجو مباشرةً على الهواء. وهذه هي المرَّة الأولى التي تُستخدَم فيها مثل هذه التقنيَّات الحديثة في تاريخ الإعلام اللبناني، فترقَّبونا.

محاولات للنوم

الضجّة.

لا أسمع ولا ألاحظ غيرها. منذ استيقاظي وحتّى عودتي إلى سريري لأحاول النوم من جديد. على الطريق، في المصاعد، في السيارات، على الأرصفة، وحتى في الحمّامات، ضجيج.

كلما زادت الضجة، لا أعود أستطيع سماع والديَّ. أراهما أمامي في الغرفة يتحدثان ولا أفهم. يتقطّع صوتاهما، ولا أعود أراهما. يستردُّهما الموت. يعودان إلى غبار الانفجار الذي أحرقهما في سيارتهما منذ أعوام.

أنا أعرف أنّهما غير موجودين. لستُ مجنونة. لكني أستحضرهما في هذه الشقّة تحديدًا لأستريح. وعندما أتخيّلهما جالسيْن في الشرفة يشربان الشاي، أشعر بالسكينة تغلفني، فأستلقي على الكنبة، وأنام بضع ساعات.

لكنّ الصراع يعود عندما يحلّ الليل وأستلقي في غرفتي، فلا أقوى حتّى على إغماض عينيّ. والأمر تفاقم في الأسبوع الأخير، عندما صرتُ أسمع صوت الأقدام على السطح، والشباب ينادون بعضهم بأقذع العبارات من جهة الشرفة، كأنّهم معي في الغرفة. أهرب بابتلاع حبّة منوّم، فأنام سريعًا، قبل أن أستيقظ فجأة، لأجد أنّه لم ينقضِ أكثر من نصف ساعة.

لم أعد أحتمل. ألبير يتّصل بي ويدعوني للقدوم إليه، فأجيبه أنّي مريضة، وأنّي سأعمل من المنزل. شقته قد تكون حلًّا، لكنّي سئمتُه، وقرفتُ منه.

أريد فقط أن أنام.

مشاهد من بيروت

في الطائرة، تغمض سهى عينيها، وتحاول ألا تفكّر بالآتي في لندن. تشبك يديها على بطنها وتفكر في الصّبي المصاب.

يدها تلمس الزجاج الفاصل في المستشفى. يدها اليمنى على كتف كريم الأيمن. عينها تنظر إلى الصبي في العناية المركزة. "صحفية؟"، تسألها الممرضة عن هويّتها قبل مرافقتها إلى الغرفة. تجيبها سهى بالنفي، وتقول إنّها هي من أحضرَت الصبي بسيارتها إلى المستشفى الأوّل قبل أن ينقله أهله إلى هنا. تبتسم الممرضة وتعتذر، وتبرّر سؤالها بالقول إنّ المستشفى يمنع دخول الصحافيين. تحدّثها عن الصبي. حالته صعبة. الاختناق الرئوي غير معروف الأسباب، ولا يتحسّن. انقطع تنفسه وقتًا طويلًا. يترقبون استيقاظه. يتوقعون خللًا دماغيًّا. ينتظرون. كلهم ينتظرون، تقول الممرضة. تهمس لسهى أنّها الحالة الرابعة التي تأتيهم. اثنان ماتا وحالتان أُخرَيان في غرف العناية المركزة، وفي المستشفيات المجاورة حالات مشابهة، تؤكد لها. تتحدّث الممرضة دون أن تأبه لوجود كريم معهما، ومن دون أن تنتظر أجوبة من سهى: "سمعتي عن النايب اللي خطفوه؟ كان حاكي ببرنامج عن عربايات الغاز... هاي اللي كسروها الشباب... إنتي وين ساكنة؟ آه صح. حد بيت الصبي ما إنتي جبتيه لهون... إي النايب هيدا... انخطف... بس طلّعوه... قال هوي كان مختفي لحالو مدري مجوّز ع مرتو... إنه يعني العالم قال شو، ح تصدّقهن... إنت شو رأيك؟" وقبل أن تجيبها سهى، تنهي الممرضة وصلتها بالإعلان: "بتقدري تشوفي الولد من هون. بعيّط لأهله تحكي معهن؟".

كفاها تضمّان كوب الشاي. المفتاح أمامها. ريم على الكنبة المواجهة. "شكرًا لأنّك ح تنتبهي عالبيت بغيابي"، تقول لها وترشف من الكوب. تشرح لها أنّ البيت لا يحتاج لكثير اهتمام، وتستطيع أن تقيم فيه ما تشاء من الوقت. قد تضطرُّ أن تفتح للناطور مرّة أو مرّتين للاهتمام بالزرع، لكنّ الأهم هو تايغر. أن تأتي يومين في الأسبوع على الأقل، وتغسل له الأوعية وتضع له الطعام والماء، ثم تغيّر له... أرادت القول "الخرا"، ثمّ تراجعت ولم تكمل جملتها، وريم ابتسمت وفهمت

ما تقصده. تضحك سهى. يظهر تايغر عند باب الغرفة. يبدو أنّه فهم موضوع الحديث، فأقبل ليقدِّم نفسه ويكتشف هوية الوافدة الجديدة. يقترب من ريم ويشمُّ رجليها. "عم يتعرَّف عليكي"، تقول سهى عندما تلاحظ أنَّ ريم تنظر إليها مستفسرة، ثمَّ تضع الكوب على الطاولة، وتدعوها لمرافقتها للتَّعرف على زوايا المنزل.

تفتح سهى عينَيْها. يأخذ الجالس بجانبها قنِّينة نبيذ صغيرة من المضيفة. على الفور تشعر سهى بانقباض معدتها. تهرب بنظرها إلى خارج النافذة، فلا ترى غير الغمام الأبيض. يتراءى لها في ذهنها كريم وهو يقول بجدِّية إنَّه سيهتمُّ بمنزلها في غيابها. تبتسم، ولا تسمع حتَّى سؤال المضيفة لها عن نوع الشراب الذي تريده.

راديو ضرغام: الضباع

(...) هذا ولم يستبعد رئيس مصلحة الأبحاث الزراعية الدكتور جورج نعيم في حديث لإذاعتنا احتمال وصول أعداد من الضباع الهاربة عبر الحدود الشرقية والشمالية إلى لبنان، موضِّحًا أنَّ الحيوانات عادةً ما تهرب من مناطق الحروب والانفجارات بحثًا عن مناطق آمنة أخرى. وأشار الدكتور نعيم إلى أنَّ جغرافيّة الحدود التي تكثر فيها الوديان والجبال تسمح لهذه الحيوانات بالعبور من دون أن يلحظها أحد، وطقس لبنان المعتدل يناسبها تمامًا. وختم الدكتور نعيم حديثه بالقول إنَّ مثل هذه الحيوانات موجودة في لبنان، لذلك فإنَّ قدومها أمر متوقَّع، داعيًا إلى عدم تضخيم الخبر، خاصةً أنَّ عدد الضباع التي ضُبطَت لا يتعدى الثلاثة. وقد تلقَّت إذاعتنا أكثر من اتصال من مواطنين يبلغوننا فيها عن اشتباههم في رؤية حيوانات تتحرك ليلًا في الشوارع التي يسكنون فيها.

زلّة لسان

عندما التقَت ريم بخالد في المقهى، أخبرَته عرضيًّا أنَّ سهى مسافرة، وأنها ستعتني بالشقة. ما إن ذكرَت الأمر أمامه، حتّى خفتت ضحكته، واصفرّ وجهه، ونضبت تعابير وجهه. انقلب فجأة شخصًا آخر غير ذاك الذي كان يتضاحك معها إلى حدِّ الاستمالة. "ليش لوين مسافرة؟"، سألها. انتبهَت ريم أنَّ خالد لم يكن على علم حتى بسفر سهى، وأنَّ المسألة لم تقتصر على انزعاج ذكر اسمها أمامه. قرّرت ألّا تقول تفاصيل أكثر. اكتفَت بذكر "لندن"، وأردفت أنَّها ليست متأكِّدة.

عندما التقَت ريم سهى لاحقًا، أرادت إخبارها بزلّة لسانها، لكنَّها تراجعت في اللحظة الأخيرة، وقرّرت ألا تتورَّط.

صُحُف الشرفة: الشباب الحيوانات

عين الرمانة – صعق أهل عين الرمانة باكتشافهم عصابةً من الشباب المراهق تنكّروا بأزياء حيوانات، وكانوا يعبرون سريعًا في الشوارع ليلًا محاولين إيهام السكان أنَّ الحيوانات التي عبرَت الحدود قد وصلَت إلى أحيائهم. وكانت دهشة أهل المنطقة كبيرة عندما اكتشفوا أنَّ معظم الشبان الذين قامت قوات الأمن اللبنانية برصدهم هم من أبناء المنطقة، وليسوا فقط من أبناء منطقة الشياح كما حاولَت بعض التقارير الإعلامية الترويج للرأي العام.

وقام الشباب المتهمون بتوزيع الأدوار في ما بينهم، فمنهم من أدّى أدوار الحيوانات، ومنهم من لعب دور الملاحق للحيوانات، لإقناع السكان بضرورة إنشاء لجان شعبية تكون مسؤولة عن أمنهم، مع تتالي التحذيرات عن تفجيرات ستضرب البلد قريبًا.

وقد افتُضح أمر الشباب بعد رصد القوى الأمنية اللبنانية لتحرُّكاتهم. ولم تُعرَف الأسباب الكامنة وراء اشتراكهم في مثل هذه العصابة خاصةً أنَّ أغلبهم ينتمون إلى عائلات ميسورة الحال.

بلاي ستايشن

بعد تركه المرأة في الشقة وانتقاله إلى رواق المبنى للتحدث مع روجيه، عاد خالد ليجدها قد اختفت. ظنَّ أنَّها لاحظت عدم ارتياحه وآثرت الرحيل، فلم يحلِّل الأمر كثيرًا ولم يبحث عنها.

في اليوم التالي، قرَّر الاطمئنان على ضرغام. دقَّ على باب شقَّته، ففوجئ بالمرأة نفسها تفتح له. ومن دون أن تقول شيئًا، التفتت وعادت إلى الداخل. لحق خالد بها ليجد نفسه واقفًا في الشرفة أمام العجوز لا يعرف ماذا يقول وماذا يفعل. صبَّ ضرغام له فنجانًا من الشاي، ودعاه إلى الجلوس، فجلس.

هل يكون ضرغام شاهد المرأة في شرفة الإستديو؟ وهل تكون أخبرته عن سبب زيارتها له؟

في خضمِّ تفكيره الصامت، اعتذر منه العجوز، وقال إنَّه يودُّ النوم. نادى: "سلام"، فأطلَّت المرأة من الداخل. طلب منها دفع كرسيِّه المدولب باتجاه الغرفة، ففعلت. كان يتصرَّف معها كأنَّهما يعرفان بعضهما من زمن، ثمَّ دخلا معًا، وأغلقا وراءهما الباب.

تفاقم الأمرُ غرابةً عندما لاحظ خالد في الأيام التالية زيارات المرأة المتكررة للعجوز. كانت تأتي كل يوم عند الحادية عشرة صباحًا ثم ترحل قرابة الخامسة عصرًا.

ضرغام أحرجه. "أنا منِّي مشلول، وهيي مَنَّا خرسا. اطمَّن"، قال له. وخالد فضَّل ألا يسأل أكثر.

ورويدًا رويدًا، اختلف الأمر عنده، فلم يعد يحلّل في الأمر كثيرًا. قال إنّ ما حدث طبيعيٌّ، فالأمور عادةً ما تبدو غريبة في بداياتها، ثمَّ تتطبَّع. هو نفسه يكتشف ذلك بعدما تركَته سهى، وما زال يحاول أن يعتاد الأمر.

يقف خالد في الشرفة، ويرفع الهاتف ويطلب ريم. يقع نظره على جريدة موضوعة على الطاولة. يقرأ المانشيت بعينيه مستعيدًا عادة سابقة من عمله القديم.

البارحة أعلمه ضرغام:

– بدي ياك تساعدني... إذا بتقدر.

– مع سلام؟

– لا. موضوع تاني.

– احكيلي.

– بحكيلك إذا بتحكيلي.

– إنت اللي طالب مساعدتي!

– هيدا شَرطي!

هاتف ريم مرارًا لكنها لا تجيب. يسمع خالد صرخة من غرفة المعيشة، فيطلّ برأسه، ليجد ضرغام جالسًا على الكنبة مع سلام كما تركهما، يلعبان البلاي ستايشن، يرى سلام تقفز حول كرسي ضرغام فرحة وهي تردّد: "ربحت... ربحت"، فيما ضرغام يتوعَّدها بالانتقام.

راديو ضرغام: (*Crocodylus niloticus*)

انتظروا جثثًا تأتيهم من وراء الحدود فأتاهم تمساح!

هذه ليست مزحة. فبعد أسابيع من انتظار مجموعة من الشباب قرب نهر بيروت بعد تلوُّن مياهه باللون الأحمر، وبعد مواكبة الإعلام لهذه القضية وأخذ عينات من النهر لإرسالها إلى المختبرات، تمكّن أحد الشبان من

تصوير تمساح في مصب النهر لجهة البحر، في المنطقة الواقعة بين شركة سوكلين والمسلخ.

وسرعان ما سرت معلومات بين الشباب عن وجود مجموعة من التماسيح في المنطقة المذكورة، فتوجّه فريق منهم على الفور إلى المكان، ليعاينوه.

وأكّد لنا الطبيب البيطري الدكتور سليم خوري أنّ التمساح الذي تمّ تصويره هو تمساح يافع يتراوح عمره بين الثلاث والخمس سنوات، وهو من نوع تمساح النيل (*Crocodylus niloticus*) أفريقي الأصل، وأخطر أنواع التماسيح في العالم المسؤولة عن مقتل مئات من البشر كل عام.

وبحسب الدكتور خوري فإنّ طول تمساح النيل يتراوح بين ٤ و٦ أمتار، وهو يزن حوالى ٥٠٠ كيلوغرام. وأضاف الدكتور خوري أنّ تمساح النيل يُعدّ من الحيوانات العدوانيّة، وهو قادر على قنص أيّ حيوان في مجاله، ويُعتبَر من المفترسات المتربِّصة، أي أنّه ينتظر ساعات وأيامًا، بل أسابيع، ليتحيَّن اللحظة المناسبة للهجوم على الفريسة وجرِّها إلى المياه.

وفي سياقٍ متَّصل، أصدرت جمعية الحفاظ على حقوق الحيوانات بيانًا طلبت فيه من المواطنين التوقف عن التجمهر حول مصب النهر ورمي التمساح بالحجارة، وناشدت وزارتَي البيئة والزراعة التحرك لإخراج التمساح من النهر بطريقة إنسانية، وإبعاده إلى المكان الطبيعي أو الصناعي الأمثل المناسب له.

ويبقى السؤال: كيف وصل تمساح أفريقي إلى نهر بيروت؟

أرشيف جانفياف

توقّف المصعد. خرج منه خالد ووقف لحظة في الرواق ثمّ توجه نحو الباب الأيسر. تعرَّفت عليه جانفياف فورًا، فقد تعامل معها عندما كان

يعمل في الجريدة. رحَّبت به، وسألته عن سبب غيابه. أخبرها أنَّه ترك العمل. بدَتْ متفاجئة. "صار كل شي بسرعة"، برَّر. أومأَت جانفياف برأسها، ودَعَته للجلوس، وسألته ماذا يشرب. اعتذر منها بلطف وقال إنَّه مستعجل، واستدرك قائلًا إنَّ زياراته ستتكرَّر. سألها عن إمكان استخدام الأرشيف. "مش مفروض يكون مشكلة. بس لازم أعمل تلفون وخَبِّرُن مش أكتر. تفضَّل"، ردَّت جانفياف.

جلس خالد وأخذ يتفحَّص محتويات الغرفة. كان الموظفون على المكاتب المجاورة يحدِّقون في الشاشات، غير عابئين بوجوده.

لم تستغرق المكالمة أكثر من دقيقتين تحدَّثت خلالهما جانفياف بصوت خافت مرَّة، ثم انتظرت صامتة، وابتسمت لخالد قبل أن تنهي مكالمتها بالشكر، وتضع السماعة مكانها، وتطلب من خالد مرافقتها.

دخلا معًا غرفة الأرشيف، وأوصلته جانفياف إلى كمبيوتر قالت إنَّه يستطيع استخدامه للتفتيش في كل المواد المنشورة بعد العام ١٩٩٨ المتوفِّرة بالكامل بشكل رقمي، أما مواد الأعوام السابقة فيمكن التفتيش في عناوينها وكلمات مفتاحية مُدرَجة معها دون التفتيش في نصها الكامل رقميًا، ويمكن الاطِّلاع على مضمونها في قسم الميكروفيلم.

كان خالد يحفظ كل هذه المعلومات التي تُردَّد على مسمع كل زائر، ويعرف مسبقًا الفترة التي يودُّ التفتيش فيها، فآثر مقاطعة جانفياف: "أنا مهتم بالميكروفيلم بس".

رسالة إلى السيد ضرغام

عزيزي السيد ضرغام،

وقعتُ مُصادفةً على الإعلان الذي نشرتَهُ في هذه الجريدة في أكثر من يوم في الفترة الممتدة بين تشرين الثاني ١٩٨٧ ونيسان ١٩٨٨.

لليالٍ ثلاث، أقامت السيدة جانيت الخوري، حرمُك، في الفندق الصغير الذي أعمل فيه والكائن في منطقة سنّ الفيل. لستُ أكيدًا ممّا إذا كانت هذه السيدة هي زوجتك لكنها تحمل الاسم نفسه الذي ورد في إعلانك.

أذكر أنَّها كانت تلبس وشاحًا أصفر لم تتخلَّ عنه طيلة فترة إقامتها، وأنَّها لم تلبس البناطيل إطلاقًا، بل حافظَت على ارتدائها للتنانير الطويلة الغامقة. لا أعرف ما إذا كانت معلومات كهذه تؤكِّد هوية زوجتك أكثر.

ولقد أتيح لي أن أتبادل أطراف الحديث معها في المطعم الكائن على سطح الفندق، إذ كان شرودها قد لفتني منذ اللحظة التي دخلت فيها الفندق لحجز غرفة. أذكر أنَّها جلست، في اليوم الأول، وحيدة في ردهة الاستقبال، بالقرب من النافذة، وصارت تنظر إلى المشاة في الشارع.

في اليوم التالي، وكعادتي بعد انتهائي من عملي، صعدتُ إلى مطعم الفندق، وهناك وجدتُها مرتديةً الشال الصوفي ذاته. اقتربتُ منها، وسألتُها إن كانت بخير، إذ بدَت لي منهكة. قالت لي السيدة جانيت إنَّها تعبة، وإنَّ جسمها كله يؤلمها. ثمَّ انتقلَت لتتحدَّث عن القَمر. قالت إنَّها عندما تشعر بالحزن الشديد، تبحث عن القمر وتنظر إليه، وإنَّها اعتادت فعل ذلك منذ صغرها. وأضافَت أنَّها ترى أشياء مرسومة على سطحه، ثمَّ أشارَت إلى القمر بالبَنان، وسألَتني ما إذا كنتُ أرى الرسومات. ولأنِّي لم أكن أريد إحراجها، أجبتُها بالإيجاب. صارت تشرح الرسوم بشكل غريب لم أفهمه، وقالَت إنَّها تشعر بالارتياح أيضًا عندما تنظر إلى القمر، وأضافَت تقول كأنَّها تحدِّث نفسها إنَّ الارتياح لا يتعارض على الإطلاق مع الإغراق المفاجئ في الحزن، قبل أن تستأذن منِّي، وتخرج من المطعم باتجاه المصعد، عائدةً، على الأرجح، إلى غرفتها.

في اليوم الثالث، كنتُ مريضاً طريح الفراش ولم أُداوِم في الأوتيل. عندما عدتُ في اليوم الرابع، وتفقَّدتُ حالة الغرفة التي كانت السيدة جانيت

قد سكنتها، وجدتُ آخرين يقيمون فيها، فنظرتُ في دفتر التسجيلات، وتأكدتُ أنّها تركت الأوتيل في وقت مبكر جدًّا من اليوم الرابع، قبل وصولي.

عزيزي السيد ضرغام، هذا كل ما أعرفه. أرجو التواصل معي على الرقم الذي تركتُه مع إدارة الصحيفة.

ملاحظة: لا أرسل لك هذه المعلومات من أجل الجائزة. أودُّ فقط أن أساعد في جمعك مع زوجتك، لسبب أنا نفسي لا أفهمه، وقد يكون السبب نفسه الذي دعاني إلى ملاحظة حزن زوجتك الدفين، وافتعال ذاك الحديث معها على سطح الفندق.

بانتظار ردِّك.

طوني عسّاف

على سرير سهى

وضعَت ريم طعامًا للقطِّ في المطبخ. أرادت أن تسمع صوتًا يرافقها وهي تستكشف أرجاء المنزل، فشغَّلَت التلفاز. فتحت باب الشرفة، ووقفت تنظر قليلًا إلى البنايات حولها، ثمَّ رجعت إلى الداخل، وأغلقَت الباب. مرَّت بالمطبخ من جديد، لتطمئنَّ أنَّ القط يواصل أكل طعامه. على البراد، واجهَتها ورقة موجَّهة لها وموقَّعة باسم سهى. "ما تحطّي مَيّ لتايغر من الحنفية. بس من قناني الشرب"، كُتِب على الورقة. وجدت بعض الصحون غير المجليَّة، ففتحت الماء عليها. سحبت قنينة سائل الجلي المنظِّف، وضغطتها مُخرِجةً منها بعض السائل في وعاء بلاستيكي وجدته في الزاوية. ملأته بالماء وغمَّسَت الإسفنجة، ثم بدأت جلي الصحون ووضعها في رف بالخزانة العلوية.

لم تستغرق معها عمليّة الجلي الكثير من الوقت. عندما انتهت، سكّرَت الحنفية وجفّفت يديها بالمنشفة المعلّقة، والتفتت إلى حيث وضعت طعام القط فوجدت الوعاء ناقصًا، ولم يكن تايغر هناك. حملت قنينة ماء شرب وجدتها فوق الطاولة وصبّت في وعاء القط، وأعادت ملء الوعاء الآخر ببعض العلف الجاف.

أرادت تفقُّد غرف الشقّة. مرّت بغرفة الجلوس، وأطفأَت التلفاز، وحملت حقيبتها، ثمّ تابعت جولتها التي انتهت في غرفة النوم. هناك، عند العتبة، وقفت تحدِّق في السرير الموضَّب، فوجدت القطّ نائمًا قرب المخدة. رفع رأسه عندما سمع خطوها، ونظر إليها للحظة، ثمّ دفن رأسه في جسمه من جديد.

جلست ريم على طرف السرير ووضعت حقيبتها قربها. لم يأبه القط لجلوسها. من مكانها، أخذت تتفقد الغرفة: الستائر، الكرسيين، الباب الجرار الموصل للغرفة الخزانة، الباب الموصل للشرفة الصغيرة، الثريا، المرآة، العطور وأشياء سهى على المنضدة المتصلة بالمرآة.

أخرجت من حقيبتها مفكّرتها. قرأَت فيها قليلًا. أمسكت بالقلم لتكتب، ثمّ تراجعت وتركت المفكّرة على السرير بجانبها.

سقط شعاع ضوء داخل الغرفة من بين الستارتيْن. أخذ يتّسع ويمتد إلى الأمام ببطء. تابعت ريم امتداده، ولم تلبث أن شعرت بالنعاس حين لامس الشعاع قدميها. خلعت حذاءها، وتركته على الأرض، ونامت.

تلفاز سهى: لا تشربوا الماء!

"من يومين، استقبلنا بالجمعيّة مندوب شركة عالمية متخصصة بفحص المَيّ بالبيوت وقياس نسبة التلوث فيها. أخدو عينات من كتير بيوت وشقق لبنانية ببيروت والمناطق. كانت النتايج مرعبة. بعد أكتر من عملية فحص،

قلب لون الميّ أحمر غامق، ولقينا الصِدي ماليها. البكتيريا كان فينا نشوفا بعيونّا. اللي سمُّوه الخبرا... لحظة لشوف... إي... الرقم الهيدروجيني. هيدا الرقم لازم ما يطلع فوق الـ٧ بي أتش. إي لحظة لإتأكد. صح. ٧ بي أتش. بتعرفي أدّيش طلع معنا؟ ٢٥! متصوّْرة شو معناتها إنه يطلع ٢٥؟ هاي جريمة بحق العالم ببيروت والمناطق اللي عم تشرب ميّ ملوثة بكل ما للكلمة من معنى، خاصةً إذا منتذكّر تقارير منظمة الصحة العالمية اللي بتشرح إنُّو ٨٠ بالمية من الأمراض الْ عَم تصيب الإنسان ناتجة عن تلوث الميّ بالكائنات المجهرية اللي بتسبّب أمراض.

الموضوع خطير، وممكن يتحول لمأساة حقيقية. ونحنا بالجمعية بدنا نقول شي للعالم، ومش عم نبالغ نحنا وعم نقوله. وين الكاميرا؟ هون؟ ما بأى تشربو من مَيِّة الشركة الواصلة ع البيوت ومش بس ما تِشربو. ما بأى تِستخدمو مَيِّة البيارا الخاصة بالبنايات. وإذا ولا بدّْ بدكن تستخدموها، حاولو يكون عندكم خزانكم الخاص مش المشترك، وعقموه، ونضفوه بشكل دوري. أما السيتيرنات ومحلات بيع الميّ، فَتْأكدو بالوزارة من أسماء الشركات المرخصة والمراقبة قبل ما تِشترو منها. أو اشترو من الميّ المعبأة تجاريًا اللي بتلاقوها بأي سوبرماركت. هالمنتجات مارقة ع الوزارة. ونحنا من جهتنا، وابتداءً من بكرة، ح ننشر تقرير بأسماء الشركات اللي مش مرخَّصة، وح نكمِّل نجرِّب نتابع الموضوع مع الوزارات المعنية، ولو إنُّن ما عم يردُّو علينا".

تحالف عناصر قديمة

"خليه معك"، قال ضرغام لخالد عندما قدَّم له الأخير ملفَّ الأرشيف.

"ما بدَّك تعرف شو فيه؟"، سأله خالد.

"ليش وْصِلتْ لشي؟"، أجابه العجوز سائلًا.

"لهلاً لأ، الإعلان اللي حطّيتو إنتَ بالجريدة وقتا، والرسالة اللّي رادّة عليك. بس انطلاقًا من الردّ، فيه ناس ممكن بلّش إسألن"، قال خالد.

"طب اقعود. اقعود وخَبِّرني عنّك قبل"، أخذ ضرغام الملفَّ منه، ووضعه بلا اهتمام بجانبه.

جلس خالد. سأل عن سلام، فردَّ العجوز مسرعًا حاثًّا إيّاه على البدء بقصته: "مش جاية اليوم".

"بتشرَب شايْ؟"، سأل خالد محاولًا التملُّص.

نظر إليه ضرغام خائبًا، وأجاب أنْ نعم.

أخذ خالد وقته في صنع الشاي. عندما عاد، كان ضرغام قد نام في مقعده. وضع خالد الصينيّة على الطاولة، ومدَّ يده ليوقظه، ثمَّ تراجع. نظر إليه وهو مستغرق في النوم. نصف جسده العلوي يعلو ويهبط مع كل نفس، رأسه محنيٌّ على كتفه الأيمن، شعره مشعَّث، ذقنه غير حليقٍ بشعرات متوزعة باختلاف الغزارة على الجلد الهرم.

لِمَ نام؟ أليس هو الذي طلب منه أن يخبره؟ هل غرق في النوم قصدًا؟ هل أراد تجنيبه الإحراج، وانتظاره ليكون مستعدًّا ليقول هو بنفسه كل شيء، من دون أن يسأله؟

ما الذي كان سيقوله خالد لو كان ضرغام مستيقظًا؟ عمَّ كان سيخبره؟ عن سهى؟ عن معرفته بسفرها؟ عن شعوره بالملل من تذكُّر تفاصيل علاقته بها؟ عن ضيقه من هذا الشعور الذي يحسبه خلوًّا من الوفاء؟ عن شعور الفضول الذي ما زال يعتريه بالرغم من ملله؟ كيف يترافق هذا وذاك؟ وماذا عن ريم؟ ما الذي يخبره عنها، وهو نفسه لا يعرف كيف يصف علاقته بها؟ كيف يشرح له قدرته على الابتسام، وأحيانًا الضحك، في وجودها؟ عمَّ يحدِّثه؟ عن عمله الذي حدس أنَّه بحاجة إليه ما إنْ زار غرفة الأرشيف؟ عن مصادفة لقائه برئيسه السابق في العمل عند مدخل الصحيفة؟ عن سؤال المدير المباشر له؟

أيُّ القصص هي القصَّة الأساسية، وأيُّها الفروع؟ ومن أيِّها يبدأ بالكلام؟

ما إن دخل رئيس خالد المصعد، حتَّى خرج حارس مدخل مبنى الصحيفة من وراء مكتبه، وأعطاه جريدة اليوم مصحوبة بـ "حمد الله على السلامة إستاذ". ربت خالد على كتف الرجل، وطوى الجريدة وضمَّها إلى الملفِّ الأسمر، ومشى مبتعدًا عن المبنى. وقف عند ناصية الشارع الذي يوصل نزولًا إلى شارع الحمراء، وانتظر وصول تاكسي.

"مش ناوي ترجع؟"، رنَّت آخر جملة قالها له مديره في رأسه. تردَّدَت بلا توقف ولم يكن قادرًا على إيقافها. وعلى الرغم من أنَّها جملة مكرورة لا تختلف بشيءٍ عن كلام لينا له في جلسة المقهى، لكنَّ التوقيت والمكان وتراكم المشاعر القديمة كلِّها جعلتها تكتسب المعنى. تذكَّر جملة ترجمها برداءة في أيام مراهقته من رواية إنكليزيَّة، وعلَّقها في باطن باب خزانته ببيت والديه المستأجَر: "إنَّ تحالف عناصر قديمة من شأنه أن يعيد في لحظةٍ تشكيل الصورة على نمط مغاير".

في الشارع، لم يتغيَّر الكثير. بائع اليانصيب ظلَّ في مكانه يبيع الأوراق، ومحلّ الديفيديَّات المقرصنة توسَّع، ومحل الثياب الرجالية المغبَّر الذي لا يدخله أحد حافظ على غبار واجهته. حتَّى سائقيْ سيارتي الأجرة اللَّذين توقَّفا له، سألاه السؤال نفسه: "لوين يا إستاذ؟" في المرَّتين، كان خالد شاردًا يستمع لجملة رأسه، فلم يُجب. شتمه السائقان وتابعا سيرهما.

لم يتغيَّر شيء. لكنَّ شيئًا ما لم يعُد مكتومًا على الأقل، شيئًا ما بدأ بالتشكل. ولهذا، قرَّر خالد القيام بزيارة أخيرة، وتدوين صفحة أخيرة في المفكِّرة، قبل غلقها ورميها.

نظر إلى ضرغام وهو يغطُّ في النوم، ثمَّ حمل ملفَّ الأرشيف الأسمر، وغادر الشقَّة بهدوء. كاد يغلق الباب من الخارج لولا أنَّه رأى سلام خارجة من باب المصعد، تحمل أكياسًا بلاستيكية مليئة بالمشتريات. مهلًا، ألم يقل ضرغام إنَّها لن تأتيَ اليوم؟

ترك خالد الباب مفتوحًا، فهُرعَت سلام ناحيته، ولمَّا وصلت إليه، همس لها أنَّ ضرغام نائم، فأومأَت برأسها، ودخلت الشقَّة.

اتَّجه خالد إلى باب شقته. ما إن أغلق الباب وراءه حتَّى رنَّ هاتفه في جيبه.

كانت لينا.

مقالة رئيس التحرير: ملل

لم أصدِّق عينيَّ وأنا أتابع التقرير التلفزيوني الذي سرد حادثة تنكر شباب عين الرمَّانة في هيئات حيوانات لإرهاب السكَّان، بتصنع الملاحقات الليليَّة لحيوانات في الشوارع. ولمَّا قرأتُ التقارير الصحفية، تملَّكني العجب. ولم يلبث أن تحوَّل هذا العجب إلى استياء فعلي مع متابعتي للتدخُّلات الحزبية المختلفة لإطلاق سراح الشباب المتورطين.

لِمَ كل ذلك؟ لتبرير الأمن الذاتي؟ لا يبدو لي ذلك مقنعًا مع اكتشاف اختلاف الهوى السياسي للشباب. ولعلَّ هذا التفصيل هو وميض الأمل الوحيد في هذه الحادثة البائسة. لقد اجتمع شباب من خلفيات سياسية متناحرة ترفض التحاور بعضها مع بعض، وقاموا بعمل واحد، ومن المؤسف أن يكون هذا العمل بهدف تخويف باقي المواطنين.

هذه الحادثة تلفت النظر إلى جرس الإنذار الذي يُقرَع أمام أعيننا ونستمرُّ في تجاهله. والمرء يحار في الأسباب التي دفعت شبابنا إلى مثل هذه الارتكابات الغريبة. هل هو الملل؟ هل هي محاولة لجذب الاهتمام؟ هل يريدون أن يلفتوا أنظارنا إليهم، أو إلى ما يحدث حولنا؟

هذه أسئلة لا أملك إجاباتها، لكنِّي لا يمكنني هنا التغاضي عن حقيقة لم يتنبَّه إليها كثر. لقد فعل الشباب فعلتهم في الشارع نفسه الذي اندلعَت منه شرارة الحرب اللبنانية، وهذا يدلِّل من جديد على حقيقة وحيدة: الأمس

هو اليوم، والخوف أن يبقى الأمس هو المستقبل!

انطفأ كل شيء

فتحت ريم عينيها على صوت رصاص بعيد. وجدت نفسها تحدِّق في سقف معتم. للحظة، تساءلت أين هي، ثمَّ تذكَّرت أنَّها في شقَّة سهى. التفتَتْ إلى يمينها فوجدَت القط يلحس يدها. على وقع حركتها، رفع تايغر رأسه ونظر إليها، ثمَّ تثاءب. كانت الغرفة معتمة، إلَّا من ضوء خفيف منبعث من وراء باب غرفة الملابس.

لبثت في السرير لدقائق، وهي تشعر بالثقل. كم من الوقت نامت؟ نظرت في الساعة، فوجدتها تشير إلى ما بعد منتصف الليل. هل نامت كل هذه الساعات بالفعل؟ مرَّرَت يديها بين خصلات شعرها، ثم قامت. كادت تنزلق إذ علقَت قدمها في غطاء السرير المنسدل على الأرض، لكنَّها استعادت توازنها. أزاحت الغطاء عن قدمها ورفعته، فسمعت صوت شيء يقع. التفتت لتجد مفكرتها قد وقعت على مقربة. انحنت وحملتها، ووضعتها في الدرج قرب السرير.

اتَّجهَت ناحية غرفة الملابس حيث الضوء. كبست على زر إضاءة غرفة النوم، ثمَّ فتحت الباب الجرَّار، فانكشفت الغرفة عن رفوف تمتلئ بملابس مطوية وثياب معلقة على دائرها في مستوى تناول اليد. على الأرض، كان هناك طبقة أخيرة صُفَّت عليها أحذية سهى. استطاعت ريم بالرغم من العلب الكرتونية المتروكة بفوضى وسط الغرفة أن تتبيَّن الموكيت الأزرق الذي يغطِّي الأرضية.

عندما عادت إلى الغرفة، لم تجد القطَّ على السرير، فآثرت توضيبه كما كان قبل نومها عليه، ثمَّ انتعلت حذاءها، وحملت شنطتها، واستعدَّت للرحيل. سمعت صوت انفجار من بعيد، متبوعًا بزخَّات رصاص عميقة،

اقتربت من باب الشرفة، وفتحته، وخرجت. كانت بيروت تشعُّ بالأنوار المتناثرة على امتداد النظر، ولم تستطع أن تتبيَّن أيَّ شيء في السماء المعتمة، ثم سمعت صوتًا مكتومًا ثانيًا، وانطفأت المدينة كلها أمامها.

كان القمر مضيئًا في السماء الحالكة، ووجدَته ريم حزينًا.

كانت أكيدة من ذلك.

هواتف الجمهور: دولاب ومفرقعات

أكَّدت مصادر أمنية لقناتنا أنَّ صوت الانفجار الذي سُمع في ضاحية بيروت ناجم عن مفرقعات أُطلقَت بمناسبة افتتاح فرع جديد لمحلات "Baby Land" في منطقة فرن الشباك، أما صوت الانفجار الثاني فناتج عن انفجار دولابَيْ شاحنة على طريق بعبدا، وما من علاقة بين الانفجارين وانقطاع الكهرباء الشامل الذي حدث بعد الانفجار الثاني بلحظات.

وبسبب قوة صوتَي الانفجارين، قام بعض الشباب بالخروج إلى أسطح البنايات في مناطق متفرقة وإطلاق الرصاص في السماء احتجاجًا، ولم يُبلَغ عن سقوط أي جرحى.

ودَعَت المصادر الأمنية القنوات التلفزيونية إلى توخِّي الدقَّة وضبط النفس، وألا تؤدِّي المنافسة المحمومة في ما بينها إلى تبنِّي الأخبار الخاطئة وغير الموثوقة.

كواليس

اتَّصلت به لينا ودعته لحضور تصوير البرنامج. أطلق خالد على الهاتف ضحكة عالية. ظنَّها تمزح، لكنَّها أصرَّت، وكانت تتحدَّث بمنتهى الجدية.

سألها عن محتوى البرنامج. "برنامج منوعات"، أجابته.

"بعرف منوَّعات. ليش إنتي بتستلمي إلا منوَّعات. عن شو يعني البرنامج؟"، سأل من جديد.

أخذت لينا تشرح له. في البرنامج، يقف مشتركون، هم شخصيات عامة من مجالات عمل مختلفة، على ارتفاعات مختلفة ويقفزون في المسبح.

"وبعدين؟"، سألها.

"ما شي... إنُّو في رقص وغنا وهيك... والرقص جوَّة الميْ كمان مش بس برَّاتا!"، ردَّت.

أكمل خالد يضحك، فطالبَته: "وْلُكْ حاج تضحك!"

بعد أن هدأ ضحكهما قليلًا، عادت لينا تكمل إقناعه:

– إنت ناقصك فرفشة.

– هيئتِك إنتي اللي ناقصِك فرفشة يا لينا. وينو روجيه؟ جايي كمان؟

– روجيه ما فاضيلي. مسافر بعد يومين لشي شهر. عندو ترايننغ بالشغل وكم كورس بالجامعة لازم يخلصُن.

– لوين؟

– لندن! وبعدين تعا لهون. حاج تضيِّع الموضوع. إنتا جايي الليلة. وحَ تنبسط كتير!

ريم قالت في المقهى، عندما سألها عن وجهة سفر سهى: "لندن"، ثمّ استدركت وقالت إنَّها غير متأكدة.

"خالد؟ آلو؟"، سألت لينا.

"أنا هون. خلص. جايي الليلة. منتعشَّى مع روجيه بعدها؟"، ردَّ.

"إذا خلّصنا بكير وإذا كان ما نام بعد"، قالت.

"لا. قوليلو ينطرنا وما ينام. منتعشَّى بعد النطّ"، أجابها ضاحكًا.

مساءً، انتظر خالد لينا في غرفة البثّ. تغطَّت مقدِّمة الغرفة بشاشات تلتقط لقطات ثابتة ومتحركة تصوِّرها الكاميرات داخل المسبح. تحت الشاشات، امتدَّت لوحة تحكم لتغطي كامل المساحة بأزرار وعصي

تحكّم مختلفة الألوان والأحجام. جلس المخرج ومساعدوه على الكراسي واضعين السمّاعات على رؤوسهم، يتضاحكون مع بعضهم أحيانًا، ويتحدثون مع المصورين ومديري الإستديو أحيانًا أخرى، إمّا عبر ميكروفونات السمّاعات أو تلك المنتصبة في لوحة التحكّم.

لم يمضِ وقت طويل قبل أن تحضر لينا، وتسلّم على الشباب، وتصحبه معها في جولة بالكواليس.

"أنا مديرة الانتاج بهالبرنامج"، قالت له وهما يمشيان في الرواق. لم يكن خالد يسمع أيّ ضجة من داخل الإستديو، وظنّ أنّه لم يُسمَح بعد للجمهور بالدخول. لكن، ما إن فُتِح بابٌ قربهما، وخرج منه أحد الموظّفين ليستفهم من لينا عن تفصيلٍ ما، حتّى هدر صوت موج بشريٍ من الداخل. استرق خالد النظر من فتحةٍ الباب الذي ظلّ الموظف ممسكًا به، فوجد مديري المسرح يدرّبان الجمهور على التصفيق جماعيًا والصراخ عند إشارات يقومون بها بأيديهم.

تابعا سيرهما، وقالت له لينا: "ح تشوف الضربة الثلاثية هلّأ! مستعدّ؟".

في غرف الكواليس، التقى خالد بالمغنيّات الأشهر في لبنان: رايا، وكنزي، وأنيسا. كنّ ثلاثتهنّ في غرف منفصلة، يلبِسْنَ ملابس غريبة الشكل من قطعتين. كانت القطع الأولى أشبه بمايوهات قصيرة، بينما القطع الثانية أردية تُلبَس فوق المايوهات، وتُظهر بعض ما تحتها. كانت رايا في شعر برتقالي اللون فُرِدَ على الكتفين، وكنزي في شعرها المتموج الكستنائي المعتاد، أمّا أنيسا فقد احتفظت بشعرها الأسود متوسط الطول.

كلّما دخلا إلى غرفة إحداهنّ، قامت لينا بترديد التفاصيل نفسها مع اختلافات طفيفة في تراكيب الجمل والأسماء: "بتعقّدي! (...) شو هيدا؟ (...) ح نعمل شي حلو الليلة يحكي عنه كل الناس بالبلد! (...) كلّو تمام؟ ناقص شي؟ (...) إي، لما يخلص مقطعك بتشلحي القطعة الفوقانية، بدنا

نخليها تبيِّن جزء من الـ show، مش إنُّو عم نستعد للنطّ (...) لا، لا. كل شي ح يمشي تمام!"

أنهيا جولتهما، ودَعَته لينا إلى الجلوس في الصفّ الأخير في المدرَّج قائلة إنَّ عليها العودة لمتابعة بعض التفاصيل. جلس خالد قرب شاب وفتاة بَدَوَا له مرتبطين. ظهر مديرا المسرح من جديد، وأعادا ترداد إشارات الأيدي المحفِّزة للجمهور. بحسب حركة الكفّ المرفوعة، كان الجمهور يردُّ بأنواع مختلفة من التصفيق، أو بشهقة، أو بالصفير، أو بترداد مقطع من أغنية...

مرَّت الدقائق العشر، وبدأ العرض برقصة مائيَّة، يُرافقها موسيقى البرنامج وتصفيق الجمهور الإيقاعي. أخذ خالد يراقب الوضع، ثم أحسَّ أنَّ وجوده بلا حركة ولا تفاعل، قد يبدو غريبًا وسط هذا الموج البشري المتحمِّس. كانت الكاميرات تطوف على الجمهور، تلتقط تفاعلهم، ولم يودَّ أن ينزع الصورة للينا وفريقها، فصار يقلِّد تصفيق الجمهور على استحياء قبل أن يندمج قليلًا أكثر فأكثر، ويشعر بالطاقة الحماسيَّة التي سادت المكان.

لم تدُم الرقصة المائية أكثر من دقائق خمس، ظهر المذيعان في منتصفها وقاما ببعض الحركات المواكبة، ثمَّ شرعا يقدِّمان النجوم المشتركين في البرنامج الذين أخذوا يركضون ناحية مقاعدهم وهم يحيُّون الجمهور.

مال الشاب الجالس بقرب خالد إلى صاحبته، يريها خبرًا ظهر على شاشة هاتفه. عندما أبعد خالد نظره عنهما، وجد الحضور في الصف أمامه ينظرون بدورهم إلى شاشات هواتفهم التي وضعوها بين أقدامهم كي لا تلتقطها الكاميرا.

كانت الفقرة الابتدائية، قد انتهت وظهر الفاصل الموسيقي من جديد، عندما انطفأت الكهرباء في المسرح كله.

راديو التاكسي: القفزة الثلاثية

تفاجأ مشاهدو برنامج "القفزة" التلفزيوني، الذي نُقِل مباشرةً على الهواء الليلة، بظهور الفنانات الثلاث رايا وكنزي وأنيسا معًا في عرض غنائي استعراضي. وهذه هي المرَّة الأولى الذي يحدث فيها مثل هذا التعاون الفني بين الفنانات اللواتي ملأت اتهاماتهنَّ العلنية المتبادلة الإعلام سنواتٍ طويلة.

بعد انتهاء العرض الراقص، أدلت كل واحدة من الفنانات بتصريح خاص، فحين سُئلت رايا: "لمين بتهدي قفزتك؟"، أجابَت: "بهديها ضدّ الحزب". أما الفنانة أنيسا فقرَّرت إهداء قفزتها لرئيس الجمهورية وتحيَّته على جهوده لمنع الفتنة، فيما قالت الفنانة كنزي إنَّ قفزتها التي تدرَّبَت عليها لأسابيع هي من حقِّ مؤسَّسة الجيش، وحين سُئلَت عن الذي تعنيه بعبارة "من حقّ"، أجابت كنزي أنَّها أرادَت فقط استخدام كلمة مختلفة عن زميلتيْها اللتيْن تحبُّ وتحترم.

وقبل تواصُل الحوار، باغتَت الفنانات الحضور والمذيع بالقفز من مكان وقوفهنَّ على علو خمسة أمتار في المسبح، بلا تحضير موسيقي، فشهق الجمهور الحاضر في الإستديو.

وما إن خرجْنَ مبتلاتٍ من الماء، حتّى فجَّرَت الفنانات مفاجأة أخرى بالإعلان عن قيامهنَّ بحملة إعلانية مشتركة كجزء من جهودهنَّ لدرء الفتنة التي تهدِّد البلد.

وبعد انتهاء الحلقة، اشتعلَت مواقع التواصل الاجتماعي بالتعليقات، ودار الهمس أنَّ القفزة الثلاثيَّة كانت محضَّرة سلفًا، بعكس حديث المذيع بعد خروج الفنانات من الماء.

وكانت كواليس البرنامج قد شهدت لغطًا مع انقطاع الكهرباء الشامل الذي عمَّ المناطق اللبنانية وقطع البث المباشر، خاصةً مع عدم دوران

احتياطيّات الطاقة المرافقة للبث، وبروز صعوبات في تشغيل مولِّد الإستديو الكهربائي، ممّا هدَّد بإلغاء الحلقة، وحُلَّت المشكلة بإطالة الفقرة الإعلانية إلى نصف ساعة أُصلِحَ خلالها المولِّد.

بعد الفرفشة

قلق خالد على لينا بعد الجهد الذي بذلته لحلِّ أزمة الكهرباء. حاول الاتصال بها أكثر من مرّة، لكنّ هاتفها كان مغلقًا، فقدَّر أنّها قد تكون تتفادى الردَّ على الصحافيين. وضع الهاتف في جيبه، ونظر في المرآة الأمامية، فوجد سائق التاكسي يحدِّق به. التقَت نظرتاهما، فانتقل السائق يتفقّد المرآة الجانبية، وأدار الراديو.

انطلقَت نشرة منتصف الليل بأخبار سياسية محلية وعالمية ومرَّ خبرٌ عن البرنامج.

عندما انقطعت الكهرباء، ظنَّ جمهور الإستديو أنَّ العتمة جزء من التصوير. لكنَّ تلقِّي الناس لأخبار عاجلة عن انفجارين مزعومين جعلهم يتحادثون ويصفِّرون ويعترضون. ولم تكن ميكروفونات غرفة البثّ تعمل كي يُشرَح لهم الوضع. كان من الممكن أن تحدث مأساة بوجود الارتفاعات والمسبح.

أخذت لينا الأمر على عاتقها. نزلت وسط العتمة، مستخدمةً مكبّر صوت يعمل بالبطّارية، وراحت تطلب من الجمهور أن يلزم مكانه، من أجل سلامة الجميع. أعلمتهم أنَّ هناك عطلًا كهربائيًا يجب ألّا يستغرق إصلاحه أكثر من نصف ساعة، وشرحت أنْ لا شيء غير اعتياديٍّ يحدث في الخارج، مفصِّلةً أنَّ فريق العمل أجرى اتصالات بوزارة الداخلية التي أكدَّت لهم أنْ لا انفجارات وقعت. وبعد الشرح، الذي قوطع بتشويش من الجمهور أكثر من مرّة ، طلبت لينا من الموجودين الانتظار دقيقةً

لأنّهم سيشهدون مفاجأة.

ظهر صوت كنزي عبر المكبّر نفسه، يطلب من الجمهور إضاءة هواتفهم ورفعها في الهواء. قالت لهم إنّها ستغني أغنيتها الجديدة وطلبت منهم أن يتفاعلوا معها، إمّا تصفيقًا أو بالتلويح بهواتفهم المضيئة. "واحد إيه واحد لأ يرفع السيليولير، وواحد إيه واحد لأ يزقّف معنا"، قالت.

تفاعل الجمهور مع الأغنية، التي أُتبِعَت بأغنية من رايا، قبل أن يحين دور أنيسا. ثمّ عادت الكهرباء في الإستديو، فاستقبلها الجمهور بتصفيق حادّ، واستكمِل البث.

ابتسم خالد وهو يستعيد ما حدث. كانت فرفشة فعليّة برغم أنّ مشروع العشاء مع روجيه طار. حاول مهاتفته، لكنّ خطّه كان أيضًا مغلقًا. قلّب في الأرقام على هاتفه، ووصل إلى رقم ريم. فكّر أن يتّصل بها، ثمّ تفلّتت منه نظرة ناحية المرآة الأمامية، ليجد السائق ينظر إليه من جديد.

هذه المرّة لم يكن ممكنًا تفادي الحوار، فقال له السائق: "إستاذ ما تواخذني بس شفتَك ضاهِر من الإستديو، وشكلك كَيِّس وبتفهم. في موضوع بدي إستشيرك فيه".

مونولوغ السائق

"يعني ما بعرف من وين بدي بلِّش يا إستاذ. بس متل ما بِقولو: "أقصر طريق لقلب الرجل معدته". لَه. مش هاي. هاي واحدة تانيي. بقصُد: "أقصر طريق هوي الخطّ المستقيم". وأنا هيك ح أعمل معك، رح إحكي بشكل مستقيم. إستاذ، بالمختصَر، بكرة رايح جيب فَرد. مع إنُّو عندي اتنين... بس إنُّو الواحد بيزهق. أول واحد استهلكتو. مع إني ما استعملتو. محطوط بالجارور ومسكّر عليه. بس هيك مدري كيف صار قديم. إنت أدرى يا إستاذ. وبدّي جدِّد. بدي من هيدا اللي بيرشق دغري، مش طلوع. هيك

خبط لزق. للاستخدام يعني. عرفتو؟ أنا مش عم إحكي معك لإسألك عن السلاح، لا سمح الله. أكيد شكلَك ما بيقول إنك تبع أسلحة، ما تواخذني. بس عم قلّك لأنُّو مبيِّن عليك فهمان. شو عم يصير بالبلد يا إستاذ؟ إنُّو مرق علينا إيام حرب، بس ما كانت هيك. كنّا معوّدين، بس هلّأ بطّلنا. والفَوْتة صعبة بعد الطّلعة. أصعب شي الفَوْتة. بعدين بتسلك، كل يوم عم نسمع عن حالة خطف يا إستاذ. صاير بِرجع بكير ع البيت، وبتفادى فوت بطرقات مش مضوّاية. بتعرِف يا إستاذ لو كانت أحزاب عم تخطف ناس بعضها، أو حتّى ناس عالهوية، والله كانت نصّ مصيبة. إنُّو الواحد بيعرف بمين بيحتمي، وبيعرف حدوده. بس هلّأ شو؟ أي واحد بدُّو يخطف بينطلّك بيقلك خطفتَك وبْيِبْعَت لأهلك بدُّو مصاري. وهيدا بعد ما حكينا لا ع المي، ولا ع الكهربا، ولا ع هالحكي الداير عن الغاز، وعَ الناس اللي عم تموت مدري كيف. إنو الفرد ممكن يساعدَك تمنع الخطف، بس باقي الإشيا شو حلّها؟ إنت شو رأيك؟ شو شايفلنا؟ لوين رايح البلد؟ بْتعرِف يا استاذ. مبارح زحّط معي التاكسي. ما الطقس كلو متل ما شايف ملعبَج، عم تشتّي بوقت ما لازم تشتّي فيه، وتشمّس وقت الناس بدُّن ياها تشتي. كِنت مِتتْ وماتو معي الركاب ع لحظة، لولا جورة وقع فيها دولاب السيّارة ورجعت مسْكت السيّارة بالأرض. الله يخليلنا الجُوَر يا إستاذ. عجبك؟ جورة ممكَن تطلّعك من جورة. هيك كلُّو ماشي يا إستاذ بهالبلد"...

بيتزا وبيرة

طلبَت سهى بيتزا وبيرة إلى غرفتها بالفندق. يجب ألّا تشرب الكحول، تعرف ذلك، لكنّها لا تبالي. كلّما فكّرت في الساعتين والنصف اللتين أمضتهما منتظرة في المطعم اللندني، شعرت بتوقٍ للشرب.

قال لها إنّه سيأتي مرّتين، ولم يفعل. في المرّة الأولى، تحجّج بطارئ

وتحدَّث عن المشاكل التي تحاصره. محض ابتزاز عاطفي، عرفت سهى، ولم تنزلق لتردَّ برسالة نصية ولتسأله ما إذا كان بخير. وفي المرَّة الثانية، قال إنَّه خارج لندن، وإنَّه لم يجد مقعدًا على الطائرة. لولا أنها تعرفه، لقالت إنَّه يشاهد الكثير من الأفلام العربية. وببساطة شديدة كان من الممكن التحقُّق من كذبته. اتَّصلت باستعلامات مطار هيثرو وتحقَّقت من وصول الرحلة، ثمَّ طلبت من استعلامات المطار رقم شركة الطيران. تواصلت معهم، وابتدعت حجَّة عن انتظارها في المطار خروج زوجها. قالت إنَّها تعتقد أنَّ جميع الركاب قد خرجوا، وأعربت عن قلقها إذ أخذت تتساءل عن مكان وجوده. طلبوا منها اسمه، فأعطتهم إيَّاه. لم يصعد الطائرة، قالت الموظَّفة. كيف؟ هل كانت الطائرة محجوزة بالكامل؟ هل هناك من لم يصعد غيره؟ "لا، سيدتي، اسم زوجك لم يكن حتَّى على قوائم الركاب. والطائرة لم تكن مليئة بهم"، أضافت الموظَّفة.

كاذب. كان يجب ألَّا تخبره بالموضوع في الهاتف. كان يجب أن تترك كل شيء إلى لقائهما. لكنٍ لا بأس. في النهاية، سيأتي.

من سريرها، أخذت سهى تقلِّب الفضائيَّات العربية. توقفت عند أكثر من نشرة أخبار وخطاب صاخب. قفزت إلى قنوات الترفيه، وعادت إلى القنوات اللبنانية. دقَّ الباب، فقامت وفتحته. دخل النادل بعربة الطعام وسألها أين يضع الأطباق، فأشارت إلى المكتب القريب، ووقَّعت على الفاتورة.

اقتربت من البيتزا، ورفعت الغطاء ونظرت إلى سطحها. عاجلتها الرائحة في أنفها، فشعرت بالغثيان. تراجعت إلى السرير وهي تحمل قنينة البيرة، وعبَّت منها نصفها في جرعة واحدة.

كان التلفاز قد حطَّ على برنامج منوَّعات لبناني. ماء ورقص ونجوم وجمهور. لم تمضِ دقائق، قبل أن ترى سهى خالد يصفِّق بين الجمهور. اعتدلت في جلستها لا تصدِّق ما تراه، لكنَّ خالد ظهر مرَّة أخرى. هل

هذا برنامج للينا؟

وضعت قنِّينة البيرة على المنضدة المحاذية للسرير، ومدَّت يدها إلى الهاتف. أخذت تقلِّب في أرقام لائحة المفضَّلات عندها. مرَّت أمام نظرها الزائغ أرقام خالد وريم ولينا وروجيه. قرَّرت أن تمحو رقم خالد من اللائحة وتعيده رقمًا عاديًا بلا نجمة. توقَّفت قليلًا أمام رقم روجيه. كاد إصبعها ينزلق إلى مستطيل الاتصال الأخضر، لكنها تراجعت، وعادت تكمل تصفُّح الأرقام: رفاقها في العمل، أرقام أقرباء بعيدين، و... رقم "بيت الرجاء".

حدَّقت في الرقم الأخير لحظات ليست قليلة. كانت الإعلانات تتتابع محمومة في التلفاز. لماذا كلُّ هذه الإعلانات؟ هل انتهى البرنامج؟ ولماذا تسأل؟ تودُّ أن ترى خالد مرَّة أخرى؟ ما إن عبرت هذه الفكرة رأسها، حتَّى صعد شعور بالغثيان من أسفل معدتها، فشعرت بداخلها يتكوَّر فيها.

في كرسي الحمَّام، أفرغت كلَّ ما كان في جوفها.

تلفاز سهى: لنتعارك هناك

"أيها الأخوة، كلنا يتابع ما يحدث وراء الحدود. ونحن، مذ بدء الأحداث، اتَّخذنا موقفًا واضحًا، وقرَّرنا أن ننأى بأنفسنا. أعلنَّا أنَّ المطالب محقَّة وطالبنا بالإصلاح وعدم التقاتل، لكنَّ الأمور سارت على غير ما نشتهيه. أيها الأخوة، نحن نملك جُرأتَي القول والفعل. موقفنا تغيَّر، لأنَّ الأحداث نفسها تغيَّرت وسلكت مسلكًا خطيرًا. متابعة أحداث الشمال وحدها تنبئ أنَّ النار بدأت تقترب منَّا، ونحن لن ننتظرها لتتوغَّل أكثر فأكثر في أحيائنا وشوارعنا وتؤرِّق أمن عائلاتنا. ولذلك قرَّرنا التدخُّل لمنع العدو من الوصول، وهو بالمناسبة عدو لا يملك أيَّ خطوط حمراء، ولا أيَّ أخلاق. الوطن أيها الأخوة يذوب، وإذا كنَّا لا نستطيع وقف التناحر هنا،

فأمامنا فرصة، ساحة مفتوحة وراء الحدود. فلنُفرِغ فيها كل ما في قلوبنا من سواد. لنتعارك هناك، ولنُبعِد وطننا عن أتون الحروب"...

في المدخل

توقّف التاكسي عند مدخل الزاروب. ترجّل خالد، ونقد السائق أجرته. ردّ الأخير له بعض النقود، فرفضها خالد، وقال له: "خلّيهن. برمت بيروت كلها معي".

استمهله السائق. فتح حاجبة الشمس فوق مقعده، وأخرج منها البطاقات، ثم قدّم واحدة منها قائلًا إنّ فيها رقم هاتفه، وإنّ خالد يستطيع الاتصال به متى احتاج توصيلات داخل بيروت وخارجها. شكره خالد، ووضع البطاقة في جيبه، ومضى في طريقه.

في الزاروب، كانت أعمدة الإنارة مطفأة. مرَّ قربه شباب، وهم يضيئون أزرار هواتفهم. التفت خالد إلى الناحية الأخرى، ووقف ينظر إلى الأرض، موليًا ظهره لهم، عندما انتبه أنّهم قد يكونون يعرفونه، ثمَّ واصل طريقه ما إن مرّوا.

أكمل خالد مشيه. وقبل أن يلتفت إلى اليمين، استند إلى الحائط، وأطلّ برأسه بحذر ليتأكد من خلوّ المدخل من الأشخاص، ثمَّ اتّجه مسرعًا نحو البناية. كان باب غرفة الناطور مشقوقًا. وبخفّة، تخطّى خالد فتحة الباب ماشيًا ناحية المدخل. أراد أن يطلب المصعد، لكنّه لاحظ أنَّ هذا في طريقه للوصول. وقبل أن يفتح بابه، تبيّن أنَّ أحدًا ما فيه، فأسرع يختبئ في فسحة الدرج القريب.

فُتح الباب، وخرجت ريم. وقفت في المدخل ثوانيَ، واضعَةً شيئًا تحمله بيدها في الحقيبة، ثمَّ مضت خارجة من البناية. نزل خالد من مخبئه، وظلّ يلاحقها بنظره.

أخبرَته في لقاء المقهى عن طلب سهى منها الاعتناء بالقط والبيت، لكنّه لم يظنّ أنّها تبقى في الشقّة حتّى هذه الساعة المتأخِّرة.

علا صوت الناطور. كان يقف وراء باب غرفته ويهمُّ بفتحه، وهو يبرطم بشيءٍ ما عن مازوت المولِّد، فخطا خالد فورًا داخل المصعد، وصعد إلى الشقّة.

تلفاز الناطور: العتمة

أعلنت مؤسسة كهرباء لبنان في بيان عاجل انفصال معمل دير عمار عن الشبكة الكهربائية العامة عند منتصف هذه الليلة بشكل مفاجئ، ممّا أدّى إلى توقُّف كامل مجموعات الإنتاج في سائر المعامل عن العمل، وانقطاع التيار الكهربائي بالتالي عن جميع المناطق اللبنانية، بما فيها بيروت الإدارية.

وشرح بيان المؤسسة أنَّ الفرق الفنية تعمل على محاولة ربط المجموعات لإعادة التيار الكهربائي تدريجًا إلى كافة المناطق اللبنانية بدءًا من مساء الغد.

وأضاف البيان أنَّ الأولوية ستكون لبيروت الإدارية بحكم كونها العاصمة، ولأنَّ معظم الإدارات الرسميّة والاستثمارات الخاصة متركزة فيها، ممّا يعني أنَّ المناطق الأخرى ستخضع لتقنينٍ قاسٍ من أجل تقليل ساعات انقطاع الكهرباء عن بيروت.

عودة خالد

وقف خالد أمام باب الشقّة يتحسّس المفتاح في جيبه. حاول أن يفتح به الباب، فلم ينجح. هل غيَّرَت سهى القفل؟ أراد التأكُّد من المفتاح فانطفأ نور الطابق. بحث بيده عن مفتاح الإنارة حتّى وجده وأضاءه. ثمّ عاد

يدقّق في شكل المفتاح. كاد يشعر بخيبة الأمل للحظة، لكنه انتبه أنَّه ينظر إلى مفتاح الإستديو. تفحَّص جيبه الأخرى من بنطاله فوجد مفتاح الشقَّة هناك. انطفأ الضوء فوقه من جديد، فأعاد كبس الزرّ، واقترب من الباب.

على عكس المرَّة الأولى، كان الترقُّب يحكم حركته. دسَّ المفتاح في القفل، فانفتح الباب مباشرةً. وقف خالد عند المدخل المعتم، لا يعرف إن كان عليه فعلًا الدخول. ماذا حدث؟ كما لا يعرف سببًا لمجيئه إلى هنا، لا يعرف لماذا تردَّد. لماذا عاد إلى هنا؟ ليكتب الصفحة الأخيرة؟ هل هذه ذريعة مقنعة؟

عالقًا عند العتبة، تخيَّل أنَّ شيئًا ما مسَّ ساقه اليمنى من الأمام، ثمَّ لفَّ حوله، وأخذ يلامس ساقَيْه من الخلف. وطأة الأسئلة التي أخذت تضرب تفكيره في تلك اللحظة، أنسَتْهُ تمامًا وجود تايغر. ولم يتذكَّره إلا عندما سمع مواءه؛ فانحنى في العتمة، وحمله، ودلف إلى الشقَّة، وأقفل الباب وراءه.

اصطدمَتْ قدمه بكرسي، وكاد يوقع تايغر الذي قفز على كنبة مجاورة. فشل في إيجاد زرّ الإنارة، ثم اكتشف أنَّه في الناحية الأخرىَ من الحائط. أضاءت الثريات في مدخل الشقَّة، فتقدَّم ببطء محاذرًا الاصطدام بالأشياء، لكنَّه فشل! كان كلما اصطدم بقطعة أثاث، ينظر إليها بعد أن ينير المساحة التي تقع فيها، ويندهش كيف أنَّه لم يتذكَّر موقعها. فكَّر أنَّ الأشياء ستترك رضوضًا على جسمه، وكاد يصدِّق أنَّ قطع الأثاث تتحرَّك من أمكنتها لتصدمه.

في غرفة الجلوس، جلس في كنبته الصغيرة فوجدها واطئة. مدَّ ساقيه ولم يرتَح. قام يلتقط أسطوانة من رفٍّ في متناول يده، فعثر على أسطوانة لمطربة أجنبية لا يسمعها. رفع أسطوانة أخرى من الرفِّ نفسه وتكرَّر الأمر. هل غيَّرَت سهى ترتيب الأسطوانات؟ فتَّش عن كارم محمود، ولم يجده. أخيرًا، وجد أسطوانة "غلبت أصالح في روحي" لأم كلثوم، فقدَّم الأغنية

حتَّى مقطع "حتَّى الزمان اللي كان عطفك يعينِّي عليه"، وأخفض الصوت، واستلقى على الكنبة يستمع.

نطَّ تايغر وجلس قربه. رفع خالد نظره باتجاه الزاوية التي كان يضع فيها صحفه. لا شيء هناك. هل رمَتْها سهى؟ أخذ تايغر يتمسَّح به ويموء، فقام خالد ولحق القطَّ إلى المطبخ.

هناك، وجد خالد وعاء أكل تايغر مملوءًا بالمقرمشات الخاصة به. ريم عبَّأته على الأرجح. انحنى يمسِّد ظهر القط ويحفِّزه على الأكل، فلاحظ أنَّ الوعاء هو صحنه المفضَّل. تقدَّم نحو الخزائن العلوية وفتَّش فيها عن صحنه فلم يعثر عليه، ووجد وعاء تايغر القديم على أحد الرفوف.

كان القطُّ قد وقف على المَجْلَى، يطلب الماء، ففتح خالد له الحنفيَّة، وتركه يشرب لدقيقة، ثمَّ سكَّرها، واتَّجه عائدًا إلى غرفة الجلوس.

وقف أمام باب الشرفة، ونظر من شبابيكه. كان يشعر بالانزعاج، ففتح الباب، وخرج. جرَّب أن يتفحَّص الزرع في الأصص المعلَّقة بالدرابزين، لكنَّه لم يَرَ الكثير في العتمة. أراد أن يضيء الشرفة، فعاد ناحية الباب ليضغط على زرِّ الإنارة في الداخل، لكنَّه اكتشف أنَّه أغلق الباب وراءه. كانت أصوات المولدات في البنايات حوله تتوقَّف تباعًا، ولم يلبث السكون أن وصل بنايته، فأعتمَت الشقَّة. كرَّر خالد من جديد محاولته لفتح الباب، لكنه فشل. ماذا يفعل الآن؟ يتَّصل بريم؟ لا. لا يودُّ إعلامها بزيارته للشقة. سيكون ذلك فاتحة لأسئلة لن يودَّ الإجابة عليها. كيف إذن يخرج من هنا؟

قرَّر الانتظار حتَّى الصباح. جلس على الكرسي، بعد أن قرَّبه من الحائط، ونظر إلى الفضاء المعتم أمامه. شعر برغبة عارمة بالبكاء، ولَّدتها فكرة سيطرت عليه. لقد أخطأ بقدومه إلى هنا.

أخذت الفكرة تتعاظم في رأسه، ووصل إلى حافة البكاء الفعلي. لم يخلِّصه إلا إحساسه المفاجئ بالتعب. ارتاح في كرسيِّه، وأخذ يحدِّق بالقمر، ثمَّ أغمض عينيه، ونام.

وهذا سريرك

فتحت ريم باب شقّة ألبير بالمفتاح الذي أعطاها إياه. وقتها، رماه باتّجاهها، وقال: "تستطيعين القدوم إلى هنا متى تشائين، هذا بيتك".

ثمّ أضاف: "وهذا سريرك".

لم تأخذ ريم المفتاح. صار في ذهنها مُصاحِبًا للنكتة السمجة. بقي على المنضدة لأسبوعين، إلى أن عاد ألبير وطلب منها أخذه، ثمّ وضع المفتاح في حقيبته، وقال: "لا أحب أن أنهض في كل مرّة لأفتح لكِ الباب. هذا أسهل. أرجوكِ".

وجدت ريم تبريره غبيًّا كمعظم كلامه، لكنّ الطريقة التي قال بها "أرجوكِ"، جعلتها تغضّ النظر، وتوافق. فهي اعتادت أن تقدّر مثل هذه اللحظات الرقيقة في علاقتهما. وعلى الرغم من عنف الجنس بينهما، فإنّ ألبير كان يتحوّل في لحظات مفاجئة، فيُوقف عنفه، ويستغرق في تقبيلها، أو ينتقي أوضاعًا جنسيّة يكون فيها أقل تحكّمًا، أو يعانقها بلطف، أو يلمس ظهرها بأصابعه ويرفع شعرها ويقبّل عنقها.

كانت ريم تعرف أنّ هذه الأفعال زيارات عابرة يعود ألبير منها إلى عالمه المقيم، لكنّها قرّرت أن تقدّر الاستثناء، وألّا ترحل، آملة في اكتشاف المزيد منه.

وكما في الجنس، كان ألبير في العمل خبيرًا في رصد تغيُّر أحاسيس الناس أمامه. كلّما حدس أنّ موظفًا عنده بدأ يتململ، وانعكس ذلك على طريقة تصرفاته، يبادر ويستدعيه إلى مكتبه ليعرض عليه ما يعيد إليه حماسته.

لكنّه في الآونة الأخيرة تغيَّر في نظرها. تضخّمَ في عينَيْها قفاه، وانتبهت لشكل رجليه غير المتناسقتين مع نصف جسمه العلوي، ولاحظت الحبوب الحمراء في رقبته.

فلماذا تعود إلى هنا إذًا؟ ألِتكتشف الاستثناءات؟ أم هي الوحدة التي

تشعر بها؟ أو لأنَّها كانت تقدر، ولو بصعوبة، على النوم هنا، بعكس شقتها؟

فكَرَت في الأمر أكثر من مرَّة. عبرت كل الذرائع عقلها، ووجدتها كلها منطقية، وكلها متناقضة، فتوقَّفت عن التفكير. ومع تعاظم أرقها، ورؤيتها المتكررة لوالديها، اختارت أن تستمرَّ معه.

في المرَّة الأولى التي مارسا فيها الجنس، صعقها عنفه. صارت تتحاشى النظر في وجهه، وتُجيبه عبر الإيميلات والاتصالات الهاتفية الداخلية، ولا تتحدث كثيرًا في اجتماعات يكون حاضرًا فيها. وإذا تحدَّثت، كانت تنظر إلى غيره. اتَّصل بها واستدعاها إلى مكتبه، فحاولت التملُّص، لكنَّه دخل الغرفة أمام صديقاتها متذرِّعًا بالحديث إلى إحداهنَّ، والتفت طالبًا منها أن يتحادثا على انفراد.

اعتذر منها، وبرَّر فعلته بالشهوة. قال إنَّه كان يرغب بها بشدَّة، وطلب منها فرصة إضافية ليعتذر بشكل لائق، فأجابته أنْ لا داعي لهذا كلِّه، لكنَّه أصرَّ. دعاها إلى عشاء. غازلها ولم يطلب الجنس. أوصلها إلى بيتها، وطبع قبلة على وجنتها.

وتتالت المرَّات، حتَّى دخلت ريم إلى عمق العلاقة.

في البدايات، كانت تظنُّ أنَّ الخروج صعب. كانت منسحقة أمامه. ثمَّ تبدَّل الوضع. فأخذت تردُّ على تصرفاته من نوعها. تواجه الأنانية بالأنانية، والاستفزاز بالاستفزاز، والعنف بالعنف. صارت تتعمَّد ترك عضات حبٍّ على رقبته، أعلى القبَّة، حتَّى لا يستطيع إخفاءها بقمصانه، وتخرمش ظهره بأظافرها، وتوجعه في أمكنة حميمة. ثمَّ أخرجت انتقاماتها من السرير، فكسَرَت طبقًا، ورمَت جاكيتًا وقميصًا من الشرفة، وهشَّمَت شاشة الآي باد برميها على الأرض أكثر من مرَّة، إلى أن خدشت سيارته قبل أيام.

منذ الحادثة الأخيرة، لم تعد إلى هنا. في العمل، رأته ففوجئت به يتجنَّبها ولا يتكلَّم. دخلت مكتبه، فتحدَّث معها من دون أن يرفع رأسه. لم تهتم كثيرًا لتغيُّره، فهي لم تكن تفكِّر بالعودة إلى الشقَّة. لكنَّ الليلة كانت

غريبة. خرجت من شقّة سهى، وقرّرت المشي قليلًا، قبل أن تركب تاكسي إلى وطى المصيطبة. لكنَّها عندما وجدت شبانًا عند النواصي يحملون الأجهزة اللاسلكية، ولاحظت حركتهم الغريبة، آثرت التوجه إلى بيت ألبير الأقرب، والبقاء فيه حتّى الصباح.

دخلت الشقّة في العتمة. وجدت ألبير نائمًا في غرفة النوم. حملت بخفّة غطاءً كان على الأرض، وعادت إلى غرفة الجلوس. رمَتِ المخدّات التي على الكنبة، وتخفّفت من ملابسها، ودسّت نفسها تحت الغطاء، وأغمضت عينيها وحاولت النوم.

رغم كلِّ العنف الذي اعتادته في علاقتها بألبير، لم تتوقّع ريم ما حدث معها تلك الليلة.

تلفاز شرفة مجاورة: رحلة

في إثر العتمة الشاملة التي حلّت على لبنان منتصف هذه اللّيلة، أفيد عن انتشار عناصر حزبيين في الطرق الرئيسية للعاصمة بيروت.

وكان المواطنون قد فوجئوا، عند الرابعة صباح اليوم، وهم في طريقهم إلى المساجد، بعناصر حزبيين يقفون عند النواصي بلباس موحّد، ويحملون الأجهزة اللاسلكية.

وبقي هذا الانتشار مع وصول باصات المدارس لتأخذ التلاميذ المنتظرين في مداخل البنايات، فسادت حالة من الهلع بين الأهالي، الذين رفض بعضهم إرسال أولادهم للمدارس، وهرع بعضهم الآخر إلى استردادهم بعد معرفتهم المتأخرة بالخبر.

ولم يُحدِثْ الحزبيون أيَّ ضجة ولم يتلاسنوا مع أحد، وظلّوا يردُّون على أسئلة الصحافيّين، حول أسباب وقوفهم في الشارع، بإجابة موحّدة: "طالعين برحلة".

ومن المرجَّح أن تخيِّم ذيول هذه الحادثة على جلسة مجلس الوزراء المقرَّر عقدها بعد ظهر اليوم.

جلبة الشرفة

وصله خليط من أصوات: نشرات أخبار متلفزة، حديث مذيعة راديو، صراخ أولاد، وضجيج مولِّدات. فتح عينَيْه ليجد نفسه جالسًا على الكرسي في الشرفة..

شعر خالد بألم في أسفل ظهره، فأغمض عينَيْه محاولًا النوم من جديد. لكنَّه أحسَّ بشيءٍ يسقط في حجره. فتح عينَيْه ليجد حبَّة رملٍ، ورفع نظره باتِّجاه ولد وقف في شرفة قريبة يلوِّح له. اقترب خالد من الدرابزين، محاولًا استيعاب ما يحدث. سأله الولد إن كان عالقًا في الشرفة. للحظة، لم يفهم خالد السؤال، ثم التفت إلى الباب وتذكَّر ما حدث الليلة الفائتة، فأجاب بحركة من رأسه: "إيه"، فطلب منه الولد الانتظار، وغاب في الداخل.

نظر خالد إلى الأصص، فوجد الزرع مصفرًّا. فكَّر أن يتَّصل بريم، فهو لن يستطيع الخروج من هنا إلا باتِّصاله بها، أو تكسيره الباب. لكنَّه لا يودُّ ترك أيِّ أثرٍ يدلّ على قدومه إلى هنا. يجب ألَّا تعرف سهى بقدومه. سيشرح لريم إذًا. سيقول لها، إنَّه أتى ليحضر أغراضًا تركها هنا، وإنَّ سهى لم تغيِّر قفل الباب، وهذا دليل على عدم ممانعتها لقدومه.

تحسَّس جيبه مفتشًا عن الهاتف، فلم يجده، وتذكَّر أنَّه تركه على الطاولة بداخل الشقَّة. وقف منتظرًا عند باب الشرفة لربع ساعة استمع فيها لكل نشرات الأخبار والبرامج الصباحية الصادحة في الشرفات، قبل أن يسمع جلبة آتية من داخل الشقَّة، ويظهر أبو أحمد الناطور برفقة الولد متَّجهيْن نحوه.

فتح أبو أحمد الباب، وبدا متفاجئًا بوجوده، لكنَّ خالد سلَّم عليه بشكل

طبيعي، وانحنى يشكر الولد ويسأله عن اسمه.

- كريم.

- شكرًا يا كريم. أنا...

- جوز مدام سهى. أو يلي كنت متزوّجا... بعرفَك. بعرفَك.

افتعل خالد ابتسامة، ثمَّ رفع هاتفه عن الطاولة ليجد ثلاث إشارات لاتّصالات من ريم. اتّجه إلى أبو أحمد الذي كان يسأله إن كان يريد منه شيئًا آخر.

- بدّك إتركلَك المفتاح إستاذ؟

- لَه لَه. معي المفتاح أبو أحمد. أبو احمد مْنحكي كلمتين ع جنب؟

أخذه بعيدًا عن كريم الذي انطلق يستكشف أرجاء الشقّة ويلاعب القط، ومدَّ يده إلى جيبه مُخرجًا ورقة من فئة الخمسين ألف ليرة.

- خود أبو أحمد.

- شو هيدا إستاذ؟

- اشتري فيها شي للبنات. خود. وَلَوْ.

- وَلَوْ يا إستاذ. شو عْمِلت أنا؟ فَتحتلّك الشقّة؟

- خلص ما تحارجني. خِدا. اسمعني أبو أحمد. مبارح كنت مارق من هون، واسْتَقْرَبِت. بعد في غراض لازم آخدُن. أنا عارف إنّو المدام مش هون. قِلْت ببقى ليطلع الصبح وبعدين بفلّ.

- يعني ما بدّك مدام سهى تعرف إنّك مَرَقِت.

- فهمت عليّي.

- ولا يهمّك إستاذ. الله يهدّي النفوس.

نادى أبو أحمد كريم ليأخذه معه، فردَّ خالد أنّه سيستبقي الولد قليلًا. طلب العجوز المصعد لكنّه وجده مشغولًا فوقف ينتظره، ثمَّ وصل المصعد إلى الطابق، وفتح بابه، لتخرج منه ريم.

كانت في حال غريبة. بشرتها تفتقد للون، وتقف بصعوبة وهي تحاول

الإمساك بباب المصعد.

انهارت بين يدَيِ العجوز فاقدةً الوعي.

الكابوس

اللافتات الإعلانيَّة في كل مكان، مغروزة على جانبي الطريق. تفصلها مسافاتٌ متساوية. في كل لافتة رسم لصرصار كبير. الصرصار نفسه يتكرَّر. الزحمة مهولة، لكنَّ الصوت مكتوم. السيارات تتراكم وراء بعضها من كافة الأنواع والأحجام، وأنا في إحداها. أنظر في المرآة الأمامية فلا أراني. المرآة فارغة إلَّا من المقعد والسيارات في الخلف. أقول إنَّني حاضرة هنا روحًا فقط، أرى ما حولي ولا تراني المرآة، لكنِّني أنتبه إلى أنِّي أستطيع رؤية نفسي. أجدني جالسة في المقعد الخلفي. أرى يديَّ وقدميَّ، وأعلى صدري. أرفع يدي لأخرج شيئًا من جيبي، فلا أستطيع الإمساك به. أحاول أن أُدخِل يدي في جيبي فأفشل. أعي أنَّني لا أستطيع لمس أيِّ شيء وأنَّني لا أشعر بقدميَّ تلامسان أرض السيَّارة. أقف فأصبح فجأة في الخارج. أجد السيارات فارغة، وأنتبه أنَّ الطريق السريع يقع بالقرب من البحر. أعرف أنِّي قادرة على الحركة والرؤية لكنِّي فقدتُ حاسَّة اللمس. أحاول الإصغاء إلى صوت الموج فلا أسمع شيئًا. يبدو أنَّني لا أمتلك حاسة السمع أيضًا. أعود بنظري إلى خطِّ السيارات، وأمدُّ نظري إلى أبعد مدى، فلا أجد لسَيْله نهاية. أحاول التذكُّر. هل أعرف هذه الطريق؟ أستعيد في عقلي كل طرقات لبنان البحرية التي سلكتُها في حياتي، فلا أجد الطريق تماثل أيًّا منها. ربَّما لستُ في لبنان، أفكر. ما إن يعبر هذا الخاطر عقلي، حتَّى أنتبه للافتة إعلانية قربي، وأجد لوغو شركتي مكتوبًا في زاويتها السفلية: "ليوناردو". أتفقَّد اللافتات وراءها، فأجدها كلها لافتات من شركتي. أشعر بالضياع، وتستولي عليَّ الغرابة. أسمع صوت ريح آتية، فأفرح أنِّي

استعدتُ حاسة السمع، ثمَّ مع اقتراب الريح، تستحيل الرؤية سوداء. أضع وجهي بين يديَّ، وأغمض عينيَّ. أفعل ذلك من دون الشعور بوجهي يلمس يديَّ، ومن دون التأكد أنِّي أغمضتُ عينيَّ. أخمِّن فقط أنِّي فعلتُ. وعندما أفتحهما، أجدُني واقفة حيث كنتُ لم أتزحزح، وأرى الريح السوداء تقتلع السيارات من أمكنتها وتُلقيها في البحر. يحدثُ الهجوم بشكل منظَّم ودقيق، فلا تواصل الريح اقتلاع سيارة ثانية إلَّا بعد أن تغمر الماء السيَّارة الأولى تمامًا. يستمر الأمر وقتًا لا أستطيع حسابه، وأكتفي بالانتظار. ما إن تفرغ الطريق من السيارات، حتَّى ينكشف المدى أمامي، فأرى في البعيد سلسلة جبال ممتدة، وأسمع صوتًا جديدًا. يتكرَّر الصوت بفارق بسيط، ثمَّ تتتابع الأصوات وتختلط. أركِّز نظري في اللافتات لأتبيَّن ما يحدث، فأجدها تنفجر بالترتيب ثمَّ تقفز منها كرات سوداء. أفهم ما يحدث ما إن تقترب الانفجارات منِّي. الصراصير تخرج من اللافتات الإعلانية، وتقفز على الزفت. وهناك تبيض وتفقس وتتكاثر. في البداية أكتفي بالانتظار، ثمَّ أسمع نَبَضَانَ قلبي يتعاظم. أتأكَّد من الطريقة التي تمشي بها الصراصير أنَّها تتَّجه نحوي. تتجمَّع وراء بعضها، وراء الصرصار الأكبر، وتمضي إلى الأمام. ثمَّ ألمح نظرة الصرصار الأكبر لي. نعم. يملك نظرة، رغم القشور التي تغطي كامل جسمه. أنظر إلى أقرب لافتة إعلانية تنفجر، فأجد أنَّ أربع لافتات تفصل بينها وبيني. أتراجع وأركض، لكنَّ الجيش يقترب منِّي. وأرى حشرات صغيرة تمشي مسرعة بين قدميَّ. وألتفتُ لأرى الصرصار الأكبر قد صار أقرب. تصعد الحشرات الصغيرة على قدمي، فأشعر أنَّها تعيد لي حاسة اللمس، وأعرف أنَّني لن أستطيع الهرب، فأتوقف عن الركض. تتسلَّق الحشرات قدميَّ حتَّى تصل إلى رحمي. ألتفت، وقبل أن يهجم الصرصار، أجدني أخبط بيديَّ ساعدَي ألبير، طالبةً منه التوقف. أقول له إنِّي لا أريد وإنِّي أشعر بالإرهاق. أحاول أن أتملَّص منه، لكنَّه يثبِّتني بساعدَيْه ويتفوَّه بتفاهات. "سأريكِ"، يقول. "توقفي...

استمتعي"، يضيف. لا تنجح محاولاتي بردّه عنّي. إمّا أنّ عنفه مهول، أو أنّني أشعر بتضخّمه لأنّي قرّرت هذه المرّة عدم الاستجابة له. يستمرُّ ألبير بمحاولاته حتّى ينجح، وأجدني مثبّتة تمامًا لا أقدر على الحركة. يَلِجُني ويقول: "هذه لأنّك فعلتِ كذا... وهذه لأنّك فعلتِ كذا". لا أعود قادرة على تمييز كلامه أو أيّ تعابير على وجهه. تخور قواي وتصعد حرارة جسمي وتنخفض. أراني أنظر إليّ من فوق. لا أتعرّف على نفسي في البداية، ثمّ أنتبه للغرفة، وأعرف ألبير من مؤخرته، فأتيقّن أنّي أنا التي تحته. ومن موقعي أرى حوض السمك، وأنتبه إلى أنّ الأسماك الغريبة قد اختفَت. أجد الصراصير السوداء تسبح فيه.

النظر من الأعلى

النظر من الأعلى يُبيِّن حال الأشياء.

ريم نائمة في سرير سهى. ركبتاها منثنيتان. ووراءها ينام خالد على النحو نفسه. يصعد تايغر إلى السرير، يتقوقع كَكُرَة، يدفن رأسه في بطنه، وينام في المساحة الصغيرة وراء ركبتَي خالد. الثلاثة غارقون في مناماتهم. تايغر يهرُّ، خالد يتنهّد مرّتين كأنّه يحدِّث أحدًا، وريم لا يُسمَع لها صوت. فرش السرير عارٍ من الأغطية. الأغطية البيضاء مكوّمة داخل الغسالة الأوتوماتيكية في زاوية الحمام المغلق في المطبخ. الغسالة تدور. مرّة إلى اليمين، مرّة إلى اليسار. ترمي ماءً وصابونًا على الأغطية المدمّاة. يختلط الدم بالماء والصابون. يغلب اللون الأحمر في البداية، ثم تدور الغسالة دورات سريعة، فيختفي اللون الأحمر في السائل. صوت الغسالة يعبر من المطبخ إلى غرفة الجلوس، والغرفة فارغة إلا من كريم النائم على الكنبة.

الدم الأحمر يُسحَب مع ماء الغسالة. تبتلعه البالوعة. الدم الأحمر ما عاد أحمر. اختلط بسوائل كثيرة آتية من شقق أخرى حتّى اختفى. صار

جزءًا من سائل داكن كثيف الملمس والرائحة. ينحدر السائل في القسطل العام، من الطابق الرابع حتّى الثالث فالثاني فالأول، حتّى حفرة المجارير، وينضمُّ إلى سوائل تأتي من قساطل أخرى، ومن الحفرة ينتقل إلى قساطل البنى التحتية تحت الشوارع، ويتسرَّب بعضه إلى عمق الأرض.

يجري السائل في قسطل في الحائط وراء أبو أحمد الذي يجلس مع عائلته، يشاهدون خطاب رئيس الوزراء. يصعد صوت رصاص مجنون في الهواء، فيدخل الناس إلى شققهم، وتبقى التلفزيونات والراديوهات تُحدِّث بعضها من شرفة لشرفة. يعبر سرب من الحمام في السماء التي تفصل بين المباني، يسرق كشّاش حمام حمامة من سرب جاره، فيأخذ الأخير يكيل له الشتائم.

يصحو خالد على صوت الرصاص، ليجد نفسه في سريره القديم. يرفع يده عن ريم بخفَّة وينهض. يتَّجه إلى باب الشرفة، ويُحكم إغلاقه، فتنكتم الأصوات. يمشي إلى غرفة الجلوس، فيعثر على كريم نائمًا على الكنبة.

"كريم... كريم..."، يهمس وهو يربِّت على كتفه.

يصحو كريم نصف مغمض العينين، وهو يهمهم.

"صار لازم تروح. هلَّأ أهلك بيقلقو عليك"، يقول له خالد.

"مانون فاضيين... بِكونو أصلًا ما انتبهو"، يردُّ كريم وهو يجلس.

يطلب منه خالد أن يُخفض صوته لأنَّ ريم نائمة.

"شو صاير معا هالمرا"، يسأل كريم.

ينظر خالد إليه زاجرًا، ثم يقوده إلى الباب ويرفع هاتف الإنتركوم ويطلب من أبو أحمد أن يوصل كريم إلى بيت أهله.

"على فكرة، أنا مو ولد صغير"، يقول الولد ممتعضًا.

"صح، بس الرصاص متلّى الدني، ولازم تروح ع البيت... بدي منَّك شغلتين. بدِّي ياك إذا قدران، تجي بكرة الصبح، لأن أنا عندي مشوار وما بدِّي إترك ريم لحالا. بدِّي ياك تقعد حدًّا. والشغلة التانية، لما ترجع سهى

من السفر، ما لازم تعرف شي عن اللي صار"، يقول خالد للولد وهو يضع يده على كتفه.

"إنَّك إجيت لهون أو إنُّو صار معا هيك؟"، يسأل كريم.

"كل شي كريم"، يقول له خالد وهو يفتح له باب المصعد.

"طيب طيب... ماتعيِّط بوجي... رح إجي بكرة"، يردُّ الولد.

يُغلِق خالد الباب، ويعود إلى غرفة النوم. يجد ريم على حالها في السرير. يقف عند غرفة الملابس. يضيئها ويدخل، ثمَّ يغلق الباب وراءه.

يقف يتفحَّص الرفوف. تلامس يده ثياب سهى المطويَّة. الكنزات، البناطيل، القمصان، الفساتين المعلقة. الأحذية. كلَّما لمس شيئًا، ومضَت سهى في رأسه، تدخل مطعمًا، تجلس على كرسي، تترجَّل من سيارة، تمشي في طريق جبلية تستلقي على كنبة، ترفع ساقيْها على الدرابزين.

ينظر إلى معصم يده اليمنى المحمرَّة من أثر قبضة ريم.

"خالد... خالد... خالد"، كرَّرت خائفة وهي تشدُّ على يده. كان قد حملها إلى السرير وهي نصف غائبة عن الوعي، وطلب من أبو أحمد أن يأتيه بطبيب. وفي السرير حاول إيقاظها. سحب قارورة عطر من قوارير سهى ورشَّ على يده وجعلها تشم. استيقظَتْ بينما كان كريم يقف على مقربة.

"ليك، ليك"، قال الولد وهو يشير إلى الغطاء.

عندما رأت ريم الدم يبلِّل الغطاء، تشنَّجت. صارَت تطلب من خالد وتكرِّر ألَّا يتركها. كان خالد يردُّ أنَّه معها، ويقول لها "روقي". لكنَّها لم تكن لتترك معصمه. عندما نظر خالد إلى بقعة الدم وجدها على حالها لا تتوسَّع. أمر كريم أن يخرج، فلم يمتثل الولد وظلَّ واقفًا. طلب منه خالد عندها الذهاب لاستعجال أبو أحمد، فنفَّذ كريم الطلب.

عاد أبو أحمد مع أحد الجيران الأطباء. عرف الجار خالد. هذا زوج المرأة التي أركن سيارتي أمام سيارتها فأعيق خروجها كل يوم. لحظة.

زوجها، أم طليقها؟ نظر إلى ريم، فلم يتعرَّف عليها.

لم يكن هناك وقت للأسئلة. فتح الطبيب حقيبته، وحضَّر حقنة المهدئ. ظلَّ خالد يطمئن ريم، ولم يمضِ وقت كثير بعد وخزة الإبرة حتَّى ارتخت وأفلتَت يده. طلب الحكيم عندها من الجميع الخروج، ليقوم بفحصه، لكنَّ ريم أشارت لخالد أن يبقى.

بعد الفحص، تحدَّث معه الطبيب على انفراد، وقال وهو يدوِّن أسماء أدوية: "ما في شي. هاي الدورة جايتها قوية. يمكن صاير معا شي لمنهارة هيك".

شكر خالد الطبيب، وأخرج من جيبه مالًا، لكنَّ الطبيب اعتذر عن قبوله مبرِّرًا بالقول إنَّ "الجيران لبعضا"، وانصرف.

عاد خالد ليجد كريم ينتظره في غرفة الجلوس. فكَّر أنَّ ورقة الأدوية ذريعة مناسبة لإبعاد الولد الفضولي، فسأله إن كان بمقدوره الذهاب لشراء الأدوية، وأعطاه مالًا وقال إنَّه سيترك باب الشقَّة مشقوقًا. أخذ كريم الورقة والمال وانطلق إلى الصيدلية.

في غرفة النوم، استغرقت ريم في النوم. همس خالد لها باسمها، فلم ترد. رفعها قليلًا ونزع الغطاء الملوَّث من تحتها. ثمَّ خلع بنطالها ولباسها الداخلي. بلَّل منشفة في الحمام، وعاد. حاول تنظيف جسمها، من دون أن يطيل النظر إليه. لكنَّه، في لحظة، توقَّف وحدَّق في كل شيء. ولم يقطع نظره إلا طرق كريم على باب الغرفة قائلًا إنَّه عاد. طلب خالد منه الانتظار في الخارج. نظر حوله فوجد بيجاما لِسهى مطوية على كرسي قريب، فأتى بها وألبسها لريم، ثمَّ فتح الباب لكريم.

يجلس خالد على الأرض في غرفة الملابس. أمامه صندوق من ثيابه التي تركها وراءه، وجمَّعَتها سهى. ينظر من شقوق الباب إلى ظهر ريم في السرير. يمرُّ في عقله خاطر غريب، أن يدقَّ باب الغرفة من الداخل. أنا من خلف الباب أرى كل شيء. كل شيء في الداخل والخارج. أنا أمام باب

مغلق. لكنّي في الداخل. لو دققت، فهل يفتح لي أحد؟

النظر من الأعلى يبيّن الأشياء أكثر. يجعلها تُجاوِزُ معانيها الحاليَّة، يختصرها، يمطّها، يشيلها، يحطّها. النظر من الأعلى ينبئ بما سيحدث في الآتي من الأيام. في تلك اللحظة، كان يمكن لمن يرى كل شيء من الأعلى، ولا يعرف شيئًا مما حدث، أن يلمح التالي:

في غرفة أولى، شاب يجلس على أرضية غرفة ملابس قرب صندوق. ينشج محاولًا كتم صوت بكائه عن فتاة نائمة في السرير تحلم أحلامًا سوداء. في غرفة مجاورة، يختبئ قطٌّ تحت كنبة. في شارع قريب، رجل عجوز يمسك بيد ولدٍ على عكس إرادته ويوصله إلى منزل أهله. في السماء، رصاص متقطّع، وفي الشوارع المعتمة، سيارات تصطدم ببعضها على غير هدى.

أما السائل الداكن الكثيف فيستمرُّ سيلانه في القساطل نحو الأسفل.

من الأعلى، كلما ابتعد النظر، تصير الأرض وباطنها سواء.

تضمر التفاصيل حتّى تختفي تمامًا، أو تكاد.

تلفاز أبو أحمد: الخطاب

"أيها اللبنانيون، أيتها اللبنانيات،

أتوجّه إليكم بالحديث، وبلدنا يشهد انفلاتات أمنية متعمَّدة غير مقبولة، ينزف دمًا ويودع أبناءً إلى ما وراء الحدود، ويئنُّ مع أنين أمهاتهم الثكالى وعائلاتهم المفجوعة.

منذ اللحظة الأولى التي كُلِّفتُ فيها برئاسة الحكومة، أعلنتُ أني سأصارع الأفق المسدود، وحاولتُ اختراق جميع الأزمات، متسلّحًا بكل ما أوليتموني من قوة وثقة، فتحملتُ الكثير، وترفعتُ عن الصغائر، وتجاهلتُ حملات التجنّي المنظمة التي طاولَتني، وغلّبتُ الحكمة،

لأحافظ على الوطن.

أيها اللبنانيون، أيتها اللبنانيات،

لقد صعقتُ وأنا أتابع أطرافًا ممثلة لكم تتقاذف الاتهامات على خلفيات طائفية ومناطقية، وبعض هذه الاتهامات طالتني شخصيًا. وانتبهتُ اليوم، من طريقة النقاش في جلسة مجلس الوزراء، إلى القاع الذي آلت إليه الممارسة السياسية في بلدنا.

أيها اللبنانيون، أيتها اللبنانيات،

تستمرُّ المعاناة كبيرة، ويستمرُّ خصومنا في السياسة بطُرُق مشكِّكة حينًا، وبمكابرة حينًا آخر، متجاهلين الواقع الدقيق الذي يمر به البلد، والمحيط المتفجِّر شمالًا وشرقًا وجنوبًا. لكنِّي ما زلتُ واثقًا أنَّ شعبًا كريمًا مثلكم لن ينحني، وأرضًا كأرضنا أعصى من أن تنقلب ركامًا، وسماءً كسمائنا ستصفى، وتزهو بأرزة ترفرف في وسط علمنا الذي لن يُنكَّس أبدًا.

ومتابعةً ليقيني، وإفساحًا في المجال للمعارضين ليتقدموا بمشاريعهم، أعلن استقالتي من رئاسة الحكومة.

ثقوا أنَّ استقالتي هذه لن تمنعني عن خدمتكم. سأبقى إلى جانبكم، وسننتصر معًا على الفتنة.

عشتُم وعاش لبنان."

أرشيف فاطمة

"عزيزي السيد ضرغام، هذا كل ما أعرفه. أرجو التواصل معي على الرقم الذي تركتُه مع إدارة الصحيفة. (...) – طوني عسَّاف".

حفظ خالد الإعلان منذ أن قرأه للمرَّة الأولى. تفاصيل فيه جعلته استثنائيًا. الملاحظة التي أنهى بها عسَّاف، التفاصيل المرويَّة، الشال،

الحزن على سطح القمر، وآلام الجسم... لم يسبق له أن وجد مثل هذه التفاصيل في إعلانات الصحف. لم يكن المضمون وحده هو ما لفته فقط، فطريقة السرد نفسها كانت مختلفة عن الصِيَغ المعتمدة في الإعلانات الصحافيَّة.

ترجَّل خالد من التاكسي أمام مبنى الجريدة متأبِّطًا الملفَّ الأسمر. دخل المبنى فرحَّب به موظَّف الاستقبال، وتوقف منتظرًا المصعد. فُتح الباب وخرج منه مديره. قال له مبتسمًا إنَّه بات يراه كثيرًا هنا، وإنَّ هذه إشارة جيدة، وسأله: "إيمتى ح نقعد؟". "قريبًا بحكيك"، ردَّ خالد. "وأنا بالانتظار"، ردَّ المدير مربِّتًا على كتفه.

اتَّجه خالد إلى الطابق الأول ليبحث عن فاطمة، أقدم موظَّفي السنترال.

تعمل فاطمة في القسم منذ أكثر من ثلاثين سنة، رغم أنَّها لم تكمل تعليمها. تعرف الجميع في الجريدة، وتحفظ قصصهم، وواكبت كل نظم الاتصالات والأرشفة. التقاها خالد مرَّة يتيمة طيلة مدَّة عمله بالجريدة، لكنَّه اعتاد سماع صوتها عندما كانت تحوِّل له الاتصالات. كان يعرف صوتها على الهاتف أكثر ممَّا يعرف شكلها. لكنَّه عندما دخل القسم، عرفَته مباشرةً، ووقفَت ترحِّب به بصوتها المميز وهي تدخِّن.

"ما في شي بيضيع عند فاطمة. هلأ بجِبْلَك قرارو"، قالت له عندما أراها إعلان طوني.

"رزق الله هيدا من أول كم سنة اشتغلت فيهن هون. يي يا عيب الشوم منك. ما سألناك شو بتشرب؟ قهوة. يا سليم. سليم. نُطّ جيب للإستاذ قهوة من الكافيتيريا".

شكرها خالد، وقال إنَّه شرب قهوة في المنزل. أخذت فاطمة تتحدَّث عن مواكبتها لكل المتغيرات في القسم، وتشرح عن دفاتر كانت تنسخ فيها كل شيء منذ بدأت عملها وهي شابة هنا. "وهلأ صار عندي تلات رجال"، أردَفت قاصدة أبناءها.

"يعني منلاقي رقمو؟"، قاطعها خالد قبل أن تقصّ تاريخ عائلتها عليه.

"شو منلاقيه؟ نص ساعة، ساعة بالكتير وبيكون الرقم معك. كله مقيَّد بالسنين بدفاتر سطر سطر. أنا مْنظّمِتُنْ"، ردَّت جازمة.

"تمام"، قال وطلب منها تصوير ورقة الإعلان لعلَّ ما فيها يساعدها في مهمّتها للحصول على الرقم.

"عندك فوتوكوبيير هون، أو بِطْلَع بصوِّرها وبرجع؟"، سألها.

"فوتوكوبي؟ لشو الفوتوكوبي؟ هيَّانا"، وضعت فاطمة الورقة على المكتب وصوَّبَت عليها كاميرا هاتفها.

"خلصنا. هِهْ. لشو السمارت فون؟ مش لتصوِّر فيه؟"، تابعت.

شكرها خالد، وقال إنَّه سيصعد إلى قسم الأرشيف عند مدام جانفياف لساعة ثمَّ يعود. خرج، ووقف يطلب المصعد. وخلال انتظاره، سمع فاطمة تتحدَّث في الغرفة عن تايُّورات جانفياف.

رحَّبَت به جانفياف كما في المرَّة السابقة، ثمَّ استمهلته دقائق لتطلب الإذن بدخوله غرفة الميكروفيلم، وسألته إن كان يودُّ شرب القهوة، ريثما تأتيها الموافقة المعتادة. "إذا ممكن"، أجابها. رفعت جانفياف الهاتف واتَّصلت بالكافتيريا، بينما انهمك خالد بتصفُّح الجريدة التي وجدها أمامه.

دخل العامل حاملًا القهوة، ورنَّ هاتف جانفياف في الوقت نفسه. كان اتصال الموافقة على دخول غرفة الميكروفيلم. قامت جانفياف، وطلبت من العامل اللحاق بهما.

لم يستطع خالد أن يمنع نفسه من النظر إلى تايُّور جانفياف، وهو يمشي وراءها. لاح على وجهه طيف ابتسامة، من تلك الابتسامات التي يحصل عليها المرء عندما يفهم فجأة مواقف حدثت في الماضي القريب أو البعيد.

راديو التاكسي: الحادث

يومٌ واحد فقط مرَّ على بثِّ تقريرنا عن زحمة السير واحتمال توقُّف الإشارات الضوئية عن العمل، قبل أن يحدث ما حذَّرنا منه. خمس سيارات آتية من اتجاهات مختلفة عند تقاطع بمنطقة الأونيسكو، اصطدمت ببعضها بعد منتصف الليل مخلِّفةً أربعة قتلى، وأكثر من عشرة جرحى، إصابات بعضهم خطرة.

وقد ظلَّ بعض الركاب عالقين داخل السيارات المهشَّمة لأكثر من ثلاثة أرباع الساعة، ومن استطاع الخروج منهم، بقي ملقىً على قارعة الطريق، قبل وصول سيارات الإسعاف.

لكنَّ تقصير الدولة لم يمنع المواطنين من أداء واجباتهم. فقد هبَّ سكّان البنايات القريبة ونزلوا إلى الشارع لمساعدة الجرحى، وتطوَّع بعضهم لنقل الجرحى إلى مستشفيات المنطقة.

ودعت جمعية السلامة العامة وزير النقل في حكومة تصريف الأعمال إلى المبادرة السريعة لضبط الفوضى على الطرقات، لأنَّ استمرار الوضع على ما هو عليه، سيزيد احتمال حوادث السير، التي ارتفع عددها بشكل مفاجئ هذا العام، مقارنةً بالأعوام السابقة، وذكَّرت الجمعية بمشروع قانون السير الذي تقدَّمَت به، ونام في أدراج لجنة النقل النيابية.

البحث عن طوني عسّاف

طلب خالد من سائق التاكسي أن ينزله عند تقاطع الشيفروليه. وجد نفسه واقفًا أمام كشك، فقرَّر شراء علبة سجائر. "ششش"، طالبه البائع بالصمت وهو ينصت للأخبار في الراديو قربه. انتظره خالد لدقيقة، ثمَّ أعاد طلبه، فنهزه البائع من جديد: "شششششش". عندما وجد خالد أنَّ الرجل غير

مكترث له، ابتعد عن الكشك وقطع الطريق إلى الجهة المقابلة.

فكّر خالد أنَّ عدم تجاوب البائع خلّصه من العودة للتدخين. نظر إلى الطريق التي تصعد تلَّ سنِّ الفيل. أوقف سيارة أجرة، ثمَّ بدَّل رأيه في اللحظة الأخيرة واعتذر من سائقها. كان يشعر بحاجة للمشي، وبرغبة في التعرُّق، ووجد الطريق أمامه تفي بالمطلوب.

قبل أن يباشر صعود التلِّ، اتّصل بكريم.

جاء كريم صباحًا إلى شقّة سهى، رافعًا في وجهه هاتفه الجديد، أعطاه الرقم، وقال إنَّه حاضر للخدمة طالبًا منه الاتِّصال به متى يشاء. من أين جاء هذا الولد؟ ألا يذهب إلى المدرسة؟ تساءل خالد وهو ينظر إليه، ثمَّ فكر أنَّ الولد أكبر من عمره فقط، وأنَّ ما من شيء غير اعتيادي في تصرفاته وردوده. وعلى أيِّ حال، الوقت غير مناسب للتحقيق مع الصبي، فليس هناك غيره ليستعين به في رعاية ريم.

همس كريم قائلًا أنَّ ريم نائمة. "إنتبه عليها"، ردَّ عليه خالد. ثمَّ شعر أنَّ عليه أن يشكره، فقال له: "كريم... شكرًا كتير. عم عذّبك معي". لم يُجبْهُ الولد واكتفى بإنهاء الاتصال.

مشى خالد بضع خطوات وشعر بالتعب.

أهو نوم الكنبة، أم إنجازه لأشياء كثيرة بلا توقُّف منذ بداية اليوم؟

أفاق من نومه المتقطِّع مع شروق الشمس. أطلَّ على ريم، فوجدها غارقة في النوم، لم تظهر منها أيّ حركة أو إشارة تدلُّ على استيقاظها في وقت قريب. فتح حنفيَّة الماء لتايغر، وانتظره لينتهي من الشرب ثمَّ سكر الحنفيَّة، ووضع له بعض العلف الجاف، وعاد لينام.

لم تمضِ ساعة قبل أن يدقَّ الباب ويظهر كريم، فتركه خالد في الشقَّة، ومرَّ على أبي أحمد. طلب منه أن يطلَّ على الموجودين في الشقَّة عند الظهيرة، ثمَّ انطلق إلى الجريدة. زار السنترال، وصعد إلى غرفة الميكروفيلم، ثمَّ نزل إلى السنترال من جديد. عاد برقم طوني عسَّاف من

فاطمة، ورجع إلى استديو الأشرفيّة يتفقّده. يحتاج المكان لتنظيف، لكنّه لا يملك الوقت حاليًا لذلك. وقف في الشرفة يلتقط أنفاسه، فوجد ضرغام جالسًا. دعاه العجوز إلى شرب القهوة. "بس قهوة هالمرّة، مش شاي. وإنت بتعملا"، قال العجوز. لبّى خالد الدعوة. ترك الملفّ الأسمر قرب العجوز عن قصد، ودخل المطبخ ليصنع القهوة.

مشى خالد في سنّ الفيل. رغم تعبه، أراحه الإحساس بأنّ جسمه ينفث العرق. التفت ونظر، فوجد التقاطع الذي بدأ المشي منه قد صار أسفل التل. وضع يديه على ركبتَيْه، والتقط أنفاسه. من موقعه، استطاع رؤية المقهى الذي تواعد مع طوني أن يلتقيه فيه، فآثر الاستعجال ومتابعة خطواته الأخيرة ناحيته.

عاد خالد بصينيّة القهوة لضرغام. أزاح الملف الأسمر جانبًا، ووضع الصينيّة مكانه. وجد الملف مغلقًا كما تركه، ولم يبدُ له أنّ ضرغام فتحه. "ما بدّك تشوف شو لقيت لهلّأ؟ لازم إحكيلَك يعني أنا بالأول؟"، سأله خالد وهو يصبُّ القهوة.

رشف ضرغام من القهوة، وفاجأ خالد بتراجعه عن شرطه. "بعدين... بعدين... أنا اللي ح إحكيلك اليوم. ح إحكيلَك كل شي"، قال.

دخل خالد المقهى، فاقترب منه النادل يسأله أين يودُّ الجلوس. أجابه أنّ أحدًا ينتظره، وتفرّس في وجوه الجالسين باحثًا عن طوني عسّاف.

ما رواه ضرغام – ١

كنّا سعداء. ستسألني ما هي السّعادة وسأجيبك: لا أعرف.

ينبغي أن أُخبِرَك القصّة من بدايتها. فالقصص لا تُفهَم إلا إذا حُكِيَت بداياتها. لا يهمُّ من أين تبدأ بالقصّ. المهمُّ أن تنتقي بداية. أن تقول من هنا بدأَت الأشياء. أن تكون مقتنعًا بأنّ كل ما سيحدث بعدها – إنْ حدث –

انطلق من هذه البداية، وأنَّ كلَّ ما حدث قبلها مهَّد ليصل إليها.

سأنتقي بداية لحكايتي، تشبه المداخل الهانئة لأشهر القصص.

قبل اندلاع الحرب، عشتُ في بيت أهلي الكائن في سوق الغرب، قرب عاليه. كان أبي قد توفِّي في أوائل السبعينيات، وهاجر أعمامي وأولادهم إلى البرازيل، ولم تكن الصراعات تعقَّدَت بعد. وبالرغم من أنَّني لم أكن منتسبًا رسميًّا لأي طرف سياسي، إلَّا أنَّ انتمائي إلى عائلة كبيرة في الضيعة ساعدني على تجنُّب الكثر من المشاكل. كانت علاقاتي بمختلف الأطراف في سوق الغرب والضِّيَع المحيطة جيدة.

وقتها، لم يكن يسكن المنزل إلا أنا وأمي. وماما كانت قليلة الحركة ولا تتكلَّم كثيرًا. كنتُ أنتقل بها في زوايا البيت الكبير على هذا الكرسيِّ المُدولَب الذي تراني أجلس عليه. كانت تبقى جالسةً عليه في الشرفة، وتحدِّق في حشائش الوديان، وتسمع أصوات العصافير والزيزان، وكنتُ دائمًا أعتقد أنَّها تنصت أكثر ممَّا تنظر، ولهذا ربَّما لم تكن تتكلَّم كثيرًا، لأنَّ إنصاتها يتطلَّب صمتها.

كان بيتنا يطلُّ على رأس بيروت. وكنا نسمع الأصوات العميقة القادمة من العاصمة. سوق الغرب لم تكن بعيدة عن الحرب كما تعرف. فالبلدة ستأكل نصيبها بعد سنوات، عندما تصير من المناطق المركزية التي شملها الاجتياح الإسرائيلي، ثمَّ حرب الجبل، انتهاءً بالكرِّ والفرِّ للسيطرة عليها حتَّى أواخر الثمانينيات.

لكن لِمَ قفزتُ إلى مثل هذه التفاصيل؟ استعجلتُ الرواية؟ فلنُسمِّه شرحًا للظروف. لكنَّك تعرف هذا كلَّه، أليس كذلك؟ ألستَ صحافيًّا؟

حسنًا، سأحاول البدء من جديد.

بعد اندلاع الحرب في منتصف السبعينيات، صرتُ ألازم المنزل أكثر، فأرعى ماما وأكلِّمها، وَلَو لم تردَّ عليَّ. لكن، بعد تدهور الأوضاع، صار لزامًا عليَّ، أنا الشاب الذي تخطَّى منتصف ثلاثينيَّاته، أن أقوم بمشاوير

واتصالات لحماية ممتلكاتنا المنتشرة في أكثر من منطقة، إذ كانت تجارتنا العائلية عابرة لحواجز التماس. ولمّا لم يكن ممكنًا أن أترك ماما وحدها، جئتُ بمجموعة مسلّحين ووزّعتُهم على مداخل البيت الحجري، وطلبتُ من صديقي في البلدية أن يأتيني بامرأة لتعتني بأمي.

كنتُ أجول في المناطق بحماية أمنية. أنت تعرف. للحروب دائمًا قوانينها الخاصّة، ومعرفتكَ بهذه القوانين تخوِّلُك أن تنجوَ بحياتك في أقسى الأيام، وأن تتابع عملك، بل أن تربح وتستمر. كان يمكن مثلًا لعدوَّيْن أن يشتريا أسلحة من الوسيط نفسه، ليقوِّصا بها على بعضهما. وكان يمكن للعبث أن يصل أيضًا إلى حدٍّ إيقاف إطلاق النار في محور، لإمرار أناسٍ دفعوا ليعبروا من منطقة إلى أخرى. كانوا يحظون بمواكبة من طرف أولٍ يسلّمهم إلى طرفٍ ثانٍ يوصلهم إلى وجهتهم النهائية، وما إن تعبر المواكب حتّى تتواصل التسليَة الليلية، ويعود القواص.

أنا نفسي كنتُ أدفع. أمر من منطقة لمنطقة، وأدفع.

كثرت انتقالاتي بين المناطق. كنتُ أوكل مهمة حماية الأملاك لمجموعة مسلّحين، تمامًا مثلما فعلتُ في بيتنا، وأحرص على التحدُّث مع المسؤولين عن أمن المناطق التي تقع فيها الأملاك، فأتواصل مع هذا وذاك، وأدفع الخوّات. وبسبب سوء الأوضاع، كنتُ أبقى أحيانًا محتجزًا في منطقة لأسابيع غائبًا عن المنزل.

وفي مرّة، غبتُ شهرين كاملين، وعدتُ، فرأيتُها. كانت تجلس قرب أمي في الشرفة، وعرفتُ أنّهما تتحدّثان من دون كلام. فهمتُ أمي أكثر، وصرتُ أميل لتصديق فكرتها التي لم تقُلها: "النظر أصدق من الكلام".

كنت أحدِّق فيهما من الخلف، بينما تنظران إلى الأحراج غير منتبهتَيْن لوجودي. رمَتنا الوديان بأصوات الانفجارات، ثمّ حلّ الصمت من دون سابق إنذار. وخُيِّل إليَّ لحظتها أنّي عرفتُ ما أريد، وأنّي صرتُ أعرف نفسي أكثر.

كان اسمُها جانيت.

راديو الكشك: تعاون

بسبب الظروف الأمنية الدقيقة التي تمرُّ بها البلاد بعد استقالة الحكومة، وبغية عدم تعريض سيارات المواطنين لأيِّ عملية كسر أو خلع أو تلف أحد أجزائها نتيجة تفتيشها، تعيد شعبة العلاقات العامة في المديرية العامة لقوى الأمن الداخلي تذكير المواطنين بضرورة وضع بطاقة تعريف بشكل ظاهر على لوحة القيادة "التابلو"، تتضمَّن الاسم الثلاثي لمالك السيَّارة ومحل الإقامة ورقم الهاتف للاتصال به عند الضرورة، عند ركن السيارات في الشوارع. وتشكر شعبة العلاقات المواطنين على حسن تعاونهم في هذه الفترة العصيبة التي يمرُّ بها الوطن.

ما رواه ضرغام - ٢

لم تمضِ أيام كثيرة قبل أن أتحدَّث مع جانيت. كنتُ أومئ لها، وأشكرها لعنايتها بوالدتي، وأدعوها لتناول الغداء معنا، وكانت تعتذر دائمًا، وتكتفي بهزّ رأسها، وتختفي في عتمة الغرف.

وكانت تُحضر معها ابنها الذي يبلغ تقريبًا الخامسة فيمسك بذيل ثوبها، ويلحقها أينما ذهبت، فتجلسه قربها على البلاط، وتعطيه لعبة تشغله عنها أو تُنيمه على كنبة قريبة، إلى أن تنهي عملها.

وفي يوم، عدتُ مبكرًا عن الموعد الذي أعلمتُ به مسلّحيَّ. إذ كنتُ أظنُّ أنِّي سأغيب عن المنزل شهرًا، لكنِّي أنهيتُ جولاتي في أقل من أسبوعيْن.

دخلتُ بسيارتي مدخل البيت، لأجد مسلَّحًا من المسلَّحين خارجًا مع ابن جانيت. سألتُ الشاب إلى أين يذهب بالولد، فقال إنّه يصطحبه إلى الدكان ليشتري له كيس بطاطا. استفسرتُ منه إن كان يفعل ذلك بطلب من

أمه، فاستغرب المسلَّح سؤالي، وسأل عن هويتي. عرَّفتُ عن نفسي بأنّي صاحب المنزل، فرحّب بي الشاب وبدا عليه الارتياح. قال إنّه لا يعرف الولد ولا أهله، وإنّه وجده بين المسلَّحين تحت البيت.

صعد الشاب الطوابق، ودقَّ على باب البيت، فلم يفتح له أحد. أطلَّ زميل له كان نائمًا عند الدرج، وقال إنَّ الست الكبيرة – قاصدًا أمي نائمة، وإنَّها لا تستطيع فتح الباب بنفسها. سأله الشاب إن كان الولد الذي مع المسلَّحين ابن الست، فضحك زميله وأجاب أنَّ الست الكبيرة عجوز، وأنَّ أحدًا غيرها لا يسكن المنزل، وأنّها أمُّ صاحب البيت، ثمّ استدرك قائلًا إنَّه جديد هنا.

عاد الشاب إلى جمع المسلَّحين. لم يظنَّ أنَّ سؤاله إيَّاهم عن أهل الولد ستكون فكرة جيدة. فهو يعرف كيف سيتصرَّفون معه. سيطلبون منه أن يهتمَّ بشؤونه وألَّا يتدخَّل. وقد يتفاقم الموضوع لعراك هو بغنى عنه، ولاسيَّما أنَّه لم يكمل أسبوعه الأول في العمل.

فكَّر الشاب أنَّ ردَّ فعل المسلَّحين سيكون مغايرًا، إذا ما ادَّعى أنّه مسؤول عن الولد، وأنَّ عليه أخذه إلى أهله. نفَّذ خاطره، وانتشل الولد من بينهم، وقرَّر مرافقته مشيًا إلى مدخل البيت، إلى أن يظهر أهله. عندما ابتعد عن المسلَّحين، سأل الولد عن اسم عائلته، لكنَّ الأخير لم يُجِبه، فآثر اصطحابه إلى الدكان في الساحة، لعلَّ صاحب المحل يعرفه.

سألتُ المسلَّح عن اسمه، فردَّ: "سليمان". شكرتُه وقلتُ له إنِّي أعرف أمَّ الولد، وإنَّها تعمل عندي في المنزل، ثمَّ طلبتُ منه أن يُدخِل الصبي إلى سيارتي، وأن يتابع طريقه إلى الدكان ليأتي بكيس البطاط الذي وعده به، وأن يلاقيني بعدها في المنزل.

كان يفصل بين المبنى والمدخل طريق عشبية تمتدُّ ما يقرب من كيلومتر واحد، قدتُ معظمها على مهل. بل إنِّي كنت أتوقَّف وأسلِّم على المسلحين. انتبهتُ عندها أنَّ بيتي بات أشبه بثكنة عسكرية، وأنَّ

الأمر زاد عن حدِّه.

حول سيارتي، انكشف المشهد عن جلول زرعها أبي شجر فاكهة، ووجئتُ حينها أنَّه مثمر بشكل لا يقبل الشك، لا بدَّ أنَّ ثمَّة من يعتني به يوميًّا. أوقفتُ السيَّارة وترجَّلتُ منها. مشيتُ مقتربًا من الجلّ. نزل الصبي، ووقف قربي دون أن يقول شيئًا. كان المسلَّحون يتوزَّعون بين الشجر. بعضهم يتحادث مع أصحابه، وبعضهم الآخر مستلقٍ على العشب.

أذكر المشهد تمامًا. أرتجعه صورةً صورةً بالتتابعِ الذي شهدتُه. كانت الشمس تميل إلى الغروب، وتترك أفقًا برتقاليًا وراءها فوق البحر، عندما حدث الشيء الذي سيغيِّر حياتنا للأبد.

بدأَت الخناقة بملاسنة بين شخصيْن. رمى أحدهما تفاحة كان يأكلها، وشتم الآخر، ليهجم الثاني على الأول، ويرديه أرضًا. لم يكن واضحًا مَنْ يضرب مَنْ، ومَنْ ينتصر على مَنْ. كنتُ أميِّز حركة وأحجام الأجساد، ولا أرى تفاصيل الوجوه، وكانت الأشعة البرتقالية تختفي وراء أحد المسلَّحين، ثم تنفلش في أعيننا عندما يتحرَّك، فلا نعود نستطيع أن نرى.

لم تمرَّ دقائق قبل أن يشكِّل المسلَّحون الباقون حلقة حول المتعاركيْن؛ ثمَّ ظهر أحدهم حاملًا سلاحه، واقترب من التجمهر، وصرخ طالبًا من المشاركين في الحلقة أن يبتعدوا، قبل أن يرفع سلاحه، ويطلق رصاصة أولى باتجاه العراك.

انكتم الصراخ المشجِّع، وأمسك الولد بطرف بنطالي تمامًا كما اعتاد أن يفعل مع ثوب أمه. حملتُه مسرعًا وعدتُ به إلى السيَّارة، بينما دوَّت وراءنا رصاصة ثانية. وضعتُه في المقعد الأمامي، والتفتُّ لأرى المسلَّح يغادر عائدًا من حيث أتى، من دون أن يعترضه أحد.

شغَّلتُ محرِّك السيَّارة، وقبل أن أنطلق، نظرتُ إلى الولد لأطمئنَّ إن كان بخير. وللحظة، ظننتُ أنَّه سيحافظ على صمته، إذ أنَّ وجهه كان مفتقدًا للون، لكنَّه تكلَّم.

تتابعت الجُمَل خارجةً من فمه بلا توقُّف. كان يتحدث جملًا معكوسة، يبدأها من الكلمات الأخيرة فيها، وينهيها بما يُفترض أن تكون بدايات الجُمَل. كان يشهق ويتابع. سمعتُه يذكر أمَّه. وضعتُ يدي على يده محاولًا تهدئته، فسحبها وتراجع إلى زاوية المقعد. انطلقتُ بسرعة نحو المنزل، وأخذتُ أحدِّثه وأنا أقود، وأسأله عن اسمه وعن ألعابه المفضلة، لكنَّه لم يكن يجيب على أيٍّ من أسئلتي.

ظلَّت الجمل المعكوسة تتوالى حتَّى وصلنا إلى المنزل.

***

تأخرت ع موعدك؟ روح، روح... منكمِّل الليلة لمَّا ترجع، إذا قدران. اتروك القهوة. خلص، اتسهَّل. سلام صارت ع وصول. وانتبِه ع الطريق. ما تطلع مع سوَّاق تاكسي حمار. العالم عم تسوق متل المجانين.

تلفاز المقهى: حوادث السير

اكتشف المواطنون اليوم عددًا كبيرًا من حوادث السير وقع ليل البارحة. وقد تسبَّبت بعض هذه الحوادث بإغلاق الأوتوستراد الساحلي حتَّى منتصف اليوم، الأمر الذي أدَّى إلى بقاء بعض المواطنين ساعاتٍ عالقين في سياراتهم، بينما آثر آخرون أن يعودوا من حيث أتوا.

وسُجِّل عدد من الحوادث أيضًا عند التقاطعات الرئيسية في بيروت، ولم تُعرَف حتَّى الآن الأسباب التي أدَّت إليها، فالمناطق لم تشهد أيَّ أمطار تتسبَّب بانزلاق السيارات، ولا يبدو أنَّ توقف الإشارات الضوئية عن العمل هو السبب، بدليل عدم وجود الإشارات على الأوتوسترادات.

وطالبت جمعية السلامة العامة حكومة تصريف الأعمال بإمرار وتطبيق

قانون السير الجدي. وأضافت الجمعية أنّها لا تبالغ بطلبها إعلان حالة الطوارئ المرورية، لأنّ الليلة الماضية شهدت أعلى عدد لحوادث السير في الجمهورية اللبنانية منذ العام ١٩٩٣.

حديث القهوة والسكّر

في طريق العودة، وجد خالد نفسه عالقًا بين امرأتين خمسينيّتين في المقعد الخلفي لسيارة أجرة. أما في المقعد الأمامي، فجلس شاب لم يكن يملّ من مجاراة السائق في الحديث. لم يتزحزح السير لأكثر من ربع ساعة، فبدأت أبواق السيّارات تعلو مستنكرة، وبين خيار متابعة طريقه مشيًا، والبقاء في السيّارة منتظرًا فتح الطريق، فضّل خالد البقاء.

كان يشعر بنعاس رهيب. أراد أن يميل رأسه إلى اليمين أو اليسار، فلم يستطع لوجود المرأتين. طلب من إحداهنّ أن يتبادلا مكانيهما، فردّت عليه بنزق أنّها لا ترتاح بالجلوس في الوسط. طلب من الثانية، فوافقَت بلا نقاوض، ربما لأنّها أحسّت بتعبه. نزلَت المرأة من السيّارة، ولحقها خالد.

"لوين؟ بعد ما دفعتوا"، صرخ فيهما السائق.

"طوّل بالك عم نغيّر مطارحنا بس. الشاب هيك بدُّو"، قالت المرأة وهي تصعد لتجلس في الوسط.

"ما تواخذونا يا جماعة. بس صايرة معي أكتر من مرّة. عالم بْتِطْلَع، وبس العجقة بتنزل وما بتدفع"، استدرك السائق.

أراح خالد جسمه، وأسند رأسه على الشباك، وأطلق نظره بعيدًا مجرِّبًا أن ينام، لكنّه ظلّ يسمع صوت الراديو تخترقه شتائم السائق للدولة والشعب والسائقين. وبينما أكمل الشاب في المقعد الأمامي يتملّق السائق، تأفّفت السيدة الأولى وقالت: "عيب يا عمّ. معك نسوان. والله ما بيصير".

وقف في المقهى يفتّش عن طوني عسّاف، ثمّ فطن أنّه لا يعرف شكله.

قدَّر أنَّه إذا كان طوني قد بعث برسالته إلى الجريدة في العام ١٩٨٨ وهو في العقد الثالث من عمره، فهذا يعني أنَّه في أواخر عقده الخامس. لا يعرف خالد لِمَ افترض أنَّ الرجل كان عشرينيًّا وقت كتابة الرسالة. أيًّا كان عمره وقتذاك، هو يبحث بالتأكيد عن رجل تخطًّى الأربعين.

وجد كلَّ الجالسين شبانًا، وكانت هناك أم مع ولدها، وعندما أبعد نظره إلى الزاوية الأبعد، وجد رجلًا متقدِّمًا في العمر يجلس إلى طاولة منزوية، ولم يكن هناك غيره في المقهى.

تقدَّم منه، وهو يفكر كيف يفتتح معه الحديث. لم يُخبره تفاصيل كثيرة في الاتِّصال الهاتفي. عرَّف عن نفسه بوصفه صحافيًّا في الجريدة التي كان يعمل بها، وقال إنَّه يودُّ مقابلته بشكل عاجل لموضوع عن عمل الفنادق في فترة الحرب. "موضوع اجتماعي اقتصادي"، شدَّد خالد في اتصاله محاولًا أن يبعد طلبه عن الشبهة السياسيَّة، وأراد ألَّا يُقلق الرجل، فأكَّد له أنَّ المقابلة لن تستغرق من وقته أكثر من نصف ساعة.

"إستاذ طوني؟"، تقدَّم خالد سائلًا، فنهض طوني مرحِّبًا به. جلس خالد معتذرًا عن تأخُّره، وسأله إن كان يودُّ أن يشرب شيئًا، فأجابه طوني أنَّه طلب قهوة وأنَّها "على وصول". نادى خالد النادل، وطلب منه قهوة أيضًا، وسأله أين صارت قهوة طوني. ولم يكد ينهي السؤال حتَّى أطلَّ النادل حاملًا الصينيَّة.

بينما انشغل طوني بارتشاف قهوته، تفحَّصه خالد سريعًا، فقدَّر أنَّه في بداية الخمسين من عمره. خطر له أنَّ عليه اكتساب ثقة الرجل بحوار عادي، وأنَّ سؤال العمر قد يكون مدخلًا جيدًا للحديث. كان يملك ذلك الحدس الذي يلحُّ عليه منذ الاتصال الهاتفي ألَّا يفتتح الموضوع مع الرجل مباشرة.

سأله عن عمره، فنظر إليه طوني نظرة استغراب، فاستدرك خالد بسؤال آخر:

- قديش كان عمرك لما استلمتْ أول شغل بأول أوتيل. وين وكيف؟ خبّرني أكتر...

- مش لازم بالأول تقلّي عن شو موضوعك بالظبط؟ وليش نقّيتني أنا؟

- أكيد... أكيد... بتعرف الجرايد بيعملو من وقت للتاني ملاحق عن الفنادق بتكون مواضيعا جامدة شوي. كلّا مقابلات مع رؤسا الأوتيلات، وأرقام، ومواد إعلانية. بكلّ مرّة بيكونَ في عنوان عام للملحق. هالمرّة، قرّرو يعمْلو الملحق عن الأوتيلات بوقت الحرب، بمناسبة ذكرى الحرب الجايي. وقرّرو يغيّرو شويّ، ويعملوه بشكل إنه يكون إلو ملمح إنساني. يعني ح نغطي كل المشاكل اللي صارت مع الأوتيلات، وكيف قِدْرو يصمْدو بوقتا. طبعًا بالأخير، رسالة الملحق ح تكون إنو قطاع الخدمات شِغلْ مكمّل بأعقد الظروف. هلأّ بيناتنا، وإنت بظنّ بتعرِف هالشي، هالحكي حكي فاضي. مش كل الأوتيلات مرَقت بظروف سيئة، في منّا انتعش بالحرب بسبب علاقة أصحابها مع الأحزاب. إنتَ أدرى. بس إنّو، إيّا يكن. هيدا هوي هدف الملحق بالنهاية، وأنا ح اشتغل الجزء الإنساني البعيد عن المادة الترويجية. تحت هالعنوان، اقترحتلَن موضوع عن اللي كانو يِشتغْلو بهالأوتيلات بوقتا، ووافقو عليه.

أبعد طوني نظره، محدِّقًا في الأم والولد الجالسيْن على مقربة، كأنّما يعلن عدم اهتمامه بالحديث. فهم خالد أنَّه يفعل ذلك عن قصد. حدَّق في الوجهة نفسها، فرأى النادل يتَّجه نحوهما بالقهوة.

فتح كيس سكر أسمر من الأكياس المحشورة في حاوية صغيرة على الطاولة، وأفرغه في الفنجان، ثمَّ فتح كيسًا ثانيًا وكرَّر العملية، قبل أن يصبَّ قهوته من الركوة. بقي طوني يتابعه بعينيه، ثمَّ سأله ما إن بدأ بتذويب السكر:

- ليه ما طلبتا حلوة بدل ما تحطّ كل هالسكَّر؟

- ما بحبّ السكّر الأبيض.

– فيك تقلّن يحطُّو سكّر أسمر.

– ما بحبّْ ينحطّ السكّر بالقهوة هيي وعالنّار.

ردَّ خالد، وهو يشعر أنَّ الحديث قد بدأ يسلك اتجاهًا عبثيًّا. صمت للحظة، ثمَّ استدرك:

– وكمان ما بوثق إنُّو ح يحطُّو سكّر أسمر...

– وما فيك توثق فيهن كمان إنُّو الميّْ تكون نضيفة. عم تسمع الأخبار عن نضافة ميَّة الشرب بالبلد؟

– إي... معك حق.

رفع خالد الفنجان. نظر إليه للحظة، ثمَّ أنزله من دون أن يرشف منه، فقال طوني عندما لمح تراجعه:

– بس فيك تضلّك تشرب القهوة. إذا لحقِت ودقّقِت، ما بتعود تخلص. بتصير القصة مَرَضيَّة...

– أكيد.

قال خالد، مُتبِعًا جوابه بالصمت. كان ينتظر من طوني الانتهاء من هذا الحديث الغريب حول الثقة والسكر والقهوة والماء.

– بس أنا رح دقّق. لاقدر أوثق فيك شوي، وآخد قراري... صراحة، ما اقتنعت بدخلتك. وما بِقدَر إلا ما إسأل: ليش أنا؟ كيف وصلتلّي؟ يعني جايي تحكيني كإنّي الشخص الوحيد اللي كان يشتغل بأوتيلات، واللي أكيد ح يساعدك. بلشت تسأل دغري، كإنّك بتعرفني، وبتعرف شو كنت أعمل. فأنا لهلأ مش واثق فيك...

– يعني؟

– يعني ممكن كذّب عليك باللي جايي تسأل عنّو، وحطّلّك سكَر أبيض بالقهوة!

ضحك طوني محاولًا التخفيف من نبرته، ثمَّ تابع:

– خلينا نحكي عن جدّْ. وشيلنا من حديث الملحق. شو بدَّك تسألني؟

– بدي إسألك عن جانيت الخوري.

– مين جانيت الخوري؟

– اللي مرَّة بسنة الـ ١٩٨٧ إجت عالأوتيل اللي كنت تشتغل فيه، ووقتا كتبتْ إنتا رسالة لجوزا ونشرتا بـ...

– إي. إي. شو ذكّرك فيها؟ بعدين بهيديك الإيام، عاد إجا جَوْزا سأل عليها وقلتلو كل اللي بعرفه. عاد صار شي جديد؟

شعر خالد بالانزعاج. ضرغام زار طوني؟ لِمَ لَمْ يُعلمه بذلك بدل إضاعة وقته؟ قرَّر كتم نقمته، فرشف مجدَّدًا من قهوته، لكنَّ سؤال طوني التالي فاقم نقمته أكثر:

– ليش ما قلّك؟

– مين اللي بدُّو يقلّي؟

– جوزا. مش هوِّي اللي باعتَك؟ شو كان اسمو؟ ذاكرتي صايرة بالمرَّة.

– ضرغام.

– صح. مذكّر لمَّا شِفْت إعلانو، استغربت إسمو كتير. جرَّبت اتّصل فيه، ما ردّْ. الخطوط كانت عدم بوقتها. وبعد ما نَشَرْت رسالتي، هوِّي اتَّصل فيي، وزارني وسألني. قال بوقتا إنو عم يفتّش ع مرتو لحالو، وإنُّو ما في حدا بقي لا من عيلتو، ولا من عيلتا. فقدَّرت يكون هوِّي باعتك. هوِّي مليح؟

رفع خالد فنجانه، فوجده قد فرغ إلا من التفل. صبَّ القليل الباقي في الركوة، وقرَّر أن يسأل ضرغام أسئلة جديدة:

– عدت شفتو بعد هيديك الزيارة؟

– ضلّيت شوفو لفترة خمس سنين. مرَّة بالسنة. مرتين. نقعد بقهوة. نشرب شاي. نلعب دقّين طاولة. بعدين بآخر مرَّة، قلّي إنُّو مهاجر، وإنُّو ما ح يقدر يقعد هون بأي هُوِّي ومش ملاقي مرتو. هيدي كانت بالـ ٩٣

أو الـ ٩٤. وما عدت سْمعْت منُّو.

– يمكن هالسؤال ما إلو معنى، خاصةً إذا كنت شفتو كذا مرّة بالخمس سنين اللي بعدا، بس ما فيني إلا ما إسألك ياه. كنت بتعرف شي عن مرتو، أو عدت تذكرت شي، وما قلتلّو ياه؟

أطرق طوني برأسه، وبدا يفتّش جاهدًا في ذاكرته عن تفاصيل لم يذكرها، ثمّ قال:

– ما بْظنّ.

– عندي سؤالين بعد يا ريت تجاوبني عْلَيْن. أول واحد، ليش عدت شفْت الختيار أكتر من مرّة؟ وتاني سؤال، مش غريب إنّك تضلّك مذكر هالقصة اللي صارت بالتمانينات، وتتذكّرا هيك دغري؟

– الختيار هوّي اللي كان يطلب يشوفني. بالأول كنت إسأل حالي نفس السؤال. إنو ليش بدُّو يشوفني؟ يمكن لأنُّو كنت آخر واحد شاف مرته؟ يمكن لأنو وثق فيّي؟ ما لقيت جواب بوقتا، ولمّا شفتو أكتر من مرّة، ما رجعت سألت. ما عاد للسؤال معنى...

رشف طوني كل ما في فنجانه دفعة واحدة، وأكمل:

– وليش تذكّرتْ القصة دغري؟ يمكن لأنّا كانت أول وآخر مرّة بِبْعَت فيها شي لينْشر بالجرايد. إنو طبيعي ضلّ مذكّر...

ثمّ وقف وأكمل:

– ... لحد ما عود إتذكّر شي! بعد بدّك تسألني شي؟

اعتذر طوني وقال إنّ عليه الرحيل لارتباطه بموعد، ثمّ سأل خالد ما إذا كان يمكنه الاتّصال به. "أكيد"، أجابه خالد من دون أن يستفسر أكثر، وتابعه بعينيه وهو يتّجه خارجًا من المقهى، قبل أن تردّه شتائم سائق التاكسي وترجُّل إحدى المرأتين من السيّارة، وهي تقرّع السائق على ألفاظه، إلى مقعده قرب النافذة.

كان العرق البارد قد بلّل النصف الأعلى من جسمه فالتصق قميصه

بشرته. مرّت نسمة هواء فقوّت شعوره بالتعب. تحرّكت السيّارة قليلًا إلى الأمام، فوجد السائق نفسه وجهًا لوجه مع جندي. قال له "عوافي"، و"يا وطن" وغيرها من تعابير الاستمالة، وشارك في ممالأة الراكب في المقعد الأمامي. ولمّا استنفد السائق حججه، نظر في المرآة الأمامية وطلب من المرأة الباقية في المقعد الخلفي التدخّل: "قوليلك شي كلمة يا مادااام". لكنّ أيًّا من هذا لم يغيّر قرار الشرطي الذي خبط على غطاء المحرّك بحزم، وقال: "لفّ وارجاع. يلّا. الشارع كلّو مسكّر اليوم".

راديو التاكسي: ٣٠٠٠ اتصال

على هامش الأخبار المنتشرة عن إغلاق شوارع للكشف على سيارات مشبوهة، أفاد مصدر أمني مطّلع لإذاعتنا أنّ غرف عمليات قوى الأمن الداخلي قد تلقّت ما يقارب ٣٠٠٠ اتصال، من مواطنين يسكنون في بيروت للتبليغ عن سيارات مشبوهة.

وتشير هذه الأرقام إلى تفشّي حالةٍ من الخوف بين المواطنين. لكنّ المصدر الأمني أكّد أنّ التبليغات تدلّ على وعي المواطنين، وإيمانهم بالدولة وبمؤسّساتها الأمنية، ما يُعدّ بارقة أمل في ظلّ الأحداث الأمنية المتلاحقة التي يُدفَع إليها البلد عمدًا.

قوم نام جُوّة

"منيح إنك إجيت!"، استقبله كريم وهو يهمّ بالخروج مسرعًا.

قال إنّ أصدقاءه أعلموه أنّ تطورًا صحيًا قد طرأ على حالة صديقه في المستشفى وأنّ عليه زيارته. أضاف أنّه لا يستطيع العثور على تايغر، وأنّ

ريم استيقظت قبل قليل، وخرجت من الغرفة، ونظرت إليه، ولم تبادله الكلام.

لم يفهم خالد عن أيِّ صديق يتحدَّث كريم، لكنَّ الأخير لم يترك له مجالًا ليسأله، إذ كان قد أغلق باب المصعد وراءه ورحل.

دخل خالد الشقَّة، فلم يظهر القط ليرحِّب به. اتَّجه مباشرةً إلى غرفة النوم، فوجد السرير غير موضَّب، ولم تكن ريم فيه. عاد إلى الحمَّام فمرَّ من أمامه مسرعًا، ووقف عند بابه المُغلَق. رأى عبر الشباك المخرَّم ضوءًا، وسمع صوتًا من الداخل.

"ريم"، قال. سكت وأكمل: "أنا هون".

توقَّف صوت الماء للحظة في الداخل، كأنَّها تنصت لكلامه. كان سيتابع حديثه، إلَّا أنَّ عدم إجابتها له لم يشجِّعه، فقرَّر الانتظار في غرفة الجلوس. استلقى على الكنبة الطويلة، وأخذ يتابع الأخبار على التلفزيون. بالغ بتحديقه في الشاشة من شعوره بالنعاس، فلم يحتَجْ إلى أكثر من خمس دقائق ليغطَّ في النوم.

لم يعرف كم بقي هناك قبل أن تظهر فوقه.

لم يعرف إن كان يحلم، أم أنَّ ما رآه قد حدث فعلًا.

وقفَتْ فوقه مبلَّلة الشعر وهي ترتدي برنس الحمَّام الأبيض.

"خالد... خالد..."، كرَّرَت اسمه بلطف، ومن دون أن تغيِّر من علوِّ صوتها.

"قوم نام جُوَّة"، قالت.

مدَّت يدها وساعدته على الوقوف. نظر إلى وجهها، وهو نصف نائم. استند عليها حتَّى أوصلته إلى الغرفة، ثمَّ صعد إلى السرير خائر القوى، واستسلم للنوم من جديد.

أحسَّ بها تنام قربه، وتمسك بيديه وتحيطهما بجسمها. شعر بنفسه يحضنها. ثمَّ تبادلا الحلمَيْن. رأى منامها، ورأت منامه.

أرانا جميعًا نتقدم. أنظر فأتعرَّف على الجميع. الكلُّ، بمن فيهم الموتى منّا، من مات ومن سيموت، يمشي. نخطو إلى الأمام، وتنبعث خلفنا انفجارات صغيرة. ولا تحدث الانفجارات إلّا عندما تصبح الأشياء خلفنا ونتجاوزها. لكأنَّنا نحن الذين نُنتِجُها، ثمَّ ننجو منها. في المساحة وراءَنا، تحدث المصارحات، ونتركها. سأسمي المكان: الفناء الخلفي. فيه يفنى كُلّ ما يبدو لنا عظيمًا. فيه كلُّ ما حدث قد حدث، وكل ما سيحدث قد حدث أيضًا. وكون الفناء وراءنا، وكوننا متقدمين عنه، يُخيَّل لنا أنَّنا نشعر بالتناقض. فننتظر بتوتر ثم بملل، ثم نشهد بتوتر وبملل. لكأنَّنا نحيا بالفناء الخلفي، ولكأنَّه يحيا بنا، وما من حياة إلا بهذا التجاور. نشعر لكننا لا نكترث. الموت عادي، والبقاء عادي. نمشي إلى الأمام، وننظر إلى الوراء، ولا نعرف إن كان الفناء خلفنا سيبتلعنا في يوم. لا نعرف متى تنكسر القاعدة ويختلف كل شيء، ونصير نحن انفجارات صغيرة وراء آخرين متقدِّمين.

تلفاز شقَّة سهى: سلب

... ومن الأخبار المحلية في نشرتنا:

ادَّعى مواطِن لدى مخفر قوى الأمن الداخلي في جبيل، أنَّ مجهولًا دخل إلى محلٍّ لبيع الألبسة النسائية على الطريق البحرية، بحجَّة أنَّه يريد شراء ألبسة لزوجته، ثمَّ كشف عن حزام جلدي كان يضعه على جسمه تدلَّت منه أسلاك كهربائية، وهدَّد صاحب المحلِّ بأنَّه يلبس حزامًا ناسفًا، طالبًا منه التراجع إلى كرسي في زاوية المحل. وقام اللص بسلب مبلغ ألفي دولار أميركي من خزنة المحل، قبل الهروب إلى جهة مجهولة بواسطة سيارة من نوع جيب غراند شيروكي كحلية اللون حملت الرقم ٥٠٩٦٣٨/ ب.

وأطلق المواطن صاحب المحل صرخة للدولة والمواطنين للمساعدة على القبض على الجاني، ونحن نضمُّ صوتنا إلى صوت المواطن، ونطلب ممَّن يرى السيَّارة بالمواصفات المذكورة الاتِّصال بقناتنا.

ونعيد على مسامعكم مواصفات السيَّارة من جديد...

حلم خالد

أعدُ نفسي معكِ بالأحلام التي اعتزلَتني منذ زمن. أقول إنِّي في وجودك سأحظى بالحلم العائد الذي لطالما انتظرتُه. سيكون بألوان غريبة، تقف عند حافة التفاصيل وتأنف عن تخطِّيها. ألوان ليست داكنة جداً، ولا برَّاقة جداً، ولا تفسح مجالًا للظلال. الألوان تطوف، ويعدو الزمن من حولي وتتراكم التفاصيل. هذا الثبات متحرك، أقول. هذا الحراك لا يلتزم الإيقاع المنتظر، أضيف. وحين أتوقَّف عن الكلام فجأة، ألحظ الجماد في كل شيء. أرى صورة. وأجد أنَّني لا أنظر وحدي إليها. أنت تنظرين معي. نحن واقفان خارج جسدَيْنا. نرانا، ويخطر لنا مع هذا الاكتشاف، أن نكون نحن أيضًا جزءًا من بداية ما، ومن صورة ثابتة يحدِّق فيها آخرون. ولأجل هذا الاحتمال فقط، ومن دون أن نتأكد منه، نرسم ابتسامتيْن على وجهَيْنا من غير أن نراهما.

شعاع خالد

صحا في غرفته القديمة، ولم تكن ريم قربه. نظر إلى الساعة فوجدها الخامسة صباحًا. دخل إلى المطبخ وصبَّ كوبًا من الماء البارد. وهو يغلق باب البرَّاد، قرأ الورقة التي تُعلِم فيها سهى ريمَ بضرورة ألَّا تُشرِب تايغر من ماء الحنفيَّة. انشغل بالنظر إلى خطِّ سهى أكثر من التفكير بمضمون

الملاحظة. تفقَّد وعائِي القطّ فوجدهما مملوءَين بالمقرمشات والماء. خرج إلى غرفة الجلوس، وأطفأ التلفاز. كانت ريم نائمة في كنبته المفضلة. لم يعرف إنْ كانت قد نامت هنا عندما دَعَته للانتقال إلى غرفة النوم، أم هي عادت إلى الكنبة بعد أن نامت بجانبه في السرير لفترة. لم يساعده الضجيج في رأسه على التفريق بين ما حدث فعلًا وبين ما حلم به.

وقف قرب الكنبة يتفحَّص وجهها. كانت المرَّة الأولى التي يحدِّق فيها بهذا التركيز. تحرَّكَت فبقي واقفًا. فتحَت عينَيْها، فوجدَته يبتسم لها. سألته وهي تتثاءب:

– قدَّيش الساعة؟

– شي ٥ وربع الصبح. فوتي نامي جوة إذا بدِّك.

– لا نمِت كتير. مبارح واليوم...

– كيفَ حاسة حالك هلَّأ؟

– منيـ... حة...

اعتدلَت في جلستها، فسألها إن كانت تشرب القهوة. "يا ريت"، أجابَته؛ فاتَّجه نحو المطبخ لينفِّذ رغبتها.

جلست ريم على الكنبة دقيقة. لبست كنزة كانت ملقاة قربها، ثمَّ اتَّجهت إلى باب الشرفة، وفتحته وخرجت. وقفت في الخارج وضمَّت ساعدَيْها.

مضت دقائق قبل أن يظهر خالد مع القهوة. أتت ريم بالطاولة الصغيرة، ليضع عليها الصينية. سحبت كرسيًا وجلست عليه، وفعل هو مثلها. قالت له:

– فوت البوس شي عليك.

– لا عادي... خلص.

– شو خلص؟ مبارح كنت عرقان عرق بارد وعم تهلوس.

– أنا؟

– إي لشو لكن قيّمتك تنام جوّة؟
– مبارح نمتي حدّي؟
نظرت إليه كأنّها لم تفهم سؤاله، فتراجع:
– لا. خلص. ما شي. تخيَّلْت إنِّك نِمتي حدِّي.
– شو كنت عم تعمل هون لمَّا جيت أنا؟
– في إشيا كنت تاركا هون. قلت بمرق آخِدا. خاصةً إنو ما في حدا بالبيت.
– عرفت منّي إنو ما في حدا بالبيت.
سعل خالد. كانت سعلته حقيقية، لكنّه استفاد منها كي لا يجيب على الملاحظة. لاحظت ريم ارتباكه، فلم تكرِّر تعليقها، فما لبثت أن أعادت سؤاله:
– مش تارك تياب هون؟
– بعتقِد...
دخل الغرفة، وأضاء غرفة الملابس. فتح صندوق ملابسه المتروك على الأرض. سعل سعلتيْن، وهو ينبش ما في الصندوق، ثمَّ انتقى جاكيتًا رياضية قطنية ولبسها وخرج عائدًا إلى الشرفة. وضع يديه في جيب الجاكيت، وجلس. قالت ريم وهي تصبُّ له القهوة في الفنجان:
– أها! هيك أحسن.
– صرتي تشربي قهوة.
– من آخر مرَّة شرَّبتني ياها، هيدا أول فنجان.
– الهيئة ما بتشربي قهوة إلّا معي.
ابتسمت فسألها:
– إنتي أحسن؟
أومأت ولم تُعلِّق. ظهر شعاع نور أوَّل من وراء بناية مواجهة، واستقرَّ على وجه خالد. أغمض عينيه، فضحكت ريم وقالت:

– مستقصدَك!

أبعد خالد كرسيّه عن الشعاع واقترب منها.

– ع فكرة ح يضلّ لاحقك.

– بَعْرِف. وأنا بضلّ بْقرِّب.

ابتسمت، وقامت من مكانها وقالت إنّها ستدخل الحمام، ثمّ عادت وأطلّت برأسها وقالت:

– مبلا. مبارح نِمت جنبَك. بس شويّ... مش كتير...

غابت في الداخل من دون أن تُفسح له الفرصة ليستطرد. ظلّ خالد يرتشف من فنجان قهوته ببطء، وأطرق يتابع سير شعاع النور على البلاط. لاحظ سرب نمل يمشي على البلاط. لم يُعرِ الأمر اهتمامًا في البداية، لكنْ عندما اقترب الشعاع منه واتّسع، انتبه أنَّ السرب ممتدّ وأنَّ النمل فيه يتكاثر، فقام يتتبّعه، حتّى وصل إلى زاوية الشرفة.

أزاح أصص الزرع، فوجد النمل وراءها متكاثِرًا حول تايغر.

كان القطّ جثّة هامدة.

تلفاز شقّة سهى: تطوُّر جديد

أظهر فيديو لأحد كاميرات المراقبة التابعة لمصرف يقع عند تقاطع الأونيسكو حادثًا وقع بين أربع سيارات خلال الأسبوع الماضي. ويبيِّن الفيديو اندفاع عدة سيارات بشكل سريع لترتطم ببعضها بشكل مباشر. وقد حصلت قناتنا على فيديوهات أخرى من فنادق تقع عند التقاطع نفسه، وسنعرض هذه الفيديوهات بالإضافة إلى شهادات بعض الناجين في نشرات لاحقة.

وتأخَّر صدور تقارير الأطباء الشرعيين بسبب رفض بعض أهالي الضحايا تشريح جثث أبنائهم، وطلبهم استصدار تصاريح دفن فوريّة من المستشفيات.

وزار وزير الصحة في حكومة تصريف الأعمال المستشفيات التي نقل إليها الضحايا والجرحى، فاستفاد من وجود الأهالي ليحاول إقناعهم بضرورة تشريح جثث أولادهم، شارحًا أنَّ هذه قضية وطنية، وأنَّ من شأن هذه التقارير أن تحمي حياة مواطنين آخرين. وبذلك، يكون الوزير قد تبنّى ولو بصورة غير مباشرة النظرية التي تقول إنَّ تكرار الحوادث على التقاطعات والطرقات السريعة يتخطّى كونها حوادث سير عادية. فهل يعني ذلك أنَّ لدى الوزير معلومات لم يُطلِعْ الرأي العام عليها بعد، وأنَّه ينتظر صدور التقارير الطبية لتأكيدها؟

جثَّة في كيس

تركها تتَّصل بسهيٍ لتعلمها بما حدث لتايغر. سألَته بإشارة من يديها ما إذا كان يودُّ أن يكلِّمها، فهزَّ رأسه بِـ "لا" قاطعة، وهمس لها ألَّا تُعلِمها بوجوده. لم يسأل خالد ريم عن مضمون الاتصال، وتركها في الشقَّة بعد أن اتفق معها على اللقاء بعد الظهر على غداء متأخر في مطعم. قال إنَّ عليهما الحديث، فأجابته أنَّ الوقت ليس مناسبًا، ذاكرةً مسألة موت القط. رسم خالد تعبيرًا واضحًا على وجهه، مفاده: "أنا من عشتُ سابقًا مع القطّ، لا أنتِ، فتوقَّفي عن اختلاق الذرائع". وبعدما لاحظت إصراره، قالت: "أوكيْ".

"ما تفكّري تروحي اليوم ع الشغل. لازم ترتاحي يومين"، قال لها وهو يحمل الكيس البلاستيكي الأزرق الذي وضع فيه جثَّة تايغر، ونزل.

دقَّ باب غرفة الناطور. كانت الساعة قد قاربت العاشرة صباحًا. ظهر أبو أحمد بعباءته المنزلية في مدخل الغرفة، فشرح له خالد ما حصل، وطلب منه دفن الجثة في مكان قريب، وسلَّمه الكيس.

قبل أن يكمل خالد خطواته، التفت وعاد. وجد أبو أحمد واقفًا، يحمل

الكيس كما سلّمه إياه، كأنه لم يستوعب طلبه. خرجت ابنته الصغيرة، وأخذت تلمس الكيس في يده، فرفعه عاليًا، وزجرها.

كان خالد قد صار أمامه يسأله: "وين ح تدفنو أبو أحمد؟"

"والله ما بعرف يا إستاذ! عم فكّر. بدفنو بالرملات هون؟"، وأشار أبو أحمد إلى أصص زرع مهملة عند مدخل الكاراج.

"لا خلص. مشكور. أنا ح اتصرّف"، أخذ خالد منه الكيس من دون أن يترك له مجالًا للجدال، وانطلق نحو مدخل الزاروب.

صعد خالد في المصعد الخلفي لأول سيارة أجرة وجدها ووضع الكيس قربه. "ع الروشة"، قال للسائق. "مش ع طريقي"، أجابه الأخير. "تاكسي"، ردّ عليه خالد، فنظر السائق إليه كأنّه ينظر إلى مخبول، ومضى يسوق به.

طيلة الطريق، وزّع خالد نظره بين الشوارع والكيس على المقعد. وعندما وصل، حمل الكيس من جديد، وأدار ظهره للمقاهي ثمّ قطع الشارع باتّجاه الرصيف المواجه للصخرة.

لم يأتِ إلى هنا منذ زمن بعيد، ربما منذ بداية تعرُّفه على سهى، لكن ما من شيء تغيّر.

باقيان. الصخرة والبحر باقيان.

هنا عرض على سهى الزواج. يومها طلب منها إيقاف السيّارة والترجُّل، فقالت مستنكرة: "الروشة يا خالد؟ جايبني ع الروشة؟" ردّ أنّ ما سيفعلانه يجب أن يحدث أمام معلم من معالم المدينة، وأنّه فتّش، "صدقيني فتّشْتْ"، ولم يجد شيئًا لافتًا في بيروت.

فكّر ولم يقُل لها: المدينة لا تحتوي على أيّ معالم مؤاتية لتأريخ اللحظات. المباني فيها تلتصق ببعضها وتتراكم وتفيض كَورَم فوق جسد، ثمّ تأخذ تتضخم وتمتد حتّى يُطمَس الجسد ويبقى الورم. ما الذي يحدث للأورام بعد موت الجسد؟ لو قُدِّر للأورام أن تعيش رغم موت الجسد

الذي نبتت عليه، ما الذي كان سيحصل؟ هل كانت لتكبر متصلةً إلى ما لا نهاية؟ هل كانت لتبتلع الجسد ثمَّ تستقل بنفسها وتعيش وتتنفس وتأكل؟ أم أنَّها كانت لتموت؟ ولو ماتت، هل ينبت بعد الورم جسد جديد؟

ساعدها في القفز على درابزين الكورنيش، وقال إنَّه فتَّش عن أحياء داخلية بعمارة جميلة، وبحث عن الأدراج. "دَرَسْتُ خريطة بيروت كِلا"، قال. لكنَّه كان كلَّما عثر على مكان، ونزل يتفقَّده، أحسَّ بالاختناق. كان يرى المعلم جميلًا، وما حوله مؤرِقٌ وضاغط.

إلى أن وجد نفسه لاحقًا يتَّجه نحو البحر.

مشيا فوق التلة الترابية بعد الدرابزين. قال لها إنَّ أكثر ما لفت نظره في المدينة كمية التماثيل والنصب التي تحويها ساحاتها ونواصيها: "بدِّك آخدِكْ ع تمثال حبيب أبي شهلا يعني؟ إنتي شايفتيه لتمثال حبيب؟ طب شايفة تمثال رياض الصلح كيف ماسك جاكيتُّو بإيدو؟ طب تمثال بشارة الخوري كيف عم يحاول يمشي؟ وهول بس تبعول الاستقلال بعد ما وصلنا ع اللي انعملو بعدن!".

فكَّر وقال لها: صخرة الروشة هي المعلم الطبيعي الوحيد. لكنَّ المفارقة في أنَّها تقع في البحر، منفصلة عن داخل المدينة، تنظر إليها. كأنَّما افترقت وحيدة بجزءيها في لحظة حَرَدٍ، ثمَّ انتبهَت لخطئها، لكنَّها أبَتْ التراجع عنه؛ بل صارت تقنع نفسها بموجبات حَرَدها، وبقيت هناك تنظر إلى جرف المدينة الصخري، آملةً أن يناديها ويعتذر منها، وتفكِّر أنَّها ستقبل بتطييب الخاطر بلا اعتذار، وتعود فورًا. وبقيت تنتظر، لكنْ لا تطييب الخاطر ولا الاعتذار أتيا، لأنَّ الافتراق سهل والعودة صعبة. وهكذا، ظلَّت الصخرتان، الكبيرة وأختها الصغيرة، واقفتيْن في مكانهما. وكلَّما طال الأمر، اعتادتا الوحدة، وتكلَّس الخلاف مع المدينة وتطبَّع، حتَّى صار الاعتذار والعودة ضربين من ماضٍ سحيقٍ لا يقبلان الحدوث، وهما إذا حدثا، فإنَّهما لن يُعيدا ما سبق، بل إنَّ العودةَ ستكتسي بالغرابة وربما بنفور

اكتشاف ما لم يُكتَشَف في السابق. ولهذا، بقيت المسافة بين الصخرتين والجرف. لأنَّ الاعتياد قضى بأنْ يبقيا على هذا البعد، يشيحان وجهيهما أحيانًا، ويكتفيان بابتسامات مضطرّة لا تخلق نزاعًا ولا تستردُّ أسئلة بائتة أحيانًا أخرى.

"كيف قْلبتْ الروشة هيك لقصة حزينة. إنتَ من وين جايب كل هالبؤس؟"، وضعت كفَّها على وجنته وقبَّلَته. انتبهت أنَّها لم تعرف بعد السبب وراء مجيئهما قبالة الصخرة. لحْظتها، وجدته يركع كما الأفلام، فطلبت منه أن ينهض. قالت إنَّ ما يفعله مُحرِج، ثمَّ التفتت لتجد أغلب الأشخاص في المكان منشغلين عنهما بمسائل أخرى.

كان خالد ثابتًا في ركعته. لم تعرف سهى حينها أنَّه عندما انحنى، ارتطمت ركبته اليمنى بحجر. لكنَّه عضَّ على وجعه كي لا يفسد اللحظة، وأغمض عينيْه بينما كانت تسأله ماذا يفعل، ثمَّ رفع وجهه ناحيتها وعرض عليها الزواج.

بقي ألم ركبته يزوره أشهرًا حتَّى اختفى تمامًا.

ثمَّ عادت ركبته تلكزه بعدما افترقا.

وها هو الآن يقف في المكان ذاته حاملًا الكيس البلاستيكي.

يتذكر عندما علقا في زحمة سير لأنَّ شاحنة جمع نفايات توقفَت عن العمل في أضيق زاروب ببيروت. لم يكن هناك مجال للعودة إلى الوراء أو التقدُّم إلى الأمام. كانا محاطين بالسيارات. عندما نظر خالد إلى يمينه وجد أنَّ السيَّارة توقَّفَت عند محل بيع حيوانات. كانا قد فقدا طفلهما الأول قبل أسبوع، وهذا خروجهما الأول بعد رجوع سهى من المستشفى.

فتح خالد الباب وقال إنه سيأتي ببعض القهوة. أومأت له سهى غير مهتمة، ثمَّ أطفأتِ السيَّارة وأعادت كرسيَّها إلى الوراء، وسرحت في السقف. لم تُنزِل نظرها إلا على صوت خبطة باب خالد، ومواء قط صغير يحمله بين يديه.

حاول خالد أن يعثر على البقعة التي ركع فيها. فتّش عن الحجر ولم يجده. هل ينقلون الأحجار هنا؟ قرّر انتقاء البقعة التي يظنُّ أنّها الأقرب إلى مكان الحدث القديم. تراجع إلى الوراء ثمّ تقدّم. راح وجاء، ولم يعرف أن ينتقي.

ظهر بائع يانصيب يسأله إن كان يودُّ أن يشتري منه ورقة. أخذ يخبره عن عائلته النازحة من خلف الحدود، مبالغًا في طريقة روايته للأشياء. رأى خالد حديثه مليئًا بالكذب، إلّا أنّه أجابه بأنّه سيشتري منه كل أوراق اليانصيب، مشترطًا وهو يرفع الكيس البلاستيكي: "بس ساعدني أحفر بالتراب هون. فيك تلاقيلنا شي رفش أو شي؟"

راديو التاكسي: خبر موثوق

وصلنا عبر مصادر موثوقة أنّ معظم القتلى في حوادث السير التي وقعت في الأسابيع الأخيرة قد ماتوا قبل وقوع الحوادث، أيْ أنّ موتهم كان سابقًا لوقوع الحوادث وليس نتيجة لها، كما أنّه قد يكون ساهم في حدوثها. وبحسب المصادر التي اطّلعَت على بعض التقارير الطبية، والتي لم تُعلَن للرأي العام بعد، فإنّ قتلى السيارات قد أصيبوا بسكتات قلبية أو دماغية أو اختناقات أدّت إلى توقُّف وظائف أعضائهم الحيوية.

لكنّ المصادر نفسها لم تُعلّق على احتمال وجود مرض معدٍ ينتشر في البلاد طالبةً عدم إثارة الهلع، وأضافت أنّ موت القتلى لأسبابٍ عضوية مختلفة ينفي نظرية احتمال انتشار المرض الواحد داعيةً المواطنين إلى التعامل المسؤول مع القضية.

وأنهت المصادر معلوماتها بالتأكيد على أنّ وزير الصحة سيعقد مؤتمرًا صحافيًّا عصر هذا اليوم.

سنوافيكم بأيِّ جديد إثر وروده.

سرعة

لا أعرف كيف أصف ما يحدث بيني وبينه، فالسرعة تلجم قدرتي على الشرح والتحليل. لهذا ربما أكتب. فأنا، عندما أعيد كتابة ما حدث، أبطئه وأستطيع أن أنظر إليه بتأنٍّ، لأقرِّر ماذا أريد. تلك الليلة، بعد ساعات من النوم لستُ قادرة على إحصائها، صَحَوْتُ لأجده نائمًا في غرفة الجلوس. وقفتُ أنظرُ إليه. أركِّز في تقاسيم وجهه، وفي التعابير التي يتخذها. تفحَّصتُ جسمه الذي وجدتُه ضامرًا مقارنة بلقائي الأول معه. وكان فمه مفتوحًا على نحو مضحك. عندما تشجَّعتُ ولمستُ جبهتَه، وجدتُها عَرِقة. فلمستُ عنقه وكانت مبلَّلة على النحو نفسه. ناديتُه باسمه فلم يستيقظ. هززتُه برفق، فهَمْهَمَ ولم يتحرَّك. وضعتُ يدي على عنقه وأخذتُ أكرِّر مناداته حتَّى فتح عينَيْه وهو نصف نائم. قال كلامًا لم أفهمه، فطلبتُ منه أن ينهض لينام في الداخل، لكنَّه غاب ثانيةً في منامه. أجلستُه عنوةً ليفيق، وكرَّرتُ طلبي. نظر إليَّ كأنَّه يتفحَّصني. "سهى؟"، سألني. لم أردَّ وأجبرتُه على النهوض. اتَّجهنا إلى الغرفة. كان يمشي وهو يكمل هلوسته. وفهمتُ أنَّه يتحدَّث عن نفسه. عندما وصلنا إلى الغرفة، صعد إلى السرير وحده، وانتقى الزاوية التي يودُّ النوم فيها، واندسَّ تحت الغطاء بلا مساعدة. نظرتُ إليهِ وهو يغيب ثانيةً في هلوساته. لم يكن يحدِّثني، كأنِّي لم أكن موجودة معه. لا أعرف لماذا جلستُ عندها على طرف السرير، وأخرجتُ دفتر يومياتي، وكتبتُ. التفتُّ إليه بعد دقائق، لأجده قد توقَّف عن الهلوسة، فاستلقيتُ قربه على السرير، ونظرتُ إلى السقف، وأعدتُ ترتيب لقاءاتي به. اللقاء الأول. اللقاء الثاني. الاتصالات التي أجبْتُ عليها وتلك التي أغلقتُها في وجهه. انتبهتُ أنَّني منذ التقيتُه، تناقصت زياراتي لسرير ألبير حتَّى انعدَمَت. كنتُ إذا ما زرتُ الشقَّة، أتذرَّع بأيِّ شيء كي لا أنتهي في سريره، إلى أن حدث ما حدث. كل هذا بدأ من لقاء أول؟ التفتُّ ناحيته،

ومرَّرتُ ذراعي تحته، ثمَّ أحَطتُه بالأخرى، وضمَمتُه من دون أن أفكِّر في صوابية ما أفعله. لَمَسَتْ يدُهُ إحدى ذراعيَّ كأنَّه يشعر بما أفعله، كأنَّه يطلب منِّي أن أكمل. إلَّا أنَّني لم أفعل. أغمضتُ عينيَّ فقط، وحلمتُ.

بكاء وراء النظارة

خرجت سهى من الفندق، ووقفت عند ناصية الشارع. لفحت نسمة هواء وجهها، فَشدَّت معطفها وربطت حزامها، ومشت. كانت تودُّ أن تمسح كل ما يجول في خاطرها، وأن تقنع نفسها بقدرتها على فعل ذلك، لكنَّها كانت تعرف أنَّ أقصى ما يمكنها فعله هو إضافة بعض الصفاء على تفكيرها بإنهاك جسدها قليلًا.

قطعت الطرق، ونزلت الأدراج. تجوَّلت في زحمة أنفاق المترو، وصعدت في عرباته، ثمَّ جلست مريحةً جسمها على أول كرسي فارغ وجدته. حدَّقت في وجوه الركاب. جلست قبالتها فتاة تقرأ كتاب جيب، فحاولت سهى تبيُّن العنوان لكنَّها سرعان ما شعرت بالدوار من اهتزاز العربة، فقرَّرت التوقف عن المحاولة، وساعدها في قرارها وقوف شاب حجب عنها رؤية الفتاة.

بجانبها انهمكت عجوز هزيلة الحجم بِبَحبَشة كيسيْن تحملهما.

وأمامها وقف حبيبان يهمسان في أذنَيْ بعضهما.

توقفَت العربة، وفتِحَت الأبواب. دخلَتْ فتاة تلبس نظارات شمسية كبيرة. وقفت قرب سهى مُمسكةً بالعمود، ووضعت في أذنَيْها سمَّاعات بيضاء. لِمَ تلبس الفتاة نظارة شمسية سوداء في المترو؟ تساءلت سهى قبل أن تلاحظ أنَّ الفتاة ترفع كفها اليمنى وتمسح تحت عينَيْها. كأنَّها تبكي؟ كأنَّ أحدًا ما ضربها فاضطرَّت أن تخفيَ الورم تحت نظارة؟

سارت عربة المترو، ورنَّ هاتف سهى. وجدت روجيه يتَّصل بها، لكنَّها

آثرت ألّا تردَّ لأنَّ الاستقبال سيكون ضعيفًا تحت الأرض. التفَّت العربات في النفق بسرعة ثم أبطأت وتوقَّفت. بُثَّ عبر مكبِّر الاستعلامات خبر يقول إنَّ العربة ستتوقف لخمس دقائق بسبب صيانة على سكة أخرى أخَّرت القطار أمامهما، وطلب المتحدِّث من الركاب البقاء في أماكنهم.

ارتطم كل شيء في عقلها. كل هذا التحديق لإبعاد الأفكار، أنهاه توقُّف العربة المفاجئ وصوت الفرامل.

فجأة، جلسَت الفتاة على الأرض، وعلا صوت بكائها. أغمضت سهى عينيْها، وهي تشعر بتشنُّج في معدتها. رنَّ هاتفها مرَّة أخرى. روجيه. أنهت المكالمة.

أعادها بكاء الفتاة إلى نشيجها المكتوم في مكالمتها مع ريم.

أخذت الأخيرة تعتذر منها مرارًا. قالت إنَّها نفَّذت تعليماتها بالحرف، فوضعت للقطِّ الطعام والماء بالوتيرة التي قالت لها عنها، وتفادت استخدام ماء الحنفية. وشت نبرة ريم بحرجها. وإذ كانت سهى تستمع لها بصمت مشغولةً بكتم بكائها، تمالكت نفسها، وسألها عن أحوالها.

"أنا؟"، سألت ريم.

"إي. إنتِ"، ردَّت سهى.

"أنا منيحة"، قالت ريم بنبرة غير واثقة.

سألتها عن وضع المنطقة التي تسكن فيها. أزمة المياه مستمرة؟ أجابتها ريم أنَّ الوضع على حاله. الشباب فوق أسطح البنايات، والاتصالات الحزبية والسياسية لا تنتهي، ويبدو أنَّ الجميع ينتظر أزمة مياه في الصيف المقبل.

"عم تروحي لهونيك"، سألتها سهى.

تلعثمت ريم، وردَّت أنَّها تقيم في شقَّتها منذ أيام قليلة.

"عال، خليكي بالشقة عندي. بلا رَوْحة ع وطى المصيطبة إذا الأوضاع ما منيحة"، طلبت منها.

"كل البلد هيك"، قالت ريم، لكنَّ سهى أصرَّت على طلبها، وأكملَت تسألها ماذا فعلت بجثة القط. صمتت ريم لحظةً وقالت: "أبو أحمد اهتم بالموضوع".

مضى ربع ساعة من الانتظار، ثمَّ أكملت العربة سيرها على السكة من جديد قبل أن تتوقَّف عند المحطة التالية. خرجت سهى، بالرغم من أنّ المحطة ليست محطتها، وتركت الفتاة وراءها. تشعر بالاختناق، وتحتاج لأن تكون في مساحة واسعة. ستكمل المشي فوق سطح الأرض ولو أضاعت الوقت.

صعدت الدرج مسرعة من دون أن تنظر وراءها. ثمَّ خرجت من فجوة النفق فضربَت أشعة الشمس عينيها. أغمضتهما حتَّى اعتادت الضوء، ومضت تمشي وتتفحَّص المنطقة التي تصل إليها للمرَّة الأولى. أخرجت الهاتف لتتصل بروجيه، لكنَّها شعرت فجأة بالحاجة إلى التبوُّل، فبحثت بعينيْها عن أقرب مقهى رصيف لتدخل حمَّامه.

"أنا موجودة... أنا موجودة"، تردَّد الخاطر في رأسها وهي تسرع باتِّجاه المقهى.

نشرة أخبار الغد: نفوق قطط

أبلغ بعض سكان طريق الجديدة مخفر الدرك في منطقتهم بوجوب الحضور إلى أحد الشوارع المتفرعة من طلعة مستشفى المقاصد للكشف على حالة القطط فيه.

وكان أحد سكان الشارع صحا ليجد قططًا اعتاد إطعامها نافقةً أمام محل بيع اللحم الذي يملكه، ثمَّ أبلغه جاره صدفةً عن عثوره على قطٍّ نافق تحت سيارته. وبعد خروج السيارات المركونة من أمكنتها، لاحظ سكان الشارع أنَّ كلَّ القطط التي تنام تحت السيارات نافقة، ممَّا أثار بينهم حالة من الهلع.

وقامَت عناصر الدرك بإزالة كل السيارات من الحيِّ، ليتبيَّن وجود قطط نافقة أخرى تحتها. وعلى الفور، أُبلِغَ عناصر الدرك في مخفر المنطقة قوات الأمن الداخلي بضرورة الحضور لأنَّ الحادث يتعدَّى صلاحياتهم. وضرب عناصر الأمن الداخلي طوقًا حول الشارع ومنعوا الناس بخلاف الساكنين في الشارع من الدخول إليه، وأبلغوا وزارة الصحة بضرورة حضور ممثلين لها.

وتأتي هذه الحادثة بعد إلغاء المؤتمر الصحافي الأخير لوزير الصحة الذي كان من المفترض أن يناقش فيه حوادث السير الأخيرة. كما تعيد الحادثة إلى الأذهان كلام النائب سالم القاروط عن عربات الغاز التي ظهرت ثمَّ اختفت في مناطق معينة من بيروت، وربَطَها النائب وقتئذٍ بحوادث موت غير معروفة الأسباب، قبل أن ينطفئ الحديث عن الموضوع ويلتزم النائب القاروط الصمت.

سيجارة وورقة يانصيب

تقصَّد خالد البارحة ألَّا يمرَّ على ضرغام وألَّا يجادله في المعلومات التي عرفها عنه من طوني. لم يكن يودُّ مقابلة العجوز وهو ممتعض منه. شيء ما في هذا الرجل يجعله يكتم غضبه. شيء أليف وغامض. كان قد أخبره عن الإعلان، والمنطق يقول إنَّ خالد كان سيصل إلى طوني عاجلًا أم آجلًا، فلماذا لم يخبره ضرغام عن لقاءاته به؟ هل أراده أن يكتشف كل شيء منذ البداية؟

كان منهكًا. شكر بائع اليانصيب على مساعدته بدفن جثة القط، ثمَّ دفع له ما اتفقا عليه. حاول تنظيف قميصه من التراب، لكنَّه بقي متسخًا. نفَّض يديه وهو يسعل. نظر إلى الوراء، متفقدًا البقعة التي وارَيَا فيها تايغر. حاول هذه المرَّة أن يحفظ مكانها، فرغم أنَّه علَّمها مع بائع اليانصيب بحجر كبير،

لكنْ لا شيء يضمن بقاء الحجر في مكانه.

نطَّ عن الدرابزين واتَّجه إلى الرصيف. سمع البائع يلحق به ويقول له إنَّه نسي أخذ أوراق اليانصيب منه. كان خالد قد صعد المقعد الأمامي لتاكسي حين رمى البائع الأوراق في حجره، قبل أن ينطلق التاكسي مسرعًا بسبب إلحاح الزمامير وراءه.

نظر خالد إلى الأوراق، وفكَّر أنَّه ظلم البائع عندما حكم عليه بالكذب في ما يتعلَّق بقصَّة قدومه إلى لبنان. بعض الأشخاص هكذا. قصصهم صادقة، لكنَّهم إذا حاولوا قصَّها، بالغوا بروايتها، وحكوها بشكل مشبوه كاذب، فأصابوها في مقتل.

ضيَّفه سائق التاكسي سيجارة، فأخذها منه ووضعها في فمه، ثمَّ اقترب من السائق الذي أشعلها له بقدَّاحته.

"نفِّخ يا إستاذ. نفِّخ!"، قال له السائق عندما رآه يسعل.

وصل إلى مدخل بنايته، فدفع الأجرة، وقطع ورقة يانصيب من الأوراق.

"شو هيدا يا إستاذ؟"، سأله السائق.

"ضيَّفْتْنا سيجارة، وعم ضيِّفَك ورقة يانصيب"، أجابه خالد.

بعد أخذ وردٍّ، أخذ السائق الورقة منه وشكره.

دخل خالد الإستديو، ورمى أوراق اليانصيب الباقية جانبًا. خلع قميصه وبنطاله، وتركهما على الأرض. لم يجد ماءً ساخنًا في الحمَّام، فاستحمَّ بماء بارد. انتقى من الخزانة أسهل ما يمكن له أن يلبسه. جفَّف شعره بالمنشفة، وهو يفتح باب الشرفة، ورجع يجلس على السرير. وضع المنشفة بجانبه، واتكأ على رجليه بساعديْه. دخلت نسمة هواء من الباب، فأحسَّ بها تلامس شعره المبلَّل.

قام ومرَّر يديه على القصاصات الصحافيَّة التي علَّقها على اللوح. أخذ يتتبَّع تسلسل الأخبار فيها، ويتلمَّس ما بقي من صحف مكوَّمة على سطح المكتب.

سمع موجز الأخبار ينبعث من راديو ضرغام، فخرج يسلِّم عليه. وجده جالسًا كالمعتاد، بيده جريدة وعلى الطاولة إبريق شاي. رفع ضرغام وجهه ما إن أحسَّ بوجوده.

"مرحبا"، قال له باقتضاب.

شعر خالد أنَّ العجوز ليس على ما يرام. حدس بانعدام طاقته من النبرة المختلفة التي أجاب بها.

"وين سلام؟"، سأله محاولًا أن يستجرَّ حديثًا معه.

أنزل ضرغام الجريدة بعصبيَّة، وقال غاضبًا: "مش هون! مخانقين! شو كمان بدّك تعرف؟"

"بعد في شاي بالإبريق؟"، سأله خالد متفاديًا الرد على نوبة غضبه.

راديو ضرغام: حديث خاص

تنبأت بكلِّ شيء. "شايفة الميْ رح تغمر بيروت". قالت لكم كل ما سيحدث. "تضارب بالأيدي في مؤسسة رسمية"... وحدث... ماذا ستقول هذه المرَّة؟ "بِدعي اللبنانيين لأخد الحيطة والحذر". هل ستصدُق توقُّعاتها الجديدة؟ "أحداث مأسوية تتعلق بشكل مباشر أو غير مباشر بالنفايات، سيتجاوز البلد بعضها، ويفشل في تجاوز البعض الآخر منها". وماذا عن توقعاتها التي لم تَصْدُق؟ "الروشة رح تشهد حدث غير اعتيادي". ما ردُّها على الانتقادات التي تطاولها في الصحف والإعلام؟ "بشوف اللي ميتين رِجعو والعايشين عم يْموتو". نايلة عبد الحميد ستجيب في حديث خاصٍّ إلى إذاعتنا هذا الأربعاء عن كل التساؤلات، وستفصح عن المزيد من التوقُّعات. "بتمنَّى للبنان واللبنانيين أوقات أحسن بس للأسف الفترة اللي جايي سودا". فقط على إذاعتنا... نايلة عبد الحميد. "أنا ما بتمنى إلا الخير لهالبلد وناسو، بس الإلهام متل ما بتعرف من عند الله.

والله هوِّي وحدو اللي قادر يغيِّر، ومتل ما بتعرف. لا يغيِّر الله ما بقومٍ حتَّى يغيِّروا ما بأنفسهم".

ما رواه ضرغام -٣

عندما وصلتُ بسيارتي، وجدتُ جانيت تقف تحت المبنى محاطة بالمسلَّحين. كانت تبكي وتستجديهم وتكرِّر سؤالهم عن ولدها. عندما رأَتنا، أسرعَتْ في اتجاهنا. فتحَتِ الباب بقوة، وعانقته. وضع الولد رأسه على كتفها، وتابع قول الجمَل بالعكس وهو يرتجف. نظرَت جانيت إليّ نظرة ضياع. كأنَّها أرادت أن تشكرني فلمَّا وجدت ابنها على هذه الحال، لم تعد تعرف ماذا تقول. اكتفَت بأن أومأت إليَّ، وحملت الولد وصعدت إلى المبنى.

طيلة اليوم التالي، بقيتُ جالسًا مع ماما في الشرفة. ماذا أفعلُ؟ هل أستدعي المسلَّح الذي قتل زميلَيْه؟ كنت واثقًا فقط أنَّ رصاصتَيْن أُطلقتا. هل قتلٍ واحدًا أمٍ قتل اثنيْن؟ وكيف أعرف هويَّته؟ هل أستدعي مجموعة من مسلَّحي الجلِ والمبنى وأسألهم؟ هل هذه فكرة سليمة؟ وماذا لو كان القاتل بينهم؟

كنتُ كلَّما قبضتُ على فكرة، انتبهتُ لتفصيل يُلغيها. فبالرغم من أنَّني شهدتُ على جريمة ارتكبها أحد بعينه، بقيتُ مستغربًا خوفي هذا ونحن في خضمِّ حرب فعلية. لقد كنتُ خائفًا من مسلَّح وظَّفتُه لحمايتي. كأنَّني شعرتُ بالحرب فقط في لحظتها، لتصير العلاقات والأموال والقوانين التي مكَّنتني من الاستمرار بلا معنى. كأنَّ الحرب اتَّخذَت معناها فقط حين لم أعد أعرف ماذا أفعل، وانتبهتُ عندها أنَّها تجميع لمثل هذه الأحداث الصغيرة المسؤول عنها أشخاص بعينهم، قبل أن تصبح في صيغتها النهائية: جريمة جماعية مجرموها غير مرئيين.

بعد الحادثة، صرتُ أرى المشهد من منظور آخر. سألتُ نفسي: ما الذي عليَّ فعلُه؟ أحمي البيت والعائلة، أم أربِّي الوحش؟

انتظرتُ جانيت لتظهر وتحدِّثني. لتقول لي أيَّ شيء. طال انتظاري. أسندْتُ يديَّ على الدرابزين، وأخذتُ أحدِّق في المسلَّحين تحت منزلي يماكفون بعضهم بعضًا. أبعدتُ نظري إلى الجلِّ حيث حدثَت الجريمة، ثمَّ عدتُ أحدِّق بالمساحة المحيطة بالمنزل، ورأيتُ سليمان يعبر وحيدًا فيها، فناديتُه وطلبتُ منه الصعود.

سألتُه عن عائلته وعن العمل. قال إنَّه جديد هنا، وهذا هو أسبوعه الأول، وأضاف أنَّ العمل لطيف. سألتُه إن كان يعرف زملاءه. أجاب أنَّه يعرف معظمهم، فكلهم أولاد الضيعة، ومن ليس منها، يأتي من ضيعة مجاورة. سألتُه إنْ كان سمع شيئًا وهو في طريق العودة، أو لاحظ شيئًا غير اعتيادي، أو انتبه لأحاديث غريبة بين رفاقه. تملَّكه الوجوم كأنَّه حدس فجأة بمرادي من استدعائه. عندما وجدتُه على هذه الحال، استطردتُ موضِّحًا أنِّي فقط خائف من انفلات الأمور من عقالها، وبدأتُ أشرَح له طلبي.

إسمع، قد لا تفهم الآن. أنا لا أريدك أن تتجسَّس عليهم. كل ما في الأمر أنَّني رأيتُ شيئًا بالصدفة، وأخاف أن يكون يحدث دائمًا هنا ولستُ عالمًا به. لن أقول لك ما حدث. ستكتشفه بنفسك. أريدك فقط أن تنظر بشكل مختلف إلى ما يدور حولك. أن تنتبه لكل شيء. إنتبِهْ من أجلك أنت. وإن كنت غير مرتاح لدور كهذا لأنَّه يتطلب منك أن تقول لي، فلا تقُل. أعلمني فقط عندما تشعر أنَّ عليك فعل ذلك.

نظر إليَّ سليمان صامتًا. أتذكَّر نظرته تلك، نظرة لن أنساها، لا لما حدث بعدها، بل لأنَّني حين رأيتُها، عرفتُ أنَّني أستطيع الوثوق به.

وما إن استأذن لينصرف، حتَّى ظهرَتْ جانيت. كانت تجرُّ كرسيَّ أمِّي إلى الشرفة. قبَّلتُ أمي على وجنتها، وسألتُها على حالها، فلم تجِبني. أكملتُ دفع الكرسي إلى الشرفة، حيث كنتُ أجلس، وعدَّلتُ مستواه.

حين التفتُّ، رأيتُ جانيت تراقبني، كأنَّها كانت تنتظر منِّي أن أطلب مساعدتها. ابتسمتُ لها، فردَّت ابتسامتي بتعبير غريب طبَعَتْه على وجهها، تعبير يتخطَّى الابتسام الخجول ولا يلامس الفرح الواضح، فتشجَّعتُ وسألتُها عن الولد. أجابت أنَّه نام قبل قليل.

طلبتُ منها أن نتحدَّث على انفراد.

صحف ضرغام: مراقبة المقاهي

انعقد مجلس الأمن المركزي في محافظة بيروت استثنائيًّا لمناقشة الانتشار غير المسبوق للإشاعات التي تحذِّر من أحداث أمنية محتملة، وأصدر بيانًا، هذا بعضُ ما جاء فيه:

"بالتزامن مع نشر الصحف لأخبار عن دخول سيارات متفجرة الأراضي اللبنانية، يأتي استخدام المواطنين المطَّرد للهواتف الذكية، وعليها وسائل التواصل وبرامج المحادثة والتطبيقات الهاتفية، ليساهم في تناقل الكثير من الأخبار غير الدقيقة.

ومن الملاحظ أنَّ الترويج لهذه الأخبار يحدث على نحو غير بريء، ويتجاوز الفكاهة والمزاح ليلامس تفاصيل ذات طابع أمني خطير، الأمر الذي يولِّد تشنجات وقلقًا بين المواطنين في مناطق صبغاتها طائفية وسياسية".

وبحسب بيان المجلس، فإنَّ "علاج هذه الظاهرة لا يمكن أن يتحقق إلا باتِّخاذ سلسلة من إجراءات إدارية ورسمية، تبدأ بقوننة مقاهي الإنترنت التي تخرج منها هذه الأخبار المشبوهة، وإخضاعها للمراقبة وإجبار مرتاديها على إبراز هويَّاتهم وتسجيل المعلومات قبل استخدام الخدمات، تحسُّبًا لأيِّ حوادث أمنية قد تحصل مستقبلًا نتيجة الاستعمال غير الآمن لهذه الخدمات".

وأوعز المجلس إلى القوى الأمنية بـ"العمل على إحصاء سريع لعدد المقاهي وأماكن وجودها بالتنسيق مع الوزارات المعنية، والطلب إلى أصحابها الحصول على التراخيص القانونية في وزارة الاتصالات، على أن تُلزَم المقاهي خلال هذه الفترة بوضع كاميرات مراقبة في الداخل وبتنفيذ التوصيات المتَّفَق عليه، ومراعاة الضوابط والمعايير الأخلاقية لجهة عدم الإخلال بالآداب العامة وعدم إقلاق راحة وسلامة المواطنين".

ودعا مجلس الأمن وزارة الاتصالات إلى البدء بمراقبة وسائل التواصل الاجتماعي لأنَّ الحفاظ على أمن المواطنين يجب أن يُعتبَر أولويَّة. وحثَّ المجلس وزير الاتصالات على "سرعة تسليم الداتا عندما يطلبها المجلس منه، خاصةً في ظلِّ الأوضاع الاستثنائية التي تشهدها البلاد".

وبعد انتهاء النقل المباشر لبيان المجلس بدقائق، ظهر وزير الاتصالات في مؤتمر صحافي عقدَهُ على عجل، ليشنَّ فيه هجومًا حادًّا على المجلس، متَّهِمًا إياه بأنَّه "تخطَّى صلاحيات سلطات الحكومة والوزير نفسه تحت ذريعة الحفاظ على أمن المواطنين بينما تدعو توصيات بيانه المعلَن حقيقةً إلى انتهاك خصوصياتهم". ولمَّح الوزير إلى تقصير مقصود من الأجهزة الأمنية في الأحداث الأمنية المتفرِّقة التي شهدها البلد في الآونة الأخيرة.

وانتشرت رسائل عبر الواتس – آب تدعو للمشاركة في اعتصام مالكي مقاهي الإنترنت أمام وزارة الداخلية غدًا، اعتراضًا على التوصيات الواردة في البيان، والتي ستكلِّف الملّاك تكاليف إضافية وتؤثِّر سلبًا على مداخيل محالِّهم.

صَلّي لأجلنا يا عذراء

خرج خالد من شقة ضرغام عند الرابعة عصرًا، ووقف في مدخل البناية يفكر في غضب العجوز وتعبه. خَطَر له أنَّ ضرغام يستعيض عن سوء حالته

بقصِّ حكايته التي يقطِّعها مشاهد، ويحكيها كأنها وقعت البارحة.

يتفحَّص خالد شرايين نبتَت فجأة في عنق العجوز. ينظر إلى ذقنه النابتة وتفَّاحة آدم التي شطَّ الجلد فوقها، وينتبه أنَّه لم يقابله يومًا إلا بذقن حليقة، ويبدو له توقُّفه عن حلاقتها منذ أيام إشارة إضافية إلى انحدار حال الرجل النفسيَّة.

عراكه مع سلام هو السبب؟

يكذب خالد إنْ قال إنَّه كان يأخذ علاقتهما على محمل الجد. فهو لا يستطيع أن ينسى أنَّ سلام زارته من أجل خدمة جنسية، وأنَّها تلك المرأة التي دخلَت الشقة صامتةً، وخلعت كندرتها، ثمَّ وقفت تنتظره. لكن متى تغيَّرت صورتها عنده؟ عندما رآها تلعب البلاي ستايشن مع ضرغام؟ عندما رآها تحمل الأكياس وهي خارجة من المصعد؟ ولِمَ تغيَّرَت الصورة؟

يفكِّر في الاتصال بها، فيتذكَّر أنَّه لا يعرف رقمها. يطلبه من روجيه؟ روجيه في لندن. يتَّصل به في لندن؟

يعدِّل خالد ياقة جاكيته. يتأكَّد من هندامه، من قميصه تحت البنطال، يفتح حزام بنطاله ثمَّ يشده أكثر، وينتبه أنَّه فقد وزنًا. يسعل سعلتيْن، ثم يبصق البلغم، وينجح في تصويب البصقة على غير عادة. يتفقَّد الساعة في هاتفه فيجد أنَّ ربع ساعة قد مرَّت منذ وقوفه منتظرًا خارج مدخل البناية. لم تمر سيارة أجرة واحدة. حتَّى السيارات الخاصة التي سلكت الشارع لم يتجاوز عددها الخمس.

يقرر المشي حتَّى ساسين ليأخذ تاكسي من هناك. في الساحة، لا يجد وضع السير أحسن حالًا. حوله، المقاهي فارغة. نُدُلُها يتجمَّعون على الأرصفة يتحادثون ويتبادلون السجائر. وعند الناصية، عاملان على سلَّم يلصقان إعلانًا على آرمة.

يضع خالد يدَيْه في جيبَيْ بنطاله، ويستمع لنادليْن يقفان بجانبه يدخِّنان ويتحادثان.

"ممكن يصير أيَّ شي"، يقول الأول.

"من هلأ بقلّك. ما في حكومة"، يردُّ الثاني.

يرنُّ هاتف الثاني مُنبِئًا بقدوم رسالة نصيَّة، ويلحقه بعد ثانية هاتف الأول، ثمَّ يصل الرنين إلى جيب خالد، فيُخرج الهاتف، ومعه بطاقة التصقَت به.

"اتفضَّل. عم يْوَزّعو كمان أرقام السيارات. والله معك حق. هياه. ما هيدا أي شي. وهيَّاه صار. كلّ مرَّة بتغلبني يِحْرِق حريشك. رُؤيَوي إنتَ"، يتابع الثاني.

ينظر خالد إلى البطاقة الملتصقة بظهر الهاتف، فيجدها بطاقة سائق التاكسي الذي أوصله إلى شقَّة سهى.

(أبو بيتر – نقليّات في بيروت والمناطق اللبنانية)

يطلب خالد الرقم، بينما يستمرُّ الحديث بين النادلَيْن:

– ليك بس شو قصدك برُؤَوِي هيدي؟

– رُؤيَوي مش رُؤَوِي.

– إي شو معناتا يعني؟

– بعتقِد معناتا إنك تشوف لقدَّام.

– بتعتقِد؟

– لا لاَ. أكيد هيك.

– يعني بتشوف بتشوف؟

– لَهْ. بتتوقَّع يعني. مش إنُّو بتشوف بعينك. بعتقِد.

– بتعتقِد؟

– لا لاَ. مأكَّد منها.

– أها.

تمضِي خمس دقائق بعد اتصال خالد، ويظهر أبو بيتر بسيارته قادمًا من جهة السوديكو. يصعد خالد السيَّارة، ويسلِّم على السائق الذي يرحِّب به بحرارة كأنَّه يلتقي بقريب لم يرَه منذ زمن.

"الداون تاون، أبو بيتر"، يقول خالد.

في الساحة، ينهي العاملان على السلّم لصق الإعلان على اللافتة. يطلُّ خالد من النافذة يتفحّص محتواه، فيجد فيه رؤوس كلٍّ من رايا وكنزي وأنيسا وقد تجاورت، فيما صُفِّفَت شعورُهنّ بطريقة غريبة. ويبدو من أكتافهنّ أنهنّ يلبسن بزّات عسكرية، أما في أسفل اللوحة فتظهر عبارة: "نحنا توحّدنا... وإنتو؟"

عندما تبتعد السيّارة خارجة من الساحة، يلمح خالد لوحة إعلانية أخرى ملاصقة للإعلان الأول، يظهر فيها صرصار عملاق منقلب على ظهره، مع صورة لعبوة مبيد حشري تغطّيها كلمة "الأقوى"، وفوق الإعلانَيْن، تغطّي صورة عظيمة لمريم العذراء واجهة بناية مذيّلةً بعبارة: "صلِّي لأجلنا".

يلتفت ناظرًا إلى الأمام، بينما يفتتح أبو بيتر مونولوغه المعتاد.

الرسالة النصيّة

احذروا هذه السيارات المفخخة

سيارة فولفو ٧٤٠ لون أحمر دم عفريت رقم ١٦١١٤

سيارة جيب غراند شيروكي لون رمادي جردوني رقم ١٧٥٠٠٢

سيارة مرسيدس لون أزرق.سماوي الرقم غير معروف

نرجو الانتباه هذا اليوم حرصاً على سلامتكم

مونولوغ أبو بيتر

"يا إستاذ خالد. خالد مش هيك؟ إيه أنا بحفظ أسماء. ذاكرتي ذاكرة تمساح. بِقولو ذاكرة تمساح أو ذاكرة فيل؟ لا. هيديك دموع الفيل. ها ها. معليش يا استاذ. العمر علينا حقّ. وأنا بعمري ما كنت شاطر بالأمثال.

إمي الله يرحمها كانت تقولن قدامي. وإنت كيفك كيف أحوالك يا إستاذ؟ كأنّك رفعان شوي؟ ما تكون مريض. انتبه عم نسمع إشيا بتشيِّب شعر الراس. آخر خبرية قال مدري المَيْ شو فيها. أنا المرا عندي بالبيت صارت تغسّل كل شي بهيدا شو اللي بسموه. هيدا الشامبو تبع الخضرا. الله وكيلك، بتفرط الخسّة ورقة ورقة، وبتنضِّف كل ورقة لحالا. وبس قلّا يا مرا شو عم تعملي. ما بدّا هالأدْ ح تنضيفلنا معدتنا ع شوي، بِتْهِبْ فيي وبِتْقلي ما خصّك. وأنا شو ع بالي. مش أحسن ما نتدركَب كلنا ع المستشفيات ونتكِّ الفرنكين اللي معنا؟ بيجي الواحد بيفكّر فيها، بيلاقي إنُّو عندا وجهة نظر، المَدام. إنو مين معو مصاري يفوت هلّأ عالمستشفى؟ ولك هني اللي عندُن استشفا ع الضمان صايرين عم يستقبلوهن بالزور، شو حال نحنا؟ قمْت قلت يا رجال، ابلاع لسانك واسكوت واتركها تعمل اللي بدها ياه. هيي أدرى. والواحد يحكي الحق، هيي بتخاف عليي. شايف اليوم مثلًا؟ ما كان بدّا ياني إنزل. قال شو؟ عم يصير في حوادث غريبة بالبلد والسيّارات عم تفوت ببعضا منّا لحالا. بلا مؤاخذة منّك. بيني وبينَك، المرا معها حق. أنا شِفتْ حادث من هول. كان نص الليل. مذكِّر الليلة اللي وصّلتك فيها؟ إي. بوقتا صارت القصَّة. فرقت معي ع شعرة، والله سلّم. السيارات كانو فايتين ببعض متل كأنُّو قاصدين بعضن. وأنا ع لحظة والله كنت رِحتْ، وما كنت شايفني قاعد معك هون اليوم. بس يلا. رُبَّ نافعة ضارَّة. شايف كيف الشغل منيح بهاليومين؟ طرقات فاضية والعالم خايفة. ما حدا نزل بسيارته من بيته لا اليوم ولا مبارح. عم انزل ومش عم لحِّق زباين. ليك. اتطلّع. ما في ولا سيَّارة. ما في إلا هالعالم واقفة ناطرة حدا ياخدها. وألله، بلا مؤاخذة منك يا استاذ، كإنُّو بطّل ياخدن فجأة. ليك هاي ألفاية واقفة عالزاوية هونيك. وهاي ألف واقف ع التقاطع. شفتو؟ عدّ معي. قدي صارو؟ ٤ آلاف. هوي كل واحد بيدفع ألفين بس أنا بسمّيهن ألف. ها ها. وهاي ألف تانية. ٦ آلاف. عم تعدّ معي؟ إنتَ استلِم جهة اليمين وأنا

بستلِم جهة الشمال".

موعد المطعم

"في حجز؟"، سأله النادل وهو يكمل النظر في الكتيِّب أمامه. أعلمه خالد باسمه، فدقَّق النادل في الكتيِّب، ثمَّ أفسح له الطريق وهو يقول إنَّ هناك من وصل قبله.

تجاوز خالد المدخل ووصل إلى فسحة أولى احتلَّتها طاولة مستطيلة جلس إليها مرتادون صامتون ينظرون إلى شاشات لابتوباتهم أو يقرأون في صحف وكتب. تخطَّى الفسحة، ودخل المطعم، فوجدها جالسةً في الزاوية.

بينما كان يقترب منها، كانت ريم تتحدَّث على الهاتف بعصبيَّة. تقول إنَّها متعَبة ولن تأتي اليوم. ثمَّ احتدَّت، فتناثرَت منها جُمَل بالفرنسية لم يفهمها خالد، لكنَّها بانَت له جازمة في رفضها. وعندما جلس على الكرسي قبالتها، كانت قد أنهَت الاتصال وألقَت الهاتف في حقيبتها المعلَّقة بكتف الكرسي، ثمَّ وضعَت يدَيْها على جبهتها، وأطرقَت تحاول ضبط أعصابها، قبل أن تنهض إلى الحمَّام.

أخذ خالد يلاحقها بنظره وهي تبتعد. كانت تلبس فستانًا قصيرًا أزرق اللون بلا أكمام، واسع الياقة، يكشف عن ضلعَيْ كتفها، وزيَّنَت عنقها بعقد خفيف، فيما كان شعرها مسرَّحًا بشكل مغاير لتسريحتها اليومية، ولكن بلا مبالغات.

وعلى الرغم من مشيتها العصبيَّة، بدَت له لطيفة. بل أكثر. رآها جميلة.

عادَت بعد دقائق وجلسَت واعتذرَت منه.

وجد خالد يدها اليسرى ملقاةً بلا اهتمام على الطاولة، فمدَّ يده وأمسك كفَّها محاولًا التخفيف من عصبيَّتها. لم تسحب يدها، لكنَّه لم يشعر بأيِّ

تجاوب من قبلها. كانت شاخصة باتجاه طاولة مجاورة كأنّها تُكمِل محوَ أفكارها. في البداية شعر ببرودة باطن الكفّ، ثمّ حلَّ التعرُّق، فسحبَت ريم يدها بلطف، كأنَّها انتبهَت.

"إنتي منيحة؟"، سألها.

اعتذرت ثانيةً، وبدت له أنَّها تغلّبت على انزعاجها.

"ما بأى تعتذري. ما صار شي"، قاطعها.

تقدَّم منهما نادل يسألهما إن كانا قد اختارا ما يودَّانه من أطباق. استمهله خالد لدقائق، فابتعد النادل عائدًا من حيث أتى. فتح خالد اللائحة لريم، وأخذ يتفحَّص لائحته، لكنَّ ريم سألته فجأة:

– هيدا شو؟

نظر إليها مستفهمًا، فأكملت تشرح:

– هيدا. هلَّأ. الغدا. نحنا قاعدين. هيدا شو اسمو؟

– جايين... لنحكي.

– يعني شو. موعد يعني؟ Date؟

حدَّق خالد فيها، وصمت للحظة. ثمّ أنزل لائحة الطعام، وقال:

– مش ح كون زعلان اذا كان هيك.

– يعني هوِّي ما هيك؟

– مبلا. هوِّي هيك بس أنا ما بعرف إحكي أوقات.

ضحك محاولًا تلطيف اعترافه، لكنّها قطعَت محاولته بالقول:

– في شي لازم تعرفو. قبل شوي كنت عم احكي مع مديري الفرنسي. بدُّو ياني إنزل ع الشغل.

– أكيد ما ح تنزلي.

– لا. ما ح إنزل.

– عال لكن.

– إي بس مش هيدا اللي بدِّي قولو.

– شو بدِّك تقولي؟
– بما إنُّو هيدا موعد، فلازم تعرف من الأول. أنا بنام مع مديري.

صُحُف المطعم: الوزير الرشيق

بيروت – أصدر وزير الاتصالات اللبناني قرارًا يمنع بموجبه "اتصال أرقام خارجية مشبوهة ووهميَّة بأرقام اللبنانيين داخل لبنان". وجاء قرار الوزير بعد تلقِّي وزارته مراجعات عدة من المواطنين والمؤسسات الإعلامية للاستفسار عن هذه الأرقام. وطلب الوزير من وزارة الداخلية اللبنانية تتبُّع أرقام أخرى أرسلَت رسائلٍ نصيَّة بمواصفات سيارات مشبوهة.

ويأتي هذا القرار في ظلِّ الاتهامات المتكررة لوزير الاتصالات من قبل جهات معارضة له، وهيئات رسمية أخرى، بتعريضه حياة المواطنين للخطر بمماطلاته المتكرِّرة في تسليم الداتا لجهات أمنية.

وقالت مصادر في الوزارة إنَّ الوزير قطع الطريق على اتهامات معارضيه برشاقة عبر هذه الإجراءات، لكنَّ معارضين سياسيِّين آخرين وجمعيات مدنية لبنانية تُعنى بالرقابة على الاتصالات شككوا بصوابية القرار واستهجنوه، خصوصًا أنَّ الوزارة لم تعلن كيف سيتمُّ المنع وتفاصيله.

ولمَّحَت جهات معارضة لبنانية أخرى إلى عدم جهوزية الوزارة وشركتَي الهاتف لرصد الاتصالات من هذه الأرقام ومنعها، ولاسيَّما أنَّ معظمها مبهَم وغير معروف. وتواترت أنباء تفيد بأنَّ الوزارة والشركتين ستتخطَّى العثرات التقنيَّة، وتعمد إلى منع كلِّي للاتصالات الواردة من بلدان معيَّنة. وقالت الجهات المعارضة نفسها إنَّ من شأن الإجراءات الوزراية أن تنعكس سلبًا على اتصالات اللبنانيين والمقيمين من الجنسيات الأخرى في لبنان، مستهجنةً أن يُلجَأ إلى مثل هذه القرارات في عالم بات أشبه بقرية كونيَّة صغيرة.

فوق الحفرة

كان يمكن لاعترافها أن يفرمله عن كلام كثير، لكنَّ ما حدث هو العكس تمامًا.

"بعدك بتنامي معو؟"، سألها.

قبل أن تجيبه، عاد النادل إلى طاولتهما يستفسر ماذا قرَّرا أن يأكلا.

سألته ريم عن صحن اليوم المميَّز، فأجابها النادل: "Seafood Pasta".

"اتنين باستا لَكَنْ؟"، قالت وهي تنظر إلى خالد تنتظر منه تأكيدًا، فهزَّ رأسه بالموافقة، ثمَّ بادر إلى طلب قنينة نبيذ أبيض.

انسحب النادل، فأراد خالد أن يعود إلى حوارهما. قال محفِّزًا:

– فَ..؟

– كِنت.

– يعني ما بأى عم...

– ما عِدتْ شفتو.

– وهَيديك الليلة...

– هيديك الليلة شو؟

– كنتي جايي من عندو ما هيك؟

– ...

– غصبْ عنِّك؟

– ما بعرِف.

أبدى عدم فهمه لإجابتها الأخيرة. قالت إنَّها كانت تدفع الأمور نحو الحافَّة مع ألبير، ومن ثَمَّ تتراجع، وإنَّها هي المُلامة. أخذت تشرح من دون أن تشرح. كانت تبدأ الجملة بتفصيل أوَّل، ثم تستطرد بجملة عن تفصيل ثانٍ، وتنتهي بأن لا توضح أيًّا من التفصيليْن، ثمَّ تنتقل بكلام سريع نحو تفصيل ثالث.

"ريم ريم ريم ريم"، أوقفها خالد وأعاد سؤاله:

– هيديك الليلة كانت غصب عنِّك؟

أومأت إيجابًا.

– مش ح تبلِّغي عنُّو؟

أتى النادل وصبَّ لخالد قليلًا من النبيذ الأبيض. رفع الأخير الكأس وتذوَّقه وأبدى إعجابه بطعمه، فأكمل النادل صب الكأسين وانسلَّ تاركًا القنينة.

رفع خالد كأسه ناحيتها، فجارَته وشربا من الكأسين، ثمَّ أكمل:

– ريم. أنا ما عندي صِفة لإحكي معِك بالموضوع. بس مش قادر كذِّب كمان. فاعتبري اللي ح قلِّك ياه مجرَّد رأي. فيكي تاخدي فيه، وفيكي ما تعبِّريه. أنا بس بهمني إنِّك تكوني، وتْضَلِّك، منيحة.

رشفت ريم من كأسها بينما رفع خالد من نبرته:

– شو بدِّك تعملي هلَّأ؟ ح تكمْلي تروحي ع الشغل عادي كأن ما صار شي؟

– بتجاهلو... مش ح تكون أوَّل مرَّة.

– وبرأيِك هيك بيمشي الحال؟

– ما بعرف.

– وبركي ما كانت آخر مرَّة؟

قال لها إنَّ التجاهل سيؤجِّل الصدام فقط، وهو لن ينجح أصلًا إلا بتواطؤ الطرفين. فماذا لو أكمل ألبير التحرُّش بها؟ قاطعته ريم، وقالت إنَّه لم يكن يتحرَّش بها، وإنَّها مسؤولة بالقدر نفسه. أوقفها خالد، وقال لها ما مفاده: اسمعي. هذا يشبه الكلام الذي تقوله الضحية في مثل هذه الحالات. ولا جديد هنا. أنا كتبتُ مرَّة تحقيقًا للجريدة عن التحرُّش، ولن تصدِّقي. الكلام نفسه يُعاد، وفي بيئات مختلفة. وما زلت أتحدَّث هنا عن التحرش! الأرجح أنَّكِ لا تودِّين سماع ماذا يقال في حالات الاغتصاب، لكنْ سأقول لكِ.

سيكون الكلام نفسه، وبشكل أكثر إصرارًا. الضحيَّة تجنح دائمًا إلى إنكار ما حدث. بل إنَّها تتفه الحدث بالقول إنَّها كانت مسؤولة عن منع حدوثه!

– فينا ما نِحكي بالموضوع؟

– لأ! بِدْنا نِحكي!

ردَّ خالد منفعلًا، ثمَّ أبعد نظره إلى طاولة بجوارهما إلى أن تمالك نفسه، وعاد ينظر إليها، فوجدها هادئة. سألَته وهي تبتسم:

– هلأ هيدا عن جد date؟

انفرجت جبهته عندما لمح ابتسامتها ومات انفعاله في لحظة. جاء النادل ووضع الطبقيْن أمامهما. "منكمِّل حكي بعد ما ناكل لقمتين"، قالت ريم وهي تضمُّ شفتيْها، قبل أن تلاحظ أنَّه يكتفي برشف النبيذ وبتقليب ما في صحنه بالشوكة فسألَته:

– مش ح تاكل؟

– ما انتبهتِ إنتِ وعم تطلبي. أنا ما باكل seafood!

بعد الغداء، خرجا من المطعم، وقطعا الطريق إلى الرصيف المقابل عند البحر، ووقفا ينتظران سيارة أجرة. لم تكن السيارات العابرة قد زادت عن وقت الظهيرة. وعندما طال انتظارهما، قرَّر أن يفتتح معها حديثًا.

– هون كانت الجورة!

– أيُّ جورة؟

– مطرح ما صار الانفجار من كم سنة. قطعنا فوقها.

– إي وشو يعني؟

– لا. ما شي. عادةً بقطع فوقها بالتاكسي أو بالسيَّارة. هلَّأ خطرلي إنِّي أول مرَّة بمشي فَوْقَا.

نظرت ريم إلى الناصية المقابلة، فوجدت فيها التمثال مضاءً ومحاطًا بحارسيْن. توقَّفت سيَّارة أجرة قربهما، فاقترب خالد من النافذة ثمَّ تراجع وقال للسائق: "شكرًا. ناطرين حدا".

"وراكي شي؟"، التفت سائلًا ريم.

"لأ"، أجابته.

"خلينا نتمشّى شوي لجوّة لكن"، قال.

قطعا الطريق ومشَيَا فوق الحفرة المطمورة من جديد، وعادا من حيث أتَيَا.

خريطة طريق

لو استدارا إلى الخلف لَعَلِما أنّ الشارع يبدأ باسم شارع وفيق سنُّو، ثم ينقلب اسمه إلى رفيق الحريري حيث كانا يقفان. ولو تقدّما إلى الأمام مسافة مئتَيْ متر ولفّا مع الشارع في استدارته، لاكتشفا أنّ كورنيش عين المريسة يدعى شارع ميناء الحصن. لكنهما لم يفعلا أيًّا من ذلك. لم يعودا إلى الوراء ولم يتقدّما إلى الأمام. وقفا يحدِّقان في تمثال الحريري الذي ضوّت شموع صغيرة حوله وأحيط بحارسيْن. تابع خالد وريم المشي، ولفّا إلى اليسار من وراء التمثال في شارع أحمد شوقي، وتركا فندق السان جورج وراءهما. وصلا إلى شارع ابن سينا، وانتظرا حتّى أبطأت السيارات القليلة من سرعتها، ثمّ قطعا الطريق إلى الجانب الآخر. مشيا قرب الحواجز الحجرية التي تحيط بفندق الفينيسيا، وتابعا خطوهما في شارع فخر الدين الصاعد الموازي للنفق وشارع الجنرال فؤاد شهاب. لم يدخلا في شارع لندن إلى اليمين، بل أكملا صعودهما. ثمّ بعد أن قطعت ريم مسافة قصيرة في فخر الدين، تعبت وتوقّفَت عن المشي. كان خالد قد وصل إلى أعلى الشارع، قرب فندق الهوليداي إن. رفع نظره يتفحّص الثقوب المتروكة في جسد المبنى الضخم، وانتبه أنّ ريم ليست بجانبه. التفت ليجدها تنحني واضعةً كفّيها على ركبتيْها وتلهث. "بعد ما بلّشنا!"، ناداها فابتسمت، ودَعَتْهُ أن يواصل طريقه، وقالت إنّها ستلحق به. لكنّه لم

ينفِّذ طلبها، وعاد مادًّا يده عارضًا عليها المساعدة. استمهلته قليلًا وهي تواصل اللهاث. "بِحمْلك هَهْ!"، حذّرها. مدَّت يدها إليه وهي تضحك، ثمَّ عادا يمشيان. وصلا إلى ناصية الهوليداي إن. التفتا إلى اليمين، في شارع عمر داعوق، الذي كان منبسطًا، فلم يجهدا ليمشيا فيه. سألت ريم خالد عن اسم الشارع، فقال لها إنَّه لا يعرف. فتّشا في الجدران عن "البلاك" الحديدي الأزرق الصغير الذي يُكتب عليه الاسم، ولم يجداه. لم يكملا طريقهما في شارع جون كينيدي الذي يبدأ في نهاية شارع عمر داعوق. انعطفا إلى اليسار، وصعدا شارع حوراني حتَّى وصلا إلى شارع كليمنصو، ثمَّ أكملا مشيَهما في شارع مي زيادة. هناك، وجدَت ريم القطعة الزرقاء بسرعة وأعلمت خالد باسم الشارع. لم ينتبها أنَّهما تخطّيا شارعًا أصغر وأضيق، اسمه شارع جبران خليل جبران، وأنَّ الشارع يتحول بعد أمتار قليلة ليصير اسمه شارع أميركا، وأنَّهما لو أخذا ذاك المسار لبلغا في آخر أميركا شارع روما. أفضت مواصلة سيرهما في مي زيادة حتَّى نهايته بهما إلى شارع رئيسي هو شارع مصرف لبنان، واكتشفَت ريم أنَّ اسمه شارع ميشال شيحا. مرَّا بمحاذاة المصرف. تقدَّمَت ريم خالد، ثمَّ سارع يلحق بها، وبحركة غير إراديَّة منه، وجد نفسه يضع يده وراء ظهرها وهي تخطو فوق جزء غير مبلَّط من الرصيف. بدل أن يسلكا شارع الحمرا الرئيسي، انعطفا من جديد إلى اليمين في شارع روما، ثمَّ عرَّجا على شوارع محاذية لشارع الحمراء الرئيسي. روما، المقدسي، القاهرة، سوراتي، عمر بن عبد العزيز، ست نسب، ابراهيم عبد العال، المقدسي من جديد، جان دارك، بصرا، نعمة يافت، الشيخ الياس غسبار، أنطون الجميل، صيداني. كانا يحاذران المرور في الشوارع الرئيسية، وكلما وجدا أنَّهما يقتربان منها، انعطفا هاربيْن إلى شوارع قريبة ضيقة. في مشيهما، لاحظا أنَّ عدد السيارات والمارَّة شبه معدوم. كأنَّ الرسالة النصيَّة التي أُرسِلَت فعلت فعلها في إثارة الهلع. حتَّى شارع الحمرا لم يرمِ الشوارع المحاذية، حيث مرَّا،

بأيٍّ ضجيج. أكملا يمشيان، ولم يتوقّفا إلا عندما تملّكهما التعب. هذه المرّة كان خالد هو الذي يلهث، فاتّفقا على المغادرة، كلٌّ بسيّارة أجرة إلى شقّته. أوقف خالد لريم أول سيّارة دخلت الشارع، ولم يَطُل الحديث بينهما، لأنَّ سيّارة وراء السرفيس بدأت تُطلق لبوقها العنان. بدا سائقها مستعجلًا للوصول إلى وجهته. "احكيني بس توصلي"، صرخ ولم يعرف إن كانت قد سمعته، لأنّه قال جملته بعد انطلاق السيّارة. ظلّ خالد واقفًا ينظر إلى السيّارة وهي تبتعد، وعاد ينتظر ظهور سيّارة أجرة ثانية. خلال وقوفه، انتبه للبلاك الحديدي الأزرق على الجدار القريب. كُتِبَ عليه: "شارع المهاتما غاندي".

المشي

لا أمشي في بيروت. فالمدينة لا تشجّع على المشي. ومنذ بدأتُ أقود السيارات، لم أعد أعرف ركوب سيارات الأجرة. في الأيام الماضية جرّبتُ، لأنَّ الإجراءات الميليشياوية في الوطى تطوّرَت إلى حدِّ التدقيق في هويّات الداخلين والخارجين بالسيّارات؛ ولذا، صرتُ أوثر ترك السيّارة في الكاراج والتنقّل بسرفيس إلى شقّة سهى. في الأسبوع الماضي، ركبتُ سيّارة منها ظننتُ للحظة أنَّ سائقها ميّت، أو هو لا يقوم أبدًا من خلف المقود، لا ليبول، ولا ليأكل، ولا ليشرب. كان المقود يضغط على كرشه بينما هو يواصل التدخين وصدره يخرُّ. ظننتُه للحظة غير قادر على التنفُّس. جاهد ليرمي السيجارة جنبه ثم أعطاني إياها، وطلب منّي رمْيَها من النافذة قربي. "إيدي ع الدركسيون يا ماتموزيل"، قال. "والشباك هون إيدو رايحة. ما بيفتح"، أضاف. فتحتُ النافذة ورميتُ العقب! هذه الحادثة ليست حادثة معزولة. حدث معي غيرها. لكأنَّ السائقين ينتقونني. في يوم آخر، صعدتُ إلى سيارة أجرة أخرى وجلست في مقعدها الخلفي.

وجدتُ السيَّارة عادية، لكن ما إن انطلق السائق حتّى خُيِّل لي أنّي أسمع أصواتًا قريبة. وعند أول مطبٍّ، انكشفت السجادة تحت قدميَّ عن فجوة في أرض المقعد المجاور! تصوَّر؟ أن تصعد في سيَّارة وبدل النظر إلى الخارج عبر نوافذها، تتابع الطريق من أرضها؟ أعدتُ تغطية الفجوة، كأنَّ فعلتي هذه ستنفي وجودها، وانتقلتُ إلى أقصى المقعد الآخر، ثمَّ طلبتُ من السائق التوقف قبل الوصول إلى وجهتي الأخيرة. خالد عندما حدثني عن الحفرة التي مشينا فوقها، ذكّرني بكل ذلك. وها نحن قد مشينا وتحادثنا. كيف وصلت إلى هذا الموضوع. المشي؟ السيَّارة؟ صح. كنت أكتب عن السيَّارة. أحيانًا أفكر أنَّ عليَّ العودة إلى قيادتها، وركنها في مكان قريب من المنطقة التي أودُّ التنزُّه فيها. لكن لا مواقف مجانية في المدينة. أو ربما أنا التي لا تعرف الزواريب. كما أنَّني لا أستطيع أيضًا تحمُّل الزحمة. ولا أعرف كيف أفتّش في شوارع بعينها بحثًا عن موقف مجاني. الدوران في المنطقة نفسها يشعرني بالحاجة إلى التقيُّؤ. وهكذا، لا يبقى لي إلا ترك السيَّارة لوقت محدَّد في أول موقف عام مدفوع أجدهَ، ولو كان بعيدًا، وهو وقت لن يكفيني لأمشي بلا اتجاه من دون أيِّ حساب. فالمشي بلا وجهة، يختلف عن المشي الذي تعرف في بدايته أنَّ عليك العودة بعد وقت معين إلى سيارتك. في نوع المشي الأخير، هناك شيء ضاغط. لأنَّك تحسب وقت عودتك، وتقدِّر المسافة التي عليك مشيها، وتضطرُّ أن تعود عندما ينقضي نصف الوقت المسموح لتذكرة الوقوف. وهذا كلّه لا يسمح لك بالنظر من الخارج، ولا يساعدك على ملاحظة التفاصيل التي تعبر بينها كل يوم. يتركك تركض وتلهث في زحمة سير، ولو كنتَ تمشي. وأنا عندما مشيتُ مع خالد، انتبهتُ لكل ذلك. ليس عبثًا مثلًا ألّا نعرف أسماء الشوارع، وأن نسمِّيها بأسماء أخرى، وأن نجاهد للبحث عن الأسماء على الجدران كلّما دُعِينا إلى عيد ميلاد أو سهرة في شقَّة جديدة، فلا نجدها ونأخذ نلحق بالعلامات المميزة: دكاكين، وأعمدة كهرباء، وحُفَر باقية،

وملصقات حزبية، وآرمات أطباء. هذا كلُّه ليس عبثًا. هو جزء من طريقة عيشنا هنا. أن نعبر بين الأشياء، فلا نلاحظها، ولا نعود نسأل. لعلّنا سألنا في البداية، ثم توقّفنا عن تكرار السؤال، لأنَّ معناه انتفى، فصار مفتوحًا لا ينتظر إجابة. لكنَّ لحظات بعينها تعيدنا إليه. نتذكّر فجأة، ونعود نسأل، ثمَّ نسكن من جديد لواقع انعدام الإجابات، فنكمل حياتنا. نركل، نمشي، نتوقف، ونقوم. كجزيئات يخبط بعضها بعضًا في علبة أغلقَت عنوة على فوضى مجهولة القوانين، نحن في داخلها، نكتشف في كل لحظة قانونًا جديدًا، ثمَّ ننفيه في اللحظة تالية باختراع قانون بديل، ونكرِّر النفي والاختراع بلا توقُّف. ألهذا ربما أراني أركض بلا حساب، عندما أقود السيَّارة، وعندما أمشي؟ أهذه أنا فقط، أم هو إيقاع عامٌّ لكل العابرين في هذه الشوارع؟ ألهذا صرتُ أنْسَابُ بلا أيِّ اعتراض، وأرافق أيَّ فرصة تلوح في الأفق؟ أيمكن أن يكون خالد مثلًا فرصة؟

حدث في ثلاثة أماكن

استديو خالد- تتبَّع خالد الشوارع على "غوغل مابس"، وحاول تحديد المساحات التي مشاها مع ريم. أخذ صورة عن الخريطة وحفظها ثمَّ اتَّجه إلى الشرفة وهو يتَّصل بلينا. قال لها إنَّه يود أن يخبرها أخبارًا جيدة. "وأنا كمان. عندي خبر حلو"، ردَّت بحرارة ودَعَتْه إلى زيارتها في مكتبها في عين الرمَّانة مساء اليوم. "بشوفك المسا لَكَنْ"، أنهى الاتِّصال. نظر فوجد ضرغام جالسًا أمام صُحُفه، مُطرِقًا إلى البلاط. من دون أن يقول شيئًا، خرج خالد من الشرفة واتَّجه مباشرةً إلى شقَّة العجوز.

شقَّة سهى- أغلقت ريم دفتر يوميَّاتها، وحملت هاتفها، ثمَّ اتصلت بخالد. كادت تدخل الحمَّام لكنَّها انتبهت لباب الغرفة الصغيرة المغلَق. كلُّ الوقت الذي قضَتْه في الشقَّة، ولم يدفعها الفضول لتتفقَّد الغرفة. دفعت

الباب ووقفت عند العتبة. "آلو. إي ريم. في شي؟"، ردَّ خالد. "وينَك؟ ما بدّي كون لحالي. تعا"، قالت. "ما بقدر. تعي إنتي"، أضاف. "لوين؟"، سألَته. "ع الإستديو تاعي، ببعتلك العنوان أس أم أس. بس يِه! لأ! أنا ضاهر بعد شوي. ليكي، خلص ببعتلِك أبو بيتر بعد ما خلّص"، استدرك. "أبو بيتر؟"، استفهمَت. "ليكي أنا مستعجل شوي. برجع بحكيكي"، أنهى خالد المكالمة، وكانت ريم قد أصبحَت في وسط الغرفة تنظر إلى محتوياتها القليلة: سجادة صغيرة في الوسط، وسرير أطفال، وخزانة ذات حجم صغير بخشب مطليٍّ بالأزرق. وقفت قرب السرير، ومرَّرَت يدها وراء ستارة النافذة. وعبر الزجاج، رأَت كريم يجلس وحيدًا في شرفته.

مطعم في لندن– ما إن جلس روجيه إلى الطاولة، حتّى بادر بسحب قنينة النبيذ من أمام سهى. "شو عم تعملي؟"، سألها مستهجنًا. "كمان ما إجا الليلة"، قالت، ورفعت كأسها لتشرب ما تبقّى فيه، لكنَّ روجيه سحبه من أمامها، وأشار للنادل أن يتقدَّم ليأخذ القنينة والكأس. "مجنونة إنتي؟ بتعرفي إنّو ما بيسوالك تشربي!"، قرَّعها. أكملت سهى تأكل ما في صحنها بلا اكتراث وسألَته: "شو بدّك تاكل؟" ثمَّ استدركت: "إنتَ أصلًا ليه شكلك هيك؟" "ما بني شي... هلّأ بتخبّريني. هلّأ! لأن ما عدت فهمان شي!"، قال.

صُحُف ضرغام: إعلانات

١– نعلن عن أسعار جديدة لإعلانات الوفيَّات. خبر الوفاة ولغاية ١٠ أسطر ٥٠٠٠٠ ليرة لبنانية. كل سطر إضافي ٥٥٠٠ ليرة لبنانية. خبر الوفاة مع صورة ضعف التسعيرة. التسعيرة سارية المفعول من بداية الأسبوع المقبل.

٢– اشترِ البوابة الإلكترونية Golden Safe الآن من أجل

سلامة حيِّك. سارع إلى الاتصال. الأسعار قابلة للتفاوض والتقسيط. نستقبل لجان الأحياء. دع حيَّك يحتضن الأمن ويشرِّع له أبوابه.

٣- مدفن في مقبرة مسيحيَّة في الأشرفية بحال جيدة للإيجار سنويًّا بسعر معقول. الكلام مع ذوي الميت مباشرةً. الوسطاء يمتنعون. على الميت أن يكون من الطائفة الأرثوذكسية.

ما رواه ضرغام – ٤

يطفئ الراديو، ويُلقي بالجريدة على الطاولة. يتحدث فتذوب تعابير وجهه. كأنَّ الوجه يستدرك فيبتلعها. ويصير كل شيء هائمًا لا يؤكد أيَّ شعور أنبَته الاستماع. وحده التعب يتبدَّى أكثر في حركة يدَيْه. كأنَّ رواية الحكاية ترهقه. كأنَّها تسحب منه طاقة. كأنَّه يَفرُغ من نفسه.

***

"الحرب مقرفة، وْحَ تضلّْ مقرفة، وح تطلِّع ناس مقرفين متلا. بِكْرَه كل مين شارك أو عم يشارك أو ح يشارك فيها"، جزمَت جانيت.

واصلتُ هزَّ رأسي موافقًا. كنتُ مفتونًا بها.

مضى عامان على الحادث الذي قضى فيه زوجها. ومُذَّاك، توقَّف ابنها عن الكلام. شرحت – من دون أن تفصِّل – أنَّها هربت من كل شيء. تركت عملها وعائلتها وأتت إلى هذه البلدة التي لا تعرف فيها أحدًا، ولا يعرفها فيها أحد.

سألتُها عن اسم الولد. "سليم"، أجابت.

استغرقت بالشرح. لم تعرف كيف تتصرَّف حين رأَت سليم يُخَطْرِف بالمقلوب، فبقيت بجانب سريره تلاعب شعره، إلى أن استغرق في النوم. ثمَّ فكَّرت وحسمت خيارها. تدين لي بالشكر، حتَّى لو صار يتحدَّث بالعكس.

كنتُ واثقًا أنَّها لم تكن تعير انتباهًا لتحديقي فيها. وأنا لم أكن أنظر إلى وجهها فقط. كنتُ أنظر إليها كلها. ثمَّ انتبهتُ أنَّها تقول لي شيئًا، فأفَقْتُ من شرودي، وطلبتُ منها أن تعيد السؤال.

"كنت عم قول إنُّو بعدني حابِّة أعرف. شو صار معو لسليم هوِّي ومعَكْ؟"، سألت.

صمتُّ، وسعلتُ، ثمَّ قمتُ. استندتُ إلى رخام الشرفة، وسردتُ لها القصة التي ألَّفتُها عندما اختليتُ بنفسي:

خرج سليم من المبنى، ومشى حتَّى طريق البيت الترابيَّة، من دون أن يلاحظه أحد من مسلَّحي المبنى في البداية. ثمَّ التقى على الطريق ببعض المسلَّحين الآخرين المنتشرين، فالتمُّوا حوله يسألونه عن هويته كي يعيدوه إلى أهله، وصودف أن معظمهم جدد، ولا يعرفون بوجود ماما أو بوجود جانيت، فلم يتعرَّف أحد عليه.

عندما لم يجِب سليم على أسئلتهم، افترض أحدهم أنَّه أتى من ساحة الضيعة، فقرَّر اصطحابه إلى هناك وسؤال ملَّاك الدكاكين عن هويَّته.

وصلا إلى الساحة، لكنَّ الحظَّ السيئ كان حليفهما. شهدا شجارًا عنيفًا بين شخصيْن كاد يتطور إلى إطلاق نار. وشاءَت الصدف أن أمرَّ في تلك اللحظة بسيارتي قرب التجمهر الذي سرعان ما انفضَّ برصاص كثيف في الهواء. فوجئتُ عندها بوجود سليمٍ والمسلَّح. كان سليم على الحال التي رأيتِه فيها. والحقُّ يقال، كان المسلَّح يهدِّئه بلا جدوى، فما كان منِّي إلا أن وضعتُه في السيَّارة وجئتُ به إلى هنا.

حاولَتْ قصَّتي ملامسة الحقيقة من دون قولها. كنت متطهِّرًا فيها من

أي ذنب أو مسؤولية. أبقيتُ حادث إطلاق النار من دون أن يفضي إلى موت، ولم أشُرِ إلى كون مطلق النَّار من مجموعة مسلحِيًّ، ولم أتطرَّق لحقيقة حدوث الحادث في أرضي.

لكنَّ صدق الحكاية كان محكومًا بصمت شاهد وحيد: سليم.

كنتُ واثقًا في داخلي أنَّ الولد لن يتكلَّم، ولا أدري من أين أتيتُ بهذه الثقة. لأحمي نفسي، حضَّرتُ حكاية أخرى في عقلي في حال تحدَّث الولد. حكاية استطراديَّة لحكايتي الأولى، تستكملها ولا تجعلها كاذبة، وتحتمي بضرورة إخفاء بعض التفاصيل كي لا أثير الهلع بين أهل البيت.

شكرَتني جانيت من جديد وأضافت أنَّها تودُّ شكر المسلَّح. سألتني عن اسمه وما إذا كان يعمل اليوم أو يقيم في الجوار. لم أكن متحضرًا لطلب كهذا. وقبل أن أجيب، أنقذني صوتٌ آتٍ من الخلف.

"ماما"، قال الصوت.

وجدنا سليم يقف حافيًا في عتمة غرفة المعيشة، يتأتئ جملة مفيدة قصيرة. وبالرغم من أنَّه كان يعلك الأحرف الأولى من الكلمات، ويحضِّر كل كلمة في فمه قبل أن يطلقها، إلَّا أنَّ مراده كان واضحًا. كان يريد شرب الماء.

قلتُ لها إنَّ علينا عرضه على طبيب للاستشارة، لكنَّها لم تكن تسمع. انشغلَت بمعانقة الولد، وانصرفا معًا باتجاه المطبخ، وتركاني وحيدًا.

راديو ضرغام: مقدّمة نشرة الأخبار

فجأة، فرغت شوارع بيروت من أناسها. فلازم المواطنون الشقق وابتعدوا عن الشرفات والنوافذ.

هذا الاعتكاف الشعبي بدأ بعد تلقِّي المواطنين رسائل نصيَّة تحدَّثَت عن وجود سيارات مُعدَّة للتفجير تجوب شوارع المدينة، موردةً تفاصيلها

الشكلية وأرقام لوحاتها.

في لحظة، بدا المشهد في البلد على هذا النحو: حكومة تصريف أعمال لا تقوم حتّى بواجباتها في تصريف الأعمال، شحن متزايد في الخطاب السياسي، وفشل في الاتفاق على مرشّح لرئاسة الحكومة، أرقام مجهولة تتصل بالمواطنين، ازدياد ملحوظ وغير مبرَّر لحوادث السير مترافقًا مع غياب لأجهزة أمن الدولة والبلديّات على الأرض، نفوق حيوانات في الشوارع والمزارع، بدء بروز لمظاهر الأمن الذاتي في بعض المناطق، مضافًا إليه استمرار انخراط أفراد وأحزاب في الصراع الدائر خلف الحدود، وتدفُّق اللاجئين والجرحى على المناطق المحاذية للحدود وعموم المناطق.

هذا المشهد الذي يحمل في طياته بذور انفجار قريب وانهيار غير مسبوق لسلطة الدولة، يجعلنا نعيد طرح السؤال: هل يستحقُّ الوطن منّا فعلًا ما نفعله به؟

الطريق إلى مكتب لينا

أنزلته سيارة الأجرة عند حدود عين الرمانة، وطلب منه السائق أن يتمشّى بضع خطوات نحو الداخل قائلًا: "بالأمليّة، إستاذ". لم يكن خالد في مزاج للتجادل معه، رغم أنّه اتّفق معه منذ البداية على توصيله إلى باب المبنى لقاء أجرة راكبيْن.

ترجّل صافقًا الباب. تقدَّم في الشارع ولم يلتفت لشتيمة السائق وراءه. لفته أنَّ كل أعمدة الكهرباء مضاءة؛ حتّى أنّه اضطر إلى خفض وجهه من إشعاع النور. ظهرَت أمامه مجموعتان من الشباب على رصيفَيْن متقابليْن، تتحلّقان حول تلفازيْن. صدحت نشرة الأخبار الليليّة في الأرجاء، لكنَّ الشباب لم يكونوا مهتمين لمضمونها. وعندما ركّز خالد في أحاديثهم،

وبدأت التعليقات الساخرة والتوعُّدات تقصف من رصيف لآخر، فهم أنَّهم ينتظرون بدء بثٍّ مباراة كرة قدم.

التفت يمينًا. وصل إلى الشارع الذي يقع فيه مبنى شركة الإنتاج. وهناك، وجد تجمُّعًا حول ما بدا بوابةً إلكترونية جديدة. أخذ الرجال يزيلون عنها أكياس النايلون، ويتجادلون حول موقعها الأمثل، وكيفية وصلها بالكهرباء. فاقترح أوَّل أن يسرقوا كهرباء بالتعليق على أحد أعمدة الكهرباء، وقاطعه ثانٍ قائلًا إنَّ البوابة ستعمل فقط عندها على مواقيت التقنين، وانبرى ثالثٌ يقترح وصلها بأحد مولدات الحيِّ ووضع محوِّل كهربائي للتنقل بين الكهرباءَين بحسب الضرورة، ثمَّ أوضح رابع أنَّه يجب التأكد أولًا من كمية الكهرباء التي تسحبها هذه الآلة، لأنَّ مستوى كهرباءَي الدولة والمولِّد لا يصل ثابتًا معظم الأحيان، وختم خامس موافقًا على ملاحظة الرابع، مذكِّرًا أنَّ إصلاح آلة كهذه سيُكلِّف السكان أموالًا طائلة.

لم يتابع خالد الجدال، وابتعد متجهًا إلى الطرف الآخر من الشارع. حاول الدخول من تلك الجهة، لكنَّ رجالاً هناك كانوا يوقفون الوافدين الغرباء، ويسمحون فقط لمن يعرفونهم من السكان أو العاملين في مكاتب الحيِّ بالعبور، بعد إبراز بطاقات العمل. عندما اعترض بعض الزوَّار مظهرين حنقهم، تصدَّر شاب مفتول العضلات السدَّ البشري، وصرخ وهو يشير للبوابة: "ما حدا بيمرق إلا لتركب هيديك. وبْتمرْقو كلّكن من جوّاتا، واللي مش عاجبه أحسنلو يضلٌ ساكت".

خطر لخالد الاتصال بلينا، كي تنزل وتُدخله بنفسها، لكنَّه لم يحتج أن ينفِّذ خاطره، فما إن ركض ثلاثة شباب من شارع التلفازيْن باتجاه التجمُّع وهم يعلنون أنَّ الفنَّانة "كنزي" في الحي، حتَّى تفرَّقت التجمُّعات. حتَّى الشاب مفتول العضلات ترك مهمته ولحق بالمظاهرة الوليدة.

أسرع خالد نحو مبنى الشركة، ووصل إلى الطابق حيث تقع المكاتب. لم يستقبله أحد. لم يَبدُ أنَّ أحدًا ما زال يداوم في مثل هذه الساعة. بقي واقفًا

دقيقةً، ثمَّ عبر موظَّف يحمل رزمة أوراق ويتَّجه نحو آلة التصوير. سأله خالد عن مكتب لينا، فأشار إلى الممر، وقال: "آخر مكتب ع الشمال". اتَّبع خالد الإرشادات، ووصل بسهولة إلى الغرفة. كانت غرفة استقبال تنتهي بباب قدَّر خالد أنَّه باب مكتب لينا. دقَّ على الباب، ثمَّ فتحه، لكنَّه لم يجد أحدًا في الداخل.

تلفازا الرصيفيْن: المرأة المفخَّخة

ألقى المواطنون في محلة النْويري القبض على امرأة زنَّرَت نفسها بديناميت أحمر وحملت جهاز تفجير، فكتَّفوها ومنعوها من تفجير نفسها، وساقوها إلى أقرب مركز حزبي.

واتَّضح بعد تحقيق العناصر الحزبية مع المرأة أنَّها فنَّانة تدعى ديما نشَّار، وأنَّها أرادت القيام بعرض فني في الشارع من خلال تزنير نفسها بأصابع ديناميت مزيَّفة عبارة عن أنابيب كرتونَية مطلية باللون الأحمر.

وشرحت الفنانة معنى مشروعها الفني: قالت إنَّها أرادت الذهاب إلى المواطنين بنفسها بدل انتظارهم في صالات المعارض والمسارح الفارغة. وأضافت أنَّ مشروعها يهدف للاعتراض على الجو المشحون بالاتهامات السائد في البلد، عبر فتح نقاش مع المواطنين.

وكان من المخطَّط أن تجوب "المرأة المفخَّخة"، وهذا هو الاسم الذي أطلقته نشَّار على عرضها الفني، في الشوارع، بدايةً من مكان سكنها في النويري مرورًا بالبسطة والسوديكو والأشرفية والجميزة ووسط البلد وشارع الحمرا، وأن ينتهي العرض مساءً في كورنيش عين المريسة. وكانت نشَّار ستلتقي المواطنين في الشوارع، وتجلس معهم في المقاهي، وتناقشهم بهدوء في الوضع اللبناني، وتستمع إلى أفكارهم عن حل الأزمة.

ونفت نشَّار، وقد بدا عليها التعب في المؤتمر الصحافي الذي عُقِد بعيد

إطلاقها، أن تكون قد تعرَّضت للإهانة من قبل العناصر الحزبية. ولم يُعرَف ما إذا كانت الفنانة ستتابع عرضها الفني أم أنَّها أوقفَته بشكل كامل، فقد رفضَت الإجابة على السؤال بشكل صريح، مكتفيةً بالقول: "منشوف".

ما رواه ضرغام – ٥

لم يتحدَّث سليم مطلقًا عن الحادثة، ولم تسأله جانيت مخافة أن يكون سؤالها خطوة خاطئة تُفقده النطق من جديد.

دُرنا به على أشهر الأطباء. وكنتُ كلما سمعتُ عن طبيب أجنبي يزور البلد، أستخدم علاقاتي لعرض الولد عليه. وبعد أن التقينا نحو عشرة أطباء، صارت التشخيصات تتكرر بالمضامين نفسها. كانوا كلُّهم يقولون إنَّ المسألة نفسيَّة. سأل بعضهم عمَّ تعرَّض له، واستفهم آخرون عن البيئة التي يعيش فيها، وشدَّد معظمهم أنَّ عليه الخضوع لتمارين لفظية مستمرَّة حتَّى يتخلَّى عن عادة علك الكلمات.

وفجأة، قرَّرَت جانيت التوقُّف عن زيارة الأطباء، وبرَّرت قرارها بأنَّ سليم يتكلَّم، وصعوبة النطق ليست مشكلة كبيرة. ستدرُّبه بحسب توصيات الأطباء، وتنتقي طبيبًا قرب سوق الغرب بدل المخاطرة بقطع الطرقات وسط أوضاع أمنيَّة تسوء يومًا بعد يوم.

كنا قد تقاربنا، وكثرت جلساتنا وأحاديثنا، وعندما نعود لنلتقي في أروقة المنزل، نبتسم كأنَّنا نكتشف وجودنا في المكان ذاته. تكرَّرت الابتسامات، وكان تكرارها غريبًا. هل كنا نبتسم لأنَّنا نتذكَّر جلساتنا في الخارج؟ هل كانت لقاءاتنا لا تتحقَّق، إلا عندما نضطرُّ للتعامل مع بعضنا على أساس العلاقة الوظيفية بين ربِّ عمل وموظَّفة؟

اعتدنا المشي على أدراج سوق الغرب، وكانت نزهاتنا تنتهي دائمًا بالجلوس عند الجرف. كنتُ أحيطها بساعدي وتحني رأسها على عنقي،

ونبقى ننظر إلى الغيم فوق بيروت لساعات، فتذهب سُحُب وتأتي أخرى، ثمَّ تطفو غمامات جديدة من الأسفل. تلفظها المدينة بعد انفجار أو حريق، فلا نعود نستطيع تفريق الغيم الحقيقيٍ من دخان الأحداث.

عادت جانيت تسأل عن المسلح الذي أخذ ولدها إلى الدكان، فاضطررتُ أن أجيبها أنَّه في إجازة، وأنِّي سأعلمه برغبتها في لقائه بعد عودته. كانت جانيت تومئ لإجاباتي بلا تدقيق. وكنا عندما نجلس معًا، ألاحظ ماما تحدِّق فينا من كرسيِّها ولا تتكلَّم، لكنَّني أتخيَّل ابتسامة على وجهها. أتخيَّلها حتَّى أراها حقًّا.

لم يمضِ وقت طويل قبل أن أعرض عليها الزواج، لكنَّ جانيت استقبلت طلبي بشيء من الفتور، واستمهلتني الرد. وجدتُ ردّها غريبًا، فالأحاديث بيننا كانت تسير باتجاه تلك النتيجة المحتمة، وبعضها قارب موضوع الزواج بالفعل.

وفي اليوم التالي لعرضي، فوجئتُ بورقة كتبت فيها أنَّها ستغيب عن المنزل ثلاثة أيام لتنهيَ بعض الأمور العائلية العالقة.

مضت الأيام الثلاثة ولم تظهر جانيت.

مرَّ أسبوع ولم يَبِن لها أثر.

جننتُ. شغَّلتُ كل علاقاتي للبحث عنها، ولكنِّي لم أكُن أملك أيَّ معلومات عنها، لا المنطقة التي يسكن فيها أهلها، ولا اسم الضيعة التي تأتي منها.

باءت كل محاولاتي بالفشل. توالت الأسابيع، ولم تعُد، فأصبتُ باكتئاب شديد وفقدتُ الرغبة في العمل والأكل. لازمتُ البيت كما في الأيام القديمة وانشغلتُ عن اكتئابي بالاهتمام بماما، لكنِّي كنتُ قد أصبحتُ سريع الغضب، واكتفاء ماما بإبعاد نظرتها عنِّي كلَّما صرختُ فيها، جعلني أستسهل تفريغ أزمتي فيها. تحمَّلَت ماما منِّي الكثير، ولو كانت قادرة على الكلام والحركة، لتفاقمت المشاكل بيننا إلى مستويات

جدِّية.

هل تعرف الأوقات التي يخيَّل لك فيها أنَّ كل شيء يتهشَّم من حولك؟ هكذا كانت تلك الأيام.

وردتني اتصالات من مسؤولين عن حماية ممتلكاتي في العاصمة والمناطق، طلبوا منِّي فيها أن أزورهم لتفقد الممتلكات. قالوا إنَّ الحرب تزداد ضراوة، وقوانين العلاقات على الأرض تتغير يومًا بعد يوم، وقيادات جديدة تسلّمت المحاور، واحتلال الممتلكات بات أسهل من السابق.

لكني لم أخرج من البيت. تركتُ لهم حرية التصرف، وكانت النتيجة أنَّ ممتلكاتي نالت نصيبها من التعدِّيات.

بعد حوالي شهر، دقَّ باب المنزل، وظهر سليمان عند العتبة.

جلس في الشرفة، وقال متردِّدًا إنَّ هناك أشياء كثيرة تحدث. وضعتُ كأس الويسكي جانبًا، وأنصتُّ. صار يتحدَّث عن تهوُّر رفاقه، وعن إثارتهم المشاكل خارج حدود الأراضي التي أملكها. قال إنَّهم افتعلوا مشكلة مع أحد وجهاء البلدة في الساحة، وإنَّ مسؤولي الأحزاب المؤثِّرة أعلنوا انزعاجهم، هم المتململون أصلًا من تخطِّيهم في عملية انتقاء المسلَّحين لحماية المنزل وعدم الأخذ بتوصياتهم.

سألتُه عن أسماء المسلَّحين واسم الشخص الذي تعاركوا معه. نهض مجيبًا أنَّ باستطاعته شرح الأمر باستفاضة غدًا، لكن عليه القيام أولًا ببعض الترتيبات، وقال قبل أن ينصرف: "ح فرجيك كلّ شي".

أسفل شرفتي، اختلط الغيم بالدخان. لكنِّي هذه المرّة، لم أكن مهتمًا بالفرق.

محادثة كنزي

هاتفها. ردَّت لينا واعتذرَت منه. قالت إنَّها اضطرَّت للخروج، لكنَّها

ستعود بعد ربع ساعة. طلبت منه الانتظار في غرفة الاستقبال التابعة لمكتبها، وقالت منهيةً الاتصال: "فيك تعمل قهوة أو شاي أو تشرب أي شي. كل شي موجود بالمطبخ".

رفع صحيفة عربية وجدها على الطاولة، ثمّ وضعها جانبًا والتقط مجلّة أخرى. عندما انتهى من تقليب كل ما كان أمامه من صحف ومجلات، انتقل يتفحص محتويات الغرفة، ثمّ طال انتظاره، وشعر بالملل، فقام لينفِّذ نصيحة لينا.

عثر على المطبخ في آخر الرواق. شغّل ماكينة صنع الإسبريسو. وبعد بحث سريع في الخزائن القريبة، أخرج كل ما يحتاجه. وضع الفنجان في المكان المخصَّص له في الماكينة، وانتظرها حتّى انتهت من صبِّ القهوة. رفع الفنجان، واتّجه عائدًا من حيث أتى.

لم تكن الغرفة فارغة كما تركها. على الكنبة، جلسَت امرأة تتحدَّث على الهاتف. وعندما دقَّق فيها، عرف فورًا أنّها المغنِّية "كنزي".

كانت كنزي تشرح لمحدِّثها بغضب عن الجَمْهَرة التي استقبلتها في المنطقة، وتقرِّعه محمِّلةً إيَّاه المسؤولية عمَّا حدث. ظلَّ خالد واقفًا ينظر إليها، حتَّى أنهت اتصالها ولاحظت وجوده، ثمَّ سألها وهو يقدِّم إليها الفنجان: "قهوة؟".

أخذت كنزي الفنجان منه وشكرته. وضعته أمامها، وحاولت أن تخفي حقيقة مَسْحها الدمع في عينيْها بالمنديل الذي كانت تحمله بالقول:

– بِكْرَهْ الماكياج.

سعل خالد، ثمَّ أعلن وهو يتَّجه نحو الباب:

– دقيقة وبرجع.

ذهب إلى المطبخ وعاد بفنجان قهوة آخر له، فاعتذرَت منه كنزي:

– Sorry، ما كون أخدتلَّك فنجانَك.

– ما بيأثِّر.

– يعني هيدا كان فنجانَك.
– إي، بس ما شْرِبْت منه.
– لا. ما قصدت هيك. على كل حال Merci. (...) أنا شايفتَك قبل؟
– بكواليس البرنامج، كنت مع لينا، و...
– آه. صح، صح. إنتَ بتشتغِل هون؟
– لا. جايي عند لينا.
– وأنا كمان. حكيتا هلّأ. مأخرة شي نص ساعة.
– أها.
حلَّ الصمت دقيقة، قبل أن يبادر خالد إلى السؤال:
– شو آخر أعمالِك الفنية؟
ضحكت كنزي وردَّت:
– منيحة.
– شو هيي المنيحة؟
– النكتة.
– صراحة ما بعرف شو إسألِك.
– بعرف. ما سامعلي ولا غنيّة؟
– للأسف. مش متابع...
– لا. لا. أحسنلَك هيك.
لم يحتج خالد أن يفتعل أيَّ إجابة، لأنَّ كنزي راحت تتحدَّث:
– أوقات الواحد بْيَعْمِل إشيا مش مقتنع فيها بحياتو، بس بيكمّل يعملُن. يمكن ما بيعود مقتنع فيهن لأن صار يعرفُن أكتر، أو لسبب تاني. شو ما كان السبب، بيبطِّل عندو هيدا... شو بتسمُّوه بالعربي؟ الـpassion. بعتذِر. أنا ما بعرف إحكي. بس بفهَم. يعني بِفهَم الموضوع حتّى لو مش فهمانة الكلمات ذاتا. بحسّْ مثلًا إذا في شي مش قانعني. بقدر إلقَط. المشكلة إنُّن بيضلُّو يُطلبو منِّي إحكي. بتعرِف؟ يا ريت يكون فيني ما

إحكي. هلَّأ قبل شوَي. لما تْجَمَّعو حواليِّي تحت، ناس بدَّا signature، وناس بدَّا تدقرني، وكلُّو بدُّو يفتح معي حديث، وأنا لازم ضلني مبسوطة، وجاري الكلْ ورِدّْ، وضلّ مبينة مبسوطة. متصوَّر حياتي؟ ما تقول شي. أنا بس عم فضفِض. أصلًا يمكن لو كِنت بعرفَك منيح، ما كِنت حْكيت. ممكن الكلينكس من عندك.

أعطاها العلبة، فأخذت منديلًا منها، وجفَّفَت عينيْها، ثمَّ وقفَت أمام النوافذ، وأكملَت تسأله:

– حلوين شعراتي؟

– ... إي. بظُنّْ.

– ولونُنْ؟

– ممم. بعتقد لمحتِك ع غلاف شي مجلة هلَّأ قبل شويّْ، وكان لونُن غير.

– عن جديد غيَّرت اللون. بس ما كتير مقتنعة فيه. يعني قبل كانو أحلى؟

– بعتقد... اللون اللي قبل كان أحلى.

– صح... خلصِت القهوة.

– بدِّك بعد؟

– يا ريت!

– يلا!

قام خالد واتَّجه من جديد إلى المطبخ. سمع كنزي تقول له: "جايي ساعدَك". وقبل أن يجيبها "ما في داعي"، كانت قد صارت بجانبه. أشار إلى الخزانة، ففتحَتها وأخرجَت منها فنجانيْن جديديْن وأكياس السكر، بينما التقط خالد عبوات القهوة قربه. أخذ من كنزي أول فنجان ثمَّ وضعه في الماكينة وكبس.

عندما التفت، وجدها واقفة على مقربة منه، فكاد يصطدم بها. ابتسم

لها معتذرًا، لكنَّها لم تتحرك، بل قالت:

- فيِّي إطلب منَّك شي؟
- أكيد.
- فيِّي بُوسَك؟

صُحُف مكتب لينا: موت خمسة أطفال

بيروت- فُجع اللبنانيون بخبر وفاة خمسة أطفال رضَّع في مستشفى الصحة الكائن في منطقة برج حمود في ضاحية العاصمة الشمالية. وبعد أخذ وردٍّ مع إدارة المستشفى، حدث تضارب بين الأهالي المفجوعين والطاقم الطبي. ورفض الأهالي المغادرة وتسلُّم جثث أطفالهم، ليبقوا معتصمين في أروقة المستشفى، قبل أن يقوموا باستدعاء أفراد عائلاتهم الذين طوَّقوا المبنى مطالبين نقابة الأطباء ووزارة الصحة بمحاسبة الطاقم الطبي، وكشف التقصير والأخطاء الطبية التي أدَّت إلى حدوث هذه الجريمة.

واستنجدت إدارة المستشفى بالقوى الأمنية اللبنانية التي أبعدت المعتصمين عن مداخل المستشفى وسمحت لهم بالبقاء معتصمين على الرصيف المقابل. ثمَّ عقدت الإدارة مؤتمرًا صحافيًا بالتنسيق مع نقابة الأطباء اللبنانيين مستنكرةً اتهامها بالتقصير. ودعت أعضاء الطاقم الطبي الذين كانوا مسؤولين عن غرفة الحضانة التي حدثَت فيها الحادثة للكلام، ففنَّد أعضاء الطاقم بالأدلة الطبية الحالات الخمس للأطفال. وانتهى المؤتمر بدعوة الصحافيين الحاضرين إلى التجوُّل في أنحاء المستشفى للاطلاع على المعايير عالية الجودة التي تدار بها.

وأعلنت وزارة الصحة اللبنانية أنَّها ستصدر بيانًا عن تفاصيل الحادثة. ومن المتوقَّع أن تطلب الوزارة تشريح جثث الأطفال، الأمر الذي قد يصطدم برفض الأهالي.

ما رواه ضرغام – ٦

يحاول ضرغام أن يرفع كوب الشاي، فترتعش يده. يسقط الكوب ويتشظّى زجاجه على البلاط. ينحني خالد بسرعة. يلتقط بتأنٍّ نثرة صغيرة تركت خيط دم على رجل العجوز، وينفض نثرات أخرى أكبر. ثمَّ يهرع باتِّجاه الحمَّام ويأتي بشاش وقنينة الأوكسجين ويبدأ تنظيف الجرح.

لا يقول ضرغام شيئًا.

هل قرَّبته سلام منها بمغادرتها له؟ هل صار صامتًا مثلها؟

يسأل خالد نفسه وهو يرى حزن الرجل يزداد عمقًا، ثمَّ ترتدُّ إليه الأسئلة: هل كنتُ أنا هكذا في بداية انفصالي عن سهى؟

يزداد جزع خالد من الكآبة التي تطبق على العجوز. ينتظر أن يحاوره كالمعتاد، لكنَّ ضرغام يطلب فقط:

- فيك تحطّني بالتخت؟

***

مشينا بصحبة أربعة مسلحين يحملون سلالًا، قال سليمان إنَّهم أهل للثقة. سلكنا الطريق الترابية ثمَّ انزلقنا نحو الجلِّ، وصرنا ننتقل من جلٍّ إلى آخر من دون أن نبتعد عن الطريق. تقدَّمَنا سليمان بخطى ثابتة تشي بأنَّه يعرف الدرب جيدًا. كنا نتوقف لثوان قليلة بإرشادات منه، فيلتفت سليمان إلى رفاقه، ويومئ برأسه لهم، فيبدأون بقطف التفاح من الأشجار، ورميه في السلال، ثمَّ نواصل المشي.

مضى قرابة ربع ساعة قبل أن نتوقف. عندما نظرتُ إلى الخلف، استطعتُ تبيُّن الطريق الترابية، والمساحة التي ركنتُ فيها سيارتي عندما شهدتُ على الحادثة.

اقترب سليمان مني، ووقف بجانبي ونظر إلى البعيد موهمًا المسلَّحين

في الجلول القريبة أنَّه لا يقول لي شيئًا، ثمَّ همس لي أنَّ الحادثة الأولى وقعت هنا، وعاد ليساعد رفاقه الأربعة في القطف.

واصلنا المشي من جَلٍ لآخر، وكان سليمان يحاول أن يطبِّع نزهتنا قدر المستطاع. سلَّم على مسلَّحين آخرين صدف وجودهم في المكان، وسألهم عن مدى نضج التفّاح قربهم، وعرَّفني على ثلاثة بالأسماء، ملقيًا تعليقات من نوع "هيدا ولي نعمتنا"، و"إن شا الله يضلّ راضي علينا".

كان سليمان بعد كل حديث مع زملائه يقترب منِّي، ويشير بعينيه إلى بقعة قريبة، هامسًا أنَّ إطلاق نار حدث هنا.

الثاني... الثالث... الرابع...

أربع حوادث قتل في الجُلول التي أملكها، وأنا لا أعلم؟

شعرتُ بحرارة جسمي تزداد، وبظهري يبتلّ عرقًا، وبقدرة مفاجئة على سماع كل ما يدور حولي قبل أن تختلط الأصوات في رأسي، ولا أعود أميِّز من مضمونها شيئًا. صرتُ أنظر إلى المسلَّحين بتوجُّس. حاولتُ أن أحفظ وجوههم، لكن خيِّل لي أنَّهم يتفحّصونني، فبادرتُ إلى تضييع نظرتي المرتابة بإشاحة رأسي بعيدًا عنهم.

في البقعة الأخيرة التي توقَّفنا فيها، انشغل المسلَّحون أكثر من العادة، فصعد اثنان منهم إلى شجرة. اقترب منِّي سليمان وضيَّفني سيجارة، فأخذتُها منه، وأشعلتُها. ثمَّ طلب منِّي الالتفات بشكل طبيعي إلى الوراء، والنظر إلى اليسار جيدًا، مع تمويه التفاتتي بالطلب من أحد المسلَّحين أن يقطف التفاح من أحد أغصان الشجرة العالية. فعلتُ ما طلبه منِّي، وأثنيتُ على المسلَّح عندما وصل إلى الغصن الذي أشرتُ إليه، والتفتُّ من جديد.

"شفت البِير؟"، سألني سليمان.

"أيّ بِير؟"، استفسرتُ.

"البِير القديم، ع الشّمال"، همس سليمان.

كدتُ أن ألتفتُ ثانيةً لولا أنَّه طلب منِّي ألَّا أفعل.

إرم نظرة فقط عند الرحيل، لكن لا تقترب.
سألتُه ماذا في البئر، فأجاب أنّهم ألقوا الجثث الأربع هناك.
"مين هنّي؟" تابعتُ استجوابي.
"هوّي ذاتو. اللي قوّص من كم أسبوع اتنين بالجلّ بوجّ الطريق"، قال.
"ومين هوّي؟"، سألتُ.
"عندي إسم، بس منّي أكيد. بتأكّد وبرجعلك"، أجاب.
عندما عزموا على مغادرة المكان، عدتُ أنظر باتجاه البئر. إلّا أنّ سليمان دعاني إلى العودة، فامتثلت. كان المسلّحون قد أنهوا توضيب التفاح في السّلال، وتقدّمونا.
طلب سليمان منّي ألّا أقوم بأي شيء على الإطلاق، وقال إنّ التأكّد من هوية الشخص ليس سهلًا، وعليه توخّي الحذر. أضاف أنّ المسلّح الذي يشكّ في كونه مُفتعِلَ الأحداث، في إجازة اليوم، لكنّه يملك شلّة كبيرة. ولهذا السبب، قام بحركة قطف التفّاح للتمويه، وشرح أنّ مجزرة قد تحدث هنا إذا جرى التعامل مع الأمر بطريقة اعتباطية، وأنّ حياته وحياة أسرته قد تتعرّضان لخطر.
مع حلول الظلام، لم أستطيع أن أمنع نفسي من التفكير في الأمر. كنتُ كلما استدرتُ في السرير، وأغمضتُ عينيّ، أتخيّل الجثث تطفو في عمق البئر. جثّة تحت جثّة. جثّة لِصْقَ جثّة. جثث تتسابق إلى السطح مدفوعةً بحركة المياه. جثّة تدفع أخرى إلى الأسفل وتطفو مكانها. جثة منفوخة. جثّة أكل أطرافها السمك. مهلاً، هل هناك سمك في البئر؟
خرجتُ في الساعة الثانية صباحًا، وقلتُ إنّي سأتفادى الشُّبُهات بتفادي التوجّه مباشرةً نحو البئر، وبالتجوّل في الجلول قبل وجهتي الأخيرة. صرتُ أمشي وأتوقّف لأتأكّد من أنّ أحدًا لا يلحق بي. لم يكن الأمر سهلًا، فبخلاف الأنوار الآتية من الطريق الترابية، كانت الإضاءة في الجلول شبه معدومة. حدّقتُ في الظلام تحتي، فلم أرَ غير ظلال الأشجار الكثيفة.

أنصتُّ لأصوات الزيزان والعواء البعيدة، وركَّزتُ في إنصاتي كي أتأكّد أنّي وحيد، ثمّ تابعتُ رحلتي.

عندما وصلتُ إلى البئر، وجدتُ فوهتها الظاهرة فوق الأرض مصنوعة من الحجر، تماماً مثل أي بئر قديمة. كنتُ متحمسًا لوصولي لدرجة أنّي غفلتُ عن التدقيق الأمني حولي.

رفعتُ الغطاء الخشبي عنها، ونظرتُ داخلها. لم أستطع رؤية شيء بسبب الظلام وعمق البئر. لكنّ شعورًا بالراحة لَفَّني. ألأنّني عرفتُ موقع البئر؟ ألأنّني اقتربتُ منها ونظرتُ فيها؟ وما الذي تغيَّر بعد النظر؟ لم أر شيئًا، فما الذي اختلف إذًا؟

عدتُ من دون أن أصل إلى شيء. وضعتُ رأسي على الوسادة، ونمت.

في اليوم الثاني، لازمتُ الشرفة. قرّبتُ كرسيّ من الدرابزين، وأخذتُ أتفحّص حركة المسلّحين. عمّ كنتُ أفتّش؟ لم أعرف جوابًا على سؤالي. واصلتُ النظر فحسب. ثمّ انتبهتُ إلى أنّ هذا ما تراه ماما طيلة النهار. كنتُ أحدّق في مشهدها اليومي.

بعد يومين، استيقظتُ على جلبة آتية من الخارج. نظرتُ من الشرفة، لأجد المسلّحين متجمّعين في الأسفل. سألتُهم ما الأمر، ففضُّوا حلقتهم كاشفين عن جثّة خَرَقَ ظهرَها الرصاص.

وقفت عاجزًا، لا أعرف ماذا أفعل.

عرفتُ الجثة قبل أن أرى وجهها.

وتأكدتُ عندما قلبها أحدهم.

كانت جثّة سليمان.

قبلة بالعكس

تلعثم خالد، وابتعد إلى حيث وضعت كنزي الفنجان الآخر، وحاول تضييع الموضوع. قال إنَّ هناك موظفين في الشركة فقاطعته: "ما في حدا. كان في موظَّف واحد، فلّ لمَّا جيت. بعدين إنتَ فهمتِني غلط".

وضع خالد الفنجان الثاني في الماكينة، وأدخل عبوة بنٍّ فيها، وكبس الماكينة من جديد، فأصدرَت صوتها الهادر. تابعت كنزي حديثها:

– إنت مع حدا؟

أعطاها الفنجان الأول، وتنهَّد مُظهِرًا ضيقه من سؤالها:

– ما بعرف.

– يعني في حدا ع الطريق.

– يمكِن. القصَّة معقَّدة شوي.

– دايمًا القصة معقَّدة شوي.

– هَهْ؟

– إذا مش معقَّدة شوي، ما بِتْكون قصَّة. شِفتْ؟ صِرتْ عم إحكي متلَك.

– أنا هيك بحكي؟

– بظنّ إنَّك بتحكي هيك. مع إنَّك هلَّأ ما عم تحكي كتير.

– أها.

– طب فيني إشرحلَك؟ لأنُّو هيئتَك فْهِمتْني غلط.

رفع خالد الفنجان الثاني وأطفأ الماكينة وبدا أنَّه يحضِّر نفسه للاستماع لها. قالت:

– مش دايمًا أنا بحكي مع عالم ما بعرفُن هيك، ومش كل مرَّة بطلب إني بوس حدا. مش لأني يعني بغنِّي، معناتا بعمل هيك دايمًا.

– أنا ما قلت...

– بعرف إنَّك ما قلت. بقصد إنُّو أنا مش عاملة هيك أبدًا مع حدا قبل. لما كمية العالم اللي بتعرفك بتكتر، بتصير كمية العالم اللي بتقدر تحكي معُن أقل. بس مش مهم. مش هون القصة. القصة إنَّك... إنتَ غريب ع فكرة.

– أنا؟

– إنُّو إي. كان فيني بوسك من دون ما أُطلُب إذنَك. وبعدين بالحالات الطبيعية، ما منكون عم نعمل هيك dialogue. بتكون عم تبوسني وعادي.

– قولِك؟

– عم تفكِّر بالموضوع؟

– بهاللحظة عم فكِّر بكتير إشيا عم تصير... معي.

– طيب. رح إرجع عيد طلبي، ووضِّحو أكتر. ح بوسَك ع شفافَك. بس إنتَ منك مضطرٌّ تبوسني. وهاي البوسة ما معناتا شي، أكتر من إنُّو أنا بدِّي ياها هلَّأ. وبعد ما تخلص، منرجع ع المكتب، منكمِّل شرب قهوة ومنحكي لحد ما تجي لينا، ومش ح تسمع منِّي بعدها. لا ح اتَّصل فيك ولا ح إحكيك. هالأد حدودا.

– حاسس حالي ولد صغير عم ينقلُّو شو لازم يعمل.

ضحكت كنزي. وضعَت فنجان القهوة جانبًا، وفعل خالد مثلها. رفعت خصلات من شعرها انسدلت على كتفها. رفع خالد يديْه ليمسك بوجهها، لكنَّه تراجع فجأة كأنَّه غيَّر رأيه.

لم تأبه كنزي لتراجعه، فقرَّبَت وجهها، وقبَّلته. لم يتجاوب معها في البداية، لكنها أبقت شفتيْها لثوانٍ حتَّى أحسَّت أنَّه بدأ يتفاعل، ثمَّ حدث انقلاب في الأدوار. صار خالد يقبِّلها، وهي تتجاوب معه. أحسَّ خالد بالانتصاب، لكنَّه لم يقم بأي حركة خارج اتفاق التقبيل. دام الأمر لدقيقة، ثمَّ رفع وجهه عن وجهها، فوجدها تبتسم.

"بس هيك"، قالت وضحكت.

سمعا خبطة باب، وظهر صوت لينا مناديًا.

"نحنا هون. بالمطبخ!"، أجابها خالد وهو يغسل شفتَيْه من أثر أحمر شفاه كنزي.

التقى خالد لينا لدقائق معدودة، وعندما خرج من عندها، سلّم على كنزي المبتسمة بإيماءة. مشى في الشارع يفكر في خبر لينا السعيد، وفي قبلة كنزي. ارتسمت ابتسامة على وجهه وهو يعبر غير آبه بالبوابة الإلكترونية، وأحسّ بالابتسامة تتّسع وتملأ وجهه، فلم ينتبه لا لزمُّور البوابة خلفه بعدما مرّ فيها، ولا لتصفيق الجمع الذي سرعان ما خُرِقَ بتساؤل أحدهم: "هاي المفروض تزمّر إذا حدا فات فيها هيك، أو نحنا ركّبناها بالعكس؟"

ما رواه ضرغام –٧

كأنّ الاستلقاء في السرير يُرسِّب أفكارًا أكثر في رأسه. كأنّه يحتاج إلى هذه الوضعيّة. يركّز ضرغام بصره في زاوية السقف، ويتحدّث. يفتح بابًا في الأعلى وتتتابع المشاهد مرسومةً. يرفع خالد نظره، فيكاد يرى المشاهد معه، ويخال أنّها تُطبق عليهما. تمضي القصّة، ويقترب منهما السقف. تُمطر الحكاية عليهما، ويغرقان فيها من جديد.

***

يزورني المشهد مرارًا. يأتيني وأنا أشرب الشاي في الشرفة، وأنا أجلس في السرير آكل، وأنا أقرأ أخبار الحوادث في الصحف، وأنا أحدّق في السقف.

عندما أغمض عيني، أعود إلى هناك وأرى كل شيء مختلفًا. تتغيّر تفاصيل المكان. تُنزَع البلاطات من أرض الشرفة، ويظهر الرمل بين قطع

الرخام المتكسِّرة، تصفرُّ الخضرة تحت المنزل وتيْبس، وينكشف كل شيء في مجال رؤيتي.

التلال والوديان والمدينة السوداء. قحط كامل، ولا حياة.

والبحر؟ ماذا يبقى منه؟ كان في الزيارات الأولى للمشهد ينسحب إلى الوراء ببطء، ثمَّ صار يهرب بشكل أسرع.

الجزر يقوى، فيبين المتروك وراءه، وتكتمل الأشياء. جثث شبه كاملة فوق الرمل. جثث كثيرة، ومن كثرتها، يبدو أنَّ لفظها مقصود. وهي في شبه كمالها وكثرتها، تقول: أنا هنا، كنتُ هنا، وعدتُ لأظهر.

هل رموها كلِّها منذ بدأت الحرب؟ أم أنَّهم سيرمونها في المستقبل؟

وهل هذا حلم؟ وما الأحلام؟ احتمالات أخرى لما حدث؟ أم قراءات أخرى لما سيحدث؟

وماذا عن الزمن؟ هل يبدِّل في ما حدث؟ هل تغيِّر الاستعادات الماضي؟

من الشرفة أرى. كل شيء يبدأ هنا، وينتهي هنا. تتكرَّر رؤياي بتفاصيل أكثر، بخراب أكثر. أنا في الأعلى أطلٍّ عليهم، وهم يقلبون لي جثَّة، ويحدِّقون بي. يوغل المشهد في موته، لكنَّه يُبقي – في كلٍّ نسخاته – على الوجوه الناظرة إليَّ. أعرف الوجوه ولا أتذكَّرها. أعيد تشكيلها ولا أستطيع أن أصفها. لكنِّي أثق أنَّها تستدعي خلاصة واحدة موجَّهة إليَّ: أنتَ قتلتَه.

وأنا لم أُمضِ كثيرَ وقتٍ قبل اتِّخاذ القرار. طلبتُ منهم تغطية الجثة وإدخالها إلى مَكان مُهوًّى لا تصله حرارة الشمس، حتَّى أحدِّث صديقي الطبيب في مستشفى الضيعة وننقلها إلى برَّاد الموتى فيه، ثَمَّ استدعيتُ المسلحين الأربعة الذين رافقونا في رحلة استكشافنا.

ظهر منهم ثلاثة، وعندما سألتُ عن الرابع، أطرقوا برؤوسهم في الأرض، ثم انبرى واحد منهم يقول إنَّ الرابع غير الحاضر هو الذي وشى بسليمان. فقاطعه آخر مصحِّحًا، وطلب منه ألَّا يظلم رفيقه. قال له إنَّه غير متأكِّد، وكون رفيقهما تفوَّه بترَّهات وهو سكران بعد خلاف تافه مع سليمان، لا

يعني أنَّه ساهم فعلًا بالجريمة. لكنَّ الأول ردَّ أنَّه رأى زميله واقفًا مع القاتل، وسمعهما يتحدَّثان.

"بالصدفة سمعتُن"، قال وهو ينظر إليَّ، ثمَّ دوَّن لي اسم القاتل على ورقة. عقدتُ حاجبيَّ وأنا أنظر إلى الإسم. لم أعرفه، ثمَّ علمتُ منهم أنَّه ليس من الموظفين الأوائل الذين وظَّفتُهم بنفسي. طلبتُ منهم الجلوس، ودونًا جميع أسماء المسلحين. وجدتُ أنَّ لديَّ ٣٢ مسلَّحًا يدينون بالولاء لي، فيما ثمانية آخرون لم يكن ولاؤهم صافيًا. ومن هؤلاء خمسة يشكلون حلقة المسلَّح القاتل الضيقة. أذكر أنَّني وظَّفتُ عشرة، فكيف صار العدد أربعين؟ وكيف يستطيع ربع الجماعة أن يخيف ثلاثة أرباعها؟ ولماذا يقوم مسلَّح براتب ثابت مجزٍ، بهذه الأعمال؟

لم أكن أملك رفاهية البحث عن أجوبة. شكَّل الوقت عاملًا حاسمًا، وكان يجب القيام بردٍّ فعلٍ سريع. حسمتُ تنفيذ خطَّتي، وطلبتُ من أصدقاء سليمان الثلاثة اقتراح مجموعة مصغَّرة من سبعة مسلحين من رفاقهم الموثوق بهم، لينفِّذوا معنا العمليَّة.

لكن بعد تفكير مستفيض، قررتُ أنَّ هذا لا يبدو صحيحًا. الذي قتل سليمان ينتظر منِّي ردًّا سريعًا، ولولا ذلك لما رمى جثَّته تحت شرفتي. ثمَّ كيف أردُّ وأنا ما زلتُ لا أعرف تفاصيل ما يحدث حول المنزل؟ ماذا لو كانت أحداث أخرى، من شأنها تعديل الخطَّة جذريًّا، تفوتني؟

أجَّلتُ العملية أسبوعين، كنتُ أتتبَّع فيها كل حدث كبير وصغير يجري في أملاكي. ومع نهاية الشهر، صرتُ أعرف المسلَّحين بأسمائهم، وأحفظ الحلقات التي يكوِّنونها. مَن صديق مَن، ومَن لا يستسيغ مَن، ومَن عدوُّ مَن. واطَّلعتُ على أماكن تجمُّعاتهم ونشاطات السكر والتحشيش التي يقومون فيها في الجلول وحول الكوخ الصغير في الجهة الأخرى من المبنى.

كنتُ أنظر من جديد. وهذه المرَّة، كنتُ أرى.

قبل يومين من موعد العملية، أرسلتُ ماما إلى منزل أحد أصدقائي في ضيعة مجاورة كانت وقتها في منأى عن الأحداث الأمنية.

ليلة العمليّة، توجّهتُ مع مجموعة مصغّرة من المسلّحين إلى الكوخ، وكنتُ قد أرسلتُ قبلنا مجموعة أخرى من ثلاثة مسلحين انحصرَت مهمّتُهم بأن يَسكَروا ويُسكِروا الهدف ورفاقه الخمسة، فلا يقوون على المقاومة عند الاقتحام.

دخلنا الكوخ بأسلحتنا، فجدناهم مخمورين يتضاحكون، لدرجة أنّهم تابعوا أحاديثهم غير آبهين بنا. اقترب رفيق سليمان منّي، وأشار إلى واحد منهم كان يتوسّطهم قائلًا إنّه القاتل، فاتّجهتُ نحوه مباشرةً، ورفعتُ مسدسي وأطلقتُ النار عليه.

ماتت الأحاديث بينهم فجأة، وكان مسلّحيّ قد توزّعوا فوقهم ومنعوهم من أي ردّ فعل.

وقفتُ فوق القاتل ونعّمتُ فيه النظر. وجدتُه شابًّا في العشرينيّات. كان وجهه ملطّخًا بالدم. وراءه على الحائط، رَسَمَ الأحمرُ بقعةً أخذَت تسلك طريقها نحو الأرض.

سألتُ نفسي: هل قتلتُه؟ وأجبتُ واثقًا بِلا. لقد فوّضَتني ضحاياه لأدفعه إلى مصير يستحقُّه. وارتحتُ لنهايةٍ لازمةٍ لم يؤرّقها إلّا غياب جانيت.

هل كانت نهاية؟

بُوسا يا حمار!

خرج خالد من عند ضرغام، ليجد ريم جالسة على صحيفة كانت قد فرشت صفحاتها على الأرض بجانب باب شقته، فجمد في مكانه ينظر إليها.

كانت تركّز نظرها في المسافة القصيرة أمامها. هل كانت تحفظ

شكل البلاطات، أم تتبّع الشكل الذي اتّخذه الشرخ في الحائط أمامها، أم تنظر إلى تعاقب الأضواء والظلال الآتي من تحت باب الشقّة المقابلة؟

كان من الممكن أنها تركّز في الأشياء الثلاثة معًا، أو تفكّر فقط، أو تنظر بلا تركيز في ما تلتقطه عيناها. وربّما صادف وجود التفاصيل الثلاثة أمامها فحسب، ولو وُجِدَت تفاصيل أخرى، لكانت ملأت بِدَوْرها فضاء هذا الانهماك.

بقي خالد واقفًا يتبصّر فيها، ولم يكُن يريد مقاطعتها، لا لوثوقه من أهمية ما كانت منشغلة به، بل لأنّه شعر للمرّة الأولى أنّه على مسافة قريبة تتيح له النظر إليها باستفاضة من دون أن يُحرَج.

لكن، بالرغم من هذه الحقيقة، حقيقة القرب المَحْمِيّ، فإنّ انهماكها ظهّر فيها أشياء. فالهيئة التي كانت تنتظره فيها، جعلته يفهم الطريقة التي يتصرّف بها جسمها عندما يكون ساكنًا ومنفصلًا عن المحيط. وهذه الملاحظة الأخيرة جعلته يُسائلُ نفَسه: هل تتصرّف الأجساد بطريقة مغايرة لطبيعة تصرّفها العاديّة في حضور الغير؟ هل يُخرِج الواحد شخصًا آخر من داخله في حضور الغير ويعود ليطمره عندما يعود وحيدًا؟

يتذكّر خالد سهى. يتذكّر الطريقة التي كان يتعاطى بها معها. عندما كانا صديقيْن، وعندما صارا حبيبيْن، وعندما لم يعد يعرف من هي له ومن هو لها. يتذكّر توتّر الإيقاع بينهما عندما صرّح لها بحبّه، وكيف ذهب كلّ الارتياح الذي ساد مساحة الصداقة التي بنياها لأشهر. يتذكّر كيف أنّه لم ينتبه لما حدث إلا متأخرًا، عندما حسمت خيارها وتركته، وكيف عاد الأمر غريبًا. لكنها كانت غرابة مُبهَمة، لا تحمل شيئًا من اكتشافات البدايات. كانت يقظة مفاجئة باكتشاف وحيد معدوم الفهم: لقد تركَتْه!

وجاء وقت تحليل كلِّ شيء. فصار كلما فكَّر في الأسباب، ينتبه لتفاصيل لم يكن يهتمُّ لها، ويضع تفاصيل أخرى في غير سياقاتها، ثمّ يخرج باستنتاجات غريبة، وتُظلم ذكريات في ذهنه أكثر.

يتذكَّر، يتذكَّر، يتذكَّر.

"بُوسا يا حمار!"، تقول له كنزي في رأسه. كأنَّ قبلتها له شقَّت أمامه الطريق. وبالرغم من أنّه كان قد فكَّر قبل لقائه بها بتقبيل ريم، وحسم إعجابه بها منذ لقاء المطعم، بل ربما منذ المرَّة الأولى التي رآها فيها بالمقهى، لكنَّ كنزي فعلت له شيئًا مختلفًا. لقد خرجت من يافطة إعلان، وأشارت إليه بالأصبع، فتقدَّم نحوها. طلبت منه أن يقبِّلها وفعل، وكانت قبلته الأولى منذ مارس الحب للمرَّة الأخيرة مع سهى.

المرَّة الأخيرة! ذاك قد يكون المشهد الذي يشرح كل شيء. يحاول خالد عصر أفكاره وهو يحدِّق في ريم. يحاول تذكُّر ما إذا كان جسده وجسد سهى تصرَّفا بشكل متوتر في الفترة الأخيرة من علاقتهما. يجرِّب أن يثبت لنفسه نظرية أنَّهما كانا يعرفان، وأنَّ النهاية حدثت، أول ما حدثت، في اضطراب تلامسهما الحميم، لكنَّه هو الذي لم يكُن يرى.

فلماذا حدث ما حدث؟ ألِتقصيرٍ منه، أم لأنَّ سهى عرفت أشياء لم يكن هو يعرفها وقتها؟ هل فعل لها أشياء جعلَتْها تبتعد عنه؟ أم إنَّها هي التي فعلَت، وقرَّرت أن تنهي كل شيء؟ ما الذي رأَته سهى؟

يحاول أن يتذكَّر، ولا يتذكَّر شيئًا.

"ريم!"، يناديها، فترفع نظرها، وتقترب. يسألها إن كانت تنتظره منذ فترة، فتجيبه بالنفي. يعتذر منها ولا يقبِّلها.

الحمار!

صحيفة ريم / مقالة رئيس التحرير: أمل

لا يمكن للمرء منّا إلّا أن يشعر بالأسى وهو يتابع أخبار البلد، ويشاهد الفوضى التي تمتدّ من منطقة لأخرى.

فالنظر إلى الشباب المسلحين الذين يتصارعون على السيطرة على خزانات المياه على أسطح المباني، ومتابعة التمدُّد الليلي لجلسات الشباب في نواصي الأحياء، وقراءة حرب البيانات بين وزارات حكومة تصريف الأعمال، ومشاهدة قطع الطرقات اليومي لأتفه الأسباب وأعجبها، وملاحقة إشاعات التفجيرات المحتملة في مناطق ذات غلبة طائفية معينة، لا يمكن أن يشير إلى أيِّ نجاح مستقبلي محتمل للصيغة اللبنانيّة.

وهذا الفشل الجليّ لا يقتصر على ضرب ما تبقى من أوصال الدولة وهيبة مؤسساتها، بل ضرب في العمق ويصل إلى مرحلة من الفراغ الكامل. ولأنّ الفراغ يأبى الوجود، فإنّ الأحداث العبثيّة التي نشهدها هي التي تملأُه وصولاً إلى الفوضى. والأسى يزداد عند استعادة حقائق من نوع أنّ هذا البلد كانت عاصمته من بين أولى مدن الشرائع في العالم، واعتاد على تخطّي كل الصعاب وكان ينهض من بين الرماد في كل مرّة ويستمر. لكنّ البلد الذي تخطّى كل هذه الصعاب، هو البلد نفسه الذي يعاني من نقص في الصيغة، أو ربما من... تخمتها، لينتهي مكشوفًا في زمن بدأت فيه الثورات المحقّة حوله، قبل أن تُسرَق.

ومجابهة المآل الذي انتهَت إليه هذه الحراكات في البلدان المحيطة هي وحدها التي تخفّف من وطأة حالة غياب الهدف داخليًا، وتعيد إنعاش الصيغة إلى أن يحين الموعد المناسب لإعادة النظر الجذرية فيها!

تلك هي المفارقة! وعلى عكس ما يعتقده كثيرون غرقوا في حقد الحسابات الطائفية الضيّقة، فإنّ الوضوح الذي لجأ إليه بعض الشباب

اليافعين، بالذهاب وراء الحدود لإبعاد الخطر المظلم الآتي من هناك، هو بصيص الأمل الوحيد لبقاء هذا البلد!

ما رواه ضرغام –٨

متى بدأت تُسجِّل؟ في جلستنا الثانية؟ هل تستمع إلى التسجيلات في شقّتك؟ هل تختلف الحكاية عندما تكرِّر الاستماع إليها؟

(...)

في اليوم التالي جاءني رفاق سليمان الثلاثة يسألونني ماذا يفعلون بجثة المسلح.

"مْنرميها بالبير؟"، سأل أحدهم.

أومأتُ إيجابًا، وقبل أن ينصرفوا للتنفيذ، أوقفتُهم. قلتُ إنّنا ننفِّذ الأمر معًا بعد ساعة، لكن قبلها، عليهم سحب جميع المسلّحين من الجُلُول.

"ما حدا بيضلّ بالجلّ"، أكَّدتُ.

خرجتُ بعد ساعة، والتقيتُ بالمسلحين وهم يعودون في مجموعات من ناحية الطريق الترابية، ويتجهون إلى التلة خلف المبنى. اقترب منّي صاحب فكرة إلقاء الجثّة في البئر، وهمس سائلًا عن مصير المسلّحين الخمسة من حلقة القاتل الضيقة، الذين تركناهم مربوطين مع حراسة في الكوخ.

"شو مْنَعمل فيهن؟ منْصَفّيهن؟"، سأل.

أجبتُه أنّنا سنناقش الموضوع في وقت لاحق، أمّا الآن فعلينا المباشرة بالتخلّص من جثّة القاتل.

بعد اختفاء المسلّحين خلف المبنى، فرزتُ عناصر للتأكُّد من عدم عودتهم باتجاه الجُلُول، وقلتُ للعناصر أن يطلبوا من زملائهم الانتظار، حتّى أعود وأحدِّثهم. ثمّ حمل مسلّحان الجثّة في كيس أبيض قماشي،

وتقدَّمانا، أنا وصاحب فكرة البئر.

عندما وصلنا، بدا أنَّ المسلحين الثلاثة يستعجلون إنهاء المهمة، فاتَّجهوا مباشرةً نحو البئر لإلقاء الجثَّة، لكنِّي طلبتُ منهم التمهُّل.

كان اليوم قد انتصف، وكانت فرصتي الأولى لتفحُّص البئر في النهار. اقتربتُ من فوهة البئر، وانحنيتُ فوقها. توقَّعتُ أن أتبيَّن القعر، لكنِّي بخلاف الجدران الحجرية، ولمسافة قريبة فقط، لم أستطع تمييز أيِّ شيء. ابتلعَت العتمة كل ما كان بعد تلك المسافة. عندما قدَّمتُ رأسي أكثر، شعرتُ بالرطوبة، ثمَّ حاولتُ أن أنصت، علَّني أسمع أيَّ صوت من داخل البئر. كان الصمت طاغيًا.

سألتُ المسلَّحين ما إذا اعتاد أحدٌ منهم النزول إلى أسفل البئر، فنظروا إلى بعضهم مبدين عدم فهمهم لسؤالي.

ألا ينظِّف أحد البئر؟ ألا يُسحَب منه الماء؟ كرَّرتُ سؤالي بطريقة أخرى.

قال المسلَّح، صاحب الفكرة، إنَّ أحدًا لا يقترب من البئر، فيما عدا القاتل وأعوانه.

وماذا لو عثر أحد على الجثث؟ ألا يجدر بنا سحبها كلِّها ودفنها؟ أو على الأقل إخبار أهاليهم؟

كانت أسئلتي تناقض بعضها، وكنتُ أعرف الإجابات عنها. أردتُ التفكير بصوت عالٍ، علَّهم يقترحون أجوبة كانت غائبة عنِّي.

"تُعطيِّن جثث ولادُن؟ وشو ح تقلُّن؟"، استغرب المسلَّح صاحب فكرة البئر.

"ما إجو سَألو عن ولادُن؟ ما حدا قلُّن شي؟"، استفهمتُ.

أوضح المسلَّح أنَّه صودف وجوده عند مدخل البيت، عندما قدم أهل ضحيَّة من الضحايا الأربع ليسألوا عنه، فأعلمهم بنفسه أنَّ ابنهم لم يحضر للعمل منذ أسابيع.

قد يكون هذا هو الحلّ، فكّرت.

هل يمكن أن نوصل لذوي الضحايا مبالغ شهريّة؟ نحتاج إلى أناسٍ يقومون بذلك بصفة دائمة. أشخاص لا يعرفون القصة وراء تردّدهم الشهري إلى بيوت العائلات. الأهالي قد لا يسألون في المرّة الأولى، وقد يفترضون أنّ الأموال تأتيهم من أولادهم الذين غيّروا من أماكن عملهم، أو نزحوا إلى المدينة دون إعلامهم، حيث الحرب تدرّ أموالًا أكثر. لكنهم مع استمرار اختفاء أبنائهم، سيبدأون بالسؤال. سيطلبون رقمًا أو عنوانًا. سيتكمّشون بموصل الأموال لمعرفة إن كان أبناؤهم بخير. لذا، علينا أن نغيّر ساعي البريد في كل مرّة، وألّا يكرّر الأشخاص أنفسهم زيارة العائلات نفسها أبدًا.

عندما انتهيتُ من مشاركة أفكاري معهم، أعاد أحد المسلّحين سؤالي، كأنّه لم يسمع شيئًا مما قلتُه: "مْنرميها بالبير؟".

هززتُ رأسي، فحمل المسلّحان الكيس واقتربا من البئر. كانت الفوهة ضيقة بما لا يسمح رمي الجثة بشكل أفقي. رفع المسلّحان الكيس ووضعاه فوق الفوهة، ثمّ تشاورا في كيفية رميه، ولمّا استقرا على الطريقة، دفعا طرفه الأول، وتجهّزا لإسقاطه عموديًا، لكنّي طلبتُ منهما من جديد التوقّف.

جاهد المسلّحان في رفع الكيس ثانيةً، وساعدهما المسلّح الثالث، ولمّا أعادوه إلى وضعيته الأفقية فوق الفوهة، وارتاحوا يلهثون، نظروا إليّ ينتظرون شرحًا. قلتُ لهم: "بعتقد إنكن كنتو عم ترموه بالعكس... الإجرين لتحت، والراس لفوق. لو سمحتو".

قلب المسلّحان الكيس مثلما أمرتُ، ثمّ رمياه في البئر، وابتعدا عن الفوهة بسرعة، كأنّهما يخرجان من مجال قنبلة على وشك الانفجار. أمّا أنا ففعلتُ عكسهم. ركضتُ وأحنيتُ رأسي فوق باطن البئر، وحاولت أن أستمع. انتظرتُ أن يصلني صوت ارتطام الجثة بالمياه، وأن أشعر بالرذاذ

يلامس وجهي، لكنّي سمعتُ فقط صوت ارتطام عميق، أو على الأقل هذا ما أظنّه الآن.

"شو منعمل بالخمسة الباقيين؟"، سألني أحد المسلّحين.

"ح إحكي معن وخلّيهن يِمشو من هون. وحَ قبِّضْن شهرين تَ ما يِحكو"، قلتُ.

"أبدًا مِش فكرة منيحة"، ردَّ المسلّح عاقدًا حاجبيْه.

لكنّي كنتُ قد اتخذتُ قراري. لن أقتل خمسة، المال يشتري سكوتهم. المال ينهي الحكايات.

سألني مسلّح ثانٍ ماذا يفعلون بجثة سليمان التي تقبع في برّاد المستشفى منذ أسبوعيْن، هل يرمونها في البئر أيضًا؟

"لا. هاي مندفنا بالتراب"، أجبتُه.

مساء ذلك اليوم، وبعد استعادة الجثّة من المستشفى، وتجهيزها في تابوت، استدعيتُ كاهن الرعيّة الذي كان صديقًا قديمًا لأبي، وأقمنا مراسم بسيطة بحضور المسلّحين الثلاثة فقط، ودفنّا سليمان تحت أكبر شجرة تفّاح عند الجلّ الأخير الذي يُشرف على المدينة.

لم أُخبِر الكاهن الكثير من التفاصيل. اخترعتُ قصّة عن موت الشاب عند أحد خطوط التماس في بيروت. وعندما سألني لِمَ أدفنه هنا، قلتُ إنّه شعوري بالمسؤولية، فقد كان من أكثر الموظفين ولاءً لي، وأنا الذي أرسلتُه في مهمة تفقد بعض الممتلكات في بيروت، وأشعر أنّي تسبَّبتُ بموته.

كان واضحًا أنَّ الكاهن لم يصدِّق القصّة، فإجاباتي لم تكن مقنعة بأيِّ حال، خاصةً بعد سؤاله عن أهل الفتى، وإجابتي المصطنعة عن أمه المريضة التي تعيش أيامها الأخيرة، وطلبي منه عدم ذكر خبر موته لأحد.

نظر إليَّ بتوجُّس، لكن عندما أتبعتُ طلباتي بـ "من فضلك"، هزَّ رأسه إيجابًا. كنتُ أعرف أنَّ الأمر لن ينتهي عند هذا الحدّ، وانتظرتُ منه أن يطلب ثمن تعاونه معي، ولم يَطُل الوقت قبل أن يفصح عن طلباته. فمع نهاية

الدِّفن، اقترب منِّي وهمس لي أنَّه جاهز في أيِّ وقت ليستمع لاعترافاتي، وأرفق توصيته هذه بتذكيري بضرورة زيارة الكنيسة التي قاطعتُها منذ زمن بعيد، وبحاجة صندوقها للمال. فأجبتُه أنَّني سأقوم بزيارته في مكتبه في وقت قريب، وسأساند الصندوق بمبالغ مالية سنويَّة، ثمَّ شكرتُه، وابتسمتُ تلك الابتسامة التي تفصح له أنِّي فهمتُ قصده.

بعد تهديد المسلحين الخمسة في حال قيامهم بأي ردٍّ فعلٍ لاحق، وإعلاني أنَّ مبالغ شهرية ستصلهم منِّي، أطلقتُ سراحهم. وبعدها، انهمكتُ بمراجعة عدد المسلحين العاملين عندي وضبطهم، فاستطعتُ تقليل عددهم إلى خمسة عشر عنصرًا، كان بينهم المسلحون الثلاثة الذين ساعدوني، بالإضافة إلى الذين رافقونا في عمليَّة الكوخ، والثلاثة الذين أسكروا القاتل ومجموعته، ومسلحيْن إضافييْن انتقيتُهم بناءً على توصية رفاق سليمان الثلاثة.

ثمَّ زرتُ أهل سليمان، فوجدتُ أخوته صغارًا، وأمه في مقتبل خمسينياتها، وأباه طاعنًا في السنِّ لا يفهم ماذا يجري حوله. تحدَّثتُ مع الأم، وأخبرتُها عن اختفاء ابنها في بيروت خلال إطلاق نار كثيف عند أحد خطوط التماس، وواسيتُها، وأجبتُ على أسئلتها قدر المستطاع. ولمّا كانت تسأل أسئلة وجدتُ الإجابة عنها قد تشكك في مضامين القصة التي أخبرتُها إيَّاها، كنتُ أصطنع عدم المعرفة.

في حديثي مع أمه، بقيتُ أشدِّد على إمكانية عدم موت ابنها، وأذكِّرها بـ "حقيقة" عدم العثور على الجثة بعد وقف إطلاق النار. هل صدَّقَتني الأم؟ هل كانت تأمل بعودته؟ أم كانت تعرف في أعماقها أنَّه مات؟ وما الذي كنتُ أفعله؟ أمنحها أملًا كاذبًا؟

ربَّما، لكنِّي كنتُ أودُّ سليمان هكذا عندي، قبلها: حيًّا. وهو ظلَّ لسنوات بقيتُ خلالها أرسل المبالغ المالية لأهله. لم أزُرهم بعد تلك الزيارة، ولم أسمع منهم، وكنتُ أكتفي بالسؤال عن أخبارهم من حين

لآخر، حتَّى عرفتُ أنَّ الأم ماتت بعد ثلاث سنوات، بينما ظلَّ الأب حيًّا والأبناء يرعونه، قبل أن تنقطع أخبارهم تمامًا إثر تركهم البلدة خلال الاجتياح الإسرائيلي.

هل عبروا الحرب؟ هل عاشوا السلم؟ لا أعرف.

بعد أسبوع من دفن سليمان، كنتُ جالسًا في الشرفة مع أمي، عندما لمحتُ جانيت وسليم يمشيان عند أول الطريق الترابيَّة ويتَّجهان نحونا.

صحيفة ريم: جثّة مجهولة

أعلنَت شعبة العلاقات العامة في المديرية العامة لقوى الأمن الداخلي عن العثور على جثَّة امرأة في العقد الخامس من العمر مجهولة الهوية على شاطىء البحر قبالة الملعب الأولمبي في طرابلس. وقامت قوى الأمن بنقل الجثة إلى براد مستشفى طرابلس الحكومي.

وتقدِّر تحقيقات المديرية أن تكون المرأة قد قضت غرقًا في البحر، وهي سمراء البشرة، شعرها أسود، معتدلة البنية، متوسطة القامة، ترتدي كنزة صوف بنية، وسروالًا أخضر وجوارب لون أزرق داكن، وسكربينة سوداء اللون، وتضع حجابًا زيتيًّا.

وبناءً على إشارة النيابة العامة الاستئنافية في الشمال، يُطلَب من أهل الضحية أو ممَّن يعرف عنها أو عنهم شيئًا ضرورة الاتصال بمخفر شكا للتبليغ.

عودة إلى التتابع الكلاسيكي

جلس خالد على السرير وترك ريم تستكشف الإستديو. أضاءت الحمام، وأطلَّت برأسها. دخلَت وخرجَت. مرَّت أمامه، وابتسمت عندما رأته

يتابعها بنظراته. فتحت باب الشرفة وتقدَّمت لتنظر إلى البنايات المحيطة، ثمَّ عادت بعد دقيقة، ومرَّرَت يدها فوق قصاصات الصحف المعلَّقة على اللوح، وسألته عن سبب تجميعه لها.

"ما بفكِّر أوقات ليش بعمل الإشيا"، أجابها.

ربت بيده على السرير بجانبه، فاقتربت منه وجلست. سألها:

– كان لذيذ أبو بيتر؟

– بيحكي كتير.

– شو سألِك؟

– افترض إني أختَك.

– لئيم.

– كتير! عادا أكتر من مرَّة. كأنّو عم يجرِّب يسحب منِّي حكي.

– وإنتي طبعًا ما حكيتي.

– لا ما حكيت.

– إي وشو صار؟

– بشو؟

– إنه كيف تصرَّف أبو بيتر؟

– صرت كل ما يسألني شي، رد عليه بجواب ع القدّ. زهق وقعد يحكي لحالو. ما تخاف عليه. ما صارلو شي.

– لا. أنا مش خيفان عليه.

لم ترد على جملته. فاضَت الأصوات من باب الشرفة المفتوح فجأة، أو ربَّما هما اللذان انتبها إلى وجودها أكثر.

كانا يبدآن من جديد، وهذه المرَّة بالتتابع الكلاسيكي المعروف.

تلفاز شرفة مجاورة: جثث الشواطئ

عشر جثث لعشرة مواطنين وُجِدَت ملقاةً اليوم على طول الشاطئ اللبناني من شماله لجنوبه. فمن هؤلاء؟ ومن أين أتوا؟ وما هي قصصهم؟ وهل هي مصادفة أن يتكرّر الحدث نفسه في عشرة أماكن؟

المشهد المهيب، يعيد طرح الأسئلة ذاتها التي ملَّ المواطن انتظار إجاباتها: هل هذه المآسي منظَّمة؟ وأين الدولة من كلِّ ما يحدث؟ وإلى أيِّ مدى يمكن ربط ما حدث بالإشاعات عن اختلال أمني وصحي جدِّي تعتِّم عليه الدولة؟ أين أصبح مثلًا ملفُّ حوادث السير بعد تراجع وزارة الصحة عن عقد مؤتمرها الأخير؟ وما صحة الأخبار عن انتشار وباء مُعدٍ في البلد؟ وكيف يُترَك شباب مسلحون لأشهر فوق أسطح المباني؟ وهل صحيح أنَّ هذه الفوضى تغذيها أجهزة أمنية محلية لتواجه بها أجهزة أمنية محلية أخرى؟ ومتى تتوقَّف المهاترات الداخلية والتوظيفات السياسية للمآسي؟ وهل يستمر انعدام التوافق السياسي بالحؤول دون اجتماع حكومة تصريف الأعمال أو المجلس النيابي؟ وأخيرًا، مع اقتراب موعد الاستحقاق الرئاسي، يحقُّ لنا أيضًا السؤال: هل ما نراه اليوم ما هو إلا مفاعيل المعركة الرئاسية المقبلة؟

هي أسئلة يسألها الجميع، بمن فيهم السياسيون أنفسهم الذين بعد أن يفرغوا من مناكفاتهم، سيعودون إلى منازلهم ويفتحون التلفاز ليجدوا أنفسهم أمام عشر جثث لمواطنين أبرياء.

هذا ما سيبقى في نهاية هذا النهار: عشر جثث!

السقف يبتسم

كانا يضيئان بداية واعية، فلا يتركان الأمر عرضة للتحليل اللاحق، والبحث

اللاهث لتحديد البدايات.

لمسة اليد صارت رأسَها المتكئ على كتفه، ورأسُه التفت مُنبِئًا بما هو أكثر من تجاور. لكنه خلال التفاتته، ضرب بلا قصد ركبته بركبتها، فتوقَّف عن متابعة مخططه وهو يشعر بالألم. وهي لم تفهم تراجعه لأنَّها لم تنتبه للارتطام الذي لم يكن ارتطامًا بقدر ما كان احتكاك ركبتيْن. وعندما لاحظت ارتباكه، سألتْه ما إذا كان بخير، فَهزَّ رأسه صامتًا.

لم تمر دقيقة قبل أن يتراجع خالد عن تراجعه، ويميل على ريم ويقبِّلها. ترسَّبَت القبلة لدقائق، حتَّى صارا جسديْن متلاصقيْن في السرير، ثمَّ تجاورا لساعة أو أكثر، وبدًلا استلقاءهما.

قالا كل الجمل التي تخرج بطيئة متفرِّقة، فتُوحي بطريقة خروجها وصعوبة تناسلها أنَّها مفتعلة بينما هي تخرج على هذا النحو لأنَّ إخراجها من الداخل هو فعل فائق الصعوبة. حدَّثها عن أبيه وأمِّه، وحدَّثَته عن أهلها. قالت إنَّها تفكر في العودة إلى العمل قريبًا. فسألها إن كانت متأكدة. أجابته بـ "إيه" واثقة. أعلمها متحمسًا أنَّه سيعرِّفها على لينا وروجيه، وانتظرها أن تردَّ بأسماء أصدقائها، لكنَّها استدركت شارحةً أنْ لا أصدقاء لديها.

لم يخبرها أنَّه تحدَّث مع لينا عنها، ولم يقل لها خبر لينا السعيد: "أنا حبلة من روجيه". ابتسم، وكمش من جديد موضوع انعدام صداقاتها، فسأل:

– بس سهى مش رفيقتِك؟
– سهى؟ مْبَلا... بس مش كتير...
– ليش نقِّتِك إلِك لتديري بالِك ع بيتنا لَكَن؟
– بيتنا؟ بيتكُن؟
– لأ. بيتنا نحنا. مش قعدنا هونيك يوم؟

ضحك وهو يردُّ على استهجانها، فخبطته بالوسادة.

يُمكِن النظر إليهما من الأعلى. يُمكِن رؤية الأفكار تنقشع. كانا يعبِّدان الهواء بمعرفتهما عن بعض ويحضِّران المكان. كانا يحدِّقان في السقف،

فتخرج الجُمَل منهما، وتطفو فوقهما وتصعد. كلّما قالا جملة، انحسر شيء داخلهما. تراجع البحر وقذف شيئًا من باطنه وراءه على الرمل. كلّما تحدَّثا أكثر، أخرجا أشياء مدفونة فيهما وتركاها في المحيط بينهما.

والسقف يبتسم. يبتلع الجُمَل ويبتسم.

تلك اللَّيلة اكتفيا بالتجاور، ولم يناما مع بعضهما، وظلّ الأمر هكذا لفترة. كانت ريم تذهب كل يوم إلى شقّتها وتعود محمَّلة بالأغراض. ملأت رفوف خزائن الحمَّام بقناني شامبو جديدة، ورصّت له فيها منظِّفات لم يكن يستخدمها، وأحضرَت معها أشياء لم يفكر خالد في شرائها.

رفّ كتب وإكسسوارات. طاولة شاي. صبّارات شرفة. سجادة صغيرة للمساحة بين السرير والمكتب...

حتّى فَتَح الباب ذات يوم، ليجدها تدخل مع عمال يحملون كنبة صغيرة.

ثمَّ بدأت تغيّر مطارح الأشياء. فحطّ التلفاز القديم فوق الطاولة الجديدة، وأُبعدَت طاولة المكتب مع اللوح من طريق باب الشرفة نحو زاوية أخرى.

كانا يبقيان في السرير ساعات، ويقفان أمام الشرفة، ويقلّبان قنوات التلفزيون، ويقضيان الوقت في المطبخ الصغير.

ريم تطبخ، وهو يصنع القهوة. ريم تشرب القهوة. ريم صارت تشرب القهوة.

كان كل شيء يسير نحو نهاية سعيدة، لولا أنَّ خالد كان يغيب. وكلّما سألته ريم أين كان، يجيبها أنّه يزور جارًا مريضًا. لم يكن يكذب، لكنّه لم يكن يقول كل شيء، وهي لم تضغط عليه ليفصح بالمزيد.

تقليب القنوات التلفزيونية

استجواب الصباح: انسحب اليوم وزير الصحة من البرنامج الصباحي الذي تقدِّمه الإعلامية ندى عبد الكريم. وجاء انسحاب الوزير على خلفية

استجواب الإعلامية له في قضيَّة الحوادث المرورية التي ضجَّ بها البلد ثمّ خفت الحديث فيها، قبل أن تتراجع الوزارة عن عقد المؤتمر الصحافي الذي وعدت أن تعلن فيه نتيجة التقصّيات الصحية التي قامت بها.

قُرى محاصرة في البقاع: تستمرُّ محاصرة بعض القرى في سهل البقاع من قبل عناصر حزبية لبنانية بداعي وجود مسلّحين من خلف الحدود، ويحافظ الجيش اللبناني حتَّى الآن على حياده بين الطرفيْن حاصرًا مهمته بمنع نشوب أيِّ نزاع مسلَّح داخل الأراضي اللبنانية، وذلك من دون إحكام قبضته على الحدود بسبب غياب الغطاء السياسي وراء خطوة كهذه.

خطف عسكريين: خُطف خمسة عسكريين لبنانيين في سهل البقاع على يد مجموعات مسلحة آتية من خلف الحدود. وعلى الفور، استنفر الجيش اللبناني قواعده وقام بضرب الجرود المحاذية للحدود بالمدفعية المتوسطة.

معارك الشمال اللبناني: انطلقت البارحة الجولة الثلاثون من المعارك في منطقة الشمال. وتُستخدَم للمرَّة الأولى في المعارك المدفعية المتوسطة، بعد أن اقتصرت الجولات السابقة على استخدام السلاح الخفيف. وكان مسلحون ملثمون قد اقتحموا ثكنة جيش، واستولوا على كامل أسلحتها بما فيها الدبابتان الموجودتان فيها. وبدأَت المعارك بالتمدُّد خارج الشوارع التي بدأَت فيها، بعد سقوط قذيفتيْن في أحد شوارع طرابلس التجارية.

تسييج الروشة: اعتصمت اليوم جمعيات مدنية في منطقة الروشة احتجاجًا على إقامة سياج حديدي على رصيف الكورنيش، حجب بشكل جزئي منظر البحر، ومنع الناس من العبور باتِّجاه المساحة الرملية المواجهة للصخرة. وعلَّق الناشطون الأقفال على جزء من السياج، وحاولوا قصَّه في جزء آخر، لكنَّ شرطة البلدية تدخَّلت لمنعهم. وبينما أصدر رئيس بلدية بيروت بيانًا قال فيه إنَّ المساحة الرملية قد بيعَت لشركة استثماريَّة بالقانون، ردَّ الناشطون أنَّ البيع فضيحة تضاف إلى فضائح ملف الأملاك البحرية غير

الشرعية، وأنَّهم سيواصلون تحركهم ضدَّ سياسات إقفال المساحات العامة المنظمة أمام عامَّة المواطنين.

ما رواه ضرغام – ٩

لا يقدر خالد أن يستمع لضرغام، من دون أن تطبق عليه فكرة أنَّ جدارًا واحدًا يفصله عن ريم. ينظر باتجاه شرفة شقَّته، ويخاف أن تفاجئَه ريم بالظهور هناك. يخاف أن تكون تستمع إليهما، ولا يهمُّه مضمون ما ستعرفه بقدر فعلها نفسه: أن تتشارك معه شيئًا لم يبادر لإشراكها فيه بعد. هذا أمر سلبي، وهو لا يريد للأشياء السلبية أن تجد مطرحها بينهما بهذه السرعة.

يستمع خالد للعجوز، ويفتعل الانهماك بتوضيب الصحف، بينما هو يركِّز نظره باتجاه الشرفة.

لكنَّ أحدًا لا يظهر هناك.

***

يحدث أحيانًا أن تأتيك الفرص في تتابع مثالي، فتميل إلى عدم إضاعتها، وتحذر أن تتدخَّل بأي تفصيل قد يلجم التتابع، فتنساق وراء التتالي.

هذا تحديدًا ما حدث معي. فأنا عندما لمحتُها من الشرفة، لم أنتظرها حتَّى تصعد. وجدتُني أقفز الأدراج، ووصلتُ إليها فعانقتُها من دون أن آبه بسليم الواقف قربها. فوجئتُ أنَّها استجابت لعناقي ولم تصدَّني، بل إنَّها أراحت رأسها على كتفي، وأبقته هناك. عندما رفعتُ نظري، كان سليم ينظر إليَّ ويبتسم.

رافقتُهما إلى المنزل، وتركتُهما في الغرفة التي كانا يشغلانها قبل اختفائهما.

وفي الأيام التالية رجعنا نمشي على الأدراج، وشرحت جانيت لي أسباب اختفائها.

قالت إنَّها ذهبت لتُعلِمَ أهل زوجها السابق بقرارها الزواج، فاحتجزوهما.

الولد ابن أخينا. الولد ابن ابننا. لا زواج.

بعد أن أبقوهما محتجزيْن أسبوعًا، أعلموا جانيت أنَّ بإمكانها العودة وحيدةً بلا سليم. رفضت طبعًا، وحجزت نفسها بإرادتها في الغرفة، لا تخرج منها إلا قليلًا. وكانت عندما تخرج مع سليم، يُعهَد إلى إحدى نسوة العائلة بمرافقتهما. لكنَّ هذا لم يكن أسوأ ما حدث معها، ولا يُقارَن بالأيام حين كان الأعمام يأخذون الولد صباحًا ويعيدونه مساء.

في المرَّة الأولى التي أخذوا فيها الولد منها، خافت أن يختطفوه. حاولت منعهم ولم تنجح. عندما تكرَّرَت إعادة سليم إليها في المساء، لم تعد تخاف أن يأخذوه. صارت تخاف أن يستميلوه، وأن يعرِّفوه على السلاح. أن يعود إليها فلا يعرفها ولا تعرفه. أن يُختطَف وهو معها. كان ذلك رعبها الرئيسي، لا صوت القصف القريب، ولا تعنيف أهل زوجها اللفظي لها.

وفي عشيَّة أحد الأيام، أيقظها سليم وحدَّثها وهو يعلك الكلمات. قال لها إنَّه يحبُّها، وإنَّه لا يصدِّقهم، وطلب منها ألَّا تخاف، لأنَّه سيخرجها من هنا.

كيف عرف؟ لم تعرف. وماذا حدث معه في ذلك اليوم، لم تسأل. عانقته وانتبهت للمرَّة الأولى أنَّها لا تعرف عنه الكثير، وأنَّها تعاملت مع الفترة التي كان صامتًا فيها كفترة طرش أو عمى، بينما كان هو يسمع ويرى ويفهم كل شيء.

"خَطَرتْ ع بالي وقتها"، قالت وهي ترفع نظرها إليَّ.

لو لَمْ تُعِدْه إليَّ يومذاك وهو يتكلَّم، كيف كنا لنعيش أيام احتجازنا؟ كيف كنتُ سأطمئنُّ عليه؟ من كان سيقول لي؟

ضَمَمْتُ شفتيَّ، ولم أرد، وأكملتُ اقتناص الفرص.

حدَّثتني عن اليوم الذي هربت فيه. استيقظت وتركت سليم نائمًا. خرجت من الغرفة لتحضِّر الفطور في المطبخ، فلاصقتها امرأة لا تعرفها. على غير عادتها، أخذت جانيت تتحدَّث مع المرأة. كان الكلام فائضًا، ينساب بسهولة، لدرجة أنَّ المرأة صارت تضحك.

تصف جانيت ذاك الصباح: كان رائقًا، هادئًا، مُشعًّا. وكانا وحيدَيْن في البيت مع المرأة. سألتها جانيت أين الشباب، فلم تحظَ منها بإجابة، بل بدا العبوس على وجهها، ثمَّ غادرت المطبخ. صارت المرأة تتجنَّب الحديث معها، وقصرت نشاطها على مراقبتها.

تصمت جانيت قبل أن تواصل رواية الحكاية.

إنه منتصف النهار. الأصوات تقترب. الأصوات تصل. الأصوات تنهمر. الأصوات تختلط. الحرب هنا. قذيفة!

تُبطئ جانيت من إيقاع كلامها. تستعمل جملًا قصيرة وتبلع ريقها. تقول إنَّها ضمَّت سليم، وأغمضت عينيْها. وعندما فتحتهما كان الغبار يملأ المكان. وجدت الركام حولها، والباب مفتوحًا ولا أثر للمرأة.

الباب مفتوح. الباب مفتوح. ظلَّت تردِّد وهي تمشي مع سليم فوق الركام. أرادت التأكُّد من أنَّ سليم لا يزال يتكلم، فحدَّثته. ردَّ ببطء، فطلبت منه أن يغني أغنية. أجابها مرتجفًا أنَّه لا يتذكَّر أي أغنية الآن، فصرخت فيه.

غنِّ أغنية!

غنَّى.

خرجا من البيت، ليكتشفا أنَّ القذيفة قد أنزلت البناية بجانبهما، ووجدا الناس معفَّرين بالتراب، ومشغولين بسحب أقربائهم وأشيائهم من تحت الركام. سلكا طريقًا معاكسًا للتجمُّعات، وكان سليم لا يتوقف عن الغناء المرتجف، حتَّى ابتعدا عن المنطقة، واستقلَّا تاكسي أوصلهما إلى بيت صديق قديم لزوجها، كانت جانيت تعرف أنَّه ليس على علاقات طيبة

بالعائلة فساعدها الصديق، وأمَّن إيصالهما إلى سوق الغرب.

كنَّا قد صرنا في آخر الدرج عندما قالت جانيت: "الحرب بتخلّص ا أوقات يا ضرغام".

كانت جملتها فرصتي الجديدة، لكنَّني كنتُ أعرف مواقفها الجازمة في موضوع الحرب، وأثق أنَّها ستعود إليها، ولم أرد أن أبدوَ منساقًا في موافقتي على النقاش الذي افتتحته بجملتها، فاكتفيتُ بالترداد: "يمكن مَعِك حق... ما بعرف".

"مش ح يتركو الولد"، أضافت.

"أنا معِك"، أجبتُها.

تعانقنا ونظرنا إلى المدينة تحتنا. صعدَت غمامة انفجار منها وتمدَّدَت، ثمَّ وصلنا الصوت المكتوم.

"تعي نتجوَّز"، قلتُ لها.

صُحُف ضرغام: فواتير الاستشفاء

بيروت – قامت وزارة الصحّة اللبنانيّة بالإعلان عن استحداث نظام إلكتروني للتدقيق في فواتير المستشفيات الخاصة. وعزا مصدر وزاري تضخم الفاتورة الاستشفائية إلى حالة الهلع التي تروِّج لها وسائل الإعلام، وتدفع بالمواطنين لزيارة غرف الطوارئ بلا أسباب مبرَّرة. وأضاف المصدر نفسه أنَّ المستشفيات الخاصة تستفيد ماليًّا باستبقاء المواطنين في غرفها لأكثر من يوم، أو بوصف أدوية وتحاليل غير ضرورية.

ورحَّب نقيب المستشفيات الخاصة بقرار وزير الصحة، وقال إنَّ الخطوة المتخذة خطوة صائبة في خطة الوصول لقاعدة بيانات عامة تشمل كل المواطنين اللبنانيين وتوثِّق ملفاتهم الصحية، الأمر الذي سينعكس في ارتفاع مستوى الخدمة الطبية، ويسهِّل مجابهة الأوبئة

الحاليّة وفي المستقبل. وأمل النقيب أن ينسحب تطبيق هذا النظام على باقي المستشفيات الرسمية، وألّا تُلزَم به المستشفيات الخاصة فحسب، لأنَّ من شأن هذه الانتقائية أن تؤدِّي إلى نتيجة معاكسة تمامًا. ودعا النقيب وزير الصحة للاجتماع مع نقابته للبحث في كيفية تنفيذ النظام بشكل شامل.

وشرحت بعض القنوات المحليّة أنّه يمكن اعتبار إشارة النقيب عن "الأوبئة الحاليّة" بمثابة ردٍّ مبطّن على تقصير الوزارة في تقصّي حقيقة الشائعات الصحية التي تنتشر في البلد.

استهلاك بطيء لفرح عابر

تُنزل لينا حاجبة الشمس وتنظر في مرآتها. تضع أحمر شفاه، وبعض "الماسْكَرا"، ثمّ تبتسم لنفسها.

منذ متى لم تهتمّ بجمالها؟ مهنتها لا تترك لها وقتًا. حرق أعصاب، وركض طيلة النهار. لكنَّ كل هذا سيتغيَّر. بقي شهران فقط على انتهاء البرنامج، وستأخذ بعدئذ إجازة طويلة. ستبدأ ترفض المشاريع المقبلة من اليوم. هذا الحمل إشارة لها، لتُغيِّر نمط حياتها مع روجيه قليلًا.

كانا لا يريان بعضهما إلا في المساء. والآن مع سفره للدراسة في لندن ولتفقّد مشاريع كان يديرها من بعد، صار حديثهما مقتصرًا على السكايب والاتصالات الهاتفية. أحيانًا ينسيان أن يتفقدا هاتفَيْهما. يتّصل بها فتكون منهمكة ولا تردُّ، وينعكس الأمر فتتصل به، ولا يجيب. ولا ينتبهان للاتّصالات إلا بعد مرور وقت على إجرائها.

لينا فرحة، ولا تأبه للزحمة التي ستعلق فيها اليوم. ترفع حاجبة الشمس، وتُخرج دفترها من الشنطة. تشبك هاتفها بنظام الاستماع في السيّارة، وتقوم باتصالات كثيرة. تتّصل بفريق العمل، وتتأكّد من التفاصيل التي دوّنتها في الدفتر. تتخطّاها سيارة، ويرفع لها سائقها الأصبع الأوسط لأنّها

تمشي ببطء، لكنها لا تعيره اهتمامًا. لن تترك أي تفصيل يومي مُعاد يقتل فرحها. ستستهلك فرحها بمنتهى البطء، ولمَّا تنتهي من اتصالات العمل، ستحادث روجيه في لندن. لكنَّها لن تُخبره عن حملها. تلك هي الخطة، أن يعود إلى بيروت فيتفاجأ بالخبر.

تتَّصل به بعد أن تنهي اتصالات العمل، فيبدو صوته تَعبًا. توقف لينا السيَّارة على جانب الطريق. "ما هيك بيصفُّو يا مدام"، يقول لها رجل يمرُّ أمامها. لا تجيب الرجل، وتكمل حديثها مع روجيه. تسأله عن صحته وعمله والـ course الذي تسجَّل فيه، فيجيبها بأنَّ الدراسة بسيطة، ولا جديد فيها. تسأله إن كان يرى سهى، فيردُّ أنَّه يلتقيها دومًا. ثمَّ يستعلم روجيه بدوره إن كانت سهى تتَّصل بها، فتجيبه أنَّها تفعل. ينتقل بعدها ليتفقَّد معها أحوال خالد، فتعلمه أنَّها ستهاتفه بعد هذا الاتصال. يسألها عن عملها، فتحدِّثه عن برنامجها، ثمَّ تنتبه أنَّه لا يقاطعها ولا يقول شيئًا. تستفسر منه من جديد إن كان كلُّ شيء على ما يرام، فيجيبها بعد لحظة صمت أنَّه متعب، فهو لم ينم الليلة الفائتة وأنَّه سيحاول النوم بعد الاتصال.

لكنَّه يستدرك فجأة: "ليكي، أنا بْحبِّك".

يبدو لها التصريح غريبًا. تكتفي بالردِّ: "وأنا كمان".

يقول منهيًا الاتصال: "انتبهي ع حالك، please".

تبقى لينا للحظة لا تفعل شيئًا. ثمَّ تنتبه أنَّ شعورها بالفرح قد اختفى. تُخرج السيَّارة من حيث ركنتها، وترفع الهاتف. تنظر في المرآة الخلفية أمامها، وهي تواصل قيادتها وتنتظر من خالد أن يُجيبها.

قمر الليل

اتَّصل طوني وطلب منه ملاقاته عند تقاطع الشيفروليه. "لوين رايحين؟"، أصرَّ خالد أن يعرف أكثر. كان يريد التأكد من أنَّ الأمر يستحقُّ القدوم

حقًا. هل يملك طوني معلومات جديدة لم يَقُلها من قبل، أم أنَّ تطوُّرًا استثنائيًا ما قد طرأ؟

لكنَّ طوني رفض الإفصاح على الهاتف، واكتفى بالقول: "إنتَ تعا بس. مش ح ناخد وقت كتير".

كان خالد يفضِّل أن يمضي اليوم في الإستديو، لكنَّ ريم أطلقت سراحه، عندما رأته واجمًا بعد الاتِّصال، وقالت إنَّ عليها هي أيضًا القيام ببعض الزيارات.

"شو في؟"، سألها وهما واقفان في المطبخ، فأكملت تحضير القهوة، ولم ترد.

"ح تمرقي ع الشغل؟ ح تشوفيه؟"، أضاف سائلًا.

لم تُجِبه، ولم يكرِّر سؤاله. حضنها من الخلف، وطبع قبلة على عنقها، وبقي واقفًا هنيهةً، ثم أفلتها.

"أنا لازم إمشي. بعود بحكيكي"، قال وهو يخرج من الباب. ثمَّ عاد وأطلَّ برأسه باسمًا: "انتبهي ع حالِك. ما تتهوَّري".

أومأت له وانشغلت بإطفاء النار تحت القهوة، ولمّا رفعت بصرها من جديد، وجدته ينتظر واقفًا وهو يمسك الباب ويحدِّق فيها.

"خَلَص. مش ح إتهوَّر. اتسهَّل!"، زجرته.

مرَّ خالد على ضرغام. اعتذر منه لأنَّ القعدة ستكون سريعة بسبب مواعيد عمل. ثمَّ سرعان ما تراجع عن عذره العام، وقرَّر أن يخبره أنَّه ذاهب لملاقاة طوني. لم يُبدِ ضرغام أيَّ لهفة عند معرفته، واكتفى بالطلب منه أن يسلِّم على طوني.

وها هو الآن واقف عند تقاطع الشيفروليه، بالقرب من كشك البائع النزق نفسه، يقرأ ما ظهر من عناوين الصُحُف، ويفكر بصحف ضرغام التي تتراكم في الشرفة، وبمذياعه الذي لا ينطفئ إلا عندما يروي قصَّته...

الكثير الكثير يحدث في البلد، فهذا واضح من علامات الاستفهام

والتعجُّب والمزدوجات في مانشيتات صُحُفه. لكنَّ شيئًا فعليًا لا يتغيَّر فيه. وعندما تنزلق الأمور نحو ما يظهر في اللحظات الأولى أنَّه متَّجه لطريق اللاعودة، ينجلي الأمر عن أحداث منعدمة الأصالة ومُغرِقة في الملل. إنّ شيئًا ما فاشلًا يسيطر في الأجواء. وهو فشل يراوح مكانه حتَّى عندما تتدهور الأوضاع، ربَّما لأنه متوقَّع، وربَّما لأنَّه ليس جديدًا، وربَّما لأنَّه يفتقر إلى الإبداع. ولأنَّ كثيرين يعرفون أنَّ هذا التدهور لن يؤدِّي إلى تغيير من أيِّ نوع، لا إلى خراب منفلت ولا إلى تحسن منضبط، فإنَّ نوعًا من الافتراق يحدث عندهم بين حيواتهم الشخصية وبين ما يحدث حولهم، فيصيرون يُخرجون كلَّ حدث عام من تفاصيل يومياتهم، ويرمونه بالقرب منهم. يمرُّون بجانبه فقط. يقرأون عنه كأنَّه مُدرَج تحت فقرات "هل تعلم؟" التي فقدت وهجها، ولم تعد تدهش أحدًا. وهكذا ينعدم الاشتباك. ويحيا بالتوازي عالمان متجاوران لا يعيشان إلا بالافتراق. إنَّه فشل مجاور، وهذا التجاور يجعله أفشل بكثير.

أخالد من هؤلاء؟ هل عاش في العالم الموازي؟

يضحك خالد للفكرة، ويفكر أنَّ هذه تفاصيل من الممكن إضافتها إلى مجمل الأسباب التي جعلته يترك عمله. لكنَّه لن يكذب. ما من أسباب عامة محدَّدة دفعته إلى الاستقالة. ترك عمله لأنَّه رغب بإلغاء كل ما درج على فعله وهو منغمس في علاقته بسهى.

كان يريد أن يلغي كلَّ الأماكن التي شكَّلت خلفية لحياتهما معًا. كان يريد أن يهدم عالمًا. أو أن يخرج التفاصيل على الأقل إلى عالم مجاور. إلى أن...

تظهر في عقله صورة ريم.

هل انهدم ذاك العالم الموازي بالفعل؟ أم قلَّت فرص الاشتباك معه حتَّى ظنَّ أنَّه لم يعد موجودًا؟

يقف خالد قرب الكشك، فيبدو البائع كما تركه في المرَّة الماضية،

يحاسب الزبائن ويبقي أذنه ملتصقة بالمذياع. يعود خالد للتركيز في السيارات التي تندفع في الطريق ما إن يسمح لها الشرطي بالمرور. يتفقّد الساعة والوقت يناهز الثانية والربع. ما إن يفكر أنّ طوني تأخّر، حتّى تتوقّف بالقرب منه سيارة رينو من طراز يعود إلى الثمانينيّات، ويطلّ طوني برأسه منها ويدعوه ليصعد.

يعتذر طوني منه قائلًا إنّ زوجته هي سبب تأخّره. "متل العادة يا سعادة"، يقول. "ولا يهمّك"، يردّ خالد ويخبره بسلام ضرغام له. "كيفو الختيار؟"، يسأله طوني. "يوم منيح، يوم ما منيح. صحّتو بتطلع وبتنزل. بس ما في شي خطر. تعب بس"، يجيبه خالد. "كلنا تعبانين"، يعقّب طوني وهو يخرج بالسيّارة من الطريق العام.

تصعد السيّارة رصيفًا بحافّة صغيرة، وتدخل في طريق مهمل، ثمّ يركنها طوني في مساحة غير مرصوفة خلف مبنى قديم، ويدعو خالد إلى النزول.

يترجّل طوني، ويتقدّم نحو الحافة المشرفة على بيروت. يعطي ظهره للمبنى وهو يُخرج علبة السجائر من جيبه، ويأخذ منها سيجارة ويضعها في فمه. يقدّم العلبة إلى خالد، لكنّ الأخير يشكره مشيرًا بالنفي، فيعيد طوني العلبة إلى جيبه، ويشعل السيجارة، ويقدّم رجله اليمنى، ثمّ يبلع دخان السيجارة قبل أن يطلقه أخيرًا من فمه.

"ما في أخبار جديدة. حَبَّيت بس فَرجيك وين بشتغِل"، يقول طوني لخالد عندما يلاحظ ترقّبه، ثمّ يلتفت ويشير إلى المبنى المتهالك.

"بهالأوتيل اشتغَلتْ من نصّ التمانينات تقريبًا، وبعدني. لهون إجِت جانيت، وهون كمان كان يزورني الختيار"، يتابع طوني شرحه.

يتفحّص خالد المبنى، فيجد أنّ الطوابق الثالث والرابع والخامس فيه عارية بلا نوافذ، بل حتّى بلا جدران، ويبدو له أنّ الطابقيْن الأول والثاني، إضافةً إلى الطابق الأرضي، هي الطوابق الوحيدة المُستخدَمة. وعندما يُنزِل

نظره إلى المدخل، يجد عنواناً معلقًا بشكل غير احترافي: "Night Moon Hotel".

ما رواه ضرغام – ١٠

قال خالد إنَّه تعرَّف على فتاة، ثمَّ استدرك مضيفًا أنَّه يعرفها منذ زمن. سأله ضرغام إن كانت تشبه جانيت في الحكاية، فاعتذر خالد وشرح أنّه لا يستطيع أن يحدِّد، وأنَّ عليه أن يسمع أكثر عن جانيت. لكنَّ العجوز تابع يسأل إن كانت الفتاة تشبه سلام، فأجابه خالد أنَّها قليلة الكلام مثلها. "شو اسما طيِّب؟"، سأله العجوز. "ريم"، ردَّ خالد. "فيني جيبا معي المرَّة الجايي؟"، أضاف سائلًا. "أكيد... بس إنتَ بِتْخبِّرا القصَّة لحدْ ما وصلنا. أنا مش ح عيد شي... اسمع هلَّأ كيف تجوَّزنا، قبل ما تروح ع موعدك"، ردَّ ضرغام.

***

لنتزوَّج، اشترطَت عليَّ جانيت شرطيْن: أن أحميَ ابنها، وألَّا أشارك بالحرب بالسلاح أو بالمال، قبل أن تضيف أنَّ عليَّ إخبارها كل شي، مهما كان، ثمَّ سألتني إن كنتُ أودُّ الإفصاح عن أيِّ شيء.

كنت أعلم أنَّ تتابع الفرص لا يعني بقاءها، ولا الحفاظ على نتائجها القديمة، وعلى معرفتي ببديهيَّة أمرٍ كهذا، لم أستطع إلا أن أقتنص الفرصة، وأبدأ حياتي معها بالأسرار.

وجدتُ من الخطأ أن أجيب بالنفي، فاخترتُ كتم أسراري بفضح أسرار غيري. حدَّثتُها عن أبي وعنفه مع أمِّي، وكيف ترك فيها آثارًا لا يمكن إصلاحها. هل تستحقُّ ماما كل هذا؟ كلَّما نظرتُ إليها، أجدُها تهيم في

عالم بعيد. معنا وليست معنا. كأنَّ عنفًا بطيئًا ترسَّب فيها بعد رحيله. كأنَّه ظلَّ فيها، يخلق عنفه داخلها، ويستولي عليها. هذه النهاية ليست عادلة.

حاولتُ بعدها استعادة حديث جانيت عن "الحرب المخلِّصة"، فقلتُ لها إنَّه ما من عنف مخلِّص، وأخذتُ أزايد في الموضوع. عندما مررنا بالقرب من المسلَّحين في الجنائن، وجدتُني أبرِّر وجودهم، وأوضحتُ لها أنِّي تساءلتُ عندما وظَّفتُ أول ثلاثة مسلَّحين، إن كنتُ أقوم بالخيار الصائب. خفتُ أن أكون آتي بالحرب إلى قلب منزلي. فأنا لا أعشق السلاح، ولا أعرف حتَّى أن أحمل مسدسًا. لكن عندما صار الأهالي يقفون عند مدخل البيت، ويستعطفونني لأشغِّل أولادهم عندي، تغيَّرَت نظرتي.

ما من إثارة هنا، ومهمة المسلَّحين محصورة بحراسة المنزل، والأهالي فهموا ذلك تمامًا. إذ ما الذي قد يقمع حماسة أبنائهم المراهقين للذهاب إلى المعارك، غير إثارتهم بفكرة حمل السلاح نفسها، لكن في مكان تكون فيه فرصة استخدامه معدومة؟ لا أبرِّر على الإِطلاق، وربَّما لم يفكر الأهالي بهذه المنهجيَّة، لكنَّهم آمنوا بحقائق كانوا متأكِّدين منها: أنِّي لن أسمح باستخدام السلاح، وأنَّ العمل عندي مُجزٍ، وأنَّ أبناءهم سيكونون على مقربة منهم.

تأكدتُ من كل هذا، عندما قال لي والد أحدهم إنِّي إن لم أوظِّف ابنه، سيرحل الأخير بالتأكيد إلى حيث السلاح يقتل. لحظتها، فكرتُ أنَّني قد أستطيع المساعدة. هؤلاء الشباب مشاريع مسلحين سيشاركون حتمًا في الحرب، فلِمَ لا أحتويهم؟ لا أنكر. لعب غروري دورًا في محاولة إثبات فكرتي، فصرتُ أوافق على طلبات الأهالي، وتضخَّم عدد الشباب. تذكرين عندما بدأتِ تعملين هنا؟ كنتُ حينها قد قطعتُ شوطًا طويلًا في توظيف المسلَّحين، وعذري الوحيد أنَّني كنتُ أخضعهم لفحص دقيق. فأقابلهم قبل التوظيف، وأسألهم أسئلة، وأحاول أن أعرف مدى ميلهم إلى ارتكاب

العنف المجاني. الواحد يستطيع أن يستشفّ ذلك الميل من عدمه، من تتالي أسئلة بسيطة يطرحها بإيقاع واستطرادات معيَّنة.

في ابتعادكِ عني يا جانيت رأيتُ الكثير. هل تذكرين الخناقة التي شهد عليها سليم في الضيعة؟ حدث بعدها أكثر من عراك، ليس عندي، ليس بين مُسلَّحِيَّ، بل بين مسلَّحي الأحزاب الزائرين من ضِيَع قريبة. أنا نفسي تعرَّضتُ لضغوط من الأحزاب. صاروا يسألون عن نوع السلاح الذي يحمله المسلَّحون عندي، ومن أين آتي به. قالوا إنَّ انتشاره على هذا الشكل يستدرج أسئلة محتمة عن موقعي في الصراع السياسي.

لأريحكِ، أستطيع أن أقول لك الآن إنِّي اشتريتُ سلاحًا قديمًا عندما بدأتُ توظيف الشباب. شراء السلاح في بيروت كشراء الطعام والشراب، وأنا اشتريتُه كما يشتريه غيري من الأفراد. لم أتورَّط في صفقات على الإطلاق. وسأقول لك سرًّا أرجو أن يبقى بيننا. نصف هذا السلاح الذي يحمله الشباب ليس صالحًا للاستخدام. و...

أوقفَتني عن الاستطراد في فكرتي وتسلَّمَت دفَّة الحديث.

ضرغام، صحيح أنِّي أرفض هذه الحرب، لكنِّي أستطيع فهم متطلَّبات العيش فيها ومعها، ولا أسمي ذلك مشاركة. من حظِّي ربما أنِّني لم أوضَع في مواقف على تماس مع مظاهر الحرب، وربَّما لا يستمرُّ حظِّي هذا في المستقبل، فأضطرُّ إلى التعامل مع هذه المظاهر. أنا أعرف ذلك تمامًا، فلا تقلق.

"لا تقلق" هذه جعلتني أستشيط في داخلي. لماذا لم تَقُلها قبل أن أتمادى في رواية كذبتي لها؟ ربَّما لكنتُ أخبرتُها بكل شيء، ولكانت فهمَت مبرِّراتي. أليس كذلك؟ أم إنَّ هذه جملة آنيَّة أخرى مثل جملة "الحرب المخلِّصة"؟

عندما لاحظَتْ جانيت سكوتي، حاولَتْ أن تفتتح الحديث من جديد، فسألتني: "وظبَّطِت وضعَك مع الأحزاب؟"

عدتُ أزيد في كذبتي. وكنتُ متفاجئًا من قدرتي اللحظويّة على غزل كل التفاصيل من دون تحضير مسبَق. كأنَّ هدف الحصول عليها – أقصد جانيت – جعلني أكتشف مهاراتي الدفينة.

شرحتُ لها. كان عليَّ التنازل، فاستقبلتُ ممثلين عن الأحزاب، أريتُهم قدم الأسلحة التي يحملها الشباب، وشدَّدتُ على رخص نوعيَّتها، حتَّى أطمئنهم. ثمَّ عرضتُ عليهم أن يأخذوا من يريدون من الشباب بشرط توقُّفي عن الدفع لهم. إسألوهم، قلتُ. من يودُّ أن يذهب معكم لن أمنعه.

نظرت جانيت إليَّ وبدا عليها التوجُّس. كان لزامًا عليَّ أن أستعيد في روايتي دور الضحيَّة بعد تفصيل عرضي على الحزبيِّين الذي انتبهتُ إلى أنَّه عديم المسؤولية، ووجدتُ الحلقة المفقودة التي تكمل روايتي وتجعلها غير قابلة للتشكيك: العدد الحالي الضئيل للمسلحين.

"فَشِلتَ"، قلتُ وأطرقتُ مصطنعًا الحزن.

ذهبَ معظم المسلَّحين مع الحزبيِّين بلا تردُّد، ومن دون أن يحدِّثوني. من دون أن يفعلوا شيئًا. رموا أسلحتهم وخرجوا. ومن تريْنَهم حول المنزل هم الذين بقوا فقط. لكنِّي سـ...

أسكتتني بالقول إنَّ ما عرفَته يكفيها.

في الأسبوع التالي، تزوَّجنا في الكنيسة.

صُحُف الكشك: قنابل ولاجئون

قام سكان منطقة بربور بسحل نازحيْن وجدوهما ينبشان في مستوعبات القمامة، وبتعليقهما على أعمدة الكهرباء، قبل أن يوافقوا بوساطة موظفين في الأمن العام على تسليمهما للسلطات بشرط الإطلاع على نتائج التحقيقات.

وشرح الأهالي للصحافيين أنَّهم عثروا في الأسبوع الماضي على قنبلتين

متروكتيْن في مستوعب قمامة في الشارع، فأبلغوا القوى الأمنية، التي قدمَت إلى المنطقة وسحبَت القنبلتين من دون أيٍّ تحقيقات إضافية. وأبدى الأهالي ضيقهم من عدم اتّخاذ إجراءات رادعة تحول دون تكرار الحادثة، ما جعلهم يأخذون الأمر على عاتقهم، وينتدبون شبابًا من المنطقة لمراقبة التحركات في الشوارع.

وسرعان ما لاحظ الشباب تحركات ليلية مريبة، فقبضوا على شابيْن كانا موجودَين حول مستوعبات القمامة في شارع ضيق يصل شارع بربور بكورنيش المزرعة، واحتجزوهما طيلة الليل للتحقيق.

وتبيَّن بعد الحديث مع الشابين أنّهما نازحان غير لبنانيّيْن هربا إلى لبنان من الحرب الدائرة في بلدهما، وأنّهما كانا يبحثان في المستوعبات عن بقايا طعام، ومخلّفات حديدية ليبيعاها. وقرّر الشباب الموكلون بحراسة الشارع أن يستبقوا الشابيْن حتّى ظهر اليوم التالي للتحرّي عنهما أكثر. لكن ما إن انتصف نهار اليوم التالي، حتّى انتشر خبر القبض عليهما، فتجمّع الأهالي حول مدخل البناية حيث يُحتجَز النازحان. ولم تنفع كل تفسيرات الشباب الموكلين بالحراسة في تهدئة الأهالي، الذين قاموا باقتحام المدخل وسوق الشابين إلى الخارج ومن ثم سحلهما على الأرض وشتمهما وسط تهليل وتصفيق السكان الذين أطلّوا من شرفات المباني المحيطة.

وقام الأهالي بتعليق النّازحيْن على أعمدة الكهرباء، ودعوة القنوات التلفزيونية لتصويرهما بصفتهما المجرميْن اللذيْن عكّرا صفو الأمن في الشارع، قبل أن تنجح الوساطات، وتُنزل القوى الأمنية الشابين الغارقين في الدم عن العمودين، وتسوقهما إلى وجهة مجهولة خارج المنطقة.

وهذه ليست الحادثة الأولى من نوعها في الآونة الأخيرة. فقد قام أهالي منطقة كرم الزيتون بملاحقة وضرب عمال البناء الذين يسكنون منطقتهم وتحت أنظار قوى الجيش المتمركزة على قرب، واتّهموهم بالتحرُّش ببنات المنطقة. كما حرق مجهولون أكثر من مخيم للنازحين في قرى سهل البقاع.

وتتكرَّر هذه الأحداث وسط جو إعلامي يحرِّض يوميًا على النازحين، إما عبر الحديث عن مسؤوليتهم في انتشار الأمراض المعدية في المناطق، أو بالإشارة إلى ارتفاع حالات التسوُّل في بيروت. وتتسابق القنوات التلفزيونية على استضافة شخصيات سياسية تشدِّد على خطورة التغيُّرات الديموغرافية والآثار الاقتصادية السلبيَّة التي يسببها النزوح الجماعي إلى لبنان.

قصَّة الأوتيل

يستمع خالد لطوني وهو يلحق به. يسلكان الطريق نفسها التي سلكتها السيَّارة، فينتبه خالد لكمِّ الإهمال الذي تعاني منه الطريق، ويفكِّر أنَّها تغرق بالطين في الشتاء.

– ما كان الأوتيل وقتا هيك. بس بعد ما خلصتْ الحرب، اختلف الورثة بين بعض، وقَسَّموا البناية. واحد من اللي كان مستثمرينا، خلَّى الأوتيل بأول طابقين. بعدين إجا ابنو، وما قعد كتير. هاجر ع كندا، وسلَّم الأوتيل لمقاولين.

يصلان إلى المدخل الذي دخلا منه، ويقفان عند الرصيف، فيكمل طوني شرحه:

– مطرح ما كنَّا جوَّة هوِّي المدخل اللي عم نستخدمو هلَّأ. قبل، كان باركنغ سيارات. والاستقبال كان هون، وفوق ع الطابق التالت كان فيه مطعم، وطبعًا ع الروف كان كمان في مطعم ويقلب pub بالليل...

– اللي شِفتْ فيه جانيت.

– إي. اللي شِفتْ فيه جانيت بالليل.

يرنُّ هاتف خالد، فيجد لينا تتَّصل به. يعتذر من طوني، ويبتعد قليلًا ليردَّ على الاتصال. تسأله لينا بعد السلام:

– عم تحكي مع روجيه؟

– لا. إلي وقتٍ مش حاكيه. في شي؟

– بعدني مسكرة معه. حسَّيتو تعبان. وما رِضِي يحكي. فيك تتِّصل فيه؟

– أكيد. هلّأ بس إرجع.

– تمام. وغير هيك؟

– كلُّو ماشي. إيمتى ح تكوني فاضية لعرِّفِك ع ريم؟

– فينا نعمل قعدة هاليومين.

– طيب. اتركيني ظبِّطها.

– أوكي. أنا ح كمِّل سواقة ع الشغل. بعد فيه هالقطعة وبطلع من الضاحية.

– طيب حبيبتي. منتحاكى.

– يلا باي.

بينما كان خالد يحدِّث لينا، ترجَّل شاب وفتاة من سيَّارة تاكسي أمامه، واتَّجها عاقديْن يديْهما باتجاه المدخل الخلفي. ومع إنهائه للمحادثة، مرّ قربه شابان يتلاطفان، وسارا في الطريق نفسها. بقي خالد يلحقهما بعينيْه، حتّى غابا عن مجال رؤيته. وبعد اختفائهما، نظر إلى طوني، فهزّ الأخير برأسه موافقًا على ما يجولِ في خاطره.

– إي... اللي عم تفكر فيه.

– وشو يللي مبقِّيك هون؟

– أنا بلَّشتْ هون زغير. والوضع ما كان هيك أولِ فترة بعد الحرب، لمَّا زَغَّرو الأوتيل. بس بعدين تغيَّر كلّ شي. أوقات بفكِّر فلّ. بعدين بقول ما بقي من العمر أكتر من يلِّلي مضى.

– بِفهمَك كتير منيح.

– المهم. اللي كنت بدي فرجيك ياه هوي الطابق الأرضي. هون

المفروض كان في شبَّاك. ولما مَرَقت جانيت كانت قاعدة، وعم تِطَّلّع منه لبرّة. كانت حزينة كتير... وهيك بس. كنت حابب بس فرجيك المطرح لترسم صورة براسك. مع إنُّو صعب تعمل هالشي والمطرح بهالحالة.

أشار طوني إلى الطابق الأرضي. كان كل شيء فيه مقتلعًا من مكانه، لا جدران خارجية ولا داخلية فيه. فقط أعمدة الدعم صمدَت. هل سُرِقَت الحجارة، أم كان الورثة يناكفون بعضهم بعضًا بجعل المكان غير قابل للاستثمار؟ لم يسأل خالد طوني. اكتفى باللحاق به، واتَّجها إلى باب يفضي للمساحة المستثمرة في الجهة الأخرى من المبنى.

خلال مشيهما فوق ردم الحجارة، أكمل طوني حديثه:

– أوقات بكون قاعد بالمدخل. بْيجو تنين شباب، أو شاب وصبية. بكونو ملبّكين كتير، وما بْيطَّلّعو فيني بالعين. ياما مثلًا بْيتحايلو عليّي حتَّى ما يعطوني هوياتُن لصوّْرها. بخافو. أوقات بحاول لطِّف الجو. بطَّلع بالواحد منهن وبسألُن: "قديش إلكن مع بعض؟" بأكتريَّة الأوقات الشباب بعصّْبو. الولد اللي مع البنت ممكن يقلّي ما خصَّك. بس أوقات بيطلعلي تنين، بيجاوبوني بلا ما يتوَتَّرو. في شاب مرَّة قلّي إنُّو تعرف ع صاحبو من شي نصّْ ساعة ع الموبايل، وصارو التْنين يضحكو. وبمرَّة تانية، وقف شاب وبنت يتذكرو قديش إلن بْيَعرفو بعض، وتْخانقو لأن كل واحد كان عم يقول شي عكس التاني، وبطَّل بدُّن يطلعو ع الأوضة.

يتوقف طوني عن المشي، يصمت قليلًا ثمَّ يتابع:

– بتعرف شو؟ كنتْ عم فكّر. تذكَّرت كيف تعرَّفتْ ع مرتي بقلب الحرب وكيف حبّينا بعض، وكيف هربنا خطيفة، ووْصُلتْ لخلاصة. البلد بطَّل فيه مطرح حدا يحبّ فيه حدا. جدّْ. إنُّو بالحرب، كانت العالم تقدر تحبّ بعضها أكتر. كان الموضوع سهل. قد ما بدَّك فيه مطارح. برَّة وجوَّة. بس هلَّأ شو؟ ميِّة عين وعين. الكلّْ فاضي للكلّ. الكلّْ بْيتكى بالكلّ. الكلّ منرفز وفالت ع بعضو. وع شو، ما بتفهم! إنُّو هيدا المطرح

اللي شايفو يُعتبَر مطرح متل الخلق؟ مش حرام العالم تحبُّ بعضها بهيك...

قبل أن يُكمِل طوني جملته، دوّى صوت انفجار هائل جعلهما ينحنيان على الفور. خلال انحنائهما، شعرا باختلال في ذرات الهواء. عندما فتح خالد عينيْه، رأى طوني يركض فوق ركام الطابق الأرضي متّجهًا نحو قاعة الاستقبال في الخلفيّة، فلحق به، متخطّيًا الشباب والبنات الذين خرجوا من الغرف على عجلة.

وصلا إلى المساحة المشرفة على بيروت وضواحيها، وشافا غمامة سوداء تصعد فوق المدينة.

غمامتان...

بل ثلاث...

الغمامات

الانفجار يستحيل غمامة سوداء. تمرُّ دقائق، قبل أن تنضمَّ إلى الغمامة الأولى غمامة ثانية في المكان نفسه، وتجاورها. وبعد دقائق أخرى، يتكرَّر الأمر، فترتجُّ ذرَّات الهواء، وتظهر غمامة ثالثة في مكان آخر من المدينة.

ثلاث غمامات تترك وراءها الفراغ، وتخلق في السماء الواطئة مساحة لا تحوي شيئًا، ثمَّ تندفع صاعدة إلى الأعلى. وما إن يرتفع الدخان أكثر، حتّى ينقشع كل شيء في الأسفل.

من الأعلى، يمكن رؤية الشوارع وهي تموج بسيارات مجنونة. ثمَّ تفرغ المدينة من كل شيء، وتنعدم فيها كل حياة. لا سيارات ولا مشاة. حتّى قطط الشوارع تختفي منها. في الأعلى، تكون الغمامات قد التقَت، واختلطَت، وشكَّلَت طبقةً سوداءَ غطَّت المدينة وضواحيها.

قبل أن تصعد الغمامات بأجزاء ثانية، اصطدمَت سيارات ببعضها من هول الصوت، وأفَاق عجوز من غفوته ونظر إلى السقف، وخرج ناطور

من غرفته، وسقطَت حمامة من السماء، ومات كُثُر.

وبعد أن بانَت الغمامات بثوان، توقَّفَت شبكة الهاتف عن العمل. ولمَّا عادَت بعد أقل من ساعة، أنتجَت خطوطًا مختلطة، الأجوبة فيها كانت لأسئلة أخرى. ورغم ذلك، بقي المتصلون يتحدثون لدقائق قبل التأكد من هوية المتصل على الخط الآخر، فسَمع الكلُّ الكلَّ، ولم يكن أحد يفهم على الآخر.

في شقَّة، على مقربة من مكان الانفجار، انفجر أكواريوم في غرفة نوم، وفاض الماء على الأرضية الخشبية، وسقط السمك بين نثرات الزجاج، وارتعش.

وحدها السمكة ذات النظرة الغريبة وقعَت فوق السرير، وبقيت تنتفض طويلًا. أكثر من زميلاتها. لكنها في النهاية، همدت وماتت.

اتِّصالات بعد الإنفجار: الكلُّ سمع الكِلَّ

شلتي الغسيل؟ طب هوّي شو قلّك؟ ح يمضي؟ عم جرِّب رنلَّك من ساعة وإنت ما عم تردْ. وين كِنتْ؟ وين ممكن الواحد يسافر برّة هالإيام؟ ممكن باى تِتصُّلو لهون؟ لا! هون ما مطعم غلاييني ولا عيلة غلاييني ولا فيه حدا غلاييني! بْشَرفي بقتلِك إذا ما عملتي هيك. وُكَا صاحبي، إلي ساعة علقان بهالعجقة. خرا! شو عم تعمل؟ أنا قاعدة ع البراندة. الدخان بيّن من عندي. بيّن من عندك؟ ستة ونصّ بالجميزة؟ إي إي. اليوم بتكون فاضية بعد الانفجار. منقدر نحكي ع راحتنا ما بيكون فيه ضجة. لك ما قلتلّك! هيديك المرّة شفت عنّك حلم غريب. إنُّو إي. كنا شالحين فيه. ها ها. إي بعرف. إي كنّا نايمين مع بعض. بس هوي غريب مش لهيك، لشي تاني. شو بِنا هلّأ؟ حكينا معو للزلمي. مُصِرْ. بدُّو نفس الـ discount تبع المشروع اللي قبل. ما كان يقنع لا بالطول ولا بالعرض. طب خيِّي إحكي انت معو بركي بيقنَع. رايحة اليوم شوف الفستان،

فيك انتَ تنزل معو ليجيب البدلة؟ ما بيعرف صاحبَك يشتري تياب بالمرَّة. أوقات بحسّ إنِّك ما بتحبِّيني. كيف بدي قلِّك. ما بتحبِّيني هيك حبّ من اللي بشوفو بين ناس غيرنا. ما بَعْرِف كيف يعني إشرحلك. فهمانة عليِّي إنتي، ما هيك؟ ضلّيت واقف ساعتين بالصفّ ولما وصل دوري قالولي إنُّن سَكّرو لليوم، وقال إجي بكرة وح يفوّتوني أول واحد. والله العظيم ع لحظة كنت ضربتُن بس روِّقت حالي، ولما ضَهَرتْ، طلع بيّاع جلد غزال بوجّي وعلّق عليي. حرام إجا باللحظة الغلط. قمت ضربتو. يعني برأيك لازم نبيع الأسهم اليوم؟ مدام، عم اتصل لأحكيكي عن موعد المساج اليوم، منخلّيه أو منأجّلو؟ بالنسبة لبوليصة تأمين السيّارة، صارت خالصة. إنتي شفتي كيف لَفّت عليه وقامت من طاولة لطاولة لحد ما صارت حدُّو؟ يعني حكيم، بضلّ آخد الدوا اذا مرتاح عليه؟ افتحي هلّأ ع صوت الفنّ ح اتّصل وإهديكي غنيّة. طب دوّرتي بالجارور اللي تحت؟ أنا مأكد حاططِن هونيك!

علامات مميّزة لمكان داكن

اضطرب خالد عندما رأى الغمامة السوداء الثالثة فوق منطقة الأشرفية. عاد مسرعًا إلى غرفة استقبال الفندق، ليتفقّد التلفاز. ومع تتالي البثّ المباشر، استطاع التعرُّف على المكان الذي وقع فيه الانفجار. كان الشارع الذي تقع فيه شقّة ألبير. ريم كرّرت العنوان له أكثر من مرّة. وعندما قال لها إنّه لم يعرفه، أخذت تذكر له علامات مميزة في الشارع: الكنيسة عند مدخله، السوبر ماركت الشهيرة في أوسطه، إشارة السير في آخره، وأسماء مطاعم "الفاست فود" واحدًا واحدًا...

كانا مستلقييْن في السرير، عندما وصفت له الشقّة من الداخل. حكت عن كرهها للمكان الداكن، الذي ظلّ داكنًا بالرغم من كمّ المال المستثمر فيه من ديكورات وإضاءة. تركها تستفيض من دون أن يقاطعها، واكتفى

بأن طوّقها بذراعه من الخلف. كانت تُفرغ كل شيء. شعر بالارتياح لأنّها تفعل ذلك وهما في البدايات. وإن كان من شيء وحيد تعلّمه من علاقته بسهى، فهو تجنُّب مراكمة الأشياء غير المفهومة حتّى تنفجر، وأن يعالج كل الأشياء في أسرع وقت ممكن.

عندما رأى العلامات المميزة في التلفاز، لم يخطر بباله إلا أنّ ريم ذاهبة لتلتقي بألبير. لكن أين؟ في الشقّة أم في المكتب؟ لم يكن يجب أن يتركها تذهب وحدها لتلتقيه! كيف فعل ذلك! حاول تذكّر حديثهما الصباحي. هل ذكرَت المكان؟ مشى من جديد إلى الخارج، ووقف في المساحة المشرفة على المدينة وتابع تمدُّد الغمامات السوداء. جرَّب أن يستعيد حوارهما في عقله بالترتيب، لكنّ ذاكرته خانته تحت وطأة الحدث. كان يهجس بفكرة أن تكون ريم في المكان الخطأ وفي الوقت الخطأ. جُنّ. عاد راكضًا على الطريق المهملة إلى الشارع ليوقف سيّارة تاكسي. وقف يعيد الاتصال بها، لكنّ الشبكة لم تكن تعمل، وعندما استطاع أن يقبض على خط، ردّت عليه امرأة. سألها من المتكلّم، فسألته المرأة بدورها من يكون. سأل عن ريم، فقالت له إنّ الرقم خطأ. ما الذي يحدث؟ انتظر خالد دقائق لكنّ أيّ سيّارة تاكسي لم تظهر. كان الشارع فارغًا من الناس. قرّر الاتجاه نزولًا إلى تقاطع الشفروليه. مشى بضع خطوات قبل أن يتوقّف طوني بسيّارته قربه، ويطلب منه الصعود.

تخطّيا كل إشارات السير التي كانت في طريقهما، وبلغا ساحة ساسين بعد دقائق قليلة. توقّفَت السيّارة أمام البناية التي يقع فيها إستديو خالد، وترجّل الأخير راكضًا نحو المبنى، من دون توديع طوني. لم ينتبه إلى هذا التفصيل حتّى وصل المصعد، فعاد مسرعًا إلى المدخل، لكنّ سيّارة طوني كانت قد اختفت.

وصل المصعد، فركض خالد ناحيته ليلتقطه قبل أن يطلبه أحد، ونجح في الصعود فيه. جاهد في إيجاد المفاتيح في جيبَيْ جاكيتّه ثم تذكّر أنّه

وضعها في جيب البنطال، فأخرجها منه ثمَّ فتح الباب.
تفقَّد كل الإستديو. دخل الحمام، وخرج إلى الشرفة.
لم تكن ريم هناك.

ما نجَت منه

الكلُّ مشغول، ولا أحد ينظر إلى الأعلى. الصوت مكتوم والرؤية ملبّدة. يتوقّف الزمن لثوانٍ، ثمَّ يُكمل. طنين في الأذنيْن، والعينان مغمضتان. العينان تنفتحان. الدخان الأسود يحوّل النهار ليلًا. الحدقتان تتّسعان. النظر يتسارع في كافة الاتجاهات. الزمن يركض متخطّيًا توابع توقف الثواني ليلحق بإيقاعه السابق. العينان تركّزان أمامهما، تَلمحان شرخيْن في زجاج السيارة الأمامي، والصوت يبدأ يعود من قاعه. عميقًا يظهر، بطيئًا يرجع، ثم يستقرُّ كما كان قبل أن يتوقف، ويلتقي مع الزمن في لحظة استعادة الإيقاع، فتفهم العينان ما يحدث حولها. تمتدُّ اليد إلى الباب لتفتحه. تفشل مرّتيْن. ثمَّ يظهر الوجه الشاب من وراء الزجاج، ويتراجع، ويبين الشيء الذي يحمله. الشيء يكسر النافذة، ثمَّ تمتدُّ اليد وتفتح باب السيَّارة من الداخل، وتُخرج الجسد. الوجه ينظر في العينيْن، ويسأل صاحبتهما هل ما زالت قادرة على الحركة؟ والعينان تردّان بالإيجاب. الجسد يتّكئ على الكتف، فتحاول الرجلان أن تمشيا. المسافة تطول، ولا إحساس بالوقت. في الرحلة القصيرة، تتّسع الحدقتان من جديد. الدخان يزكم الأنف، وأبواق السيارات لا تزال تلعلع في المكان. يظهر من يصرخ: "لَوَرا... الكلُّ يبعد لَوَرا... اعْملو معروف يا شباب، الكلُّ لَوَرا!". تتوالى النداءات بلا طائل، وتتكاثر الجموع. الحدقتان تواصلان الاتّساع بلا سيطرة. تنظران في قلب الدخان الأسود. ترَيان السيَّارات مجعلكة. تجدان ألمنيوم أبواب الشرفات المحيطة وقد اقتُلع. تحاولان

تبيَّن البناية كاملةً، فتجدانها قد تعرَّت تمامًا وكشفت عن باطن شققها. الرجلان تواصلان المشي المؤلم. دمٌ على الملابس، وأناس غير معروفين يسألون، لكن لا إجابة في الرأس، ولا قدرة على الرد. في الطريق، تلمح العينان يدًا فوق عمود كهرباء، وأشلاء جسد على رصيف، وعندما تشيحان مبتعدتيْن عنهما إلى الأرض، تريان الركام، وتشعران بالحرارة. "خليكي هون"، يقول الوجه الشاب لها، ويعود ليغوص من جديد في قلب الدخان الأسود.

الانتظار

جلس خالد عند حافة السرير، وضمَّ رجليْه، وحاول أن يهاتف ريم.

فشل في التقاط الشبكة أكثر من مرَّة، وعندما رنَّ الهاتف أخيرًا، ظهر له على الطرف الآخر صوت رجل.

الخطوط الهاتفية تختلط من جديد.

ظلَّ يكرِّر الاتصال، وبعد نصف ساعة من المحاولات، نجح في الاتصال بالرقم، لكنه هذه المرَّة سمع رنينًا من داخل الإستديو.

قام من مكانه وأخذ يتتبَّع مصدر الصوت، فوجد هاتف ريم متروكًا على البرَّاد. رمى هاتفه على الأرض غاضبًا، ومشى إلى باب الشرفة المغلق، وأخذ يحدِّق في الخارج.

وجد نفسه يبكي.

لم تمضِ دقيقة حتَّى سمع الباب يُفتَح. أدار رأسه، ليجد ريم داخلة تحمل أكياسًا بلاستيكية. عندما رأته ريم على هذا النحو، جفلت. وضعت الأكياس أرضًا، واقتربت منه تسأله إن كان بخير. حاول أن يداري دمعه بكفه، وبلع ريقه. أراد أن يجيبها بشكل طبيعي، لكنَّ صوته خرج محشرجًا. "لا. لا. ما في شي"، قال وهو يزيح كفَّها على وجهه، ثمَّ عاد إلى حافة السرير.

لاحظت هاتفه ملقىً على الأرض، فاقتربت منه.

"بحبّك كتير، أنا"، قال وهو يضع رأسه على كتفها.

طوَّقته بذراعها، وقبَّلته على عنقه. صار رأسه في حضنها. مرَّرَت أصابعها بين خصلات شعره، فنام.

تركته مستلقيًا ربع ساعة قبل أن ترفع رأسه وتضع تحته وسادة وتقوم. انحنت فوق هاتفه، وجمعت قطعه. أعادت البطارية إلى مطرحها، ثمَّ أدارت الآلة، ووضعتها على المكتب، وانطلقت إلى المطبخ لتفرغ الأكياس ممَّا فيها.

رنَّ الهاتف بعد حوالى ساعة، فأسرعت ريم من المطبخ لترد. سألها المتصل عن خالد، وقال إنَّه يتحدَّث من المستشفى، فأعلمته أنَّه نائم، وسألت إن كان يتَّصل لإعلامه بنتيجة فحوصات أو تحاليل أو شيء من هذا القبيل.

"لأ، لأ... يعني ما فيني إحكيه؟"، قال المتَّصل معيدًا طلبه.

"طيِّب. لحظة بس لـَ فيْقو"، أجابته.

"خالد... خالد... قوم... تلفون"، ربتت على كتفه.

بعد تتابع لكزاتها، فتح عينيه. سألها: "شو في؟ مين؟". "عم بيقول من المستشفى"، قالت وأعطته الهاتف، ثمَّ عادت إلى المطبخ.

لم تكد تصل، حتَّى سمعته يقول للمتَّصل إنَّه سيكون في المستشفى بعد نصف ساعة.

عادت لتجده يلبس حذاءه مسرعًا ويقوم.

"شو في؟"، سألته.

"لينا... لينا بالمستشفى! كانت بمطرح قريب من الانفجار"، قال وهو ينطلق باتجاه الباب.

"طب انطرني. جايي معك"، نادته.

أطفأت النار تحت الطعام، ولحقت به.

راديو أبو بيتر: الشارع يطالب

بعيد الانفجارات الثلاثة التي وقعت اليوم، شهدت شوارع العاصمة اللبنانيَّة تجمُّعات كثيفة لشباب شرع بعضهم بنصب خيام عند النواصي، وقطعوا الطرقات، ممَّا تسبَّب بزحمة سير في شوارع عدَّة. وبعد ساعة من بدء التجمعات، ألقى ممثل عن الشباب خطابًا طالب القيادات السياسية بإرسال الشباب المعتصمين لقتال من يأتون لقتل اللبنانيين.

وتداعت تيارات وأحزاب سياسية متحالفة إلى لقاء عاجل، خرجت بعده ببيان يدعو الجميع إلى تحمُّل مسؤوليَّاتهم، ويشدِّد على ضرورة أن تكفَّ بعض مؤسسات الدولة الرسمية وبعض السياسيين عن حماية القَتَلة الآتين من وراء الحدود. وأعلنت القيادات المشارِكة في الاجتماع أنَّها لن تقدر، بعد الآن، على لجم مطالبات قواعدها وترفضها، بسبب الضغط الشعبي الذي تتعرَّض له. ودعا البيان المعتصمين الشباب إلى الالتحاق بالمراكز الحزبية في القرى، للتنسيق حول كيفيَّة الاشتراك في القتال الدائر وراء الحدود.

وعلى الفور، عقدت الجمعيات العائلية ولجان المباني في الشوارع التي شهدت التجمُّعات مؤتمرًا صحافيًّا مشتركًا، أعلنت فيه أنَّ الشباب الذين ظهروا في البثِّ المباشر لا يسكنون الأحياء التي تظاهروا فيها، وأنَّ التجمعات التي حدثت منظَّمة وغير عفوية، ويُراد منها افتعال جوٍّ عامٍّ لتبرير التورُّط في معارك خارجية. ودعا المجتمعون إلى تحييد لبنان عن المخاطر، والالتزام بأعلى درجات ضبط النفس، لأنَّ الشعب اللبناني، بحسب بيان المؤتمر، قد تعب من الحروب.

ويظلُّ الخوف الأكبر بين اللبنانيين أن تمتدَّ الحرب الدائرة خلف الحدود إلى داخل الأراضي اللبنانية، الأمر الذي قد يعيد مأساة الحرب الأهلية التي امتدَّت زهاء من ستة عشر عامًا. ويستمر السِّجال حول الموقف الذي

يجب أن تتّخذه الدولة، خاصةً مع النزوح الضخم للهاربين من المعارك نحو أراضيها.

وكانت معظم الأطراف السياسية اللبنانية ممثّلة في الحكومة، قبل أن يعلن رئيس الحكومة استقالته بسبب الضغوط عليه. وبعد استقالة الحكومة، نجح رئيس الجمهورية في تكليف رئيس حكومة جديد بعد جولة من الاستشارات النيابية. لكنّ رئيس الحكومة المكلّف فشل حتّى الآن في تأليف حكومة تحظى برضى أبرز الأطراف السياسية بسبب تعارض المطالب في الحصص الوزارية.

وهذه ليست المرّة الأولى التي يكشف فيها الدستور اللبناني عن مكامن ضعفه، ليؤدّي إلى الشغور الإداري أو الحكومي أو النيابي، أو حتّى الرئاسي. ويسابق جميع الفرقاء الزمن للتوافق على حكومة قبل انتهاء فترة ولاية رئيس الجمهورية لتجنّب الدخول في جدل دستوري.

بدّي نام معِك

صودف وجود أبو بيتر في المنطقة، ولم يستغرقه الوصول إليهما بعد اتّصالهما به أكثر من خمس دقائق. كعادته، بدأ أبو بيتر يرمي تعليقات عن ريم وخالد، إلى أن طلب منه الأخير غاضبًا أن يسكت. عندما لاحظ أبو بيتر جدّية النبرة، استكان وتابع قيادته صامتًا.

كان مدخل مبنى المستشفى مزدحمًا بالناس وقوى الأمن. استطاع خالد وريم بعد عناء أن يشقّا طريقهما بين الجموع المحتشدة، وانتظرا طويلًا أمام المصعد، قبل أن يصلا إلى الطابق حيث غرفة لينا. قالت ريم إنّها ستدخل لتسأل ثمّ تعود، وطلبت من خالد أن ينتظرها في صالة الانتظار.

امتلأت الصالة بالزوّار الذين كانوا يتحادثون بصوتٍ عالٍ. تدخل الممرّضون أكثر من مرّة ليطلبوا منهم إخفاض أصواتهم، لكنّ أحدًا لم

يمتثل للطلب. كان الحاضرون يروون لبعضهم ما حدث لأقربائهم في الانفجار بطرقهم الخاصّة.

انتحى خالد جانبًا محاولًا إبعاد الأفكار السيّئة عن ذهنه. وجد ريموت كونترول متروكًا على الطاولة بين كنبتيْن، فأخذه ووقف أمام التلفاز الصغير يقلّب في محطّاته. أمضى وقته يشاهد نتفًا من أخبار، ويسمع بعض المعلومات عن أحداث اليوم، إلى أن خرجت ريم.

قالت إنَّ الأطباء أعطوا لينا بعض المهدّئات التي ستُبقيها نائمة حتّى صباح الغد، وإنّها زارت غرفتها، واطمأنّت عليها، وأضافت مؤكّدة:

– ما بها شي. جدّ.

– بس كانت حبلة.

– إي قلّي الممرّض. هيي قالتلُن أوّل ما أخدُووَا الإسعاف وبعد ما وُصلِت لهون. بس كل شي تمام. ح يعملولا شويّة فحوصات زيادة أوَّل ما تفيق لَيطمّنو أكتر. بدّك تشوفا؟

– لا. ما بقدر شوفا هيي ونايمة. لازم تكون عم تحكي. بس أهمّ شي إنّا منيحة.

– إي. هيي منيحة... بتشرب قهوة؟

قادته إلى ماكينة القهوة، من دون أن تنتظر إجابته. وقفا وراء شاب كان يستخدم الماكينة. خلال انتظارهما، أمسكت ريم بكفّ خالد وضغطت عليها، وبقيت ممسكةً بها حتّى غادر الشاب، وعادا وحيديْن.

– شو بتشرَبْ؟

– أيّ شي.

– هلّأ أنا اللي صرت إقترح عليك أي نوع قهوة بْتشرب؟

– الدنيي دولاب.

– معك نغِل؟

– ها؟

– نِغِل... نِغِل... خمسميَّة. ميتين وخمسين؟

أخرج خالد القطع المعدنية التي وجدها في جيْب بنطاله.

"تمام هيك"، قالت وهي تعيد له بعضها. دفَعَت بقطعتيْن في الماكينة، وتراجعت وانتقت (espresso)، ثمَّ كبست على الزرِّ وانتظرت الكوب الأوَّل. بعد أن انتهت الماكينة من صبِّ القهوة، انحنت ريم لترفع الفنجان، ثمَّ التفتت إلى خالد وأعطته إياه.

"روح اقعود هونيك. هلَّأ بِجِي"، قالت بلهجة آمرة.

انصرف إلى حيث أشارت له، وقعد يشرب قهوته على مهل. أخذ يراقبها وهي واقفة وحدها قرب الماكينة، حتَّى عادت إليه حاملةً كوبها، فسألته وهي تجلس:

– شو باك. ليه عم تتطلّع؟

– بدي نام معِك.

– لا ما بيصير. علِّي صوتَك بعد أكتر.

– يِسمَعو. بدِّي نام معِك.

– أها. يِسمَعو؟ حلو كتير. فيه تطوُّر. إي. وشو الجديد؟ ما كل يوم عم ننام مع بعض.

– لا. بدي نام معِك عن جدْ.

– بهالحشرة؟

– لأ ما بقصد هلَّأ. إنتي عارفة قصدي.

– إي...

– إي، وشو؟

– اشراب قهوتَك لقلّك هلَّأ. اشراب...

الانفجارات: ... لكنَّ الكارثة الحقيقية حلَّت عندما دوَّى الانفجار الثاني عند مدخل الضاحية الجنوبية. فعلى الرغم من نداءات القوى الأمنية، استمر السكان بالتجمُّع في المكان، فازداد عدد الجرحى والقتلى عند حدوث الانفجار الثاني. ولحسن الحظ، لم يكن الانفجار الثاني بمثل قوة الانفجار الأول، وإلَّا لكان عدد الشهداء أعلى. ولم تمضِ دقائق حتَّى تتَّجه الأنظار إلى الانفجار الثالث في منطقة الأشرفية، نظرًا لطبيعته السياسية، حيث أعلن عن اغتيال رئيس الشعبة الأمنية في...

قنص قطط الظريف: ... وننتقل معكم في بثٍّ مباشر إلى منطقة الظريف حيث يجوب الأهالي الشوارع حاملين بندقيات صيد بحثًا عن قطط المنطقة لقنصها. ويقول الأهالي إنَّ قطط الشوارع تنشر الأمراض بين السكان، ويستشهدون بلائحة من سكان المنطقة أُصيبوا بأعراض رئوية غريبة، وأُدخِلوا المستشفيات في حالات خطرة. وننتقل إلى هناك مع مراسلتنا...

أكوام القمامة: ... بدأت أكوام القمامة تظهر في شوارع العاصمة اللبنانية بيروت، بعد التوقف التحذيري عن العمل الذي نفَّذه عمال النظافة من جنسيات مختلفة، احتجاجًا على الضرب الذي يتعرضون له أثناء عملهم من قبل شباب لبنانيين يتهمونهم بالإتيان بالأمراض معهم، واستزلامهم لعناصر مسلَّحة متَّهمين بعمليات أمنية على الأراضي اللبنانية. وقال الناطق باسم تجمُّع العمال الأجانب السيِّد...

"تعي معي"

رجعنا مع أبو بيتر الذي استعاد عادته في الكلام، مفترضًا أنَّ قانون الصمت

الذي فرضه خالد في رحلة الذهاب إلى المستشفي لا يسري مفعوله على طريق العودة منها. عندما وصلا إلى الإستديو كان رأساهما يضجّان بحديث السائق، فاستلقيا في السرير صامتيْن.

بعد دقائق، قامت ريم، وأخرجت من البرّاد وعاءً فيه بعض شرائح الخيار. فتحته، وتركت الغطاء قرب المجلى، وعادت تجلس على حافة السرير. أدارت التلفزيون وأخذت تقلّب القنوات حتّى ثبتت على برنامج حواري سياسي، وخفضت الصوت. نهض خالد من استلقائه، وعانقها وقبّلها، لكنّها ظلّت تركّز في ما تتابعه على التلفاز، وبأكل قطع الخيار.

سألها:

– ما خبّرتيني. شفتيه؟

– تؤ.

– ليه؟

– غيَّرتْ رأيي.

– كتير منيح.

– بس ح إرجع شوفو. بحِبّْ إتقَل شوي.

– والشغل؟

– عم اشتغِل من هون. بس ح إنزل ع المكتب بالكم يوم الجايين. هيك كان اتفاقنا أصلاً بس أنا ما نفّذتو.

– أها.

– بتاكل خيار؟

– لا.

فتح خالد باب الشرفة، ووقف في الخارج. ألقى نظرة باتجاه شرفة ضرغام فلم يجده فيها، ثمّ لم تمضِ دقيقة فإذا بريم تناديه من الداخل:

– علْقو. تعا اتفرَّج.

التفت وقال لها:

- ما بدي.

خرجت تسأله:

- شو في؟
- لا. ما شي.
- إذا ما بتاكل خيار. فيه جزر. مقطعتُن وحاطتُن بالبرّاد.
- ريم...
- همم. طيب أوكي. فهمت.
- شو فهمتي؟
- اللي مضايقَك يعني. بدَّك تنام معي؟
- لا، لا.
- لكن شو؟ بدك تنام معي. ماشي. يلّا.
- إنتي ما فاهمة شي.
- فهِّمني. هيّاني فاضية تفهِّمني.
- اليوم بعد ما صار الانفجار، انتبهت إنُّو كان بمطرح كتير قريب من بيتو. وتذكّرِت إنّك كنتي ع أساس تروحي تشوفيه. رجعت متل المجنون لهون. وما لقيتِك. وما عْرِفتْ شي. ولا شي. أنا... أنا كتير مضايق. مضايق ومخنوق وخايف عليكي. وخايف من هيدا الشي اللي بيناتنا. كتير سهل عم يكون. واللي مخوِّفني أكتر إنُّو سهل. أنا أصلًا بعمري ما كنت محظوظ بهالإشيا. فمنّي فهمان شي. ولا شي.
- شو كل هالدراما هاي؟ حبيبي إنتَ.

عانقَتْه وأكملت:

- إنتَ ما تخاف من شي. أنا معك. يعني شو أسوأ شي ممكن يصير؟ منصير نْعكّز ع بعض. ما تخاف.

رفعت نظرها لتجد عجوزًا يدفع كرسيّه المدولب في الشرفة المجاورة، فابتعدت. شعرت بالإحراج. التفت خالد، فرأى ضرغام يضع صينية الشاي

أمامه على الطاولة ويبتسم لهما. حيًّا خالد العجوز، وسحب ريم إلى الداخل قائلًا: "تعي معي".

أخبرها قصة ضرغام منذ البداية، كما سمعها منه. حاول أن لا ينظر إليها وهو يستعيد تفاصيل الحكاية. وقف أمام اللوح مدقِّقًا، فلاحظ أنَّها بادرت ونظَّمت قصاصات الصحف وفق تاريخ ورودها. تتبَّع مضمون الأخبار، فخلص إلى أنَّ ترتيبها الزمني غير منطقي.

أدار التسجيلات ليكمل الحكاية، انبعث صوت ضرغام رتيبًا ومحشرجًا. جلس خالد على الكرسي، ونظر إلى ريم المستلقية على السرير. أحسَّ أنَّ القصَّة المسجَّلة مصابة بالتكلُّس، وأنَّها بلا نواقص، وبلا استطرادات، وبلا كذب. فكَّر في مَن يكون، في هذه اللحظة، يُخبر قصته لآخر. فكَّر في القصص التي تخرج من خفاء الجسد لتنفلت في المساحات بين الأشخاص، وتمنَّى أن تطير فوق المدن وتختلط، وتحل في بعضها، وتُخلَق على هيئات جديدة.

لو تظهر الأصالة من الانتحالات. لو يحدث ذلك فحسب.

تلفاز الإستديو: صرخة، فَتعقيب، فَردٌّ

صرخة أم – لقد فقدتُ ابنًا لي في انفجار العام الماضي. واليوم عندما أتابع أخبار الانفجارات التي تستهدف مناطق محدَّدة، ومجموعات بعينها، كي لا أقول طائفة، لا يمكنني إخفاء رأيي. وبصراحة مطلقة، أنا ومَن تبقى من عائلتي، غير مستعدِّين لأن ندفع ثمن سياسات الآخرين. سمُّوه خوفًا، أو انعدام كرامة، أو أنانية. سمُّوه ما شئتُم، فأنا لم أعُد أهتم إلا لسلامة عائلتي. ولهذا، باشرتُ اتِّخاذ بعض الإجراءات، فصرتُ أتفادى المرور في بعض المناطق، وأجبرتُ ابني الثاني اليوم على الاستقالة من عمله الذي كان يقع على مقربة من المنطقة التي حدث فيها الانفجاران الأوَّلان. سأكون أكثر

صراحة. من يُرِد أن يتورَّط في بلدان أخرى، فليتورَّط وحده، وليكُفَّ أذاه عنا. وليَعِش بعيدًا عنا. نحن دفعنا دمًا وشهداء خلال الحرب اللبنانية، وقمنا بواجبنا تجاه هذا الوطن لنحافظ عليه من الغرباء، لا لنصبح غرباء في بلادنا، ولا لنخدم أطرافًا خارجية. لقد آن أوان أن نستريح من دوّامة لا تؤدِّي إلّا إلى خراب عظيم. لقد تعبنا بالفعل من كل هذا.

تعقيب من ناشطة مجتمع مدني – ما سمعناه الآن من السيدة خطير للغاية. أنا بالطبع أتفهَّم مأساتها، ولستُ أزايد عليها. لكنْ، أدعوها للترفُّع عن حزنها لا لشيء، بل كي لا تتكرَّر المأساة، ولأنها أمٌّ بالدرجة الأولى. أعرف صعوبة ما أطالبها به، بل إنِّي قد أكون أوافقها على الكثير ممَّا قالته، ولكن علينا توجيه هذه الصرخة في الاتجاه الصحيح، لا أن نثمِّر النتائج السلبية للانفجارات الإرهابية التي تستهدف الجميع، وأحيل السيِّدة إلى الانفجار الثالث الذي وقع اليوم في الأشرفية. من ناحية أخرى، أوافقها في حديثها عن التورُّط السياسي. وأنا هنا أتحدَّث بشكل عامٍّ، ولا أقصد أحزابًا أو حركات أو تيارات بعينها. وهذه النقطة توصلنا إلى أنَّ المشكلة هي السياسيون أنفسهم، لا الناس الذين هم بالطبع مغلوبون على أمرهم، ويجدون أنفسهم فريسة لهذا النظام. الطبقة السياسية، كما نعرف، منتفعة من النظام الحالي، وهي تدفع إلى مزيد من التورُّط والعلاقات التي تزيد من مناعة النظام، ليُصدِّر أمرٌ واقعٌ لا يمكن تغييره. لتسمح لي هنا سيدتي الفاضلة بأن أناديها "ماما"، لأنَّها فعلًا تذكِّرني بأمِّي. لقد خُطِف في عائلتنا كلٌّ من أخي وخالي، وظلَّت والدتي حتَّى آخر أيامها تشارك في اعتصامات لجنة المتابعة للكشف عن مصير المخطوفين. ما أحاول شرحه أنَّه يمكننا أن نخرج من قلب هذه المأساة الظالمة بتغيير حقيقي. ولذا، أدعو ماما للمشاركة معنا في "المسيرة البيضاء" التي نقيمها الأحد المقبل، والتي تهدف إلى الضغط على السياسيين ليتخطَّوا خلافاتهم التافهة، وليهتمُّوا بالأولويَّات، أي حماية البلد من الانكشاف الأمني، وبالتالي حماية المواطنين. نحن ندعوهم حتَّى حلِّ مسألة الانفجارات والاغتيالات

أن ينتقلوا للعيش مثلًا في أماكن بعيدة عن المناطق السكنيَّة. فإذا كانوا هم مُستهدَفين، يمكنهم على الأقل تجنيب الناس الخطر. مسيرتنا البيضاء لا تأخذ موقفًا إلى جانب أي طرف، بل هي مسيرة إنسانية بامتياز تقول إنَّنا كلنا مستهدفون على اختلاف طوائفنا وثقافاتنا. أتمنَّى فعلًا يا ماما أن أراكِ معنا يوم الأحد.

رد نائب – أتوجَّه في البدء بتعازيَّ الخالصة للسيدة الفاضلة، وهي أمُّنا جميعًا بالمناسبة. وأتفهم ما تقوله كليًا بلا أيِّ محاذير. وهذا ليس لأنِّي أقف على الجهة نفسها من خطابها السياسي، بل لأنِّي شخص أؤمن بالمسؤولية السياسية. لقد دعونا منذ البداية زملاءنا إلى عدم التورُّط في المعارك خلف الحدود، وكنا نعرف أنَّ تدخلًا كهذا سيؤدِّي إلى ما نشهده اليوم من انكشاف أمني خطير. وأنا من هنا، أدعو من جديد إلى إعادة أبنائنا فورًا من قلب المعارك. إنَّ هذه الطريق تجعل شبابنا يدفع من حياته ودمه، ومن أجل ماذا؟ لا أجد سببًا واحدًا مقنعًا للاستمرار في درب التهلكة هذه. أودُّ أيضًا في هذه العجالة أن أنتقل إلى الحديث عن مقاربة الآنسة من المجتمع المدني الذي نحترم جهوده. أريد أن أكون صريحًا، وسأحاول ألَّا أبالغ بالتوصيف، لكنَّ مقاربات كمقاربات الآنسة هنا تكاد تبرِّر، عن غير قصد، للقاتل، وللتورُّط الذي أُفضى إلى مثل هذا القتل. لا أتهمكِ، لا أتهمكِ. يا آنسة. اسمعيني. قلتُ: "عن غير قصد". دعيني فقط أكمل. أودُّ التذكير بأنَّ كثيرًا من السياسيين اغتيلوا في الأعوام الأخيرة، فهل نساوي بين قاتلهم وبينهم فقط لأنَّهم يعملون في السياسة؟ النقطة الثانية: التفجيران الأولان اليوم استهدفا المدنيين. نعم. التورُّط خلف الحدود قد يكون كشف الوضع الأمني لمثل هكذا تفجيرات، واستدعى الارهابيين، لكن في هذين الانفجاريْن، لم يكن ثمَّة اغتيالات سياسية، ما يسقط تمامًا حجَّة الآنسة. هناك مسؤولية سياسية يتحمَّلها الطرف الذي استدرج الإرهاب، لكن لا تتحملها الطبقة السياسة كاملةً. ينبغي علينا التحلِّي بالدقَّة! ولنعُد

إلى الحجّة التي تفترض أنَّ السياسيين يعرّضون الناس للخطر، وكأنّهم ليسوا أناسًا! نحن هنا أمام نظرة خطيرة جدًا تُجرِّم، ومن غير قصد أقول من جديد، العمل السياسي وتدعو للترفُّع عنه وهو تماماً ما يؤدّي إلى الطبقة السياسية المنتفعة التي أشارت إليها الآنسة بوصفها واقعًا لا مفرَّ منه. ثمَّ سؤال أخير هنا: من ينتخب هذه الطبقة السياسية؟ فعلًا من ينتخبها؟ هل جاءت بالتزوير؟ والذين انتخبوها؟ هل هم قتلة؟ فَلْتجِبْني الآنسة.

حكاية تطفو فوق لندن – ١

روجيه، أنت تعرف نهاية قصتنا، لكنَّك لا تعرف السياق الذي أوصل إليها. صحيح أنَّك كنت هناك، لكنَّك لم تشهد الأحداث اليومية معنا. وحتّى لو سمعت القصتين منَّا، لم تكن لتفهم تمامًا ما حدث. فالمشكلة ليست فيك بقدر ما كانت فينا، نحن مَنْ أخبرناك.

الأشياء وقت حدوثها تستعصي على الشرح. يفشل الواحد منًّا في القبض على كثير من تفاصيلها وهو يحكيها، لينتهي الشرح محمومًا وانفعاليًا وغير منطقي. إنَّ الاستعجال في إخبار الآخرين بما حدث، والمحاولة السريعة لتحليله، يتخطّى وينفي حقيقة أنَّ ما فجَّر الحدث في الأساس هو التراكم البطيء البارد الذي استغرق وقتًا، وأنَّ ذلك التراكم هو أكثر ما يوصِّف المنطق الذي يحتمي به القرار الأخير، وهو نفسه الذي يُمنطق القرارات الأخيرة، ويُبرزها مقنعةً لا جدال فيها، بلا سبل أخرى لتفاديها، ويشرح الرحيل المفاجئ، فلا يعود مفاجئًا.

لكن ماذا بعد أن يمرَّ وقتٌ كافٍ لنتبصَّر فيه بما حدث؟ هل نستطيع بعدها أن نشرح؟ وإن كان ذلك صحيحًا، فَمِن أين نبدأ في وصف السقوط؟

يمكنني العودة إلى البداية، إلى اللحظة التي قلتُ فيها "نعم" لخالد، ولم أكن متأكدة من جوابي. كان في حال صعبة. تُوُفِّيَت أمه، ولم يكن يستطيع

التواصل مع أبيه. ثمَّ اختفى هذا الأخير، وبدل أن يعيد النظر في علاقته به، غضب خالد أكثر.

وكان كلَّما غضب، اكتأب أكثر. وكنتُ أنا هناك، كتفًا مثاليًّا يتّكئ عليه ويرمي فوقه كل هواجسه، وقلتُ له: "نعم".

بعد زواجنا، كان خالد رائعًا، في شهر العسل في موريشوس، أو في الفترة القصيرة التي تلَت عودتنا إلى بيروت. كأنَّه لم يكن ذلك الإنسان المكتئب الذي تعرفتُ عليه.

لكنْ، كل شيء تغيَّر فجأة.

كنتُ قد أعملتُ التغاضي عن هواجسي حتَّى اعتقدتُ أنِّي اتَّخذتُ القرار الصحيح بالزواج منه. وعندما حملتُ، فرحتُ. قلتُ إنَّ خريطة ما بدأَت ملامحها تبين لنا، وإنَّ هواجسي ليست في مطرحها، وإنَّه ما من قرار في هذه الدنيا يتَّخذه الواحد متأكدًا منه بلا خوف.

ثم فقدتُ طفلي الأول في الأسابيع الأولى لحملي، وبدأ الهلع.

لم يكن خالد داعمًا على الإطلاق. لكنِّي لا أريد أن أظلمه. فهو لم يتقصَّد ما فعله، أو ما لم يفعله. أنا التي كنتُ داخل الخوف، أمَّا هو فلم يتعاطَ مع الموضوع كحدث استثنائي، وكان واثقًا أنَّ الأمر عادي، وأنِّي سأحمل مرَّة أخرى.

كنتُ أودُّ فعلًا تصديقه. وقبل حملي الثاني، حاولتُ تنحية الهاجس الذي أطبق عليَّ من جديد، ولكنِ انتهيتُ باستبدال فكرة القرار الخاطئ بالزواج منه، بفكرة أكثر دكونة، هي أنَّ جسمي يقتل الأطفال في داخلي.

لا أعرف من أين أتيتُ بهذه الفكرة، وعندما تحدَّثتُ فيها مع رفيقاتي، كثيرات منهنَّ قلنَ إنَّ هذه الأفكار أفكار عادية خطرَتْ لبعضهنَّ في بدايات زيجاتهنَّ، ومنهنَّ من استفضنَ أكثر وشرحنَ لي بالتفصيل أفكارهنَّ المعتمة التي كانت تراودهن.

لكنَّ أيًّا من هذه النقاشات المطمئِنة لم تكن تساعدني. كنتُ متأكدة

أنّ الأمر عندي مختلف عنهن. وكنتُ خائفة أن يتكرّر الأمر كله لدرجة أني كنت أتهرّب من الجنس مع خالد. أمّا هو فلم يغضب منّي، بل إنّه لم يلاحظ أصلًا أني أتهرّب منه، وتلك كانت المشكلة الأساسية في علاقتنا، أنّه لم يكن يلاحظ، أنّي كنتُ كتفًا له أيام اكتئابه، وبقيتُ كتفًا له أيام خوفي. هل كان يثق بي؟ لا. ليست الثقة هي التوصيف الأصح هنا. كانت المشكلة أنّي كنت موجودة له، وكنتُ غير موجودة لي على الإطلاق.

باختصار، لقد انتشلتُه ووقعْتُ.

غرفة الانتظار

أيقظَتْهُ صباحًا بلكزة في كتفه، فاستيقظ وعيناه نصف مغمضتيْن، وسألها: "شو في؟"

"قوم. بدنا نروح عند لينا"، قالت وهي تقدّم له كوبًا من القهوة.

"لَهْ لَهْ. أدّيه الساعة؟"، انتفض مسرعًا.

"روق. بعدا الساعة سبعة. ما بْيِفتحو الزيارات قبل التسعة"، ردَّت وهي تعيد تقديم الكوب إليه.

"بالمناسبة، اشتغل شوي ع حالك. هلكتني كل الليل!"، أضافَت قاصدةً عضوه المنتصب.

"قلتلِّك إنُّو بدّي نام معكِ!"، ردَّ وهو يشرب من الكوب.

"ممم... طيبة القهوة. أكيد ما كنتي تشربي قهوة قبل ما تعرفيني؟"، سألها وهو يقف عند عتبة المطبخ.

"أنا قلت ما بشرب. ما قلت ما بعرف أعمل"، صحّحَت له وهي تكمل عملها.

"أها. طيّب. أنا اللي ح أعمل الترويقة اليوم"، قال وهو يفتح البرّاد قربها.

"فوت غسِّل. اعمول أي شي قبل"، دفعَته باتِّجاه الحمَّام.

"طيِّب. طيِّب"، أعطاها الكوب، وباشر يشلح التي – شيرت والشورت، ثمَّ وقف عاريًا إلا من لباسه الداخلي، وقبل أن يخلعه كانت ريم قد أغلقَت باب الحمَّام في وجهه.

في المستشفى، قالوا لهما إنَّ لينا لم تستيقظ بعد، ودعوهما للانتظار. لم تكن الصالة مزدحمة كما في اليوم السابق، لكنها احتوَت على عدد لا بأس به من الزائرين، وكان التلفاز مضاءً على بثٍّ لبرنامج صباحي. أخذ خالد يناكف ريم، ويضحكان. ظلَّا هكذا لنصف ساعة، ثمَّ نهضت ريم، وقالت إنَّها ستدخل لتتحدَّث مع الممرِّضين من جديد. انتظرها خالد وهو يتصفَّح صحيفة وجدها بجانبه، لكنَّه سرعان ما عدل عن خياره وأعادها إلى مكانها، عندما لاحظ حركة غريبة في الصالة.

كانت الناس تقوم من مقاعدها وتتحلَّق حول التلفاز، فقام من كرسيِّه ولحق بهم. في الشاشة، رأى خالد رايا وأنيسا، ثمَّ ظهرت كنزي بعدهما. كانت الفنانات متأنِّقات كعادتهن. سأل خالد العجوز الواقف بجانبه عمَّا يحدث، فاكتفى الأخير بالقول إنَّ البرنامج الصباحي قُطع فجأة ليظهر هذا البثُّ المباشر.

بدأَت رايا تتكلم، وتبعتها أنيسا. تحدَّثَتا في المواضيع نفسها. قالتا أشياء عن الوطن والوحدة الوطنية ودعم المؤسسات والتكاتف في مواجهة الصعاب. وبينما كانت أنيسا تتحدَّث، كانت ريم قد عادت، وأعلمت خالد أنَّ لينا استيقظت، وأنَّ باستطاعتهما رؤيتها.

"طب روحي إنتي شوفيها. أنا هلَّأ بلحقك"، همس خالد من دون أن يلتفت.

"أنا ما بعرفا كتير. شايفتا مرَّة ع السريع بمناسبة اجتماعية عندكن. بفضِّل نشوفا سوا. مش أحسن؟"، قالت.

"شو عم يصير؟"، سألت ريم بعد أن لاحظت انهماك الجميع في

مشاهدة التلفاز.

في تلك اللحظة، بدأت كنزي حديثها.

تلفاز المستشفى: "ما تحلق لبلدك"

تفاجأ اللبنانيون بقطع أربع قنوات تلفزيونية خاصة لبثّها البرامجي الأرضي، ونقلها لبثّ مباشر جمع الفنانات الشهيرات الثلاث: رايا وكنزي وأنيسا.

وظهرت الفنانات في كامل أناقتهنّ، وقمْنَ بدايةً بتحية المشاهدين، قبل أن تُلقي كل منهنّ خطابًا قصيرًا بالعامية. وتراوحت مواضيع الخطابات بين التأكيد على أهمية الوحدة الوطنية، والوقوف صفًّا واحدًا في وجه التحديات التي تواجه البلد، وضرورة التوقف عن المناكفات السياسية الداخلية، ودعم المؤسسات الرسمية في ظل الفراغ الحكومي وقرب الاستحقاق الرئاسي.

وبعد الانتهاء من الخطابات، توسَّع كادر التصوير فجأة ودخل ثلاثة من أهمّ مصففي الشعر في لبنان، ليقفوا وراء الفنانات الثلاث، ويقوموا بحلق شعورهنّ بالماكينات.

ثمَّ شرحت الفنانات الثلاثة، وهنَّ حليقات الشعر، أنَّ مبادرتهن المفاجئة هذه ليست إلا خطوة رمزية ستُستتبَع في الأيام المقبلة بحملة إعلانات ولقاءات تلفزيونية وشعبية تحت عنوان: "ما تحلق لبلدك".

خارج مجال الرؤية

وجدا لينا مستلقية في السرير. اقترب خالد منها، ففتحَت ذراعيْها له، وأخذت تبكي. انحنى يقبّلها، وبقي يحضنها لدقيقة ويواسيها، ثمَّ قدَّم إليها ريم: "ريم. اللي حكيتِك عنّا".

جفّفَت لينا دمعها بمحرمة ورقية كانت معها واعتذرت ضاحكة: "ولاد نحنا، معليش ما تواخذينا".

"نحنا يمكن متقابلين مرّة أو مرّتين قبل. صح؟"، سألت لينا ريم، وهي تمدُّ يدها لتسلّم عليها.

"مظبوط"، ردّت ريم ثمّ سحبت كرسيًّا وجلسَت قرب خالد.

ساد الصمت لثوانٍ، فحاول خالد تدارك الأمر بأن بادر لسؤال لينا:

– موجوعة؟

– لا. شوية رضوض وكم جلف متل ما شايف.

– منيح اللي قُضْيِت بهيك.

– لولا الشاب اللي طلعني، ما كانت قُضيِت ع هيك أبدًا.

– عْرفتي مين هوي؟

– لا. ما قلي اسمو. ما كان حدا فاضي. بس مذكّرة وجُّو... وما بعرف اذا بعدو طيّب. لأنُّو... ركض مرّة تانية لجوّة. وبعدين صار تاني انفجار.

– منفتّش عليه.

– إن شا الله ما يكون صرلو شي.

لاحظت لينا أنّ ريم لم تكن تشارك في الحديث، فتوجّهَت إليها بالحديث وهي تقصد خالد:

– عم يعذّبك؟

– ما في منّو.

– مش لأنو قاعد هون تقولي هيك. ما تخافي. قولي. بِدْعمِك أنا.

– ما عندي شك.

تدخّل خالد قائلًا:

– ع أساس أنا مش ناقصني إلا إنتو الجوز تِتّفقو عليّي.

قالت لينا موضّحة لريم:

– شايفة؟ هيك مقضّاها يلعب دور الضحية. ما تصدّقيه.

ضحكوا، وتوقَّف الحديث من جديد للحظات، قبل أن يعود خالد ليسأل لينا:

– شفتي شو عَمَلو الصبايا؟

– أيَّ صبايا؟

– اللي طلعو مَعِك بالبرنامج. كنزي وأنيسا وشو اسمها التالتة.

– رايا؟

– إي.

– شو عَمَلو؟ قَصُّو شعرن؟

– حلقوه! ع الزيرو!

– قلتلِّن It's a lousy campaign. بس المحطة أصرَّت. قال لازم يستفيدو من طلعتن بالبرنامج ويِبنو عليها. انطور لتشوف البانويَات بالشوارع. شي بيفرِّط من الضحك!

شعرَت ريم أنَّ الحديث خارج السياق هذا سببه وجودها، فقرَّرَت تركهما وحدهما ليتحدَّثا. حمَلَت شنطتها، وقالت إنَّها ستدخِّن سيجارة في الشرفة وتعود. نظر خالد إليها. كان يعرف أنَّها تكذب، لكنَّه لم يُرد إحراجها.

"دقيقتين وبرجع"، قالت.

في الشرفة، وقفت ريم تحدِّق في فناء المستشفى، ثمَّ أبعدت ناظريها وتابعت رتل السيارات الذي لا ينتهي. ازدحم الشارع دقيقةً ثمَّ فرغ عند تغيُّر لون الإشارة. رفعت ريم عينيها إلى السماء، ولاحقت سرب الحمام الذي يطير بين المباني. ولمَّا صارت التفاصيل تتكرَّر، لم يبقَ لها لتقتل مللها إلا خيار التلصُّص على ما يحدث داخل الغرفة عبر شقوق الستارة.

لم يكن ممكنًا الاستماع إلى حديثهما. منع الباب الزجاجي الأصوات الخفيضة، وتكفَّلَت ضجة الشارع بقمع الأصوات الأعلى التي كان من الممكن أن تهرب من الغلق غير المحكم للباب. أخذت ريم تتابع الطريقة

التي يتكلم بها خالد ويحني فيها رقبته، وكيف يتحرك جسمه العلوي وهو جالس فوق الكرسي، وكيف يستخدم يدَيْه. كانت متعة لها أن تراه يتحرك بلا صوت، وأن يقول ما لا تستطيع سماعه، وأن تكتفي بتخيُّل النواقص وأن تضيفها بنفسها.

خالد يحضن لينا من جديد، ولينا تستفيض في بكائها. لينا تضطلع بالحديث. خالد يتراجع إلى الوراء، ويعود بعلبة المحارم. يعطيها لها، ويجلس ممسكًا بيدها. لينا تتحدَّث قليلًا، خالد يتكلَّم باستفاضة. لينا تقاطع حديثه، وترفع يدها، وتشير له إلى شيء ليس في مجال الرؤية. خالد يختفي للحظات، ثم يظهر يحمل هاتفًا. يقول شيئًا للينا، ولينا تجيبه. تشير بيدها، ويبدو أنَّها تعيد الطلب منه، فيرفع خالد الهاتف إلى أذنه، ويتحدث.

ينبعث صوت خبط قوي من الشارع، ويتبعه انطلاق صفارات الإنذار، فتترك ريم التلصُّص، وتلتفت إلى الشارع، لتجد أنَّ سيارتيْن قد ارتطمتا ببعضهما عند التقاطع، والناس يتجمَّعون حولهما. تمرُّ خمس دقائق أخرى، ولا يعود في المشهد شيٌّ جديدٌ يُذكَر، فتقرِّر ريم العودة للغرفة.

"ما خطر ع بالي. أوقات روجيه بيحكيني من المكتب أو من..."، كانت لينا تقول بنبرة اعتذارية، قبل أن تتوقَّف مع دخول ريم.

"ولا يهمِّك. ما صار شي"، ردَّ خالد والضيق يبدو على وجهه.

"أنا صار لازم إمشي. امتى ح يطلِّعوكي؟"، تابع منهيًا الحديث في الموضوع.

"بعد بكرة بالكتير. بدِّي أعمل شوية فحوصات ع الحمل"، أجابته لينا.

حملت ريم حقيبتها واستعدَّت لمرافقته، لكنَّ لينا أضافت: "خلِّي ريم معي شوي. ح إزهَق لحالي. بردِّلك ياها عشيَّة".

نظر خالد إليها، ثمَّ إلى ريم التي وضعت شنطتها على الكرسي وقالت:

"أكيد... أكيد. ما عندي شي".

"طيب"، قال خالد وهو ينحني مودعًا لينا، فهمست شيئًا في أذنه، ربت بعده على كفها بأن لا مشكلة.

"ما تِتْفقو عليّي!"، قال خالد وهو يكمل طريقه إلى الخارج من دون أن ينتظر ردَّهما.

راديو ضرغام: فيديو الأونيسكو

بعد تراجع وزارة الصحة اللبنانيّة عن إصدار تقريرها الذي وعدَت به عن الحوادث المرورية، ومن دون إبداء الأسباب، عادت القضية إلى الواجهة من جديد. فقد بثَّت قناة تلفزيونية لبنانية، في مستهلِّ نشرة الظهيرة، تقريرًا قالت إنَّه حصري لحادث الأونيسكو الكبير الذي وقع الشهر الفائت، وراح ضحيَّته أربعة قتلى وأكثر من عشرة جرحى.

وتضمَّن التقرير مونتاج لفيديوهات مأخوذة من كاميرات مختلفة من تقاطع الأونيسكو. وعُرِضَ عبر تقطيع الشاشة، أربعة مشاهد تظهر في ثلاثة منها سيارات تسير بسرعة عادية في الوقت نفسه، كما يوضِّح الوقت الرقمي المستلُّ من فيديوهات الكاميرات، قبل اندفاع السيارات بسرعات جنونية نحو التقاطع، لترتطم ببعضها بشكل يوضِّحه الفيديو الرابع والأخير.

وتغذِّي فرضية تزامن اندفاع السيارات على هذا النحو النظريات حول وباء غامض ينتشر في العاصمة اللبنانية، خصوصًا مع كون هذا الحادث واحدًا من حوادث مرورية متشابهة كثيرة وقعت في الآونة الأخيرة.

شعرة في المغسلة

لم يُرِد خالد الذهاب إلى ضرغام من دون أن تكون ريم معه. لقد سمعت

ما فات من القصة وصار بإمكانها الانضمام للجلسات. بقي في الإستديو، واستلقى على السرير، وحاول النوم، لكنّه فشل. قام وفتح البراد، وأخذ يفتش في الأوعية الجديدة التي رصّتها ريم. كان يفتح وعاءً وينظر في محتواه، ثم يغلق الغطاء، ويعيد الوعاء إلى مكانه على الرف. أخيراً، فتح وعاءً ليجد فيه بعض اللوز المقشّر، فحمله ورجع إلى السرير، وأدار التلفاز وأخذ يأكل. قلّب بين المحطات، شاهد بعض الإعادات، وتفرّج على خناقة البارحة، ثمّ تابع تقريرًا إخباريًا.

بعدما كان يأكل اللوز بسرعة، صار يبطئ، ثمّ وجد نفسه ينظر إلى ما تبقى في الوعاء، ولم يفهم لماذا يأكل، فهو لا يشعر بالجوع، ولا يحب اللوز أصلًا. ترك الوعاء، وقام ليبصق ما في فمه في مغسلة الحمام، ويتمضمض.

في المستشفى، رنّ هاتف لينا، فقام خالد ليأتيَها به. سألَته من يتّصل بها، فأجابها أنه رقم من الخارج. "الكود ٤٤+"، ردّ. "هيدا من لندن. بيكون روجيه عم يتّصل من كرت"، أضافت طالبةً منه أن يردّ.

رفض خالد بدايةً طلبها وارتبك سائلًا: "شو بدّي قلّو؟ شو بدّي قلّو عنّك!".

"ما أنا ما بدي إحكيه وأنا هيك. ما قلتلّو شو صار، ومش ح أعرف ما قلّو إذا حكيتو هلّأ. يلّا ردّ!"، ضغطَته.

كان الهاتف يُلحّ رنينًا، ولم يكن هناك وقت للجدال.

ردّ خالد وأراد أن يقول "آلو"، لكنّ صوت سهى على الطرف الآخر باغَتَه.

"آلو. لينا؟ آلو؟ سامعتيني؟"، أخذت سهى تتحدّث.

لم يقفل خالد السمّاعة واكتفى بالصمت. لم يردّ على إشارات لينا المستفهمة عن هوية المتصل أو عن سبب عدم ردّه، وانتظر حتّى أنهت سهى كلامها، ومعه الاتصال، ثم أطفأ الهاتف، ورماه في حضن لينا.

"كانت سهى، مش روجيه"، أجابها بانزعاج واضح.

أخذت لينا تعتذر منه، بينما كان يتجوَّل في الغرفة متوتِّرًا.

"ما كان بدِّي إسمع صوتا. مش هلأ يعني. الإشيا عم تظبط. الإشيا عم تظبط وهيدا. هيدا اللي صار شي مش منيح. شي خرا. كنت حَسَمْت الموضوع. وهلأ مش عارف شو صار بس رْجِعت سْمِعت صوتا"، انفجر غاضبًا فيها.

يجلس خالد على كرسي الحمَّام، ولا يفهم لِمَ هو جالس عليه. يقوم ليغسل وجهه من جديد. يرمي الماء على وجهه، ويجد نفسه ينظر إلى حوض المغسلة، فتلفت نظره شعرة طويلة ملتصقة بقعره.

يتعرف عليها من اللون فورًا: شعرة من رأس ريم.

يفتح الحنفيَّة فوقها. تتململ الشعرة قليلاً في نصفها السفلي لكنها لا تسلك طريقها نحو البالوعة. يحاول توجيه الماء نحوها، لكنَّ الأمر يحدث ثانيةً، تململُ في النصف السفلي فحسب. لا يجد مفرًا من محاولة التقاطها بأصبعيْه. ينجح بعد محاولتيْن، ثمَّ يضعها فوق فم البالوعة بعد أن تلتصق بأصبعيْه وتأبى مغادرتهما. يفتح الماء فوقها لثوانٍ، ثمَّ يغلَق الحنفية، ولا يدقِّق في ما إذا كان قد نجح في مهمته.

يعود إلى الغرفة ويتَّصل بلينا، فتُجيبه فورًا. تسأله إن كان بخير، ويبدو من صوتها التفاجؤ من اتصاله. يسألها عن ريم، فتقول له إنَّها جالسة قربها، وإنَّ كل شيء على ما يرام، وتستفهم منه إن كان يريد محادثتها. يردُّ أنْ لا، ويسألها إن كانت تضعه على مكبِّر الصوت. "لأ"، تقول. يطلب منها رقم كنزي، ويطلب منها أن تتصرف بطبيعية، وأن تقول لريم في حال سألَتْها إنَّه طلب منها رقم روجيه في لندن.

تصمت لينا لحظة، وتقول إنَّها سترسل الرقم له في رسالة نصِّية.

بعد ثوانٍ، تصله رسالة. يفتحها فيجد الرقم. يضغط عليه، ويتَّصل بكنزي.

تلفاز خالد: ملاحق وفيّات

في خطوة لافتة، قامت ثلاث من كبريات الصحف اللبنانية بإصدار ملاحق يومية مستقلة متخصِّصة بإعلانات الوفيّات، بعدما كانت تفرد صفحة أو صفحتيْن لها فقط من الصفحات الداخلية.

وبرَّرَت الصحف الثلاث قرارها بالرغبة في تحسين الخدمة، عبر إتاحة المجال لشتى أنواع الإعلانات المتعلقة بالموت والاحتفالات التذكارية بالمفقودين، وطبع صور الموتى والمفقودين بالألوان، فضلًا عن تقديم أشكال وأحجام مختلفة من هذه الإعلانات للقارئ. لكنَّ مواقع إخبارية عدَّة ربطت قرار الصحف بالأخبار المتناقلة عن ارتفاع معدلات الموت اليومية في لبنان.

وبدأت تسود في العاصمة بيروت حالة من الهلع مع انتشار أخبار عن حوادث سير مجهولة الأسباب. ويتزايد عدد الموتى بين صفوف الشباب المتطوعين للمشاركة في معارك ما بعد الحدود، إذ قلَّما تخلو قرية لبنانية يوميًّا من جنازة أو جنازتيْن لشباب تُلَفُّ أكفانهم بصُوَرهم وبالأعلام الحزبية والعلم اللبناني.

في انتظار كنزي

لم تُجِب من المرَّة الأولى، وكان عليه أن يتصل بها ثلاث مرَّات قبل أن ترد.

"مرحبا كنزي. معِك خالد"، أجابها. صمتَت كنزي قليلًا، فعاجلها خالد من جديد: "خالد اللي بِستيه بمكتب لينا". "إي"، ردَّت باقتضاب. "لازم شوفِك"، قال خالد.

ذكرَت له شيئًا عن عدم قدرتها على الظهور هذه الأيام في مكان عام بلا تخطيط مُسبَق بسبب انتشار الحملة. قالت إنَّ كثيرين سيتعرَّفون عليها

برأسها الحليقة. ردَّ عليها خالد بأنَّه يمكنهما الالتقاء في شقَّة مغلقة، وأنَّ في استطاعتها القدوم متخفِّية فتغطِّي رأسها بقبُّعة وتلبس نظارات سوداء، ثمَّ عرض عليها أن يرسل إليها سائق تاكسي ليقلَّها.

"السيَّارة مش مشكلة. عندي سوَّاق. بس بدي إفهم. ليه بدَّك تشوفني؟ بعتقد إني شرحتلَّك وقتا لمَّا..."، قالت.

"فهمان، فهمان. بدي بس آخد رأيك بموضوع"، قاطعها.

"بس أنا بعدني مش فهمانة"، أصرَّت.

"وأنا ما كنت فهمان لما طلبتي تبوسيني، وتركتِك تبوسيني"، أنهى الجدال.

"طيِّب. وين وأيَّ ساعة؟"، قالت بعد أن صمتَت للحظة.

لم يرِد خالد أن يستقبلها في الإستديو الخاص به، مقدِّرًا أنَّ ريم قد تعود في أي ساعة، فوجد نفسه يعطيها عنوان شقَّة سهى. ثمَّ ترك الإستديو فورًا، واتَّصل بأبو بيتر، فأقلَّه الأخير إلى الشقَّة.

فتح باب الشقَّة، ودخل. أخذ يتجوَّل كما يفعل كلَّ مرَّة. تأمَّل كل شيء من جديد. الأسطوانات. الكتب. المطبخ. وعاء القطِّ الفارغ. الكنبات. أجهزة الريموت كونترول المصفوفة قرب بعضها على الطاولة.

رفع ريموت كنترول التلفزيون، وأداره. فتح باب الغرفة الصغيرة ووقف عند عتبتها. حدَّق للحظات في خزانة الطفل، ثمَّ خطا خطوات بطيئة داخل الغرفة. كانت كل خطوة بألف. وقف قرب الخزانة، ومد يده ليفتح إحدى درفتَيْها. وجد ملابس للطفل اشترتها سهى، وأخرى أهدتها لهما لينا.

حمل منشفة ونظر إليها، ثمَّ طواها وأعادها إلى الرف، وأغلق الخزانة، وعاد إلى غرفة الجلوس.

وقف عند باب الشرفة، فتحه وخرج وحاذر هذه المرَّة أن يغلقه وراءه. فقد العادة، أم تخلَّص منها، أم هو مجرَّد انتباه؟

اتّكأ على الدرابزين وتفقّد الزرع. بدا ذابلًا أكثر من المرّة الماضية. مرّر كفّه بين الأوراق، فتفتّتت بين أصابعه. وقع الفتات إلى الأسفل، فتابع وقوعه، حتّى اختفى، ثمّ انتقل يتابع الواقفين من الجيران في الشرفات إلى أن وصل إلى شرفة كريم.

في اللحظة التي كان خالد يفكّر فيها أنّه لم يرَ الولد منذ المرّة الماضية، ظهر كريم في الشرفة، وأخذ يؤشّر لخالد، فلوّح الأخير بكفّه مسلّمًا وهو يبتسم. قام كريم بإشارات تعني أنّه سيأتي إليه، وقبل أن يشير له خالد بلا، كان الولد قد اختفى من جديد داخل الشقّة.

عاد خالد إلى الداخل، وأغلق باب الشرفة وراءه. وقف قليلًا أمام التلفاز يتابع مقابلة. رأى انعكاس وجهه في زجاج غطاء الطاولة أمامه، فشعر أنّ عليه غسل وجهه وتصفيف شعره قبل وصول كنزي. قام إلى الحمّام، وغسل وجهه، ثمّ صفّف شعره بمشطه الأسود القديم الذي وجده في الخزانة الصغيرة.

رنّ جرس البيت. نظر في المرآة، ليتأكّد أنّ هيئته مقبولة. فتح الخزانة ليعيد المشط إلى الخزانة، لكنْ تراجع وآثر أن يأخذه معه، فدسّه في جيب بنطاله، وخرج.

في مغسلة أخرى بشقّة في الأشرفية، صمدت شعرة رأس فوق فوهة بالوعة.

حكاية تطفو فوق لندن – ٢

لا أعرف كيف حملتُ ثانيةً.

كنتُ أفتح الروزنامة في مفكّرتي وأسجّل. أعرف متى تأتيني الدورة، ومتى أكون في مرحلة الإباضة، ومتى لا أكون. تعلّمتُ أن أفعل ذلك مذ كنتُ مراهقة، ولم أخطئ يومًا في الحساب أو التوقّع.

لكنَّ الأمر حدث فَحَسْب. حملْتُ من خالد. ومن جديد، وجدتُ نفسي في الدوَّامة. لكنِّي هذه المرَّة قرَّرتُ مواجهة هواجسي، فصرتُ أبالغ بالاعتناء بنفسي، حتَّى إنِّي بقيتُ في المنزل طيلة الأسابيع الأولى، لا أتحرَّك.

فرح خالد، وردَّد: "شفتي؟ قلتلِّك!" كان مقتنعًا من عادية ما حدث قبلها، لدرجة أنه استهجن مبالغتي بالاعتناء بنفسي.

لكنْ، سرعان ما تكرَّر الأمر، وفقدتُ الطفل من جديد...

يا إلهي. كانت ليلة لا تنسى. استيقظتُ في منتصف الليل وأنا أنزف. هرع خالد بي إلى مستشفى الجامعة الأميركيَّة، لكنَّنا عندما وصلنا، كان الأمر قد انتهى.

بعد الفقد الثاني، صار خالد ودودًا للغاية.

هل كان يشعر بالذنب؟ هل أحسَّ أنَّ عليه أن يكون داعمًا أكثر، وألَّا يقلِّل من جدية مخاوفي؟ لا أعرف. لكنِّي أعرف أنَّنا حتَّى عندما كنا أصدقاء لم تكن تصرفاته على هذا النحو. كان يعاملني كطفلة، ويبالغ بالاهتمام بطلباتي. يتَّصل بي عندما أتأخَّر في العمل. يخرج من الغرفة مسرعًا كلما سمع صوتًا. يطلب منِّي أن أترك صحفه، والطاولات، والأسطوانات ويقول إنَّه سينظِّف كل شيء بنفسه ويرتِّبه.

أنا في حالتي النفسية وقتها لم أكن قادرة حتَّى على الصراخ في وجهه. لكنَّ لطفه بلغ درجة لم يعُد معها يطلب النوم معي على الإطلاق. كان يكتفي بالقُبَل، ويرتبك عندما أقوم بأي حركة لاستمالته، فيجيب على ملاطفاتي بردود فعل مقفلة بلا استطرادات، ولا يبادر.

وبالرغم من أنِّي لم أكن ميالة إلى تجربة حمل ثالثة، لكنِّي كنتُ خائفة في الوقت نفسه أن أبقى بلا أطفال. كنتُ أريد طفلًا منه، طفلًا واحدًا فقط. ووددتُ أن أحسم الأمر، لمرَّة واحدة، وللأبد.

لكنَّ ما حدث بعدها أَمَاتَ هذه الفكرة تمامًا.

تلفاز شقّة سهى: مقابلة

– هل يمكن الافتراض أنّ المواطنين اللبنانيين يعانون من مرض نفسي عام؟

– لا يمكن الجزم بوجود مرض نفسي عام إلا بعد أبحاث تفصيلية تشمل عينات عشوائية، من مناطق مختلفة، وفي نطاق زمني محدد.

– ما الذي تعنيه بالمناطق المختلفة؟ هل تقصد بها: مناطق عدة تسكنها طوائف مختلفة؟

– عذرًا، لكن كيف استطعتِ أن تتوصّلي إلى مثل هذه الخلاصة؟

– أنا ألعب دور محامية الشيطان هنا، وعليّ تمثيل وجهة النظر الغائبة.

– لكنّني لستُ أفهم ما علاقة هذا بموضوعنا الأساسي؟

– هناك علاقة بالطّبع. وأنا لا أبتكر الأمر من أجل الإثارة. مثلًا. هذا تحقيق نُشِر الأسبوع الماضي عن قدرة الانسان على التحكم بعمل أعضائه البشرية، وصولًا إلى استطاعته إيقاف بعض المهام الحيوية الأساسية في الجسم، ممّا قد يودّي إلى الموت. ويفرد التحقيق جانبًا لا بأس به للأسباب النفسية التي قد تعاظم من هذه القدرة. هنا بيت القصيد!

– أين التحقيق؟

– نراه على الشاشة معًا.

– مع كلّ احترامي، هذه معلومات عن دراسة محدودة قام بها طلاب جامعيون. وهي ليست بحثًا علميًا معتمَدًا. ثمّ إنّ هذا ليس تحقيقًا ولا يحتوي أيَّ معلومات طبية. هذا خبر وارد في صفحة المنوعات.

– أنا أسأل في المضمون، لا في الشكليّات. هل يمكن، مثلًا، القول إنّ حوادث السير الأخيرة سببها مرض نفسي عام يدفع اللبنانيين إلى الانتحار؟ وكيف تفسّر الارتفاع المطّرد للطلب على المهدّئات؟ وماذا عن الأخبار

المنتشرة عن ارتفاع عدد الوفيّات بشكل غير طبيعي وبلا أسباب؟ أعود لسؤالي الأساسي: هل من الممكن نظريًا أن يتحكّم الإنسان في عمل أعضاء جسمه. نعم أم لا؟

وصول كنزي

فتح خالد الباب فوجد كريم واقفًا عنده. سلّم عليه الولد، ودخل، ثمّ جلس على الكنبة يشاهد التلفاز، قبل أن يلتفت داعيًا خالد إلى إغلاق الباب: "ليش واقف هيك. اتفضّل اقعود. دوبنا واصلين".

"كلّو علقان مع بعضو. ماعم يلحّق الواحد عليكن. هلّأ نحنا علقانين عنا. مو إنّو مو علقانين. بس إنتو هون غير"، أضاف.

جمد خالد في مكانه لا يعرف كيف يتصرّف معه. جلس قرب الولد وأطفأ التلفاز بالريموت. سأله الولد مستغربًا:

– شو في؟ فيك شي؟

– لا ما ب...

– ريم منيحة؟

– منيحة ريم.

– وسهى، كيفا؟ رح ترجع. مو؟

– كريم. لازم تروح ع البيت.

– أنا رَحْ روح. رَحْ روح. بس بدّي ياك تساعدني. أنا ساعدتك هديك المرّة.

– بساعدك. بس مش هلّأ. هلّأ لازم تفلّ. أنا بمرق عندك ع البيت بعد ما خلّص.

أوصله إلى المدخل، وفتح الباب. وجدا كنزي واقفة هناك تخلع نظارتها وتزيل القبعة عن رأسها، وتكاد ترنّ الجرس. تعرّف عليها كريم مباشرةً،

واستبدَّت به الحماسة، فصار يكرِّر السؤال ما إذا كانت كنزي هي التي تغنّي. بدا على كنزي التوتُّر، فطلب منها خالد أن تدخل، إذ كان صياح كريم قد بدأ يترك صدى في بيت الدرج.

أغلق خالد الباب وراءها. رنَّ هاتفه المتروك على الطاولة، منذرًا بوصول رسالة نصية، وخرج الصوت نفسه من من حقيبة كنزي ومن جيب كريم.

انحنى خالد يقنع الولد بالرّحيل.

– كريم. بدِّي ياك ترجع ع البيت وما تقول لحدا إنَّك شفت كنزي هون.

– لا. الله يخليك! خليني هون. ما بحكي.

– كريم!

– طيب بوقف ع البلكون، وبطلّع بس.

– لازم تروح ع البيت.

– ما إنتو أصلاً ما رح تَعملو شي. رَحْ تِحكو بس.

نظر خالد إلى كنزي، وضمَّ شفتَيْه معتذرًا، فأشارت بحركه من يدها أن يفعل ما يراه مناسبًا.

"بس ما بتقول لحدا، وما بتعمل شي لحد ما نخلِّص حكي"، قال خالد للولد.

لم ينتظره كريم خالد ليكمل جملته، فانطلق نحو الشرفة بعد أن قال له: "لِيك بس خَلِّيا تغيِّر قَعدتا. لإقدر شوفا من هون".

رافقه خالد ثمَّ أغلق باب الشرفة عليه وعاد لكنزي.

من مكانه وراء الباب، رأى كريم خالد ينحني على كنزي، ويتحدَّث معها مشيرًا إليه، فقامت كنزي لتجلس على الكنبة المقابلة، ورفعت إبهامها في وجه كريم تتأكَّد منه إن كانت قعدتها ملائمة، فأشار كريم لها بالموافقة.

ما قالَتهُ كنزي

"مش شايف إنُّو مرق وقت إنَّك تسأل هيك سؤال؟ إنت عن جدّ عم تسأل؟ وبدَّك جواب ليه بستَك؟ هيك سؤال ما عندي إلو جواب واحد. يعني بقدّر خبِّرَك بالأول إنِّي اتطلَّقت من كم أسبوع، وإنِّي فايتة مع جوزي بدعاوى حضانة. بدُّو ياخد منِّي الولاد، وعم يحاول يثبت إنُّن ما بيسوى يِسْكنو معي لأني فنَّانة وبغنِّي وكل هالإشيا. إي ما تتفاجأ. في بعد هيك شي. اضطرَّيت وقِّف كل الأغاني والفيديو كليبات الجداد عشان الرقص والتياب وهيك. وأنا أصلًا ما كنت عملت هالحملة لو ما أخدت approval من المحامي. بس هوِّي تحمَّس لمَّا خبّرتو، وصار يقلي أكيد! وإنُّو هالحملة هيي اللي ح تربِّحنا القضية. قال إذا جوزي عم يقول إنِّي مش مؤهلة لربِّي الولاد، فيني بالحملة نفرجي القاضي أديش أنا بأثِّر إيجابيًّا بالشأن العام. يعني بصراحة، أنا قبلت أعمل الحملة بسبب رد فعل المحامي. وقلت كمان بالمرَّة بنهي الخناقة مع رايا وأنيسا. إنُّو خلَص. اسودّْ قلبي. كل يوم تلفونات وصحافة وحكي بنفس الموضوع. وأنا أصلًا ما إلي علاقة بالمشكل! غْلطتْ مرَّة وقِلتْ إنُّو ما سمعت بعد الـ"سي دي" الجديد لواحدة منن وفَلَتتْ القصَّة. فهيك صار. ليك شو كان سؤالَك؟ آه إيه! هيداك النهار، اللي شفتَك فيه، بَعَتلي جوزي واحد ليكبّْ على وجّي ميّة نار. إي والله. بس مسكوه ع آخر لحظة. ليش بستَك؟ إنو هيك. كنت تعبانة. وكان بدِّي بوس حدا. C'est tout! جدّْ هيك. عْلِقتْ تحت المكتب بين العالم، ولمَّا وْصلتْ ع المكتب، كنت إنتَ أول واحد بلاقيه بوجّي. وكنت مأكّدة، إنو إذا بستَك، ما ح يتطوَّر الموضوع معك ع شي أكبر. بالنسبة إلي، إنتَ منَّك النوع اللي ممكن الإشيا تتطوَّر معو. ما تفهمني غلط! هيدا مش شي عاطل! يا ريت أنا العالم عندا هالفكرة عني!".

الخوف من الخوف

أسند خالد يده على باب الإستديو، فأتاه صوت التلفاز من الداخل.

شعر بالحزن يطبق على المساحة كلها، ولم يعرف لإحساسه سببًا.

هل يكون شعوره المتكرِّر بالحزن إشارة إلى عودة اكتئابه؟ تعبر الفكرة ذهنه، وهو يُخرج المفاتيح من جيبه. الفقاعة... القاع... كلمتان تنبعثان من حديث لينا معه في المقهى. يتذكَّرهما، ويخاف. ربَّما هذا هو ما يشعر به الآن: الخوف، لا الاكتئاب؟

لا يريد تضييع ريم من يده، كما ضيَّع سهى. وهو حتَّى الآن، ما زال لا يعرف سببًا لما حدث بينهما. يعرف أنَّه هو السبب، لكنه يجهل ما فعله تحديدًا ليجعلها تهرب.

مع سهى لم يكن يشعر حتَّى أنَّه مكتئب. لعلَّه ظنَّ أنَّها داوَته، فأكمل غير مكترث، وهذا ما فجَّر الوضع كلَّه؟ كم من الوقت كانت ستصمد معه؟ وهل صمدَت أكثر ممَّا ينبغي؟ وإلى متى ستبقى ريم معه؟ ألم تُخرجه، مثل سهى، من الفقاعة؟ ألم تنتشله، مثلها، من القاع؟

لكن لا. علاقته بريم مختلفة.

منذ تعرَّف عليها صار يحلم. منذ تكرَّرت لقاءاتهما، صار أقلَّ تعبًا. منذ انتقلت إلى هنا، بات ينتبه للأشياء، وعادَت الأخبار حوله تصعقه. قبلها، كان يقصُّ أخبار الصحف ويعلِّقها على اللوح. ينظر إليها، فلا يشعر بشيء، ويجد مضمونها قد حدث في مكان بعيد من زمنٍ ماضٍ. وبعد أن صارت ريم بجانبه، ما الذي حدث؟ جعلته يشتبك مع الحياة من جديد؟ رمته ورمت نفسها معه؟ وماذا لو غادرت؟

ينتبه خالد ويخاف. الآن بدأ يفهم. ليست المأساة في أنَّه خائف، ولا في كونه غير خائف. المأساة هي في عدم اعترافه بخوفه، وأن يحاول طمس هذا الشعور بادعاء الاكتئاب.

خائف، هذا مؤكَّد.

خائف من أن يتحدث مع ريم عن أحداث لم تكن فيها. الكلام على هذه الأشياء من دون مطالبة ريم بدور، ولو صغير فيها، سيكون مؤرِّقًا ومشوشًا على علاقتهما. ولهذا يثق بأنَّ إخبارها بقصة ضرغام يجب أن يُستتبَع بحضورها الجلسات المقبلة، وبطلبه المساعدة منها في عملية البحث عن جانيت. وقد يذكر حالة بيت كريم أمامها، فهي تعرف الولد، وقد تساهم في إيجاد حلٍّ ما.

على أنَّ موضوع كنزي يجب أن يبقى خارج حديثهما تمامًا.

إذ كيف يشرح لها بداية معرفته بها؟ ماذا يقول؟ قبَّلتُها، ومن ثمّ جئتُ وقبَّلتُك؟

لا يمكنه أن يقول ذلك. القُبَل لا تُشرَح. القُبل تبدأ طريقًا، أو تنهي طريقًا، أو تعبر فحسب، فتبقى سرًّا. والقبلة في حالته مع كنزي، سرٌّ سيبقى سرًّا. لا يعرفها، ولا تعرفه. ومن الجيِّد أحيانًا أن يُفرِغ المرء أشياء في أناسٍ لا يعرفهم.

هذا ما فعله خالد اليوم. أفرغ أشياء في كنزي. أخبرها عن اتصال سهى من لندن، عن شيء كبير نَبَتَ في داخله بعد الاتصال وأرَّقه، عن نقمة ضاغطة لا تُمَسُّ، وعن خوف متعاظم من أن يكون مصيره مع ريم كنهايته مع سهى.

أفرغ في كنزي ولم يشعر، تمامًا مثل قبلة المكتب.

فكيف يُخبر ريم كلَّ هذا؟

لا. لن يخبرها. سيُبقي هذه الأشياء خارج الإستديو الذي يُطرِق ناظرًا إلى بابه.

قرَّب المفتاح من القفل، ليفتحه، فباغتته ريم بفتح الباب من الداخل، وسألته إن كان ينتظر على العتبة منذ مدَّة.

"بعدني واصل"، كذب عليها.

"جِبت قنينة نبيد. بتشرَب معي؟"، سألَته وهي تتَّجه إلى المطبخ.

تلفاز الإستديو: "موكب الموت المدهش"

تفاجأ المواطنون عصر اليوم برسائل نصيَّة وواتس - آب ترد إليهم من أرقام خارجية مختلفة، وتدعوهم لزيارة موقع على الانترنت http://www.deathconvoy.com.

وعند النقر على الرابط، اتَّضح أنَّه يؤدِّي إلى موقع بعنوان "موكب الموت المدهش"، يورد صورًا لأناس يقول إنَّهم لقوا حتفهم في بيروت والمناطق. ولوحظ أنَّ الموقع يكرِّر في خانة سبب الموت تحت كل صورة جملة: "لا سبب". ولا يتضمَّن الموقع أيَّ تفاصيل عن الجهة التي أطلقَتْهُ أو تديره أو شرحًا لماهيَّته وللهدف منه.

وبحسب مصدر في وزارة الاتصالات، فإنَّ هذا الموقع غير مسجَّل في الوزارة كما يطلب قانون الإعلام الجديد الذي أُقرَّ في الآونة الأخيرة من أصحاب المواقع الإخبارية المنشأة حديثًا. وأضاف المصدر نفسه أنَّ عدم تسجيل الموقع يعرِّض أصحابه لغرامات مالية وعقوبات تصل إلى حدِّ الحجب والسجن.

ولم يُعرَف بدايةً صاحب الأرقام الأوروبية المختلفة التي ورَدَت منها الرسائل. وبعد البحث، تبيَّن أنَّها أرقام تستأجرها شركات للرسائل النصية موجودة في أوروبا لخدمة زبائنها. وأبَتْ شركتان من الشركات التي تؤجِّر هذه الأرقام الإفصاح عن هوية المستأجرين، وشرحتا أنَّ خدمتيْهما تشملان الحفاظ على سرية هويات الزبائن.

وتعذَّر الاستفسار عن الأمر بالاتصال بوزير الاتصالات، لوجوده حاليًّا في مؤتمر دولي بباكستان.

نبيذ العام ٢٠٠٥

شربا القنِّينة الأولى، ثمَّ قامَت ريم نحو البرَّاد، وعادَت بوعاءَين من

أوعيتها، وبقنّينة ثانية.

"فكّرتِك جبتي قنّينة واحدة بس"، سألها خالد مستغربًا.

"لأ. جبِت تلاتة"، أجابته.

كأسًا وراء كأس، أنهيا القنينة الثانية، ثمَّ عادت ريم بقنينة ثالثة. قال خالد إنَّه سيكتفي بما شربه. "شْراب بس. شْراب. نحنا بالبيت أصلاً"، ردَّت وصبَّت له، ثمَّ قدَّمَت له الكأس، فأخذها منها، وأسند ظهره إلى الجدار.

نظرت ريم باتِّجاه التلفاز، لتتابع البرنامج السياسيٍ، ثمَّ قرَّرت إطفاءه. شعرت بالنسيم الآتي من باب الشرفة المفتوح يحفّ جسمها، وبيدَيْها تقشعرَّان قليلًا، فتقوقعت أكثر، وتابعت رشف ما بقي في كأسها لعلَّها تدفأ.

عندما سمعَت خشخشة مفاتيحه، جلست على السرير وانتظرته حتّى يفتح الباب، لكنَّ الخشخشة توقَّفت، والباب لم يُفتَح. قامت ونظرت في العين السحرية لتجده واقفًا في مكانه.

هو في الخارج، وهي في الداخل.

هي تنظر إليه، وهو لا يعرف.

شيء ما ليس على ما يرام.

تظنُّ أنَّ خالد يرغب في سؤالها عن علاقتها بألبير لكنَّه لا يفعل. استمع إليها تتحدَّث عنه في المرَّة الأولى التي جاءت فيها إلى هنا، إلَّا أنَّه لم يكرِّر السؤال ولم يكن يدفعها لتفصح أكثر، بعكس لقائهما في المطعم.

هل اكتفى بما قالته له؟ لا، هي متأكِّدة من أنَّه لم يفعل.

هل تسأله؟ لا لن تفعل. ستنتظره حتّى يقول.

أفصح لها أنَّه خائف يوم الانفجار. لكن ماذا كان يعني بخوفه حينها؟ كان خائفًا عليها من الانفجار، أم خاف عليها أن تقضي أو تنجوَ مع ألبير في حدث كهذا؟

الفرق كبير بين الفكرتيْن، تفكِّر ريم.

ما لم تقله لخالد إنَّه في يوم الانفجار، وبعد أن قرَّرت الذهاب لرؤية

ألبير، بادر الأخير إلى الاتِّصال بها، وطلب منها ألّا تأتي. كانت المرَّة الثّالثة التي يؤجِّل فيها لقاءهما. أخذت تصرخ فيه، فردَّ أنَّه لا يريد رؤيتها، وأنّه ما من كلام يقوله لها، وأنهى الاتِّصال. لحظتَذاك فقط، قرَّرت ريم أنَّه قد حان الوقت لتذهب إلى المكتب، وتنظر في عينيْه كل يوم.

بعد خروجها من المستشفى، توقَّفت أمام محل الزهور ونظرت إلى داخله، قبل مواصلة مشيِها باتِّجاه محلِّ المشروبات. وفي واجهة المحل رأَت وجهها.

"كيف كانت قعدتِك مع لينا؟"، سألها خالد بعد دخوله.

"منيحة... لذيذة كتير صاحبتَك!"، أجابته.

ماذا ترك حديث لينا في نظرتها؟

قالت لها لينا إنَّ سهى تحدَّثت مع خالد من طريق الخطأ، وهذا هو سبب انزعاجه واضطرابه قبل مغادرته غرفة المستشفى. شرحت لها أنَّ زواجهما كان خطأً منذ البداية، وأنَّه كان اجتماعًا لشخصيْن في مرحلة معقَّدة من حياتهما، وكان سينتهي حكمًا إلى الفشل.

قالت لينا كلامًا بالغ المباشرة:

ريم، ربَّما يجب ألّا أقول ما ستسمعينه منّي الآن، أمّا أنا فلا يمكنني الكذب، وتجنُّب الحديث في الموضوع. يجب أن تبادري إلى سؤال نفسك. هل تحبّين خالد؟ أنا أكيدة من حبِّه لك، لأنّي أعرفه وأعرف كلّ ماضيه. عندما تزوَّج سهى، لم أعطِه رأيي لأنَّه لم يكن ينتظره. ربَّما تجنَّبه، أو وثق أنّي سأناصر قرارهما لأنّي صديقتهما معًا. لا أذكر بالضبط، لكنّني أتذكَّر أنَّه كان في حالة يرثى لها ليسمع رأيًا مخالفًا لقراره. قلتُ رأيي لسهى وقتها، واكتفَت بالهمهمة، وعندما انهار كل شيء عادت لتقول لي إنّي كنتُ على حق. لا أفترض هنا أنّي دائمًا على حق، لكنّي أحاول أن أخبرِك ما لن تسمعيه من خالد، وهو لن يقوله لك، لأنَّه ببساطة لا يعرفه. أنا أحاول مساعدتكما فقط لأنّي راغبة فعلًا في إنجاح علاقتكما. هكذا

تحدث الأمور مع خالد يا ريم. عليك أن تدفعيه إلى فعلها، ليطمئنَّ أنَّ عليه فعلها، وليظنَّ أنَّه فعلها من نفسه. إن كنتِ تودِّين إنجاح هذه العلاقة مع خالد، عليكِ حسم الأمر، وألَّا تدعيه ينتظر، وإلا فإنَّه سيغرق من جديد.

دخلت ريم محل الكحول، وبعد فترة ضياع بين الفودكا والويسكي وأنواع النبيذ، انتقَت نبيذًا أحمر من انتاج العام ٢٠٠٥، وجدته أغلى بقليل من إنتاجات باقي الأعوام.

خرجت تحمل كيس القناني، ثمَّ وقفَت تنظر من جديد في انعكاس وجهها في الواجهة، وهذه المرَّة رأَت شيئًا مختلفًا: ستنام معه.

بعد أن فرغت القنِّينة الثالثة، استلقَت قربه على السرير. وضعت رأسها فوق صدره، وأخذت تنظر إليه، فسألها:

– شو في؟
– شو في؟ ما شي. عم اتطلَّع.
– شْربتي كتير إنتي.
– اممم.
– نحنا الاتنين شْربنا كتير...
– صح. نحنا كتير شربانين.
– نبيت.
– إي. شربانين كتير نبيت.

مرَّرَت يدها على صدره تحت "التِّي – شيرت" التي يلبسها، فلم يفعل شيئًا. رفعت رأسها وقبَّلَته، فبادلها القبلة. طفحَت حرارة وجهها في وجهه. شمَّ نَفَسَها المعشَّق برائحة النبيذ. كان يشعر بطعم النبيذ أيضًا على لسانه. اختلط الطعم بالرائحة.

طلبت منه أن يطفئ ضوء الغرفة، وأن يُبقي نور الحمام، فقام مترنِّحًا لينفِّذ طلبها. ما إن وصل إلى زر الإنارة في مدخل الإستديو ومدَّ يده إليه، حتَّى انطفأَت الكهرباء في الغرفة. "ما كَبَسْتْ"، قال لها من مكان وقوفه.

"هاي إشارة"، ضحكَت وَدَعَته إلى الرجوع، فعاد إلى السرير ببطء وهو يحاذر الوقوع في العتمة.

"أكيد؟"، سألها في السرير فأومأَت إيجابًا.

بعد خمس دقائق، وبعدما كان قد بدأ يخلع عنها ملابسها، عاد النور، فتوقَّف ونظر إليها عاريةً من فوق، وقال: "ح قوم طفِّيه". لكن قبل أن يقوم، انطفأَت الكهرباء من جديد. "خلص ح طفِّيه"، كرَّر واتَّجه في العتمة إلى موقع الزرّ، وما إن وصل حتّى عادَت الكهرباء من جديد.

"عم تلعب معنا الشِّلكة!"، صرخ وهو يطفئ الزر.

كانت ريم تضحَك.

تلفاز الإستديو: مقدّمة جان سالم

مساء الخير.

منذ أسبوع، بدأنا بإيراد الرقم الساخن في إعلاننا التلفزيوني. ومنذ تلك اللحظة، لم يتوقف هاتفنا عن الرنين. تلقَّينا اتصالاتكم وشكاواكم على مدار الساعة، وحاولنا الرد عليها كلها قدر الإمكان. كان الأمر صاعقًا لنا. أحسَسْنا أنَّنا لا نعرفكم، وأنَّنا لم نكن منتبهين لما يحدث في البلد مطلقًا، بالرغم من أنَّ برنامجنا مخصص فعليًا لمناقشة الأحوال السياسية والاجتماعية.

لهذا نعلن خجلنا من أيام لم نُصغِ فيها إليكم كما يجب، ونعتذر منكم. فنحن هنا، نتحلى بالشجاعة لنعلن تقصيرنا. لكنْ هل يغيِّر ذلك في الأمر شيئًا؟ هل سيتوقف ما يحدث على الأرض؟ هل سيتحلَّى أحد من المسؤولين بالشجاعة للإشارة بإصبعه إلى مكامن الخلل والعمل على إصلاحه بدل الخوض في مناكفات يوميّة تافهة تعوق تنفيذ الحلول؟

الأرجح أنَّ كل ما اشتكيتُم منه سيستمرُّ بالحدوث، لا لشيء إلا لأنَّ

المسؤولين أدمنوا الاستزلام للغير، ولم يعودوا يكترثون بكم، أنتم الذين أتيتُم بهم إلى سدَّة المسؤولية.

للأسف، ستبقى شكاواكم هي هي. ستواصلون الانتظار عند أبواب المستشفيات حتَّى تسمح لكم شركات التأمين الخاصة بالفحوصات الضرورية للكشف عن أسباب آلامكم. ستظلُّون تعانون من انقطاع خدمة الكهرباء، ومن شُحِّ المياه وتلوُّثها، ومن سوء الخدمات العامَّة. لن يتوقف فساد التجار المحتكرين لكل نشاط في أحيائكم. ستبقى الواسطة ضرورة، والزعيم ضرورة، والمدير العام ضرورة. حدودنا لن تُغلَق أمام الغير. سيستمر الغريب بسرقة وظائفكم برواتب أبخس. ستظل بيوتكم تُسرَق، ولن ينتهي التحرش ببناتكم وأولادكم. زحمة السير ستزداد، وستقضون ساعات أكثر على الطرقات حتَّى تقضوا مهامكم اليومية. وستبقى المواقع المشبوهة على الإنترنت تظهر، وتواصل تبشيرنا بموتنا.

هذه الصرخة نريدها تغطيةً بسيطة لشكاواكم التي وردَتْنا، لعلَّ المسؤولين يستمعون إليها. ولهؤلاء المسؤولين نتوجَّه بالسؤال: لماذا تفاقمت هذه الظواهر مع دخول الغرباء أرضنا؟ لماذا يُميتوننا في أرضنا، ويُميتوننا خلف الحدود؟ إلى متى سنبقى نسير في درب الجلجلة؟

أنتم، نحن، كلنا، نموت. وينبغي أن يتوقَّف هذا الآن.

أراكم بعد الإعلان.

الصبّارات

قبل أن آتي إلى هنا، وقفتُ أمام واجهة محل يبيع الزهور، ولاحظتُ ما لم أكن أهتمُّ له أو ألاحظه على الإطلاق.

كنتُ واقفة أمام الباب عندما اعتذر منِّي شاب أراد أن يدخل المحل. فسحتُ له المجال، فدخل وتوجَّه بالكلام إلى البائع قائلًا إنَّه يريد شراء

صبّارة جميلة لحبيبته.

أخذ البائع يستعرض الصبّارات الموجودة في الداخل، لكنّ الشاب سرعان ما قال له إنّه يريد صبّارة أصغر. فانتقل البائع إلى الواجهة، يرفع الصبّارات منها ويريها للشاب. وكان الأخير في كلّ مرّة يُبدي عدم اقتناعه بعذر مختلف. هذه مدعبلة، وهذه قصيرة، وهذه حجمها غير متناسق، وهذه ليست حلوة، وهذه أخضرها باهت، وهذه أخضرها صاعق لدرجة أنّها تبدو بلاستيكية.

كلّما أخرج البائع صبّارة، كنتُ ألاحظ أنّ شوكها مشذّب بدقّة.

والآن عندما أستعيد المشهد، تخطر لي فكرة.

يتبادلون الصبّارات الصغيرة هدايا، لأنّهم يعتقدون أنّها ستبقى خضراء ولن تذبل بسهولة. لكن ما يبقى فيها فعليًّا هو شوكها الحاد. فتنة الصبّارات الصّغيرة هذه تأتي من شوكٍ يتجاهله الجميع لأنّهم اعتقدوا أنّ تشذيبه سيلغي وجوده.

ونحن أملنا الليلة أن يشذّب الجنس الحزين شوكنا.

نِمْتَ معي مغمض العينين. كنتُ أنظر إليك في كل حركة تقوم بها في وجهك أو في جسدك. دفنتَ وجهك فوق كتفي، وابتعدتَ، من دون أن تعلن بوضوح، عن شفتيّ، وكأننا لم نقبّل بعض في السابق.

أحبَبْتُكَ في حزنك. حزنٌ لا تتقصّده، ولا تعرف أن تتخلّى عنه.

أحبَبْتُكَ فيه، فلم أعد أعرف إن كان عليّ اتّباع نصيحة لينا، ومواصلة انتشالك منه.

حكاية تطفو فوق لندن – ٣

صار اعتناؤه المبالغ بي يُحدث ردّة فعل معاكسة عندي.

حتّى إنّني في مرّة، تقرّبتُ منه فأزاحني عنه، وسأل إن كنتُ أودّ شرب القهوة.

غضبتُ وأخذتُ أصرخ فيه. لا أذكر كلَّ ما قلتُه له، لكنِّي أذكر وجهه المذهول. كنتُ أصرخ وأرجف وأبكي وأقول أشياء بلا معنى. اتهامات وعكسها. أشياء لم أكن حتَّى لأفهمها، فكانت تجد طريقها إلى لساني بلا سيطرة منِّي.

ثمَّ تركتُه وذهبتُ إلى الغرفة، ودفنتُ رأسي في الوسادة. نطَّ القطُّ وصار يتمسَّح بي، فرفعتُ رأسي وأخذتُ أمسح على ظهره.

ظهر خالد عند عتبة الباب، مرتبكًا كما لم أرَه من قبل. قرفص قربي واعتذر. قال إنَّه لا يفهم ما فعله، لكنَّه يعتذر. منطقيًّا، كان يجب أن يزداد غضبي، فهو يعتذر لي كما يعتذر الراشدون من الأطفال، لكنِّي لم أستطِع إلَّا أن أعانقه، فبادلني العناق.

أنا محرجة، روجيه. جادلتُ نفسي طويلًا قبل أن أقرِّر أن أقول لك، لكنِّي لا أستطيع أن أقفز فوق هذا الحدث لأنَّه حدث فاصل.

قام خالد بشيء لن أنساه. قبَّلني لدقيقة، ثمَّ انحدر إلى رقبتي، وهو يفكُّ أزرار القميص. مرَّ على ثدييَّ وبطني وسرَّتي، ثمَّ وصل إلى فرجي، وصارَت قبلاته أكثر عمقًا. وصل إلى أمكنة لم نجرِّبها من قبل. كان كأنَّه يعتذر من المكان الذي فقدتُ منه طفليْنا. لا أعرف ما الذي كان يفعله، ولا كيف كان يفعله. لكنِّي أعرف أنَّ تنهداتي زادَت، وتحوَّلَت. صرتُ أنحدر إلى عمقٍ ما، وأشعر أني أبتلع نفسي، فأنسحبُ إلى الخلف. ثمَّ أشدّ من إغماضة عيني، وينقلبُ إحساس التراجع إلى تتابع سريع لمشاهد ذكرياتي معه، وأصل إلى قمَّة ما فينتفض جسمي من جديد ويرتفع متصلِّبًا في الاتجاه المعاكس.

ظلَّ الأمر بين عمق وقمَّة، وانسحاب وانتفاضة، حتَّى انحدر كل شيء فجأة، ومات في لحظة.

"إنتي منيحة؟"، سألني.

لم أكن قادرة على الإجابة.

كانت المرَّة الأولى التي أشعر فيها على هذا النحو معه.
وكانت المرَّة الأخيرة أيضًا لكلِّ شعوري معه.

ما رواه ضرغام – ١١

عندما صحا خالد عند السادسة صباحًا، وجد ريم وضرغام يتحدَّثان في الشرفة ويضحكان. صبَّح عليهما، فقامت ريم من كرسيِّها وقبَّلته، ثمَّ أعلمَته أنَّ الفطور اليوم سيكون عند العجوز، ودخلَت إلى الإستديو، فلحقها خالد ليقنعها بتأجيل القعدة.

"مش واجعِك راسِك؟"، سألها مستهجنًا.

"فوت خود دوش سريع. معَك ٥ دقايق. أنا ح إسبقَك"، قالت وراحت تُخرج بعضًا من أوعيتها من البراد.

***

ينبغي أن نجد دائمًا تخريجات تضخُّم حدثَي الظهور والرحيل، فهذا التضخيم هو الذي يجعل الحدثَيْن مؤسِّسَيْن لما يأتي بعدهما، ومن دونه لا يبقى شيء من القصص في الذاكرة. حتَّى لو كان المتروك غبارًا، يمكن له أن يختلط في لحظة ليحييَ حكايا بائدة. وهذا البعث يُسمَّى أيضاً لحظةَ مؤسِّسةً، ولو لم يحدث شيء بعده. فمع اعتبار أنَّ ما حدث قد حدث أصلًا في الماضي، يكون الوهم في أنَّ الأزمنة اختلطت فجأة، وأنَّ الرؤية أتت بعد انتهاء الحدث، لكنَّ أيًّا من هذا غير صحيح. هي لحظة قرار فحسب، قرار بالرؤية، والرؤية نفسها حدث يليق به أن يتأسَّس.

في منزل سوق الغرب، عشنا. تعكَّرت البداية بموت أمي بعد فترة قصيرة من زواجنا. كانت كأنَّها اطمأنَّت علينا ورحلت. ولذكراها أبقَيْنا

كرسيَّها المتحرِّك فارغًا في الشرفة أمام طاولتها الصغيرة التي ظلَّت تحمل كلَّ أشيائها.

تابعنا حياتنا، وكانت لحظاتنا معًا أشبه بصوَرٍ فوتوغرافية. لكنَّ الصور المطبوعة تبهت ألوانها بمرور الزمن، ولا ننتبه إلى التغير فيها إلَّا في لحظة مؤسِّسة أخرى. لستُ أشير هنا إلى ملل في العلاقة مع جانيت. أبدًا، لكن كيف أشرح؟

فلأقُل إنَّ الخوف كان دائمًا حاضرًا.

كانت جانيت عندما نخرج إلى الشرفة، تنظر إلى الوديان حولنا، وتتحدَّث عن توجُّسها من هذا الهدوء الطاغي، والذي، إن كان يشي بشيء، فإنَّه يشير إلى قسوة المأساة المقبلة. فالحرب لا يمكن إلَّا أن تتمدَّد يا ضرغام. ووقف إطلاقات النار ما هو إلا استراحات بين أشواط. ما الذي سنفعله عندما نجد المعارك قد بلغت حدود منزلنا؟

أكذب إنْ قلتُ إنِّي كنتُ أفهمها. كنتُ أراها تستبق الأحداث. وبرَّرتُ قلقها بكونها اعتادت ألَّا تستمتع بلحظات الصفاء بسبب ما مرَّ معها، فبقيتُ أحاول استيعابها. كان همِّي الحقيقي أن أُبقيها معي.

لحسن الحظ، كانت علاقتنا الجنسية تخفِّف من وطأة هذه الأفكار، فكنَّا نمحو كل توجُّساتنا في السرير، وكنتُ أطالبها بالصمت عندما تأخذ تتفوَّه بعد الحب بعباراتها القلِقة، فأمدُّ ذراعي وأحيطها بها، لننام نومًا عميقًا، ونصحو متعانقيْن.

تلك الأيام، صادقتُ سليم. صرتُ أمضي معه أوقاتًا أطول، وأدرِّبه على نطق الكلام، وأحاول أن أجعله يخفِّف من عادته في علك الكلمات قبل نطقها. دعاني، من دون أن أطلب منه، بـ "بابا"، فنهرتُه وطلبتُ منه أن يناديني باسمي الأول. عندما أخبرتُ جانيت بالحادثة، استغربت موقفي، وأجابت أنَّه ما من شيء خاطئ في نداء الولد، فأنا في النهاية بمثابة الأب له، وهي لن تزعل.

عندما اجتمعتُ بسليم ثانيةً، قلتُ له إنَّ باستطاعته مناداتي ببابا لو أحَبَّ، فأومأ لي، لكنَّه لم يعُد لاستخدام الصفة مطلقًا، وبقي يناديني باسمي الأول: ضرغام.

أما جانيت فظلّت تخاف. تخاف أن تمتدَّ الحرب إلى بيتنا. تخاف من أشياء كثيرة لا تفصح عنها، وتُتبِع توجُّساتها بالاعتذارات، فأحاول تهدئتها بالقول إنِّي إلى جانبها، وأذكِّرها بتحسُّن نطق سليم، وبإنجازاته في المدرسة.

المدرسة كانت عراكًا من نوع آخر بيني وبينها، فهي لم تكن تودُّ إرسال سليم إليها. تذرَّعَت أولًا بحالته، وقالَت إنَّه سيعاني بين التلاميذ، وإنَّهم سيهزأون منه، ولن يتركوه في حاله. لكنَّ رأيي كان صارمًا. قلتُ لها إنَّ هذا هو المطلوب. ألّا يتركوه في حاله. الولد يا جانيت لا يملك صديقًا واحدًا، ولا يتحدَّث مع أحد غيرنا. لا يخرجٍ وحده إلى أيِّ مكان، وهذا نمط حياة ليس طبيعيًا، ولن يساعده على تخطي مشكلته.

صمتَتْ جانيت، واحتمت بعذر الأوضاع الأمنيّة. كانت الحرب تقسو بالفعل يومًا إثر يوم، بل ساعة إثر ساعة، لكنَّ ردِّي كان جاهزًا. كل الأولاد يذهبون إلى المدارس، والأوضاع نفسها تسري عليهم جميعًا.

في النهاية، وبعد أعذار شتَّى، كشفت جانيت عن خوفها الحقيقي: أهل زوجها. ما الذي يمنعهم من خطف سليم مثلاً في طريقه من وإلى المدرسة؟

كان خوفها منطقيًا، فقد وصلتني أخبار عنهم – لم أكن أُعلمها بها بالطبع – مفادها أنَّهم عرفوا بزواجنا، وهم ليسوا سعداء بالخبر.

وبينما كنا نتحدَّث بالأمر، ظهر سليم في الردهة، وقال إنَّه يودُّ الذهاب إلى المدرسة. جُوبِهَ طلب الولد باعتراض جانيت، فقاطعها لأيَّام. جُنَّت جانيت، فبلغ بها الأمر أن ألقت عليَّ اللوم. كانت كلَّما وجدَتْنا جالسين، تتهمني بتحريضه عليها، وتسألني عمَّا كنَّا نتحدث. "إسأليه!"، كنتُ أردُّ ضاحكا، فتذهب إلى غرفته لكنَّه يرفض الكلام معها.

ظلَّ الأمر على هذا النحو إلى أن اقترحتُ عليها حلاً، وتعهّدتُ لها أنّي سأفرز عنصرًا خاصًا يأخذ سليم يوميًا إلى المدرسة ويُعيده منها. وافقت جانيت، ولم تلبث الأمور بينها وبين سليم أن عادَت إلى حالتها الطبيعية.

كانت الأخبار المهدِّدة تصلني من عائلة زوجها فأشدِّد من الحماية، ثمّ تنقطع قصصهم فأخفِّف من مراقبة الصبي. عرفتُ عن موت العمّ الأول، والعمِّ الثاني، وعن انتقال الأسرة إلى القسم الشرقي من المدينة، فوجدتُ أناسًا آخرين يأتونني بأخبارهم من منطقة سكَنهم الجديدة.

استقرَّت الأمور هكذا أعوامًا، إلى أن بدأَت المأساة الفعلية بعد مضيٍّ تسع سنوات على زواجنا.

وجوه ومربّعات

كانت الساعة تقارب السابعة والنصف صباحًا عندما عادا من جلستهما عند ضرغام. دخلت ريم لتستحمّ، بينما ارتمى خالد على السرير. كان متعبًا للغاية، ولم يحتَج إلا لدقائق قليلة كي يغرق في النوم.

عندما أفاق، كان وحيدًا في الإستديو.

"وينِك؟"، كتب رسالة نَصِّيَّة لريم.

وصله الرد رسالة أخرى: "أنا بالشغل. بالمكتب. XX". اعتدل في السرير متفاجئًا بالرد. حمل الهاتف وأراد الاتِّصال بها، ثمَّ عدل عن الفكرة. قرَّر أن يرسل إليها رسالة أخرى، ثمَّ تراجع. ماذا يفعل؟ ارتفع منسوب توتُّره. قعد على طرف السرير، وعاد ينظر في ردها. انتظر إيضاحًا إضافيًّا... مضى الوقت من دون أن تصل منها أيُّ رسالة أخرى، فحاول أن يشغل نفسه بتفقُّد رسائله غير المقروءة.

مرَّ على إعلانيْن، ووصل إلى رسالة "موكب الموت المدهش" التي تلقَّاها في شقة سهى. لم يفهم في بادئ الأمر مضمون الرسالة. يتفرَّج على

التلفزيون ويسمع الراديو، راديو ضرغام على الأخص، لكنّه لا يركّز في ما يُقال، وحتّى عندما يحدّثه أبو بيتر عن أحداث البلد، لا يستمع جيدًا. فهو يعتقد أنّ كل ما يحدث معروف ومنتظَر. يخاف ولكنّه لا يتوقّع شيئًا جديدًا. وهذه معضلة اكتشفها حالًا ولم يكن منتبهًا لها: ممَّ يخاف إن كان كل شيء متوقّعًا؟

ضغط على الرابط في الرسالة، ففتح المتصفّح العنوان. قام يتمشّى في الإستديو وهو يقلّب في موقع "موكب الموت المدهش". تفحّص الوجوه بشكل بطيء ومفصّل، ثمّ صار يمرّر أصبعه من الأسفل إلى الأعلى بشكل سريع، فانهمرت أمامه الوجوه والمربّعات الفارغة من الصُّوَر. تحت كل وجه أو مربّع فارغ تكرّرت الجملة نفسها. لا سبب. لا سبب. لا سبب.

عندما توقّف عن المشي، كان قد صار واقفًا أمام لوح القصاصات الصحافية التي نظّمتها ريم. كل هذا لا يبدو منطقيًّا، فكّر. كلّ هذا مرتّب، لكنّه غير منطقي.

عرف ماذا سيفعل اليوم. لبس ثيابه على عجل وهو يتّصل بأبو بيتر، ووصل الأخير إلى مدخل بنايته مع خروجه من باب المصعد. "ع الجريدة أبو بيتر"، قال وهو يصعد السيّارة.

في الطريق، كان خالد قد نسي تمامًا التوتّر الذي شعر به عندما قرأ رسالة ريم النصّيّة. كان يريد أن يصل إلى الجريدة بأيّ طريقة.

دخل المبنى، وسلّم على حارس المدخل من دون التورّط معه بحديث، ثمّ صعد مباشرةً إلى مكتب جانفياف، فلم يجدها. سأل رجلًا يجلس إلى مكتب قريب عنها، فأجابه أنّها في الطابق الأول تقدّم واجب العزاء لفاطمة.

"عزا؟"، سأل خالد مستوضحًا.

"إي. مات... استشهد ولد من ولادا ورا الحدود. الله يرحمو ع الجنّة"، ردّ الرجل مستدركًا.

نزل خالد إلى الطابق الأول. كان الجميع، وبينهم جانفياف، يحيطون

بفاطمة التي وقفت وراء مكتبها وهي تلبس الأسود. فهم خالد من الأحاديث المتناثرة أنَّ الابن مات قبل أسبوع، وأنَّ اليوم هو يوم عودة فاطمة الأول إلى العمل بعد مصابها. توًّا، تذكَّر خالد ريم، وشعر بالتوتُّر من جديد. لم يقطع حبل أفكاره إلا تطوُّعُ موظف وقف قربه للحديث معه.

– الله يعينا. ١٦ سنة كان عمرو الولد. إبنا التاني الأكبر كمان هونيك. مش باقي معها إلا الزغير. بدَّك هيدا كمان ما يشدُّوه. كلُّو من البَيّْ. لو بيقول جوزا لأ، ما حدا بيقدر يقرِّب يقنِّعن وياخدن للولاد.

– وإذا الولاد ما بدُّن؟

– الولاد ما بدُّن؟ ليش في ولد ما بيحبّْ يطلع لفوق؟

ترك خالد الرجل يكمل كلامه، من دون أن يصغي إليه، وكان يكتفي بالهمهمة، كلَّما أحسَّ أنَّ الرجل ينتظر منه تعليقًا. كان خالد يركِّز في جانفياف التي وقفت تتكلم مع فاطمة، فبكت الأخيرة إثر حديثهما، قبل أن تتعانقا.

دخل رئيس التحرير مع ابنه، مرتديَيْن ملابس رسمية، واتَّجها نحو فاطمة. تفرَّق الجمع فسحًا للطريق، وقفلت جانفياف عائدة نحو الباب، حيث التقت بخالد وسلَّمَت عليه هامسة، فبادلها هو السلام، وأضاف أنَّه يريد أن يلتقيها للضرورة، فدعته إلى مرافقتها.

خرجا معًا بينما كان رئيس التحرير يتحدَّث بصوت عالٍ عن فخره بأن تحتضن الصحيفة أم شهيد آخر، ويعلن مباركته للتضحية المهولة التي قدَّمتها الزميلة، معتبرًا أنَّ الشهيد ليس شهيد أمه فحسب، بل هو شهيد الجريدة والوطن.

في مكتب جانفياف، جلس خالد واستفهم منها عن إمكان البحث في إعلانات الوفيَّات. أجابته أنَّ ذلك متاح بطريقة الميكروفيلم، فتابع يسأل:

– وما فينا نفتِّش بالكمبيوتر بعد الـ١٩٩٨؟

– لا. هيداك بس بالمواد الصحافية وإعلانات الجريدة. إعلانات

الوفيّات بتوصلنا، نحنا وغيرنا، من شركة خاصة. فمنزِّلُن متل ما هنّي وما منتدخَّل فيهُنْ. وما منستثمر وقت ومجهود لنحفظُن متل بقية موادنا.

– وفينا نفتِّش بالإسم بالميكروفيلم؟

– لا. أكيد لأ. بس فيك تشوف أعداد الجريدة كاملة عليه. وفيني كمان أعطيك عنوان الشركة اللي بتبعتلنا إعلانات الوفيّات.

– ممكن إقدر فتِّش عندُن؟

– صراحة ما بعرف. بدَّك تسألُن.

– تمام. خليني بلِّش من الشركة، واذا رْجِعِت عِزِتْ، بْعود إمرق لهون.

– بعرِف المدير هونيك. ممكن يساعدَك.

كتبت له عنوان الشركة بالكامل واسم ورقم هاتف الموظف في ورقة وأعطته إياها.

راديو أبو بيتر: محاكاة رمزية

نفّذ طلاب في الجامعة الأميركية في بيروت محاكاة رمزية لحوادث الموت الجماعية الغامضة التي تنتشر أخبارها في وسائل الإعلام المحلية. ولبس التلامذة في محاكاتهم أكفانًا بيضاء لُطِّخ بعضها باللون الأحمر، واستلقوا في الساحة المواجهة لمدخل الجامعة الرئيسي.

وقال إيلي عطا الله المتحدِّث باسم الجهة منظِّمة النشاط، إنَّ معظم نوادي الجامعة السياسية والاجتماعية شاركت في هذه المحاكاة، وإنَّ الهدف منها تسليط الأضواء على حالة الفوضى الأمنية المنتشرة وتقصير أجهزة الدولة، الأمر الذي يترك مساحة للشائعات ويعاظم من الأخطار المحتملة التي يتعرض لها اللبنانيون.

ووجَّه عطا الله تحية للجسم الطلابي في الجامعة الذي تعالى على خلافاته الصغيرة ليُنجِح هذا الحدث، واعدًا بخطوات إضافية لتثمير هذه

الفكرة الاعتراضية الإبداعية.

مشكلة كريم

في الطريق إلى شركة الإعلانات، وصلت خالد رسالة واتس - آب من كنزي تطلب منه فيها أن تلتقيه اليوم، فردَّ عليها أنَّه غير قادر على الالتزام بموعد حاليًّا، وأنَّ لديه زيارة قد تطول.

أجابته كنزي:

Tell me if you changed plans.
I am visiting Lina at the hospital today. We can meet there.
I have an idea about Karim.

بين ليلة النبيذ، وجلسة ضرغام الصباحية، نسي خالد موضوع كريم تمامًا.

عندما أنهى جلسته مع كنزي، قام خالد وفتح لكريم باب الشرفة. وجد الولد في قمة نشاطه. أخذ يتحدَّث مع كنزي بحماسة، ويسألها عن أغانٍ لها، وطلب منها أن توقِّع له، ثمَّ صار يدور في أرجاء الشُقة مفتِّشًا عن ورقة. ولمَّا لم يجد ورقة، غيَّر رأيه، واقترح على خالد وكنزي أن يزوراه في منزله، فردَّ خالد أنَّ الوقت ليس مناسبًا، وأنَّ عليهما الرحيل الآن، ووعده أن تعود كنزي في الأيام المقبلة للزيارة.

"ليش إنتَ عم تجي أصلًا لهون لترجع تزورك؟"، قال كريم مستنكرًا وذكَّره بوعده مساعدته.

"ح ساعدك، بس مش هلَّأ"، أجابه خالد.

"بس كتير ضروري تساعدني اليوم!"، ردَّ كريم بإلحاح.

"شو فيه؟" سأله خالد.

بعد محاولات فهم، ومجادلات، وأخذ وردٍّ، وشرح مقتضب من كريم، وتحقيق شاركت فيه كنزي لانتزاع تفاصيل أكثر، فهما الحكاية.

لم يتسجَّل كريم في المدرسة. ضغط في بداية العام مع أمه على والده، ليقنعاه بضرورة ارتياده لها. وأعلماه أنَّ جمعية خيرية ستتكفَّل بتسديد القسط. بعد هذه التطمينات، زار الوالد المدرسة الرسمية التي وقع عليها الاختيار، ليُفاجأ بكمٍّ الأوراق والإفادات المطلوبة لإنهاء المعاملة، والتي لا يملكها. ودَّ الأب التراجع عن الفكرة برمَّتها، لكنَّ كريم وأمه استمرَّا بالضغط عليه، وقالا إنَّهما سيوفِّران ما يقدران عليه من الأوراق، ويرافقانه في زيارته التالية. وهذا ما حدث. ذهبوا جميعًا محمَّلين بما استطاعوا أن يوفِّروه من الأوراق. لكنَّ قرار وزارة التعليم اللبنانية بالتضييق على التلاميذ النازحين كان قد تطوَّر إلى تعليق كامل لعملية تسجيلهم، فصارت فرصة دخول غير اللبنانيين المدارس الرسمية أصعب من السابق، بل مستحيلة. عند معرفة هذه المعلومات، علا صوت الوالد، وتشاجر مع الموظفة، فاتَّهمَته الأخيرة بالإرهاب، وطلبت منه العودة إلى بلده، فكاد يتهجَّم عليها، وفُضَّ المشكل بعد تدخُّل الموجودين في المكان.

بعد عودتهم إلى المنزل، طلب الأب من زوجته أن تنسى موضوع المدرسة تمامًا، وأعلم كريم أنَّ عليه من الآن فصاعدًا النزول إلى الشارع ليبيع أشياء مختلفة يوفِّرها هو له، شارحًا أنَّه تعب من البحث عن عمل بلا جدوى، ومتذرِّعًا بإصابته التي حملها معه من قصف ما وراء الحدود. وكان أن حدَّد الأب مبلغًا يوميًّا من المال لا يعود الولد إلى المنزل قبل تحصيله. وطبعًا في حالة مثل حالة كريم، ومع الأشياء البسيطة التي يحاول بيعها – التي عادةً ما تكون غير قابلة للبيع – فإنَّ الأمر ينتهي إلى الشحاذة.

"مِسكوني من يومين وأخدوني ع مخفر حبيش"، قال كريم إنَّه كان في البداية يذهب إلى بيوت أصدقائه اللبنانيين في المنطقة ليشاركهم إنهاء وظائفهم المدرسية، لكنَّ تشدُّد أبيه في مسألة المبلغ اليومي وعنفه معه ومع أمه وإخوته منعاه من متابعة الدروس.

ما من جديد في القصَّة، وما من شيء استثنائي فيها. يقرأ ويسمع ويشاهد خالد مثل هذه القصص يوميًا، ولا يهتمّ بها. يكتفي بإكمال طريقه، ويترك كل ما سمعه في الخلفيَّة. لكنَّ عاديَّة القصَّة لم تمنع كنزي من أن تصل إلى حافة البكاء عندما أنهى كريم رواية قصَّته. لم يفهم خالد ردَّ فعلها. ولمَّا عانقَت الولد، وانتهز الأخير الفرصة ليضع رأسه على كتفها، لم يدرِ خالد إن كان عليه أن يضحك أو يحتفظ بوجومه.

أخذ يفكّر بما يمكن فعله لمساعدة كريم. كان كلَّما طرأت في خاطره فكرة، وجدها غير قابلة للتنفيذ. فلا مدرسة رسمية ستستقبل الولد الآن، وهو غير قادر على توفير مالٍ لتسجيل الولد في مدرسة خاصة، لأنَّه لا يعمل ومدَّخراته محدودة. ثمَّ ماذا لو سجَّله وظلَّ أبوه يرسله إلى الشارع؟ هذا احتمال قويُّ الحدوث، خاصةً أنَّ الأب لا يعمل، وهو بالتالي يبحث عن مورد مالي، وهذا يعني أنَّه يشغِّل الأم، على الأغلب، في أعمال أخرى. ودخول كريم المدرسة لن يجلب موردًا ماليًا، بل سيعقِّد المشكلة. فماذا بقي له من خيارات ليساعده؟

وكنزي كيف تساعد؟ ولماذا تساعد الولد أصلًا؟ تعرَّفت عليه البارحة، وستساعده اليوم؟ غريبة كنزي. كنزي؟ ما اسمها الحقيقي؟

نظر إلى الإعلان على الطريق، فوجدها حليقة الشعر تقف بين زميلتَيْها الأُخرَيَيْن، فسأل أبو بيتر:

– شفت هالإعلانات أبو بيتر؟

– ولك إيه. الشوارع مليانة منن. معقول؟ طالعين متل الجرادين يا إستاذ! أو متل هول الحيوانات المبلولة اللي بيجيبوها للولاد. شو اسمن؟

– شو هني؟

– هول الحيوانات المبلولة اللي متل السناجب، بس منُّن سناجب. بيجيبوهن للولاد لَيلعبو فيهن.

– هامسترز قصدك؟

– يا عيني عليك. هول هني. إنو معقول يا إستاذ هيك جمال بْيِنْعَمل فيه هيك؟ حدا براسه عقل بيروح بيقصّ هيك شعراته؟ وقال شو؟ قصّوه منشان "الوَتّان" [الوطن]. سُورّي منّك إستاذ، بس أيْري بالوَتّان!

لم يستطع خالد كتم ضحكته، فنشط أبو بيتر، وصار يجود:

– ولك إي يا إستاذ. اضحاك. ليك هيداك اللي واقف هونيك. شكلو متل القنفذ كمان. كلُّو فساد يا إستاذ. كلُّو فساد.

– كلُّو فساد؟ شو خصّ أبو بيتر؟

– كلُّو خصُّو يا إستاذ خالد! شو ما خصّ؟ كلُّو خصُّو!

– أبو بيتر. بتعرف شو اسما الحقيقي لَيَلّي واقفة بالنص بهالإعلان؟

– كنزي هاي. مش هيك؟

– إي. بس مش اسما الفنّي هيدا؟

– إي، إي. اسم فنّي هيدا. بدّك اسمها الأصلي؟ هممم. لحظة لإتذكّر. أو ليش لإتذكّر. منسأل صديقنا جاك، خبير المواضيع الفنية.

رفع أبو بيتر هاتفه ليتّصل بجاك، وانهمك خالد بدوره بالاتّصال بصديقه، الذي يعمل بدائرة الأحوال الشخصية في وزارة الداخلية. أعطاه المعلومات الكاملة التي يملكها عن جانيت، ثمّ أنهى اتصاله، وتابع ينظر إلى الإعلانات المنصوبة على جوانب الطريق: إعلانات المبيدات، رايا وكنزي وأنيسا، Golden Safe، طبيعة بلا حدود، وزارة الداخلية معكم ولكم، تنزيلات على اللحوم المجلّدة في سوبرماركت...

سيجد شيئًا. الآن أو لاحقًا، سيصل إلى نتيجة. سينتظر ردّ صديقه، ويبحث في إعلانات الوفيّات ولو كان الجواب سلبًا. عليه التأكد قبل شطب الاحتمال من اللائحة.

هل ماتت جانيت؟

راديو أبو بيتر: لم يَعُد مدهشًا!

تناقل الناشطون على الشبكات الاجتماعية أخبارًا عن كون موقع "موكب الموت المدهش" قد أُطلِق لمتابعة وتوثيق أحداث الموت مجهولة الأسباب التي تقع في بيروت والمناطق. ولاحظ الناشطون إزالة صفة "المدهش" من اسم الموقع، وذلك بعد يوم واحد فقط من إطلاقه، لتقتصر العناوين في كل المساحات فيه على عنوان "موكب الموت" فقط.

ولم يُعرَف ما إذا كانت الإزالة استجابة للانتقادات التي حفلت بها وسائل الإعلام، وقد استهجنت الصفة التي يتضمَّنها العنوان، أم أنَّ الأمر كان مقرَّرًا سلفًا، ولاسيَّما أنَّ الموقع خضع بتتالي الساعات لتحديثات غرافيكية جذرية.

ودار نقاش حول علاقة الموقع بحوادث الموت المزعومة في البرامج الحوارية النهارية، حيث طالب بعض الإعلاميين وزارة الاتصالات بمنع المستخدمين اللبنانيين من الوصول للموقع من داخل لبنان للتخفيف من حالة الهلع المنتشرة بين المواطنين.

ولم يُعلن أحد حتَّى الآن مسؤوليته عن الموقع الذي قالت الوزارة إنَّه مستضاف على خوادم في لندن. وأعلنت الوزارة أنَّ الشركة المُضِيفة للموقع قد ردَّت طلبها بالإطِّلاع على هوية أصحاب الموقع، بذريعة خصوصية مستخدميها المكفولة بالقانون.

ميديا الموت

عند خروجه من المصعد، استقبله لوغو أحمر كبيرٌ يحتلُّ معظم الحائط: Death Media. وجد بابَيْن مزجَّجيْن بالطريقة ذاتها إلى يمينه ويساره، فافترض أنَّ الشركة تشغل كامل الطابق. كان عليه أن ينتقي بابًا من البابيْن.

قبل أن يختار، رنَّ هاتفه. كان صديقه من الوزارة يُنبئه بنتيجة بحثه. "ما في شي مبيِّن عنا"، قال له. "شكرًا كتير"، ردَّ خالد مُنهيًا الاتِّصال، ودفع الباب الأيمن.

دخل خالد ليجد حالة فوضى تعمُّ المكتب. تلفاز يعرض أخبارًا محلية. موظفون يجيبون على الاتصالات الهاتفية، كلٌّ من مكانه في المساحة المفتوحة. أصوات هواتف لا تتوقَّف عن الرنين. أسماء عائلات تتطاير في المكان. تواريخ العزاءات وعناوينها تتكرَّر على الهواتف. موظفون يقرأون صِيَغ النعي، ويقترحون بعض التعديلات في الصياغة.

وقف لا يدري مع من يتكلَّم، ولم يقترب منه أحد ليسأل. انتظر دقيقة، فخرج رجل أربعيني يحمل كوب قهوة من غرفة قريبة.

"عم فتِّش ع إستاذ..."، قال خالد للرجل.

"... إستاذ طالب"، أكمل بعد النظر في ورقة جانفياف.

"هوِّي بذاتو"، ردَّ الرجل.

"مدام جانفياف باعتِتْني..."، أراد خالد أن يشرح.

"تفضَّل معي"، قاطعه طالب.

لحق خالد بطالب في رواق ضيِّق. مرَّا بالقرب من غرفتيْن كانتا بدورهما مكتظَّتيْن بالموظفين. خلال مشيهما، ظهرَت موظفة عند باب إحدى الغرف، وتراجعَت عن الخروج، عندما رأَتهما قادميْن. بقيت واقفة داخل الغرفة، ولمَّا اجتازاها، التفت خالد ليراها تمضي نحو المدخل الذي أتَيا منه.

في مكتبه، دعاه الأستاذ طالب إلى الجلوس، وسأله ماذا يشرب، فردَ خالد أنْ لا داعي لأنه مستعجل قليلًا ويريد التأكُّد من تفصيل واحد فقط.

كان خالد قد صار أكيدًا من الفوضى التي تسود المكان ومن أنَّ الجواب على سؤاله سيكون سلبًا، لكن كان يودُّ شطب الاحتمال تمامًا، أو التأكُّد من احتمالات أخرى، فربَّما كانت هناك فروع أخرى للشركة متخصِّصة

بتوثيق الإعلانات وأصحابها وأرشفتها.

سأل خالد الأستاذ طالب إن كانت Death Media تؤرشف الإعلانات التي تصلها، فاستغرب الأخير:

– أكيد لأ! لشو بدنا نأرشف؟ اللي بيحطّ إعلان معنا بيكون عارف إنُّو عم يْحطّ إعلان عن واحد مات! شو ح يرجع يسأل عنُّو؟

– بركي...

– إنتَ ليه عم تسأل؟

– بدّي شوف إذا حدا مات.

– اسآل أهلو!

– أهلو ما بْيَعرفو.

– إذا أهلو ما بْيَعرفو يعني مات!

– ما فْهِمت.

– إذا أهلَو ما بْيَعرفو وينوِّي، يعني ع الأرجح هوي ما بدُّو ياهن يَعرفو إنُّو عايش. صح؟

– بس أوقات الواحد بيفتِّش عن...

– عن ناس ميّتين؟

– إذا بدَّك.

– لا. مش إذا بدّي. إنتَ عم تدوِّر ع ناس ميتين؟

– عم إتأكّد إذا ماتو.

– وإذا ما ماتو، في شي ح يتغيَّر؟

– المفروض.

– لحظة. خلِّيك معي لإرجَع إفهم. في حدا اختفى، وما قال لأهلو وينو، صح؟ وما اتَّصل فيهن، ما هيك؟

– إي.

– الأهل بْيَعملو بلاغ، وبيصير فيه تحرِّي عنه. وفيهن كمان يِسألو

بدايرة الأحوال الشخصية يْشوفو اذا وفاته مسجَّلة. هيَّاها حلّيتلّك ياها.

– سألت بالدايرة، ومش مكتوب إنو الشخص ميت. في احتمال يكون سافر برة البلد، وبهالحالة ممكن إذا مات، وفاته ما تتسجّل. وفي احتمال تاني، إنّو وفاته ما تكون مسجَّلة لأنُّو مات بالحرب.

– بالحرب كمان؟ يعني ما اختفى هلّأ؟ هيك صارِتْ أعوَص. صحيح. القصص كانت فلتانة بهيديك الإيام. في ناس ماتت بوقتا، بعدا عايشة لهلأ بالوراق الرسمية. بس بعدني مش عم إفهم. ليه الواحد بدُّو يدوِّر فجأة عن حدا ضاع بالحرب؟ من لجنة المخطوفين إنتَ أستاذ؟

– خالد. لا. منّي من لجنة المخطوفين. هاي قصّة شخصية، مش أكتر.

– كل شي شخصي يا إستاذ خالد. شايف كل تلفون بيرنّ برّة؟ بيكون تلفون شخصي! متصوِّر وضعنا، واحد عم يتّصل فيكِ يا صوتو مخنوق مش مبيَّن، يا بيكون ماسك حالو، وفجأة هوي وعم يملّيك مضمون الإعلان بينهار، ونحنا منكون عم ناخد منهن المعلومات منصير قاعدين عم نواسِين ونعزّين.

– طب ليش ما بْتسْتَعملو الإيميلات؟

– اللي بالضّيَع بدّك ياهن يعتولنا إيميلات؟ ما بِتْصير. حتّى لو العيل عندن ولاد متْعلّمين، بيضلّن بْيرتاحو ع التلفون أكتر. بيكون الواحد منن عم يْمَلّي الإعلان وبيصير يعيد ويزيد ويقلّك ارجاع اقراه كإنو إذا صار في غلط بالنصّ بيرجع الزلمي يعيش. شو إيميل ما إيميل؟ إنتَ شفت هالشوفة برّة؟ بتعرف شو صاير معنا هالشهر؟ شغلنا زاد خمس مرات أكتر عن قبل. وقت الحرب ما كان عدد اللي عم يْموتو هالأد. كإنو العالم فَتَحتْ نفسا ع الموت يا رجل! إنّو أنا شفت ابتذال كتير وقليل بهالبلد، بس حتّى الموت وَصّلو يبتذلوه؟ شو بدنا نعمل! اضطرّينا نشغّل معنا تلاميذ جامعات، ومتل ما شفت. مكتبنا بطّل يستوعب العدد. هلّأ عم نفكّر ننقل. وبين هيدا كلو بدك يانا نأرشف إعلانات الميتين؟ اللي بيموت بيموت. هوّي بيكمّل

طريقه، والعايش بيكمِّل طريقه.

– بعتذِر. ما كان قصدي إني إتدخَّل بشغلك ونظِّر...

– لا لا ما تعتذر. أنا اللي بعتذِر منَّك. إنتَ ما بتعرفني. بس أنا هيك برتاح دغري بالحكي، وبصير زيد من عندي. اعتبِرني عم فَضْفِضْلَك... لازم تِشرَب ليموناضة.

– شكرًا. ما في لزوم...

لكنَّ الأستاذ طالب تجاهل جواب خالد ورفع سمَّاعة الهاتف، وتابع:

– لا. لازم تشرب ليموناضة. آلو... لو سمحت، بتبعتلي واحد ليموناضة؟ شكرًا... هيدي الكل بيشربوها هون. بتساعد والله. من كتر ما بتتلف أعصابُن ع التلفونات، في منُّن أنا مأكَّد إنُّو بطَّلو يحسُّو. بحسّْ إذا مَتلُن حدن من عيلتُن مش ح يِقدرو يِتفاعلو مع الوضع. صار عندُن مناعة.

– بقدَر إتخيَّل.

– هلَّأ لنرجَع لموضوعك، عندَك حلّْ واحد إذا بدَّك تفتِّش ع إعلان حدا ميِّت. ترجع ع أرشيف الجرايد، وهيدا طبعًا مش أكيدَ. في الواحد يموت وما يعملولو إعلان. بس في شغلة. ما بعتقد إنُّو الجرايد بِأَرْشفو بمعلومات الإعلان.

– لا ما بِأَرْشفو. بعدني جايي من هونيك. قِلْت بشوف هون قبل...

– ... قبل ما تفتِّش عدد عدد؟ إف. هايْ عملية ما بتخلص. وكلّْ هالشي لتنفي احتمال إنو الزلمي اللي عم تدوِّر عليه مات؟ ما بحسدَك. بس إذا مُصرّْ، ما عندك غير هالحلّْ. بأي سنة مختفي... الزلمة؟

– ١٩٨٧.

– السنة اللي تجوَّزت فيها.

قال الأستاذ طالب وهو يشير إلى صورته مع زوجته الموضوعة في إطار أمامه على المكتب، لكنَّ هاتف خالد رنَّ، فاعتذر من طالب على مقاطعته وردَّ على الاتِّصال.

كانت كنزي تحادثه من المستشفى وتسأل إن كان سيمرُّ لتراه.

راديو أبو بيتر: الجنس العنيف

عقدَت اليوم جمعية "لا" المُناهِضة للعنف ضد النساء مؤتمرًا صحافيًا حذَّرَت فيه من تصاعد غير مسبوق لحوادث العنف المنزلي ضد النساء.

وفي التفاصيل أنَّ الجمعية تلقَّت أكثر من مئة اتصال عن حالات عنف زوجي وإجبار على ممارسة الجنس خلال الشهر الحالي.

وقالت إحدى النسوة التي ظهرت مموَّهة الصوت والوجه في شريط مصوَّر عُرِضَ خلال المؤتمر إنَّ زوجها صار يلجأ إلى أدوية لا تعرف ماهيتها، وازداد تعنيفه لها بشكل هستيري.

ورفضت المتحدثة باسم الجمعية الربط المباشر بين الأحداث التي يشهدها البلد وارتفاع التبليغات الواردة إليهم، وقالت إنَّها تنقل فقط شهادات متفرقة، ولا يمكنها معرفة أسباب الازدياد الغريب في حالات العنف إلَّا بعد دراسة اجتماعية مستفيضة.

وأضافَت المتحدثة أنَّ الوضع الحكومي الحالي، وعدم انعقاد مجلس النواب للتشريع يحول دون إقرار القانون المحدّث الذي أنهت الجمعية صياغته، بعد أن رفض النواب القانون السابق لذرائع دينية واجتماعية تراها الجمعية واهية وتتعارض مع أخلاقيات العيش المتمدِّن.

وأشارت المتحدِّثة إلى أنَّ تبليغ النسوة عن حالات العنف بهذه الكمية يعني أنَّ الأمر بلغ حدودًا خطيرة، إذ أنَّه من المعروف أنَّ الثقافة الاجتماعية السائدة تجعل كثيرًا من النسوة اللواتي يتعرَّضْنَ لعنف زوجي يُفَضِّلنَ عدم التبليغ والاكتفاء بمعالجة الأمور عائليًا أو بالتعايش مع العنف المستمر.

وَدَعَتِ الجمعية قوى الأمن للتعاون مع النسوة اللَّواتي يتَّصلنَ بالرقم الساخن، ولا يحصلنَ على أي مساعدة جديَّة.

رفع أبو بيتر صوت الراديو عندما سمع خبر الجنس. تأتأ وهمهم وضرب كفًّا بكفٍّ وظلّ يعيد ويزيد، ويتحدَّث عن علاقة الرجل بالمرأة، حتّى وصل ليشرح شكل علاقته بزوجته.

"الواحد بدُّو يشدّْ ويرخي يا إستاذ خالد... الواحد بدُّو يشدّْ ويرخي"، قال.

ابتسم خالد له في المرآة، ولم يعقّب. سرح بنظره خارج النافذة، وترك أبو بيتر يكمل حديثه. كان خالد يريد أن يذهب إلى الجريدة فورًا، لكنّ إصرار كنزي على لقائه، وانتباهه لحقيقة أنّه لم يزُر لينا منذ أيام، دفعاه لأن يطلب من أبو بيتر التوجُّه إلى المستشفى.

قطعت السيَّارة الطريق الساحلية عائدةً إلى بيروت. ساق أبو بيتر بطريقته الجنونيَّة المعتادة إلى أن علق في زحمة مدخل بيروت الشمالي. انتظرا ربع ساعة، لكنّ السير أمامهما كان متوقفًا تمامًا. وصلتهما رائحة دخان قوية، وسرعان ما تلبَّد الجو بذرَّات سوداء. سأل أبو بيتر ركَّاب وسائق سيَّارة الأجرة بجانبه إن كانوا يعرفون سبب الزحمة، فأجابوه بالنفي. أطلّ برأسه من النافذة محاولًا تبيُّن ما يحدث آخر الشارع. فتح الباب مبقيًا رأسه في الخارج، ثمّ ترجَّل من السيَّارة، ووقف يستطلع أكثر. عاد فأطفأ المحرِّك، وأخذ المفاتيح، واعتذر من خالد قائلًا إنّه سيمشي إلى الأمام ليفهم ما يجري ثمّ يعود.

غاب أبو بيتر عشر دقائق، ثمّ رجع راكضًا. صعد إلى السيَّارة، وانهمك يشرب من قنِّينة المياه التي سحبها من تحت مقعده. قال وهو يلهث: "دقيقة وبيمشُّونا. عمال شركة النضافة الأجانب معتصمين مسكّرين الطريق بالزبالة ومولّعين فيها. قال في واحد منُّن مضروب بمنطقة الحدث، والهيئة بالمستشفى وحالتو خطرة".

بعد خمس دقائق، انفتَحت الطريق ببطء. كانت قوى الأمن تسيِّر السيارات من أربع صفوف إلى صفٍّ وحيد، بعد إزاحة الدواليب والقمامة التي أشعلها العمال إلى جانب الطريق.

قبل وصولهما إلى المكان الذي كانت فيه الطريق مسدودة، اشتدَّ الدخان. مزَّق أبو بيتر شقفة قماش أخرجها من التابلوه، وأعطى القطعة الثانية لخالد وطلب منه وضعها على أنفه مثله، وصار يسوق بيده الأخرى.

"يعطيكن العافية يا وطنا"، أبى أبو بيتر إلا أن يسلِّم على الشرطي.

وسط الدخان، رأى خالد عناصر من قوى الأمن يحيطون بعمَّال نظافة مجموعين في حلقات على الأرض ومربوطي الأيدي خلف ظهورهم. وعندما أكمل يلتفت إلى الخلف، بعدما تخطَّت السيَّارة العوائق، لمح قوّة أمنيَّة مدجَّجة بالسلاح يقف عناصرها حرَّاسًا على باب مبنى شركة النظافة المغلق بالجنازير، مانعةً العمال المحبوسين داخل المبنى من الخروج، بينما كان الآخرون يعترضون بالصياح على معاملة زملائهم في الخارج.

عاد خالد ينظر أمامه، واستعاد أبو بيتر قيادته الجنونيَّة، وأخذ يقلِّب بين الإذاعات حتَّى استقرَّ على أغنية جديدة من أغنيات كنزي، ثمَّ قال: "هاي صاحبتك اللي سألْتْ عنَّا اليوم". وباشر يتندَّر على كلمات الأغنية راميًا بضع شتائم، قبل أن يقرِّر تدخين سيجارة مع وصوله لتقاطع الإشارة الأولى المفضية إلى مدخل وسط بيروت التجاري.

وصلا إلى المستشفى بعد دقائق قليلة من تخطِّي الإشارة. شكر خالد أبو بيتر، وأطلق سراحه قائلًا إنَّه لم يعد يحتاجه اليوم.

عند باب غرفة لينا، وقف رجل مفتول العضلات مانعًا خالد من الدخول.

"لوين يا إستاذ؟"، سأل الرجل خالد.

"معليش سعيد. خليه يفوت"، قامت كنزي من داخل الغرفة مستدركة.

"مش مبيِّن عليه سعيد أبدًا"، قال خالد وهو يسلِّم عليها.

"هوِّي هيك. بس ما في أطيب من قلبو. من دونه، بقضِّيها عم ردّ

عالتلطيش"، همسَتْ بعد أن أغلقَت الباب.

"وينا لينا؟"، سأل خالد وهو يجلس.

"برّة ع البراندة. عم تدخِّن سيجارة"، قالت كنزي وصبَّت له كوبًا من العصير.

"خير، شو في؟ شو الحلّ اللي لْقيتيه لقصّة كريم؟"، سألها وهو يأخذ منها الكوب.

"هلَّأ مْنِحكي بمطرح تاني"، قالت له بينما كانت لينا تدخل من باب الشرفة.

"كيف صرتي حبيبتي؟ خبِّريني"، وضع خالد الكوب جانبًا وقام يحضنها.

قادها نحو السرير، فاستلقت وأخذت تخبره أنَّ كل شيء على ما يرام. تحادث روجيه يوميًّا، بالرغم من أنَّها لم تخبره بما حدث. الطفل صحَّته جيدة. أجْرَت الفحوصات اللازمة وتأكدت مع طبيبها من كل التفاصيل.

"طب خبَّرتي روجيه عالأقل إنِّك حبلة؟"، سألها خالد.

"لأ. إذا خبَّرتو، ح يترك كل شي ويجي. وأصلًا ما بقى محرزة. شهر وبيخلِّص درسه والمشروع اللي بعتوه عشانه بالشغل. ما بدِّي دركبها فوق راسه هلَّأ"، أجابت.

أومأ خالد لها غير مقتنع وأكمل يسألها: "يعني العلاقة بيناتكن منيحة؟".

"أكيد يعني منيحة. ما في شي. مش متلكن نح..."، عقَّبَت لينا وهي تضحك، ثمَّ انتبهت إلى ما تقوله فتوقَّفت عن الكلام. لاحظ خالد ما تقصده فابتسم.

"تعا لهون"، رفعت رأسها وحضنته، ثمَّ قبَّلته على وجنته.

"كل شي بيمشي حالو بالأخير"، قالت له.

التفت خالد ناحية كنزي، فوجدها جالسة على كرسي تُتابع باهتمام نشرة إخبارية تُبثُّ في تلفاز الغرفة.

"منمشي، نجلا؟"، قال خالد من مكانه.
"يلا لحظة بس ليخلص هالخبر"، ردَّت كنزي.
"لحظة. كيف عْرِفتْ إنُّو إسمي نجلا؟"، استدركت سائلة.

تلفاز المستشفى: رسالة انتحار

... ونتلو عليكم ما ورد في الرسالة التي وُجِدَت بالقرب من الشاب المنتحر:

"تقترب منَّا الأشياء بعدما ظننَّاها بعيدة، وبعدما كنَّا نوهم أنفسنا أننا نتجنَّبها قدر الإمكان. نعزل أنفسنا، وإذا قرَّرنا أن نقترب، نصير ندور حول المشوِّشات والعقبات، ونسلك طرقًا بديلة كي لا نطأ في رمل متحرِّك نثق أنه سيسحبنا إلى الأسفل. وبالرغم من كلِّ جهودنا، بالرغم من كلِّ تركيزنا في تجنُّب الأماكن والناس الخطأ، فإنَّ المسارات تتجاور في لحظة وتتقاطع. مرَّة وحيدة أو أكثر، ليس مهمًّا عدد التقاطعات ولا أسبابها. المهمُّ هو النتيجة. فعندما تحدث الأشياء، تحدث فحسب. وعندما نفشل، نفشل. نفقد سيطرتنا وننجذب إلى مسار آخر كنا نهرب منه. ثمَّ ننتبه بعد إنكار، أنَّنا صرنا في قلب العالم الذي تجاهلناه طويلًا وابتعدنا عنه بإرادتنا. ها نحن فيه، من دون أن نختار، مضطرُّون للتعامل مع كلِّ ما يفرضه علينا. ها هو يمسُّنا مرَّة بعد مرَّة في أكثر التفاصيل شخصية. تذوي طاقتنا ببطء، ونجهد لإرساء تسويات، سواء فشلنا أو نجحنا في تحقيقها، يتواصل تراكم شعورنا بالفشل. تصير طاقتنا تنطفئ بشكل أسرع، حتّى تخمد تمامًا. وينقلب الأمر عندنا من هوس الابتعاد عن المسار، إلى الشعور بالاستهداف. حتَّى إن كانت هذه الأشياء تصيب الكل. لا يهم. ما يحدث موجَّه إلينا. هكذا نشعر. هكذا نثق. نحاول الانزلاق إلى عزلة جديدة داخل المسار الجديد. نعزل أنفسنا عن كلِّ من حولنا، مسترشدين بما نظنُّ

أنَّه حقيقة: إذا كنَّا لا نستطيع الهرب من هذا كلِّه، فلنتقوقع وحيدين في زاوية ننتقيها. لكنَّ الأمر ليس سهلًا، لأنَّنا ببساطة موجودون في الداخل، ولأنَّنا سنرتطم بالأشياء مهما جرَّبنا الابتعاد عنها. هكذا هو الحبُّ الفاشل. هكذا هي السياسة القائمة. هكذا هي الحروب. هكذا هو المسار العلمي المفروض. هكذا هي المهنة التي نكره. هكذا هي الحياة. كلها أنظمة قائمة تمنع فرص البحث والاختيار. تُورِّطنا. هي القويَّة، ونحن الضعفاء. نحن الذين صرنا ضعفاء بعدما انطلقنا ذات يوم في شبابنا مبتهجين، آملين، نعانق الأحلام. أحلامنا كلُّها تسقط تباعًا لأنَّ موازين قوة قد اختلَّت، بمرور الزمن، ولم نكتشفها إلا متأخِّرين. واعون لهزيمتنا، ولا نقدر أن نردَّ شعور الفشل والنهاية. واعون، ولا نستطيع أن نصلح أيًّا من هذا الذي يحدث لنا. فكيف نستمرُّ وسط كلِّ ذلك؟ نحاول. نجرِّب أكثر من مرَّة ونفشل. نحاول ثانيةً حتَّى نصير محض أشباح. البعض منَّا يكون أكثر حظًّا لأنَّه يحظى بشريك يفهمه. لكنَّ الشراكة لا تكفي. فالعالم قائم حولنا، والتورُّط مستمرٌّ، ولا سبيل لتغيير هذا كلِّه. هذه هي الخلاصة: إن لم نكن سعداء، ولَمْ يكن هذا العالم يحبُّنا، فلِمَ نستمرُّ؟ ولِمَ نعيش؟"

سرير، بار، سطح

شقَّة سهى: تستلقي ريم على السرير. هنا كان يمارس خالد وسهى الجنس؟ أين كان ينام خالد؟ على هذا الجانب أم ذاك؟ تمدُّ يدها وتتلمَّس الجانب الآخر، ثمَّ تنهض وتجلس على طرف السرير. تزور الشقَّة دومًا بلا علم خالد. وفي كل مرَّة، تمضي ما يقارب الساعة أو الساعتيْن متفحِّصةً جزءًا جديدًا فيها. تدخل إلى غرفة الأطفال، وتفرد الملابس في الخزانة ثم تطويها وتعيدها كما كانت. تفتح خزانات الحمام وتتفقَّد محتوياتها. تتفقّد عناوين الأسطوانات. تستلقي على الكنبة وتستمع للأغنيات. وفي

مرَّة، تطوَّر الأمر معها لأن تنام ما يقارب الساعتيْن. لحظِّها لم يباغتها خالد. لكان ذلك غريبًا لو حدث. لكن هل يُعاود خالد المجيء إلى هنا فعلًا، أم هي تفترض فحسب؟ مجيئه سيعيد الأمور إلى بداياتها، بل إلى ما قبلها. لماذا يزور الشقَّة إن كان حسم الموضوع؟ تفتح ريم الدرج قربها، وتُخرِج منه دفتر يوميَّاتها. تُقلِّب في صفحاته، وتأخذ تقرأ ما كتبَته سابقًا. هاتفها قربها. تمسك بالقلم، وتفكر في متابعة الكتابة، لكنَّها تعيد القلم إلى داخل الدفتر، وتضعه من جديد في الدرج. تعاود الاستلقاء، وترفع الهاتف. تقرأ الرسائل القديمة التي تبادلَتها مع خالد، وتفكِّر في إرسال رسالة إليه، وتفعل.

بار في لندن: تتوقَّف سهى عن الكلام، وتنظر إلى وجه روجيه المُصْفَرّ. تسأله إن كان بخير. يقول لها إنَّ كلَّ شيء على ما يرام. لديه صداع خفيف فقط. "رشح، أكيد رشح"، يقول ويطلب منها إكمال القصَّة. "كس إخت القصَّة روجيه"، تردُّ. تضع يدها على جبهته، فلا تشعر بأيِّ حرارة. "كَمّلي القصَّة"، يعاود قوله. "حْكيت مع لينا؟"، تسأله. "إي. كل يوم عم إحكي معها"، يجيب. "وعم تقلًا إنو حالتَك هيك؟"، تسأله. "لا. لا. ليه شو بِني؟ ما بِني شي"، يجيبها مستنكرًا. "إنتو الاتنين أضرب من بعض"، تقول وهي تفكر في أنَّ لينا لم تخبره لا بالانفجار ولا بحملها. "إنتي آخر وحدة بيحكي مين أضرب من التاني! كمّْلي القصَّة!"، يكرِّر طلبه وهو يشرب من جعته فتأخذ منه القنينة وتقول: "ما في شرب الليلة".

سطح المستشفى: أخذت كنزي إذنًا من إدارة المستشفى بالصعود إلى سطح المبنى. بدا الطلب غريبًا للإدارة، لكنَّ كنزي شرحت لهم أنَّ الأمر محض اختلاء بالذات، فوافقوا على طلبها مشترطين عدم التصوير. اقترب خالد من السور. كان المبنى هو الأعلى في المنطقة قبل أن تتتالى على حدودها إلى جهة الكورنيش سلسلة من البنايات تفوقه علوًّا. رنَّ هاتفه مشيرًا إلى وصول رسالة نصِّيَّة. نظر إلى الشاشة فظهر اسم ريم. فتح الرسالة

ليجدها تُعلمه بأنّها لن تنام في الإستديو اليوم، وأنّها تُؤثر البقاء في شقّة سهى. صفن قليلًا في الشاشة. كان ينتظر عودتها الليلة ليطمئن ماذا فعلت في أول يوم عمل، وها هي تهرب من المبيت معه. كتب رسالة قصيرة، ونظر إليها لثانيتيْن قبل أن يقرّر إرسالها: "كل هالأد كنت عاطل مبارح؟" وقبل أن ينتظر ردّها وجد أنّ الرسالة سخيفة، وأقرب إلى ابتزاز عاطفي، وتضعه في دور الضحيّة، فأتبعها برسالة أخرى: "إنتي منيحة؟" "أنا كتير منيحة. يمكن شوفَك الليلة عند الختيار. بحكيك"، ردَّت متجاهلةً رسالته الأولى. بينما حدَّق خالد في الردِّ الأخير، وقفت كنزي تتحدَّث مع سعيد الذي كان يحرس باب الدرج. عندما لاحظَت أنَّ خالد أعاد الهاتف إلى جيبه، اقتربَت منه شارحةً أنَّها وجدت السطح المكان الأفضل لهما للتحدُّث، من دون أن يسمعهما أحد، ومن دون أن يقاطع حديثهما المعجبون. "دايمًا بحب إتطلَّع ع بيروت من فوق. مهمٌّ إنّو الواحد من فترة للتانية يِطلَع من المطرح اللي عم يتحرَّك فيه كل يوم، ويتطلَّع عليه من برَّة، أو من فوق"، قال لها وهو يحدِّق في المباني حوله. لم تردَّ كنزي على جملته. انتظرته ليكمل الحديث لكنه لم يفعل، فرأت الفرصة سانحة لتفصح عن فكرتها لمساعدة كريم. وقبل أن تفعل، تقدَّمت ناحيته وأعطته بطاقتيْن قالت إنَّهما لحفل عام تشارك فيه مع زميلتيْها في ساحة ساسين، وإنَّ البطاقتيْن تخوِّلانه دخول المساحة التي ستحتوي على كراسٍ طلبت منه أن يُحضر معه شخصًا آخر، وقالت: "رح تِنبسطو". شكرها خالد، وأخذ البطاقتيْن، ودسَّهما في جيبه، واستمع إليها وهي تشرح فكرتها. في البداية، قالت إنَّها ستدفع للولد قسط مدرسة خاصة، فردَّ خالد أنَّ هذا لن يحلَّ الأمر، لأنَّ أباه لن يقبل فهو بحاجة للمال. صمتت كنزي قليلًا، وقالت إنَّها ستدع أمه تعمل في منزلها لقاء أجر جيِّد. نظر خالد إليها مستغربًا، وسأل عن سبب انتقائها للأم، لا الأب. "البَيّ لأ"، قالت كنزي بحزم. لم يفهم خالد، وشرح لها أنَّ الأب هو المُعِيل الرئيسي للعائلة وأنَّ الأم مشغولة على الأرجح، ومهمتها في مثل

هذه العائلات الاهتمام بكريم وأخوته الصغار. "البَيّْ لأ"، أعادت كنزي بحزم. "ما بِقْدَر"، أضافت. "ليه ما بتقدري؟ ما عم إفهم. لحقْتِي وبدّك تساعدي، ساعدي مظبوط. ما بدِّك تشغّْلي الأب، اعطيه مصاري"، قال لها. ردَّت كنزي أنَّ مساعدة الأب أمر غير محبَّذ في حالتها. لم يفهم خالد قصدها، وطلب منها أن توضح أكثر. شرحت له أنّها استشارت محاميها قبل عرض الفكرة عليه، وقالت إنَّها لا تودُّ أن تقوم بأي خطوة قد تؤثِّر سلبًا على موقفها القانوني في قضيَّة حضانتها لأولادها، وأضافت أنَّ المحامي شجَّعها على مساعدة الولد لأن ذلك سَيُقوِّي موقفها في القضية بوصفها فاعلة خير. "بدي أعرف مين هوِّي هالمحامي العرص"، فلتت الجملة من فم خالد. "وكيف ح تْأثِّر مساعدتِك للبيّْ سلبيًا ع القضيَّة؟"، تابع يسألها بغضب. "متصاوَب البَيّْ"، قالت كنزي وصمتت للحظة. "بأسوأ الحالات ممكن يْقولو عنُّو ارهابي... وبأحسن الحالات بيقولو إنُّو كان عم يشارك بالقتال. بالحالتين هيدا بيضرب موقفي بالقضية"، أكملت. ضرب خالد كفًّا بكفٍّ وعلت نبرة صوته: "إنتي أصلًا ما بدِّك تساعدي الولد. إنتي بدّك تستعمليه!" "وين الغلط إذا فِدت واستفَدت؟"، ردَّت كنزي. جُنَّ خالد وصار يصرخ فيها: "ولك إنتي خالصة بالمرَّة. بالمرَّة خالصة. ما في عقل!" اقترب سعيد وطلب منه أن يُخفض صوته ويبتعد عن كنزي، فتلاسن خالد معه. حاولت كنزي تهدئتهما والتفريق بينهما، فطلبت من سعيد العودة إلى باب الدرج، لكنَّ الأخير لم يمتثل، وهوى بقبضته على وجه خالد.

حكاية تطفو فوق لندن – ٤

كان من المفترض أن يردم ما حدث الفجواتِ بيننا. عدنا نمارس الجنس، لكنَّ النتائج عاكَسَتْ توقُّعاتي. صار جسمي يتشنَّج كلَّما اقترب منِّي. كنتُ أطالبه بالإبطاء أو بالرقَّة، بالرغم من أنَّه كان حميميًّا للغاية. وكان هدفي

أن أكرِّر ذاك الشعور معه. بلا قصد صرتُ أقارن بتلك المرَّة، وكان أملي يخيب دومًا.

فتر كلّ شيء. كعادته لم يلاحظ. كان يتصرَّف مثل ماكينة تعوزها الأحاسيس، ويقفز من الشيء لنقيضه بلا تمهيد. كان يطلب النوم معي أكثر من قبل، ويكرِّر طلبه بطرق مختلفة، لكنَّه كان يقوم بذلك بلا أيِّ حركات نافرة، ولم يكن يجبرني على شيء.

استجَبْتُ لطلباته، بينما كنتُ أذهب بالخفاء عنه إلى الطبيب، لأتأكَّد من أنَّه لا مانعَ طبيًّا عندي بعد الإجهاضَين. ومع تتالي جنسنا، حدستُ أنَّه صار متشنجًا. كان واضحًا من طريقته في الحبِّ أنَّه بات يقوم بمهمة. كان عندما يقذف فيَّ، يبقى فوقي. وإذا زاح قليلًا عني، افتعل عناقًا ليمنعني من القيام، وليتركني مستلقية بعد القذف بلا حركة مقدرًا على الأرجح أنَّ وضعيَّة كهذه سترفع من فرص حملي.

لكنِّي بقيتُ لا أحبل. وانتهَت فترة الاختبار التي وضعتُها لعلاقتنا، فبدأتُ آخذ حبوب منع الحمل من دون أن أعلمه.

وحينها...

مهلًا! هل حدثتُك عن زياراتي السابقة لأبيه؟

بدأت علاقتي بوالده بطريقة غريبة للغاية. اتَّصل العجوز بي بعد فترة قصيرة من زواجنا، وطلب رؤيتي من دون أن أُعلِم ابنَه. ذهبتُ وقابلتُه في بيت الرجاء حيث يعيش. وأحببتُ الرجل. كان مختلفًا. وطلب أن أبقى أتواصل معه، لأنَّ خالد لا يجيب على اتِّصالاته الهاتفية ورسائله النصيَّة. وافقتُ، وصرتُ أطلعه على أخبارنا في الزيارات أو عبر الاتِّصالات.

عندما دخلتُ دوامة الحمل والإجهاض انقطعَت زياراتي للأب. وهو عندما عرف، اتَّصل بي وواساني. كان يعرف كيف يتصرَّف، وماذا يقول. وقال لي ما لم يقله ابنه.

وعندها، وددتُ أن أفهم أكثر.

عاودتُ زياراتي له. طلبتُ منه أن يحدِّثني عن علاقته بزوجته. لن أروي لك تفاصيل هذه القصَّة لأنه جعلني أُقسِم ألَّا أفصح لأحد، وقال إنَّه هو نفسه لن يشرح ثانيةً إلا لابنه. كان واثقًا من أنَّ خالد سيعود يومًا ما ليتواصل معه ويستمع إليه. وقال إنَّ عليه انتظار ذلك اليوم لأنَّه لا يستطيع إجبار ابنه على الاستماع. سأكتفي الآن يا روجيه بالقول إنَّ استماعي لقصة الأب والأم جعلني أفهم خالد أكثر. عرفتُ عندها أنَّ عليَّ إنهاء علاقتي به فورًا. بات واضحًا لي أنِّي لم أكن مناسبة له. كنتُ مناسبة له كَكَتف، كنتُ مناسبة له كما كنتُ، لكنِّي أنا لم أكن تلك الإنسانة. أنا صرتُ هكذا من أجله، من دون أن أنتبه.

السياق وأنا وهو، جعلوني هكذا.

لكنَّ السياق انفضح، وفهمتُ لحظتئذ لماذا ماتت مشاعري تجاهه.

حسمتُ خياري، وأجَّلتُ التنفيذ، لكن ما حدث بعدها سرَّع اتِّخاذ القرار.

ابتسامة عين متورِّمة

أفاق خالد ليجد لينا وكنزي فوقه. أمسكَتْ لينا بيده اليسرى، ووضعت كنزي كيس ثلج على عينِه اليمنى. أزاح خالد الكيس، وحاول أن يفتح عينه، لكنَّه أحسَّ بألم رهيب. طلبت لينا منه التوقُّف عن المحاولة وقامت لتنادي ممرِّضة الطوارئ، بينما أخذت كنزي تعتذر منه عن فعلة سعيد فقال لها:

– عادي نجلا، عادي. أنا كمان اتصرَّفت بشكل سخيف معِك. بعتذِر.

– لا، لا. لازم يتعاقب سعيد. أنا قلتلُّو يرجع محلُّو، بيرجع محلُّو. من بكرة طاردتو من الشغل.

– نجلا، خلص ما بتستاهل القصّة.

– لا. كيف هيك. غلّط ولازم يتقاصَص.

– نجلا، الله يخليكي ما عندي طاقة حارج.

– وْلُك حاج تقلّي نجلا! أنا إمّي وولادي بَطّلو يعيّْطولي بهالإسم! ما في غير جوزي بس بدّو يتمنيَك عليّي بيستعملو!

أخذ الضحكُ من خالد، فسألَتْه مستغربة:

– شو في؟ لأ، جدّ شو في؟ ولُكْ شو في!

– أول مرّة بتسبّي قدّامي.

– وهيدا شي بيضحّك يعني؟ بدك تسمعني عم سِبّْ؟ بعرفُن كلن. تعلّمت منّو أصلًا. من جوزي. صِرْت بعمل جهد حتّى ما تفلت منّي كلمة هيك أو هيك. أوقات بس نرفز بشي مقابلة، بروح بأوّل Break ع الحمام. بوقّف سعيد برّة حتّى ما يفوت حدا، وبصير بقعد صرّخ: شرمووووطة! شلكّككة! يا منااايك!

عادت لينا مع الممرّضة فوجدَتْهُما يضحكان. اقتربت الممرّضة من خالد لتقيس ضغطه، وأعلمته أنّ صور الأشعّة بيّنَت أنْ لا كسور في محجر العين، لكنّ الورم سيبقى يؤلمه أسبوعين على الأقلّ، ثمّ شرحت له أنّ طبيب الطوارئ وصف له بعض المسكّنات والمراهم لتخفيف الاحتقان.

سأل خالد الممرّضة إن كان يقدر على العمل اليوم، فاستهجنت لينا سؤاله. ردّت الممرّضة إنّ الأمر متروك لتقديره، لكنّها تفضّل ألّا يُنهِك نفسه كثيرًا، وحذّرَته من أنّ المسكّن يُرخي العضلات ويجعله ينام، لذا يُفضّل ألّا يأخذه خارج المنزل أو إذا كان يقود.

"ضغطك منيح"، قالت وهي تنزع رباط آلة الضغط.

نهض خالد من استلقائه وجلس على السرير، ثمّ سأل عن حذائه.

"لوين!"، استهجنَتْ لينا من جديد.

"رايح. إنتي إمتى ضاهرة؟"، سألها.

"بكرة"، ردَّت.

"إي... وأنا اليوم"، قال وهو يلبس الحذاء الذي أعطته إيّاه كنزي.

لم تنجح محاولات لينا بإقناعه أن يبقى في المستشفى ليوم أو أن يتوجّه إلى البيت على الأقل. كان مُصرًّا على العودة إلى الجريدة وبدء البحث في إعلانات الموتى. أضاع ما يكفي من الوقت اليوم، ولن يستطيع أن يقعد في الإستديو وحيدًا بلا ريم.

أصرَّت عندها كنزي أن تُوصله بنفسها. رافقَته إلى سيّارتها، وجعلت سعيد يعتذر منه. سألها خالد إن كان يمكن للسائق أن يتوقّف عند أيٍّ محل يبيع نظّارات شمسية ليشتري واحدة يُخفي إصابته، لكنَّ كنزي قالت أن لا ضرورة، وطلبت من سعيد الجالس في المقعد الأمامي أن يفتح تابلوه السيّارة، ويُخرج منه نظّارة.

"أكيد؟"، سألها خالد.

"ما في أكتر منُّن. خدًا"، قال.

"هاي رجّالية"، علّق وهو يعاين النظّارة.

"إي. للّي ما بيتسمّى. خدًا. عم كِبّْ كل قصصو أصلًا. شو بدَّك فيه: بلاطنين، كرافاتات، جاكيتّات، كلّو موجود! إلبِسا لشوف"، أمرَتْه.

"تمام؟"، سألها بعد أن لبسها محاذرًا إيلام نفسه.

"Perfect"، ردَّت.

شكرها وترجّل من السيّارة التي كانت قد توقّفَت قرب مبنى الجريدة، ثمّ وضع يدَيْه على النافذة وقال:

– إذا بدِّك تساعدي كريم، ساعديه. أنا ما ح إتدخّل.

– بس منّك راضي ع الطريقة. طب شو ممكن أعمل؟

– قوليلو كل شي ح تعمليه. عالأرجح ما ح تقدري تقولي للأب والإم، لأنُّن مش ح يقبلو. بس قولي لكريم. بعتقد هوّي بيقدر يقرِّر، ويقول إي أو لأ.

- أوكي.
- مع السلامة.

تابعته كنزي وهو يدخل المبنى، ثمَّ لبست نظارتها وطلبت من السائق أن يوصلها إلى منزلها.

ما رواه ضرغام -١٢

ظلَّ خالد في قسم الأرشيف، حتَّى أنهى البحث في إعلانات الموتى لعام ١٩٨٧ والنصف الأول من عام ١٩٨٨، لكنَّ حالة عينه لم تساعده على أن يكمل، فآثر العودة إلى الإستديو. ابتلع حبَّة منوِّم ورمى نفسه على السرير، ثمَّ سحب الهاتف من جيْب بنطاله وأضاءه، وانتظر حتَّى تصله الرسائل التي أُرسِلَت أثناء فترة إطفائه.

انهالت التبليغات بالرسائل دفعة واحدة، ففتحها بترتيب وصولها. وجد إعلانات، والرسالة نفسها من موقع "موكب الموت المدهش"، وانتبه لرسالة من ريم وصلته منذ ساعتيْن، تُعلمه فيها أنها ستكون عند ضرغام عند التاسعة، وتؤكِّد عليه أن يُحضِر معه المسجِّلة. نظر خالد في ساعة الهاتف فوجدها تُقارب التاسعة مساءً.

وفي تلك اللحظة، وصلته رسالة أخرى منها تسأله: "جايي؟"

قام خالد، وأخذ المسجِّلة الرقميَّة عن الطاولة، واتَّجه إلى شقَّة ضرغام. رنَّ الجرس، ثمَّ انتبه أنه ترك النظَّارة في الإستديو، فأراد العودة ليأتي بها، لكنَّ ريم باغتَته بفتح الباب، فدخل مباشرةً من دون أن يسلِّم عليها أو أن يترك لها المجال لتسأل عن إصابة عينه.

قبل أن يباشر ضرغام حديثه، رفع صحنًا فيه أكياس شاي مستعملة وطلب من خالد أن يضعها على عينه، موضحًا: "مناح ليفشّ الورم".

اكتفت ريم بالاستماع إلى العجوز من دون أن تنظر باتجاهه. كانت

تركِّز بالتحديق في خالد. من مكانها لم تستطِع إلا أن ترى كتفه الأيسر ورأسه الذي كان ينحني تباعًا. مدَّت يدها اليمنى من وراء الكرسي والتقطت أصابع يده اليسرى، لكنَّه لم يتجاوب معها.

"الظاهر نام؟ بكفِّي إحكي أو بْوقِّف؟"، سألها ضرغام.

***

تعود الفرص. تتتالى في غير مصلحتي كأنَّها تعتذر عن تتابعات سابقة. بل كأنَّها تنتقم.

عام ١٩٨٣، قام سليم بانتفاضته.

عاد ذات مساء غاضبًا من مدرسته. دخل مباشرةً إلى غرفة النوم، ثمّ تشاجر مع جانيت. عدتُ فوجدتُها تبكي. سألتُها عمَّا حدث، فأجابتني أنَّ الولد أسمعها كلامًا قاسيًا. أخذتُ أهدِّئها وأقول كلامًا عن مراهقة الولد المبكرة، ثمَّ سألتُها عن سبب غضبه. أجابَت أنَّه صرخ فيها قائلًا إنه سيذهب في الغد إلى مدرسته وحيدًا بلا حماية، لأنَّ أصحابه في المدرسة يهزأون منه، وقال إنَّه لم يعد ولدًا.

"عال! يروح لوحده ع المدرسة!"، قلتُ ضاحكًا.

قامت جانيت وأخذَتْ تذرع الغرفة ذهابًا وإيابًا بعصبيَّة ظاهرة، فطلبتُ منها أن تتوقَّف. ولمَّا تجاهلَتْ طلبي، ناديتُها باسمها: "جانيت". وإذ أخذتُ أعيد اسمها وهي لا تردُّ، انتهى الأمر بي أن أصرخ فيها لتتوقَّف.

جمدت جانيت في مكانها ونظرَتْ إليَّ نظرتها اليائسة التي سأراها لأعوام طويلة بعدها، فقمتُ واعتذرتُ شارحًا: "هوي ح يفكِّر إنُّو رايح لحالو ع المدرسة. بس مش هيك ح يصير".

ذهبتُ أفتِّش عنه، فلم أجده في غرفته. وقفتُ في الشرفة، وكانت العتمة قد بدأت تطمس الوادي القريب وتحوُّله إلى فجوة سوداء. استطعتُ لمحه

واقفًا قرب الجلّ. ناديتُه، فالتفت ناحيتي. التحقتُ به وأخذنا نتمشّى على الطريق الترابية. بدأتُ الكلام معه بأنّي أقنعتُ جانيت بقبول طلبه، شرط أن يعتذر منها. لكنّه رفض الاعتذار، وقال إنّه لم يرتكب أيّ خطأ، وإنّ ما يريده ليس طلبًا ينتظر قبولها أو رفضها ليتحقّق. ثمّ أخذ يقول إنّ أحدًا لا يفعل مع أولاده الذي تفعله هي معه. لا أحد يفهم لِمَ يحضر إلى المدرسة ويغادرها بحماية المسلّح. اليوم، عندما تشاجر مع تلميذ، ودفعه الأخير أرضًا، سأله التلميذ ماذا سيفعل، وكيف سيردّ؟ هل سيستدعي المسلّح الذي ينتظره في الخارج؟

قرّر سليم عندها الخروج من المدرسة، وتجاهل المسلّح، والعودة إلى المنزل وحيدًا مشيًا على الأقدام، لا لكي يثبت للتلميذ، بل ليثبت لنفسه.

هل تعرف ماذا فعل رجلُك الذي أرسلتَه ليحميني؟ عندما رآني خارجًا ناداني، فلم أردّ عليه. لحقني بالسيّارة ببطء، ولمّا تزاحمت السيّارات وراءه، رحتُ أمشي على جانب الطريق، فاسحًا المجال للسيارات لتتخطّاه. بقي يقود سيارته بموازاتي، ثمّ فتح الشبّاك وطلب منّي أن أصعد، فتجاهلتُه. خطر لي أن أدخل الحرج القريب، وما إن بدأتُ أنفّذ خطتي بالانحراف، حتّى أوقف السيّارة ولحق بي. وبالرغم من أنّني لم أركض، وجدتُه يحملني ويعيدني إلى المقعد الأمامي عنوةً، فأشبعتُه من الرفسات بما أعجب خاطره.

"مين كان عم يحرسك اليوم؟"، سألتُه.

"مش مهم الإسم"، ردّ رافضًا الإفصاح.

"بس ما انبسطت إنّي لبطّتو"، أكمل قبل أن يصمت.

قدّرتُ أنّ عليّ التحدّث معه أكثر في تفاصيل لو سمعَتني جانيت أتشاركها معه، لتعاركنا. كنتُ أعلم أنّي أتخطّى بحديثي معه خطًا أحمر، وأطيح بشرط من شروط زواج جانيت منّي، لكنّي كنتُ أعرف أيضًا أنّي تجاهلتُ لأعوام طويلة حقيقةَ تجاوزي هذا الخط بالفعل، ومنذ البداية، منذ كذبتُ وثمّرتُ حادثة الجلّ لأبدأ علاقتي بها.

"يمكن ما انبسطت لأنك كنت مأكّد إنو مش ح يِئذيك؟"، سألتُه.

إيذاء من نثق بأنّه لن يردّ لنا الضربات ليس على الأرجح بالشيء الممتع. فهي حركة فارغة من المعنى. وربما من هنا تأتي متعة الحرب؟ من عدم توقّع ردّ فعل الطرف الآخر؟ من الثقة بوجود احتمالات مختلفة؟ من إمكان ردّ الطرف المقابل أحيانًا، وتعفّفه عن الردّ أحيانًا أخرى؟ من الفرَص المتقلّبة بين الفوز والخسارة؟ أم تكون متعة الحرب في ما هو معاكس لكلّ هذا؟ في الإيذاء الذي نعرف أنّه سينتهي عاجلًا أم آجلًا بتسوية؟ وإذا كان كذلك، فكيف إذن نصِفُ كمّ الإيذاء الذي قمنا به؟ وكيف نقيسه، وكيف نحدّد متى ينقلب الإيذاء خطيئة؟ كيف نتأكّد من صوابية الحرب التي نخوضها؟ وكيف نكون صائبين في حربٍ قد لا تعود صائبة في لحظة، ولا نملك قدرة إيقافها من دون أن نخسر استثماراتنا في التسوية المقبلة؟ على الأرجح سنكتشف في لحظةٍ ما أنّنا داخل الدوّامة، وأنّه لا بديل لنا إلا أن نكمل. وقد نستطيع الهربَ بالطبع، إذا امتلكنا الفرصة. لكن ما الذي سيحدث بعدها؟ هل تتوقّف الدوّامة؟ وهل ترتاح ضمائرنا؟ السؤال باختصار: هل يمكننا أن نفعل شيئًا يصوّب وِجْهةَ هذه الحرب، أم أنّ الحرب تبقى غير مبرّرة لأنّها حرب؟

مع من كنتُ أتحدّث؟ مع سليم أم مع جانيت؟

قلتُ كلّ شيء في ذهني حتّى لم أجد شيئًا أقوله. لم يعقّب سليم مباشرةً. لم يقُل إنّ هذا لا علاقة له بما حدث معه. هل كان صمته موافقة ضمنيّة على ما قلتُه؟ هل كان يفكّر بتلك الأسئلة التي طرحتُها؟ أم أنّه لم يفهم شيئًا ممّا قلتُه؟

توقّف سليم عن المشي، وصار ينظر في فراغ الجلّ الأسود، ثمّ سألني وهو يشير بيده: "هون صارت الحادثة؟".

نظرتُ أمامي، فانتبهتُ أننا توقّفنا في المكان الذي ترجّلتُ فيه من السيّارة قبل سنوات. وبالرغم من أنّه لم يكن ممكنًا تبيُّن المكان بسبب

العتمة، إلَّا أنّني كنتُ أحفظ البقعة من شجرة تفّاح تقف وحيدة على جانب الطريقِ الترابية.

لم أُجِبْهُ على سؤاله، وهو لم ينتظر إجابتي، تركتُه يتحدَّث كما تركني أتحدَّث.

قال إنَّه دائمًا ما حلم بذاك النهار. كانت الصُّوَر تأتيه مشوَّشة، ولم يكن يفهم لصغر سنِّه. ثمَّ وجد نفسه يتوقَّف ويُطيل النظر في الجلِّ، عندما كان يسلك الطريق الترابية خارجًا من المنزل أو عائدًا إليه، ولا يدري لماذا، ولم يلبث أن وَضُحَتْ أحلامه أكثر، وصار يتذكَّر تفاصيلها بعد أن يفيق.

لم تأتِني في الحلم حتَّى وقت قريب. في البداية، كنتُ أمسك بيدِك، ولم أكن أعرف صاحب اليد. ثمَّ صرتُ أرى طرف قميصك، وبعدها جاكيتتك، ثمَّ يديْك وهما تضمانني وتبعدانني. ثمَّ رأيتُك، وفهمتُ، وقدَّرتُ أنّني لن أتوقَّف عن رؤية الأحلام إلا بعد أن أسألك: "شو عاد صار؟ بعدُن هون؟".

حدَّقتُ فيه وسط العتمة، محاولًا تبيُّن تفاصيل وجهه. أردتُ التحقق ممَّا إذا كان قد صار فعلًا في مقتبل مراهقته. كنتُ أشعر أنَّه كبر فجأة، في غفلة عنَّا، أنا وجانيت. ربتُّ على ظهره، واستدرنا عائديْن باتجاه المنزل، وأجبتُه باقتضاب: "فَلَّو. في منُّن نزلو ع بيروت، وفي منُّن راحو ع مناطق تانية".

"يمكن ما بقى لازم شوف الحلم إذا فلُّو. المفروض إنُّو القصة خلْصِتْ"، تابع.

"ما بتعرف كيف بيتصرَّف راس الواحد... بس إذا كان هالشي بيساعدك، إي، القصَّة خلصت. فكِّر دايمًا إنَّا خلصِتْ، بركي بتبطِّل تحلم فيَا"، قلتُ.

خطر لي أن أسأله إن كان قد أخبر أمه، ثمَّ تراجعتُ عن فكرتي. وبعد خطوات قليلة، وجدتُ السؤال يسيطر عليَّ من جديد في صيغة أخرى

فقلتُ له: "ما تخبِّر الماما عن شي. مذكّر أدّيه عذّبِتْني لَقِنْعِتْ معي إنك تروح ع المدرسة وحدك".

ابتسم سليم ابتسامة تدلُّ على استيعابه لطلبي. أراحني ردُّ فعله، إذ أنَّني فهمتُ منها أنَّه لم يخبر جانيت بعد بمضمون أحلامه. عند باب البيت، طلبتُ منه ثانيةً أن يصالح أمه، فابتسم واتَّجه إلى غرفتها.

في اليوم التالي، عدتُ من جولتي على أملاكي في بيروت متأخِّرًا، بعد أن حوصرتُ في منطقة بضع ساعات، منتظرًا توقُّف إطلاق النار، فوجدتُ جانيت على حالها جالسة على طرف السرير.

"مسا الخير"، قلتُ وأنا أجلسُ لأخلع حذائي. لكنَّها ردَّت عليَّ بسؤال مباغت لم أتصوَّر يومًا أنَّها ستسأله:

– مينْ دافِن بالجلّ؟

عودة إلى الصحافة؟

يشعر بالعمق. ينسحب. إلى الخلف أم إلى الأمام، لا يدري. لا يقدر أن يحدِّد الوجهة التي يُرمى فيها. يهوي إلى نهاية ما، ويثق في لحظة أنْ ليس لوقوعه آخر. ثمَّ يقوى إحساس الانسحاب عنده. "لعلِّي أكاد أصل، لعلِّي سأرتطم الآن"، يقول لنفسه.

"قوم شوف مديرك القديم شو كاتب اليوم"، قال ضرغام ورمى الجريدة على وجهه. تعالى خالد على الألم وحاول فتح عينيْه، فآلمته أكثر من البارحة. وجد العجوز يُكرِج كرسيَّه المدولب خارجًا إلى الشرفة، وهو يقول له: "الساعة ١٠. نِمْتِلِّكْ شي تناعْشَر ساعة. شو آخد دوا مبارح؟"

اعتدل خالد في جلسته، ونظر حوله، فانتبه أنَّه كان نائمًا على الكنبة في غرفة الجلوس بشقَّة ضرغام. نهض حاملًا الجريدة، وحاول أن يقرأ فيها، لكنَّ الحروف اختلطت في مرمى بصره، فتوقَّف عن المحاولة.

مشى خارجًا إلى الشرفة ليجلس مع ضرغام. وقعت أشعة الشمس على عينه المصابة، فَغيَّر من مكانه وأعطى ظهره للشمس ثمَّ وضع الجريدة أمامه.

سأل العجوز وهو يصبُّ قهوة في كوبه كيف انتهى نائمًا على الكنبة فأجابه:

– ع الكنباية؟ نِمت ع الكرسي. وخود بقى مين يشيلَك. قَيِّمتَك البنت بالزُّور، إنت ونصّ نايَم. وضلِّت قاعدة حدَّك شي ساعة. بعدين أنا قنَّعْتَا تْفِلْ وتتركَك.

شرب خالد القليل من القهوة، ونهض وهو يقول إنَّ عليه الذهاب لارتباطه بمواعيد. ناداه ضرغام ورمى له المسجِّلة وقال: "تسجيل قعدة مبارح".

التقطها خالد، والتفت لينصرف، لولا أنَّ ضرغام أكمل يسأله:

– بتحبَّا؟

– ها؟

– للبنت. بتحبَّا؟

– بعدني فايق هلَّأ. ح روح آخد دوش، وْفِيقْ مظبوط، وبعدين بفكِّر إذا بِقدَر جاوِب ع أسئلة مصيريَّة.

– لا مصيري ولا شي. بتحبَّا؟ إي أو لأ؟

– بعتقِد. إيه.

– ما تعتقِد. بتحبَّا؟

– بحبَّا.

– برافو عليك. منيح إنَّك عارف. يلا تسهَّل. وخود الجريدة شوف مديرك شو مخبِّص وكاتب.

من الإستديو، اتَّصل خالد بأبو بيتر وطلب منه القدوم ليقلّه إلى الجريدة، ثمَّ دخل ليستحمّ. في التاكسي، هرب من مونولوغات السائق بأن وضع

السمّاعات في أذنَيْه واستمع لتسجيل جلسة البارحة، فيما هو يتصفَّح الجريدة.

في قسم الأرشيف واصل بحثه، عامًا بعد عام: ١٩٨٨، ١٩٨٩...

موتى، موتى، موتى. ولا أثر لجانيت الخوري بينهم.

عندما وصل إلى مجلّد شهر آذار من العام ١٩٩١، أدار هاتفه، ونظر إلى الساعة، فوجدها قد قاربت الثالثة بعد الظهر. قرّر الاستراحة بعض الشيء، والذهاب لتناول الغداء في مكان قريب. وقبل الخروج، طلب من الموظّف أن يترك الميكرو – أفلام خارجًا كما هي، وشرح أنه سيعود بعد ساعة لمتابعة العمل عليها، ثمّ خرج من الغرفة، وانتظر وصول المصعد.

فتح الباب، فوجد رئيس التحرير واقفًا فيه. سلّم عليه بحرارة ودعاه للدخول فدخل، ثمّ استفسر منه إن كان بخير، قاصدًا عينه المتورِّمة. أجابه خالد بتحفُّظ أنّها إصابة غير مقصودة. همهم المدير، وانتقل إلى سؤاله عن سبب قدومه المتكرِّر إلى الجريدة، متداركًا سؤاله بالقول إنّ الجريدة ترحّب به في أيِّ وقت، وسؤاله نابع من حشريّته فقط. ابتسم خالد وردّ أنّه يزور قسم الأرشيف من أجل بحث يقوم به.

عندما وصل المصعد إلى الطابق الأرضي، فتح خالد الباب وخرج، ثمّ أمسك الباب وفسح المجال للمدير ليمرّ، فسأله الأخير عن وجهته.

تلعثم خالد وقال إنّه ذاهبٌ ليتغدّى، فردّ رئيس التحرير بحماسة: "عال. منتغدّى سوا. بدّي إحكي معك بموضوع أصلًا. يلّا. السيّارة وُصْلِتْ".

لم يجد خالد أي ذريعة لبقة يتهرّب بها من الدعوة، ولم تمضِ دقائق حتّى وجد نفسه في السيّارة السوداء مع مديره.

في المطعم الفخم، سأله المدير ما إذا كان قرأ مقالته المنشورة اليوم. وبالرغم من أنّه قرأها في تاكسي أبو بيتر وهو يستمع إلى تسجيل ضرغام، كذب خالد قائلًا: "بعد... بس ح إقراها".

"لازم تقراها، وتقلّي رأيَك"، أكّد المدير.

تهرَّب خالد من الاستفاضة في موضوع المقالة بتصفُّحه لائحة الطعام، لكنَّه وجد الأمر معقَّدًا. اللغة فرنسيَّة والأصناف كثيرة. لاحظ المدير اضطرابه، فاقترح أن ينتقي له صحنًا، واستفسر منه إن كان لا يأكل أنواعًا معيَّنة من الطعام.

"بس السي فود ما باكلو"، ردَّ خالد.

"عم تروِّح عليك كتير"، علَّق المدير بنبرة آسفة، ونادى نادلًا باسمه الأول، مُعلمًا إياه عن الأطباق التي قرَّر طلبها.

في المكان، انشغل الحاضرون ببثٍّ مباشر على تلفزيون قريب، وفهم خالد بسهولة أنَّه يتعلَّق بموقع "موكب الموت المدهش". عندما أنهى المدير شرح طلباته للنادل، انضمَّ إليه في المشاهدة، وعلَّق قائلًا:

– سَهَّلو عليِّي المهمة. هيدا الموضوع اللي بدِّي إحكي معك فيه. حوادث الموت هاي اللي العالم عم تحكي عنها، شو رأيك تعمل تحقيق عنُّن؟ هيدا موضوع اجتماعي، ما إلو علاقة بالسياسة، وبدُّو بحث وشغل ع الأرض. وأنا مأكِّد إنُّو ما في حدا بيقدر يعمل هيك شغل غيرك. شو رأيك؟ ما تجاوبني هلَّأ. فكر ع مهل، وخود وقتَك، وردْ عليِّي. وما تخاف، مش ح تلاقينا طالبين منَّك شي تاني. لا تحرير ولا مواضيع تانية. بتقعد تركِّز عَ هيدا الموضوع وبس!

ابتسم خالد، ولم يعقِّب. أنقذه قدوم النادل الذي بدأ يوزِّع أطباق مازة باردة من الصينيَّة التي حملها على الطاولة. ثمَّ مضَت الجلسة: همهمات وابتسامات وضحكات ساعدت في تلافي أكثر من تورُّط ودَّ المدير أن يدفع باتِّجاهه. صمد خالد بلباقة، وانتهى الغداء بأقلِّ أضرار ممكنة، قبل عودتهما بالسيَّارة نفسها إلى مبنى الجريدة.

١٩٩١، ١٩٩٢، ١٩٩٣، ١٩٩٤، ١٩٩٥...

انهمرت الصُّوَر من جديد. الساعة التاسعة مساءً، رنَّ هاتفه منبئًا برسالة نصِّيَّة، فانتبه أنه نسيه مفتوحًا عندما خرج إلى الغداء.

ريم تسأله: "إنت منيح؟".

أراد أن يجيبها، لكنَّه لم يفعل. ترك الهاتف أمامه، وواصل بحثه في إعلانات العام ١٩٩٥. عشر دقائق، ووصلته رسالة ثانية منها: "وينك؟ أنا بالبيت. تعا". حمل الهاتف، وقبل أن يقوم بأيِّ فعل، ظهرت رسالة ثالثة موضِّحة: "أنا ببيتك القديم قصدي".

"وهيِّي؟ منيحة؟"، كان هذا أول ما تبادر إلى ذهن خالد بعد أن تتالت رسائل ريم بهذه الفترات الزمنيَّة القصيرة. أوقف بحثه وبعث لها رسالة يقول فيها إنَّه قادم. شكر الموظَّف، وخرج مسرعًا ليوقف أول سيَّارة تاكسي.

مقالة رئيس التحرير: ليس احتجاجًا!

الانتحار ليس احتجاجًا.

لم أكن لأكتب هذا الرأي الجازم، إلا بعد متابعتي لتفاصيل قصص انتحار خمسة أزواج من الشباب المتحابِّين خلال الأسبوعيْن الماضييْن.

يقول الخبر إنَّ الأزواج الخمسة انتحروا بالطريقة نفسها بفارق أيام بسيطة، من دون أن تربطهم علاقات معرفة سابقة. ويبدو أنَّهم جميعًا قد قرأوا التغطيات الصحافية لتفاصيل انتحارات من سبقهم، فنفَّذوها على النحو نفسه، مع اختلافات طفيفة، تاركين وراءهم رسائل تشرح عدم اقتناعهم بجدوى الحياة، وصعوبة انتظارهم الموت القريب الذي قد ينتقي أحدهما ويترك الآخر حيًّا.

وتُشير الرسائل إلى أخبار الموت الجماعي غير المثبتة التي نسمع عنها منذ فترة بالتناقل عن الناشطين على الشبكات الاجتماعية، مؤكِّدة على الطابع الاحتجاجي للانتحارات عبر إضافة بعض الأبيات الشعرية المشهورة في بدايات الرسائل وفي متنها.

هذا ملخَّص الخبر، وأجزم أنَّه مرشَّح للتكرار والنسخ كعادة أيِّ شيء يظهر في بلادنا. وبسبب احتمال اتساع هذه الظاهرة، ينبغي لي توصيف ما يحدث بشكل واضح، وبلا مواربة. إنَّ هذه الأفعال هي أفعال بائسة لا ينطبق عليها الطابع الاحتجاجي مطلقًا، بل تكاد تُقارب حدود الترف. فإذا كان لا بد من موت، وإذا كان الشباب يوجِّهون رسالة، فلِمَ لا ينضمُّون إلى المعركة الدائرة خلف الحدود؟ لماذا يميت الواحد منهم نفسه بهذه الطريقة الاستعراضية وأمامه ما يكفي من الفُرَص ليخدم بموته قضية محقَّة ويبعد الخطر عن أبناء بلده؟

ولأكُن أكثر وضوحًا. في زمن يتعرَّض فيه البلد لهجمات من كل الجهات، تبدو هذه الانتحارات اعتكافًا صبيانيًا عن المشاركة في المعركة المفروضة علينا، وتميُّزًا مقيتًا يعوق حسمها. فأحداث الموت مجهولة الأسباب، لم يثبت حدوثها حتَّى الآن، فلِمَ التركيز عليها، وإبعاد النظر عن القتلة المعروفين المتورِّطين فيها؟

نحن أمام حالة من التميُّز الفردي الذي يبتعد عن المنطق الجمعي، لكنَّ السُّخرية، كل السُّخرية، تكمن في أنَّ الإرهاب لا يميِّز بين مخلص لفرديَّته وآخر مؤازر للعمل الوطني الجماعي. الإرهاب يضرب الجميع فحسب.

الانتحار ليس فعلًا احتجاجيًّا، ولن يؤدِّي إلى انتصار من أيِّ نوع.

أنتم تُفتِّشون في المكان الخاطئ يا شباب.

أنتم تُهدِرون موتكم!

"أهلان وسهلان"!

لم يكن ألبير موجودًا في يوم دوام ريم الأول في المكتب. وعندما سألَتْ عنه، قيل لها إنَّه مريض يتابع العمل من المنزل. أرسلت له "إيميل"، وطالت

المدَّة قبل أن يجيبها، ثمَّ جاءها الردُّ باردًا يتطرَّق إلى نقاط العمل التي أثارتها بلا تفاعل مع أيٍّ من إشاراتها المبطِّنة المضمَّنة في الرسالة.

صباح اليوم الثاني، وضعت ريم أغراضها على المكتب، وقرَّرت أن تصبَّ فنجان إسبريسو، فاتَّجهت إلى المطبخ. هناكٍ وجدته واقفًا أمام الماكينة يصنع قهوته، فجمدت مرتبكة. ماذا تفعل؟ فكَّرت كثيرًا في هذه اللحظة، لكنَّ التفكير والتحضير للأشياء شيء، وحدوثها شيء آخر.

كان يُدير ظهره لها وهو يواصل صبَّ القهوة. لا إراديًّا، أخذت تحدِّق في مؤخرته، ولم تَرَها صغرت على الإطلاق عن آخر مرَّة التقَته فيها، بل لعلَّها قد تكون تضخَّمَت أكثر!

وقفت زميلة وراءها وطلبت منها أن تفسح لها المجال لتمرَّ، فانتحت ريم جانبًا. في هذه اللحظة، رفع ألبير نظره ناحية البابِ فلاحظ وجودها، فابتسم ابتسامته المعتادة، ومضى يكمل وضع قطعة سكَّرٍ في كوبه، وصار يذوِّب القطعة وهو يتَّجه نحوها، ثمَّ وقف قربها، وهمس لها في أذنها بعربيَّة مكسَّرة: "أهلان وسهلان".

لم تشعر ريم يومًا بالتوتُّر كما شعرت به في هذه اللحظة. حتَّى المرَّة الأولى لممارستها الجنس لم تحتوِ ذاك القدر من الشعور الضاغط. كان الضغط يتعاظم داخلها، لكنَّها كانت تعرف أنها لن تستطيع أن تفعل أو تقول شيئًا في حضور زملائها.

انتهى الدوام، وفرغ المكتب من الموظفين.

فكَّرَت في دخول مكتبه، ثمَّ تراجعت. بقيَت في مكتبها تقتل الوقت، دقيقة بعد دقيقة. حاولت الردَّ على إيميلات متأخِّرة، لكنَّها كانت تكتفي بأن تفتح الإيميل، وتقرأ محتواه، ولا تفهم ما تقرأه، فتجرِّب أن تُعيد القراءة، وتقرِّر بعدها أن تنتقل إلى إيميل آخر، لتصل إلى النتيجة نفسها. ظلَّت محاولاتها للفهم تتكرَّر، حتَّى سمعت صوتًا عند مدخل الغرفة، فرفعت نظرها في العتمة، لتجده واقفًا هناك.

أضاء الضوء، وألقى نكتة من نكاته السمجة: "لا ندفع لطبابة العيون هنا".

لم تتفاعل ريم مع جملته. شغلت نفسها بإطفاء الكمبيوتر وتجميع حاجاتها. لمّا رآها تستعدُّ للمغادرة اقترب منها، وسدَّ طريق خروجها من وراء المكتب. طلبت منه أن يبتعد لأنَّها تريد الرحيل، فردَّ بطريقته اللزجة المعهودة أنَّ هناك عملًا ينبغي لها أن تنهيه، لأنَّها تغيَّبت كثيرًا في الآونة الأخيرة بلا داعٍ. كانت تعرف أنَّه يجرُّها إلى الحديث. ظلَّت صامتة تحدِّق فيه. أعاد سؤالَه:

– أين كنتِ إذًا؟ ربَّما علينا التحدُّث مع قسم الموارد البشرية لإعلامهم بالأمر.

– إنت بتعرِف وين كِنت، وليش غِبت.

– تحدثي معي بالفرنسية لو سمحتِ.

– إنتَ فهمان شو عم قول.

اقترب منها أكثر، وردَّد أنَّه لم يفهم وأنَّ عليها التحدُّث بلغته، فتراجعت إلى الوراء ثمَّ حملت شنطتها أمامها لتحول بينها وبينه، فقال لها:

– ما تقومين به أمر مؤسف.

– وما قمتَ به أنتَ يجعلني أتقيأ.

– فعلًا؟ لم أرَكِ تتقيّئين مرَّةً! على العكس، على ما أذكر كنتِ تستمتعين. تستمتعين للغاية!

– بدِّي روح هلَّأ.

حاولت أن تتخطَّاه، فأمسك بيدها.

– هناك طريقة وحيدة لتتخلَّصي منِّي. أن تستقيلي. ما بيننا كان اتفاقًا وافقتِ عليه منذ البداية. تذكرين كيف جرت مقابلة التوظيف الأولى، أم عليَّ أن أذكِّركِ؟

– بدِّي روح.

– مؤسف فعلًا كيف يضيِّع شخص ذكي مثلك الفُرَص.

فسح لها لتذهب، فمشت بشكل طبيعي من دون أن تُسرع. لم تكن تودُّ أن تعطيه فرصة رؤيتها هاربة. سمعته يقول لها قبل أن تصل إلى الباب:

– حديثنا لم ينتهِ. عليك أن تقرِّري إن كنتِ تريدين البقاء، أو الرحيل. وللبقاء كما تعرفين متطلّبات.

عندها، قرَّرت أن تلتفت وتردَّ عليه. كانت كأنَّها تعيد المحادثة منذ البداية:

– طبعًا حديثنا لم ينتهِ. نسيتُ أن أعلمك بالمادَّة التي أملكها عنك.

– أي مادَّة؟

حدَّقَت في تعابير وجهه التي امتقعَت فجأة وأخذت تشرح ببطء:

– كنتُ دائمًا أستيقظ قبلك. نومكَ عميق، ولم يكن يجب أن تأمن لي. تمامًا مثلما أخطأتُ أنا بأن أمنتُ لك. الصوَر التي أملكها لك واضحة. تستطيع حتَّى أن ترى فيها أنَّ مؤخرتك ضخمة وعضوك صغير. وأنت طبعًا لا تريد أن يتلقَّى مكتب الشركة الرئيسي الصُّوَر هذه. صح؟

أرادت أن تكمل طريقها خارج المكتب، لكنَّه سألها:

– ريم! ماذا تريدين فعلًا؟

– خليني فكِّر بالموضوع شوي.

– وكيف أعرف أنَّ ما تقولينه صحيح؟ هذه حيلة قديمة. أريني الصُّوَر.

– لا أظنّ.

– تكذبين إذن.

– أعتقد أنَّك تعرفني بما فيه الكفاية لتكون متأكِّدًا ممَّا يمكنني فعله. وازن الأمور. هل تستطيع المخاطرة باحتمال أن تنتشر مثل هذه الصُّوَر؟

– انتشارها لا يعني شيئًا. لكلِّ شخص حياة خاصة.

– ليس إذا ما اقترنت بادعاءات بالاغتصاب من قبل موظَّفة تعمل عندك.

– كيف تجد من تُغتَصب وقتًا لتأخذ مثل هذه الصور الواضحة، كما تقولين؟

– نستطيع أن نقول إنَّ الأمر تغيَّر من جلسة لأخرى، وإنَّني قلتُ لا في البداية، لكنَّك أجبرتَني، ثم انجررت إلى علاقة كنتُ فيها الأضعف. ونستطيع أن نختصر الموضوع إلى علاقة بين مدير وموظفة خلافًا للميثاق المهنيّ الذي يتضمَّنه عَقْدَا عملنا. ونستطيع أيضًا أن نقول إنَّني كنتُ أحصل على امتيازات خاصة في العمل لقاء جلساتنا. لا تقلق. هناك كمٌّ فائض من القصص التي يمكن اعتمادها.

– ستسيئين لنفسك ليس لي فقط!

– أستطيع تحمُّل السيئ ما دمت ستصاب أنت بالأسوأ. هذا أكثر من كافٍ بالنسبة لي.

– ستخسرين عملك.

– كنت سأستقيل عاجلًا أم آجلاً.

– ستعطينني الصُّوَر؟

– لا أظنُّ.

– هذا ابتزاز! لا شيء من هذا يبدو منطقيًّا.

– يبدو لي مضحكًا أن يتحدَّث شخص مثلك عن الابتزاز. مجدَّدًا، الأمر عائد إليك. سنعاود التحدُّث في الأمر غدًا وأعلمك بطلباتي تفصيليًّا. أو ربَّما... إسمع. لقد غيَّرتُ رأيي. سأراك بعد غد. أمَّا غدًا، فقد أعمل من منزلي.

خرجت ريم من المكتب بشكل عادي. في المصعد، ضغطت على زر الطابق الأرضي، وأخذت ترتجف. ظهر رعبها المكتوم على السطح في لحظة، وشعرت بحاجة للتقيُّؤ. ضغطت زر الطابق التالي، وخرجت عندما انفتح الباب، واتَّجهت فورًا إلى الحمَّام النسائي، وفي كرسيِّ المرحاض، أفرغت كلَّ ما كانت أكلته ذاك النهار.

عندما عادت إلى شقَّة سهى، أدارت التلفاز، وجلست على الكنبة، ثمَّ قامت واستلقت على السرير. حاولت النوم فلم تقدر. دوَّنت قليلًا في دفتر يوميَّاتها، ثمَّ نظرت في رسائل نصِّية قديمة تبادلتها مع خالد. بلا سيطرة منها، أخذت ترتجف من جديد، وامتلأت عيناها بالدمع. كتبت لخالد رسالة أولى، وانتظرت. ولمَّا لم يُجِب، كتبت رسالة ثانية، وبعثتها قبل أن تنقِّحها إذ كان إصبعها يرتجف ومرَّ خطأً على زرِّ الإرسال. ألحقتها برسالة الثانية وثالثة أخيرة قالت فيها إنَّها في شقَّة سهى.

"أنا جايي. خليكي مَطرحِك"، وصلتها أخيرًا رسالة منه.

تلفاز المطعم: رحلة استقصائيَّة

في الأيام الماضية، انتشرت سيناريوهات عدَّة عن علاقة موقع "موكب الموت المدهش" أو كما صار يسمَّى الآن "موكب الموت"، بحوادث الموت الجماعية المتكاثرة في البلد، والتي لا تُعرَف لها أسباب واضحة.

أهمُّ السيناريوهات اثنان: الأول يقول بوجود علاقة لاحقة بين فريق الموقع وأحداث الموت، وهذا يعني أنَّ أصحاب الموقع قادرون بطريقة ما على معرفة هويَّات الموتى بعد وقت قصير من وقوع الفاجعة. أمَّا الثاني، فيتخطَّى هذه العلاقة نحو فكرة أكثر جنونًا تتحدَّث عن معرفة مديري الموقع بالأحداث قبل وقوعها. ويرتكز هذا السيناريو على قصة وصلت عبر الواتس – آب لهواتف معظمكم تروي شهادة لفتاة عن رؤية أبيها لصورته على الموقع قبل أن يموت في اليوم نفسه.

السيناريوهان تتحدَّد صحتهما بالوقت الذي تظهر فيه أسماء الموتى وصورهم ومعلوماتهم على الموقع. وهذا ما ستستقصيه تجربتنا اليوم. نحن الآن موجودون في مبنى القناة، ومعنا هنا صديقنا أحمد، الذي ستكون

مهمته أن يحدِّث الموقع كل ٣٠ ثانية بالضغط على هذا الزرِّ في أعلى المتصفِّح.

أنا وزملائي الأربعة سنتوزع في جهات بيروت الأربع على دراجات ناريَّة، وسيُرافقنا في رحلتنا أربعة مصوِّرين. سنكون على اتصال مباشر بأحمد ليعلمنا عند ظهور أيِّ صور جديدة على الموقع.

المعلومات الواردة على الموقع تتضمَّن عادةً الاسم ورقم السجل ومنطقة الولادة، وبالاتصال بمصادرنا في وزارتَي الاتصالات والداخلية سنحصل على عناوين وأرقام أسماء الضحايا، ونقوم بعدها بزيارة أماكن سكنهم على الهواء مباشرةً، لنتأكَّد معكم: متى كانت ساعة الوفاة؟ وكم من الوقت استغرق ظهور الاسم على الموقع؟

والأهم أنكم ستعرفون: هل تظهر أسماء الوفيّات على الموقع فعلًا قبل حدوثها على أرض الواقع؟ هل هم موتى أم أحياء؟

انضموا إلينا في رحلتنا الاستقصائية! إلحقوا بي!

سيجارة رقم ٧

فتح الباب ودخل. وجد التلفاز مضاءً، فتقدَّم وأطفأه وانتظر في غرفة الجلوس، لكنَّ ريم لم تظهر. مشى في الرواق متَّجهًا إلى غرفة النوم. وجدها نائمة. اقترب وجلس على حافة السرير، فصَحَت فورًا مع اهتزاز الفراش.

"إنتي منيحة؟"، سألها.

اعتدلت وعانقته فبادلها العناق. ثمَّ اتَّكأت على ذراعه تبكي. حضنَها وأخذ يهدِّئها. ظلَّا على هذه الحال دقائق، وعندما ارتاحت قليلًا، رفعت وجهها، وقبَّلَته، فقبَّلها من غير تماد، ففهمت أنَّه يصدُّها.

سعل مرتبكًا وقال: "مش ح أعرِف بهالبيت".

هزَّت رأسها متفهِّمة، وبقيا مستلقيَيْن على السرير.
أراد أن يكسر الاضطراب الذي حلَّ فسألها: "ع بالِك تدخّْني؟"
"ليش إنتَ بتِّدخن؟"، استغربت.
"بقطِّعلي شي عشر سواجير بالسنة"، ردَّ وهو يفتح الدرج قربه.
خافت ريم أن ينتبه خالد إلى وجود مفكرتها، لكنَّه كان يبحث عن شيء محدِّد، ولم يكن مهتمًّا بباقي الأشياء في الدرج، ولمَّا لم يجده، نهض خارجًا من الغرفة، ثمَّ عاد بعد دقائق حاملًا علبة دخان وعلبة كبريت ومنفضة، وقال: "فيها خمس سواجير. إن شا الله ما يكونوا مسوّْسين. ولقيت كمان علبة كبريت ع الغاز".
أشعل لها سيجارة، وأشعل لنفسه أخرى. ابتسم نافثًا الدخان كأنَّه يستمتع بلذَّة خاصمها منذ زمن، وأعلن: "هاي السيجارة رقم ٧".
ردَّت فورًا: "كذَّاب".
استدرك مدافعًا: "حتَّى لو كذب. فينا نسمِّيها سيجارة سبعة. عادي".
سألها عمَّا حدث معها. تابعَت تدخين سيجارتها، ولم ترد. كرَّر سؤاله وحدَّده أكثر: "بالشغل شو صار؟ شفتيه؟ لمديرِك، شفتيه؟"
ذكره أخيرًا! ستُخبره.
عقد حاجبَيْه عندما انتهت من الحكاية، وسألها مستغربًا:
– وشو بدِّك منُّو؟
– ما بدِّي شي. حاسّة إنُّو إذا طَلَبْتْ منُّو أيَّ شي، ح كون مش مرتاحة. بس كمان ما فيني ما إطلب.
– ليه ما فيكي؟
– لأنِّي خبَّرتو إنُّو ينطر طلبي. إذا عِدتْ وقلتلُّو خلص ما بقي بدِّي شي، مش ح يتركني. ح يفكرني تراجعِت وخيفانة منه. ومش ح إخلص.
– هلَّأ، عندك هول الصور عن جد؟

– عندي كم صورة لطيزو. وفي واحدة مبيَّن فيها كلُّو من قدام مع وشُّو وأيْ.... خالد! ما تضحك!

– بعتذِر.

– خالد!

– طيب طيب. خلص مش ح إضحك. هلَّأ عن جدّْ. ليش مصوِّرتيه هالصوَر؟

– كنت شوف طيزو كبيرة.

– إي؟

– صوَّرتو لإتأكَّد إذا طيزو كبيرة.

– ما فْهِمتْ!

– خلص. إنسَ. مش ح تفهم أصلًا!

– طيب. مننسى السبب. لنفترِض إنِّك طلبتي منُّو اللي ح تطلبيه. هوِّي مش ح يطلب الصور؟

– بِبْعتلو الصورة اللي عندي. وبقلُّو عندي غيرا. هوي مش ح يقدر يتأكد إنِّي مَنِّي مسيِّفتها بمطرح تاني. بس مش مهمّْ. مش هون القصَّة. ألبير بيعرفني. وبيعرف إنُّو مش ح ضلّْ إبتزُّو ع طول الخط. مأكَّد إنُّو بدِّي إخلص منه، بس مفكر إنِّي عم أعمل هيك لإستفيد.

– وإنتي بدِّك... تستفيدي؟

– بدِّي خليه يعطيني شي، أكتر ما بدِّي إستفيد. حتَّى لو الموضوع ح يضايقني. عم تفهم عليِّي؟

صمت خالد وقال إنه سيدخِّن سيجارة ثانية.

"٨!؟"، علَّقت محاولةً الهرب خارج الموضوع، لكنَّه لم يتفاعل مع تعليقها، وبدا لها واجمًا، فسألَته:

– شو بالك؟

– عم فكِّر.

- بشو؟
- ما بعرف إذا لازم قلِّك.

لاحت منها نظرة تعني "قول"، فتحدَّث محاولًا انتقاء كلماته ببطء:

- ليش حدا بيكون ع علاقة بحدا بيصوُّرو هوِّي ونايم و...
- خالد.
- قلتلِّك ما كان لازم قول.
- لا. عادي. بس إنت ما بتوثق فيِّي؟
- مبلا. ومش شايِف هالشي بْيِشْبَهِك.
- إي بس أنا ما حاكيتلَك عن علاقتي مع ألبير بالتفصيل. يمكن لازم تعرف لتفهَم.
- لا. ما بدِّي أعرف.
- أوكي. غيَّرتْ رأيي. مش يمكن لازم تعرف. بلا يمكن. أكيد لازم قلِّك. ولازم، لازم... لازم تخبِّرني عن علاقتك بسهى أكتر.

تابع خالد يدخِّن سيجارته الثامنة ولم يعقِّب على طلبها. استدركَت ريم بالسؤال: "كيف صارت عينَك؟"

ردَّ عليها بفظاظة: "ما بعرف".

اقتربَتْ منه، وقالت: "تعا فرجيني... نام هيك". وضعت رأسه عنوةً في حجرها، بعد أن أخذت منه السيجارة وتركتها في المنفضة، وسألته وهي تتفقَّد عينه: "خبِّرني كيف صار هيك؟".

بدأ يؤلِّف لها قصَّة غير تلك التي حدثت: عراك في الشارع... تدخَّل فيه... نال نصيبه فيه... و...

أخذت تنفخ برقَّة في عينه، فصار كلامه يثقل. تعثَّرت القصَّة كلها، ولم يعُد يجد الكلمات. أمسك معصمها فجأة من غير أن يغيِّر من استلقائه، وطلب منها أن تتوقَّف مبرِّرًا طلبه: "بلَّشت إنعَس. هلَّأ بنام".

لكنَّ النعاس لم يكن السبب. كان عضوه ينتصب، ولم يكن يودُّ أن

يمارس معها الحب على هذا السرير. عناق، نعم. نوم جنبًا إلى جنب، أوكي. جنس هنا، لا.

انتقلت ريم إلى مداعبة شعره وتمرير أصابعها بين خصلاته، فأحسَّ بالانتصاب أكثر، ولم يرِد أن يكرِّر طلبه منها التوقُّف، لأنَّها ستفهم فورًا ما يحدث معه، فاعتدل في جلسته فجأة ووجد نفسه يقول: "تعي نروح ع شي مطرح".

بعد ساعة، كانا يتمشَّيان في عتمة الكورنيش البحري. أمام صخرة الروشة، فكَّر خالد أن يُرِيَ ريم المكان الذي دفن فيه تايغر، لكنَّه تراجع عن الفكرة فورًا. ما هذا الذي يفكِّر به؟ ما هذا الخبَل؟

قرَّر أن يتبعها فحسب. قضيا الجزء الأول من رحلتهما صامتيْن، يمشيان ويتعرَّقان. وصلا إلى عين المريسة، وهناك رمى البحر رذاذه على الرصيف. دسَّ خالد يديْه في جيب بنطاله، فوجد بطاقتَي كنزي. عثر على موضوع يتحدَّث فيه، فأخبرها عن الحفل العام الذي سيُقام في ساحة ساسين، وأراها البطاقتين.

"شِغل مراهقين. بس مِنْروح"، ردَّت ضاحكة، وسألَتْه كيف أمضى اليوميْن الماضييْن.

"رَوَّحتْ عيني"، ضحك قبل أن يشرح لها أنه يفتِّش عن جانيت في إعلانات الوفيَّات منذ العام ١٩٨٧ حتَّى اليوم.

"ليش معَك صورة إلها؟"، سألَته.

"لشو الصورة؟ عم فتِّش ع الاسم أنا بالإعلانات"، ردَّ مستغربًا سؤالها.

"لحظة. عم تفهِّمني إنُّو ولا مرَّة كنت حشري تعرف كيف شكل جانيت؟ ما طلبت من الختيار ولا صورة إلا؟"، أعادَت سؤاله.

وقبل أن يجيبها، كانت تقول: "بعتقد عندي فكرة! قولك الختيار بعدو فايق لهلَّأ؟".

تلفاز شقّة سهى: مقدِّمة نشرة الأخبار

مساء الخير.

علينا أن نعترف بفشلنا. فشلنا في حربنا الكبيرة، فخرجنا منها بلا انتصار ولا هزيمة. أنهيناها بتسوية اختُبِرَت أكثر من مرّة، وفشلت. ومن فشل إلى فشل انتقلنا. سَمَّيْنا تسويتنا سلمًا أهليًا، ولم تكن لا سلمًا ولا حربًا. ولمّا انتفضنا نحاول استعادة أمجاد غابرة، لم ننجح إلا بافتعال حروب موضعيّة أشبه بخنافات المراهقين، تبدأ لأسباب تافهة، وتنتهي بتدخُّل الكبار.

واليوم، مع كل هذه الحروب والحراكات الشعبية التي تحيط بنا، ينكشف فشلنا أكثر فأكثر. لقد فقدنا الهدف، وصرنا نبحث عن أدوار صغيرة في حروب غيرنا لأننا بتنا عاجزين عن الفعل داخل بلدنا.

امتهنَّا اختلاق الأعذار لتبرير استقرارنا في الفشل المديد، الذي تشهد الأحداث الحالية صراحةً عليه، وها نحن نموت بلا سبب، وننهمك في التفتيش عن أسباب موتنا، ولا أحد يجيبنا، لا دولة، ولا رؤساء، ولا وزراء، ولا نواب...

تسألون لماذا نموت؟ لن نعرف، لأننا باختصار فاشلون.

وننتقل الآن لنعرف آخر الأخبار من السراي الحكومي من مراسلنا هناك...

ما رواه ضرغام –١٣

من غرفة النوم إلى الشرفة، دفعت ريم كرسيَّ ضرغام أمامها. انشغل العجوز بتفقُّد حزمة الألبومات التي وضعها في حجره. وعندما وصل إلى الطاولة، فَرَدَ ما يحمله عليها. أخذ يوزِّع صورًا قديمة لجانيت، ويتحدَّث باقتضاب عن ظروف التقاط كل صورة. أراد خالد أن يسأله لماذا لم يعطِه هذه الوثائق

قبل الآن، لكنَّه تراجع. كما عرف بلقاءاته بطوني متأخِّرًا ولم يستفسر منه، لن يسأله الآن.

ربَّما عليه أن لا يعرف الأشياء البديهية منذ البداية؟ أن يكتشفها دائمًا في أوقات متأخِّرة؟ هو هكذا؟ يغفل ما يجري حوله، ولا يشعر به إلى أن يمسَّه. يقوم ليجري في طريق أخرى مبتعدًا، ويظنُّ أنَّه يقوم بجهد صائب في اندفاعه إلى الأمام، وأنَّه يفتِّش في الأماكن التي عليه التفتيش فيها. ثمَّ تتقطَّع به السُّبُل، ولا يملك إلَّا خيار العودة إلى حيث بدأ بحثه. هل كانت الرحلة مَضْيَعة وقت إذًا؟ أم أنَّ الاكتشاف يحدث فقط إنْ وجد مكانه في السياق؟ والسياق هذا، هل هو محكوم بإضاعة الجهد في أماكن أخرى قبل العودة إلى نقطة الانطلاق؟ هل يرتبط الاكتشاف بالشيء المُكتَشَف، أم بموقع لحظة الاكتشاف نفسها في عملية البحث؟ وماذا يحدث بعد العثور على الشيء؟ هل يتأثَّر السياق؟ هل يحرف الاكتشافُ المسيرةَ إلى وجهة مأمولة؟ وما هو الاكتشاف بالفعل؟ أهُوَ دافع لانحراف في الوجهة الآتية لا يبين إلا عند حدوثه، أم أنَّه نهاية تَحْفَظ الملف؟

تتدافع الأفكار عند خالد وهو ينظر إلى الصور، لكنَّه يُبقيها في رأسه.

جانيت جميلة. شعرها داكن ومصفَّف. تظهر لابسةً الفساتين دائمًا. لا صور لها بملابس البيت. لا شيء يلمِّح إلى أنها عملت مدبِّرةَ منزل. هل التُقطَت هذه الصور بعد الزواج؟ يسأل خالد ضرغام، فلا يردُّ، وينشغل بالإجابة على سؤال من ريم. هذا غريب، والأغرب أنَّ الصور ملتَقَطة خارج المنزل: في جلٍ، في سيَّارة، في مطعم، في مقهى، في ساحة...

أخيرًا يعثر خالد على صورة يبدو أنها التُقطَت في شرفة منزل. هذا منزل سوق الغرب؟ يسأل خالد الختيار، فيُجيبه بنعم. في الصورة، تُعطي جانيت ظهرها للعدسة وتتَّكئ على الرخام الحجري، وتلتفت نصف التفاتة إلى اليمين. يظهر الجانب الأيمن من وجهها، وعليه ينطبع تعبير يقارب الملل. ينظر خالد إلى نصف الوجه الظاهر، ويشعر أنَّ توصيفه للتعبير قد يتغيَّر لو

رأى النصف الآخر.

يعاود خالد رفع بعض الصور التي وضَّبها جانبًا، ويصل لخلاصته: جانيت كيان جامد خرج من حكاية، لا من واقع حدث. في الصور، لا دلالات على حبٍّ أو غضب أو توتُّر أو... حتّى المَلل في نصف الوجه المستدير منقوص. كأنَّ شيئًا لم يحدث قبل التقاط الصور، أو كأنَّ كلَّ ما حدث ثُبّتَ وحُفِظَ في إطار مقدّس، فأعدم الأبعاد الأخرى.

يجد خالد صورًا يظهر فيها سليم. على عكس أمّه، يبدو أكثر حضورًا. يرتِّب خالد صُوَر الولد تبعًا للمراحل العمريّة التي قدّرها له، وبينما ينظر في صورة تبيِّنه متعمشقًا بأغصان شجرة تفّاح، تسأل ريم ضرغام ما إذا كان يملك صورة أكبر لجانيت يكون فيها وجهها أكثر حضورًا: "صورة للوجّ بس".

بعد تفكير، يقول ضرغام إنّه قد يكون يملك صورة مماثلة في الغرفة. يلتفُّ بكرسيّه، فتساعده ريم على الدخول. يحدِّق خالد فيهما وهما يبتعدان باتِّجاه الغرفة، ويتساءل: ما الذي نجنيه عندما نكتشف أشياء قديمة لم تعد تؤثِّر في خيارات الحاضر؟

***

طيلة تسعة أعوام، حاولتُ إقناع جانيت بفكرة الحمل، لكنّها كانت ترفض وتردُّ بالقول إنَّ عندها ولدًا، وتستدرك مصحّحة: "عَندنا ولد". لم أكن أعقّب بأيّ رأي، وكنتُ أكتفي بفتح الموضوع بأشكال وصيغ مختلفة، لكنَّ إجاباتها استمرَّت سلبية مع تلطيفها بقبلة أو بتربيتة على وجنتي أو بعناق. كان الأمر واضحًا. لا تريد جانيت أن تنجب أولادًا في خضمّ الأوضاع الأمنية المسيطرة في البلد. كان عذرها مفهومًا، ولكنْ مبالغًا فيه، كعادة كل شيء عندها.

على الرغم من ذلك، ظلَلْنا نستمتع بالحب. لكن ما إن كنَّا نفرغ منه، حتَّى يعود إحساس التزاحم ليطبق عليَّ، فأشعر فجأة بالوحدة، وتحضرني أفكار من نوع أنَّ سليم لا يعني لي شيئًا، وأنَّ هناك شيئًا ناقصًا في علاقتي بجانيت. ثمَّ أجنح للتفكير حتَّى أجزم بأنني إن خرجتُ اليوم لتفقُّد أملاكي فمتُّ برصاص عشوائي، فإني لن أترك شيئًا منِّي ورائي.

كنتُ أطرد الأفكار المؤرِقة من رأسي بالتركيز على تفاصيل أخرى. لم أكن أحتاج لأجتهد كثيرًا كي أنجح، إذ كنتُ أحبُّ جانيت فعلًا، ولم يقضِ الزمن على أيٍّ من التفاصيل الأولى التي رافقَت إعجابي بها، لا بل وسَّعتُ قاموسي معها بعد الزواج، فانتقلتُ من حفظ تعابير وجهها إلى حفظ الطريقة التي يتفاعل بها جسمها مع أيِّ شيء. الطريقة التي تنحني بها فوق الطعام مثلًا، الإيقاع الذي تتحرك به من زاوية لأخرى، كيف تمدُّ يدها بهدوء ناحيتي حين أكون أتكلَّم منفعلًا، فتحكُّ ساعدي بهدوء، ليهبط عندي كل غضب النهار الذي رجعتُ به من الخارج.

وبالرغم من تكاثر هذه التفاصيل، جعل التأفُّف الذي أخذ يتعاظم – مع تتالي تصرفات جانيت الواثقة بي – الأمر مختلفًا عن البدايات، فصرتُ ألاحظ التغيير. لا أعني أنَّ التفاصيل كانت تنقص. لا. هي حتَّى لم تكن لتخفت. كيف أشرح؟ لكأنَّ الساحة كانت فارغة من المشاعر المُنافسة، ومع حضور التأفُّف والاستفزاز، بات هناك مجموعتان من المشاعر للغَرْف منها. هذا التزاحم صار يخلق عندي الرغبة بالهجوم. وبعد أن قضيتُ أعوامًا طويلة أخاف من افتضاح قصة الحادثة، صرتُ أتلذَّذ باللعب عند حدود انكشاف السر.

كانت الرغبة في داخلي تتعاظم، لكنِّي كنتُ أضبط مشاعري ولا أُخرجها للعلن. وبعد كلِّ موقف تسوده ثقة جانيت، أترك البيت فأتمشَّى في الجلول، وأدور حول شجرة التفَّاح، وأحوم حول البئر مكتفيًا بالنظر من بعيد. كنتُ كمن يقترب من علبة الخطايا، يكشف عنها الغطاء من مخبئها،

ينظر إليها، ويمدُّ يده إليها، ويحملها، يلامس قفلها، ثمَّ يتراجع في الثانية الأخيرة ويعيدها إلى المخبأ ويُسدل عليها الغطاء.

عندما سألَتْني جانيت إن كنتُ قد دفنتُ أحدًا بالجلِّ، سألتُها من أين أتَت بهذه الخبريَّة، إلَّا أنَّها رفضَتِ الإفصاح، وردَّت بأنَّ هويَّة المُخبر ليست ضرورية، وأنَّ الأهمَّ صحَّة الخبر نفسه. لم أجد غضاضةً في الإجابة بنعم عن سؤالها. فوجئت جانيت ببرودة ردِّي، فحملقت فيَّ غير مصدِّقة.

تابعتُ شرحي: دفنتُ شابًّا كان يعمل معي، وقُتِل في بيروت بإطلاق نار عندما كان يتفقَّد بعض أملاكي، وأضفتُ أنَّ ذلك حدث قبل أعوام طويلة، وأنِّي لم أفعل ذلك إلا احترامًا لذكراه وتقديرًا لأمانته طيلة فترة عمله معي.

سألَتْ جانيت عن أهله، فقلتُ إنَّهم أتوا أكثر من مرَّة لتفقُّد القبر، فأجابتني مشكِّكة أنَّها لم تلتقِ أو تسمع يومًا عن أيِّ زائرين غرباء للمنزل.

أزحتُ الغطاء عن العلبة.

انفعلتُ قائلًا إنَّها لا تعرف كل شيء يجري حولها.

امتدَّت يدي إلى العلبة.

سألتُها عن سبب تحقيقها معي على هذا النحو في أمر شخصي، وطلبتُ منها صراحةً أن تتوقَّف عن طريقة التعامل هذه معي: "يا بتوثقي فيِّي يا ما بتوثقي".

حملتُ العلبة.

أوقفَتْني جانيت عن الاستطراد في شرح فكرتي، وقالت إنَّها لن تسمح لي بأن أتَّهمها بالمسألة. "يمكن ما بعرف كل شي عم يصير حولي، بس بعرف إنَّك عم تكذِّب"، أكملت وخرجت من الغرفة.

تلك الليلة، تركتُ لها الغرفة وانتقلتُ حاملًا وسادة وغطاء إلى كنبة غرفة الجلوس حيث حاولتُ النوم. كانت حرارة الصيف، آنذاك، مرتفعة، فتخفَّفتُ من ملابسي، وانتقلتُ إلى الشرفة واستلقيتُ على مقعد أمي، الذي تركناه في مطرحه طيله السنين الماضية. مَدَدْتُ رجليَّ على طاولة

الشاي، وأغمضتُ عينيَّ، وحاولتُ النوم. بقيتُ كذلك أنظر إلى السماء، أدقِّق في خريطة النجوم فوقي، وأحاول أن أصفِّي ذهني. جرَّبتُ ألَّا أفكر بمن يمكن أن يكون أخبر جانيت عن قبر سليمان، لكنِّي لم أفلح في صدِّ الأفكار. كان الأمر سهلًا ومحصورًا برفاق سليمان الثلاثة والكاهن، وكنتُ أكيدًا من أنَّ الكاهن هو الذي قال لجانيت، خصوصًا أنَّها تواظب على زياراتها الأسبوعية للكنيسة. الأرجح أنَّه فعل ذلك بداعي الضغط عليَّ، بعد توقُّفي عن دفع المال للكنيسة قبل عامين، ولذا قرَّرتُ أن أزوره من غدٍ للتأكد ولإنهاء الموضوع.

لم أكن قد فارقتُ نهائيًّا خوفي القديم. مع رغبتي باللعب عند محيط السرِّ، ظلَّ الخوف من افتضاح الحكاية القديمة يسيطر عليَّ. كانت حماستي محصورة بلذَّة متابعة جانيت تفارق منطقة الثقة بي للحظات، ورؤية الغضب الحارق الذي يمكن أن يتطوَّر إلى ما لا تحمد عقباه. لكنَّ اللهفة عندما تبرد، يعود سياق الأحداث العام ليسيطر من جديد، ومعه الخوف، فأعود أحمل العلبة، من دون أن أفتحها. أُبقيَها خارج مخبئها فقط.

صباح اليوم التالي، توجَّهتُ إلى الكنيسة. استقبلني الكاهن بحفاوة، وبدا أنَّه كان ينتظر زيارتي. بدأ حديثه معي بالقول إنَّ زوجتي زارت الكنيسة البارحة. كان يقول لي بطريقة غير مباشرة إنَّه يعرف سبب زيارتي، وإنَّه سيختصر المجاملات غير اللازمة.

ردَدْتُ أنِّي قلتُ لجانيت كل شيء، فنهض من وراء مكتبه وتجوَّل في الغرفة وهو يحمل كتابًا في يده. ادَّعى عدم الفهم، وسأل باستغراب مصطنع: "ليش ما كانت عارفة؟"، ثمَّ أكمل يعتذر عن ذكره الموضوع أمامها وهو يعيد الكتاب إلى أحد الرفوف. قال إنَّه سألها فقط إن كنتُ أودُّ أن أقيم قداسًا سنويًّا لراحة نفس الشاب الذي دفنتُه في الجلِّ قبل أعوام، وأضاف أنَّ جانيت لم تعلِّق.

قاطعتُه مُعْلِمًا إياه أنّني لن أدفع المال بعد الآن. ضمَّ عينيه مواصلًا وصلته التمثيلية، وسألني عن أيِّ أموال أتحدَّث: "قصدك مصاري الكنيسة؟ ع راحتَك! هيدا شي بيرجعلك؟ مقصْرة المصاري معك الهيئة؟ الله يفكّ ضيقتَك!".

قمتُ من مقعدي، واتَّجهتُ نحو باب المكتب. كان سبب زيارتي قد انتفى مع إعلامي إيَّاه بقراري. وقبل أن أفتح الباب وأرحل، أتاني صوته: "وبما إنّو ست جانيت ما كانت عارفة عن الدفن بالجلّ، بقدّر إنّا أكيد ما بتعرف عن إشيا تانية صارت بالجلّ قبل... وبعد".

كان يعرف.

مقبرة السيارات

"خالد. خالد. قوم. لينا صارت متّصلة مرتين"، قالت ريم.

استيقظ ليجدها واقفة أمام السرير، فسألها وهو يفرك عينيْه إن كانت لينا أفصحت عن سبب اتّصالها.

"قال بدّك تساعدها بقطر السيَّارة ع الكاراج؟"، أجابته ريم وهي تعود باتجاه المطبخ.

"ولك إي، إي، صحّ"، نهض خالد مسرعًا. رفع بنطاله المرميَّ على الأرض ولبسه ثمَّ انتعل حذاءه، وأخذ يفتّش عن "التي – شيرت" التي كان يرتديها البارحة، وعندما لم يجدها أخرج من الخزانة أول ما وقعَت عليه يده ولبسه.

"شو باك؟ لوين رايح؟"، أوقفته ريم بينما كان يتّجه إلى الباب، وأجلسته على كرسيٍّ قريب. كانت تحمل فوطة قالت إنَّ فيها دواءً لتخفيف الورم. دعكت مطرح الورم، ثمَّ توقَّفت وغطَّت عينه بالفوطة.

"شكرًا لإنّك ضلّيتي هون مبارح"، قال.

"بلا هبل"، زجرته.

"وعفوًا لأن ما قْدِرْت مبارح إتجاوب مع..."، قال معتذرًا.

"اعتذارك مقبول"، قاطعته.

"ع أول وحدة بتقولي بلا هبل، وع تاني وحدة بتقبلي اعتذاري؟"، استهجن.

"وقِّف حكي وخلِّي عينك مسكَّرة"، ضحكت.

"اربوط صبَّاطَك"، نبَّهته وهي تُطلق سراحه.

سألها إن كانت ستذهب إلى العمل، فقالت وهي تمشي باتِّجاه الشرفة: "اليوم باقية هون. ويمكن أقعُد مع الختيار شوي. سلِّمْلي ع لينا إنت".

انطلق خالد باتِّجاه ساحة ساسين، واستقلَّ منها أول سرفيس مرَّ قربه، ثمَّ اتَّصل بأبو بيتر ليلاقيه أسفل منزل لينا. وصل ليجده ينتظره. ولم يمرَّ وقت كثير قبل أن تظهر لينا عند مدخل البناية. ترك خالد أبو بيتر واقفًا، وقطع الطريق نحوها. أمسك بيدها، وأوقف بعض السيارات التي كانت تمشي نحوهما، وعادا. في هذه الأثناء، كان أبو بيتر قد فتح الباب الخلفي، وانهمك يوضِّب المقعد، مُبعِدًا بعض قناني المياه والأكياس إلى الجهة الأخرى.

ركبت لينا في الخلف، وجلس خالد في المقعد الأمامي.

"يا أهلًا، يا أهلًا، وجّْ جديد"، علَّق أبو بيتر وهو ينظر في المرآة الخلفيَّة إلى لينا.

"أبو بيتر، ركِّز بالسواقة لو سمحت"، ردَّ خالد.

"ع راسي يا إستاذ. لوين العزم؟"، أجاب أبو بيتر.

"ع الشياح، مطرح ما صار آخر انفجار"، تطوَّعت لينا للشرح.

"الله لا يعيدو"، ردَّ أبو بيتر.

"حدا حكاكي من هونيك عن السيَّارة؟"، التفت خالد يسألها.

"اتَّصلو فيِّي مبارح قوى الأمن، قال حطّوها ع جنب الطريق"، أجابته.

"وحكيتي مع شركة قطر السيارات؟"، أكمل يسألها.

"إي. ح يلاقونا هونيك"، ردَّت.

عندما وصلوا إلى حدود المنطقة، حاول أبو بيتر أن يدخل إلى العمق من أكثر من شارع، لكنَّ أغلب المداخل كانت مغلقة، أو تخضع السيارات فيها للتَّفتيش الدقيق. كان يمكن لأبو بيتر أن يلتفَّ ويدخل من الجهة الأخرى، لكنَّه كان سيقضي ساعة أخرى قبل الوصول بسبب الازدحام. لذا اقترح على ريم وخالد أن يمشيا نحو الشارع، مشيرًا إلى موقف سيارات، وقال إنَّه سينتظرهما فيه.

ترجَّل خالد ولينا، ودخلا المنطقة.

في الساحة، وقفا ينظران إلى شبابٍ نشطوا في التنظيف. كان في المكان شاحنتان صغيرتان، أولاهما تنقل الردم، فيما تساعد الثانية بنقل أثاث شقَّة.

كانت آثار الانفجار ما تزال بيِّنة في المكان رغم جهود التنظيف. غلب السواد على الأرض، وبانت بعض بواطن البنايات، وكان الردم مُجَمَّعًا في الزوايا. تراكض بعض الأولاد وهم يتقاذفون كرة، فخرج رجل كان يشرف على تركيب واجهة زجاجية جديدة لمحلِّه، وزجرهم وشتم أهلهم الذين يتركونهم في الشوارع.

لم يكن هناك أيُّ سيَّارات متضرِّرة في الساحة.

تقدَّمت لينا تشرح لخالد أين كانت وصلت بالسيَّارة لحظة حدث الانفجار، ثمَّ تراجعت ناظرةً إلى المكان، واعتذرت قبل أن تتَّجه إلى الناحية الأخرى وصحَّحت: "هون هون... مش هونيك". ثمَّ أضافت وقد بدا عليها الضياع: "ما بأى أعرف".

اقترب خالد من مجموعة شباب يتجمَّعون في زاوية، وسألهم عن السيَّارات التي تضرَّرت من الانفجار، شارحًا أنَّ قوى الأمن اتَّصلت وأعلمتهم برفع سيَّارة صديقته، والتفت مشيرًا إلى لينا، وبوضعها إلى جانب الطريق.

تقدَّم أحد الشباب وأخبرهما أنَّهم أخذوا المبادرة صباح اليوم، ونقلوا السيَّارات إلى المقبرة القريبة، لأنَّ وجودها أعاق الحركة في الشارع. وأضاف الشاب أنَّ ما قامت به قوى الأمن لم يُحقِّق مطالبات فعاليات المنطقة برفع السيَّارات المتضرِّرة قبل التمهيد لفتح الشوارع.

"متل العادي. بتجي الدولة تساعد، بتخربا زيادة"، قال الشاب هازئًا.

"السيَّارات بالمقبرة؟"، سألت لينا مندهشة.

"مقبرة السيَّارات، بْقْصُد... شرّْفو معي"، ردَّ الشاب موضِّحًا.

لحقا به. دخلوا في شارع جانبي، ثمَّ غاصوا في عمق المنطقة. مشوا نحو عشر دقائق في زواريب ضيِّقة، ثم انتهوا عند حدود المنطقة من الجهة الأخرى. وعندها، أشار الشاب إلى المقبرة عند الجانب الآخر من الطريق العام.

في المقبرة، مشوا بين التلال الباهتة. سأل خالد الشاب عن أصحاب السيَّارات، فأجابه الشاب أنَّ الناس يبيعونها للكسر، ويتركونها هنا. "بس السيَّارات مكوَّمة بعدا ومنَّا مكسورة"، استغرب خالد. "صح"، ردَّ الشاب قائلًا إنَّ السيَّارات تُعرَض في البداية على من يودُّ أن يشتري قطعًا فيها ما زالت صالحة للاستخدام، ومن ثَمَّ يباشرون بكسرها بكميَّات في أوقات محدَّدة.

وصلوا إلى مساحة مفتوحة استطاع خالد ولينا أن يميِّزا فيها سيَّارات جديدة رُكِنَت قرب بعضها في صفوف منظَّمة. تقدَّم خالد بسرعة ليبحث عن سيَّارة لينا. كان يدخل بين صفَّين، ويلتفت إلى اليسار إلى الرواق الموازي، ثمَّ يلتفُّ يمينًا ويعاود المشي، قبل أن تتكرَّر طريقه بالمنحى نفسه.

لحقَت لينا به لكنَّ سرعته فاقت سرعتها. عندما اختفى في أروقة مجاورة قرَّرت أن تتمهَّل في مشيتها، حتَّى سمعَته يناديها ويقول إنَّه وجد السيَّارة، فأسرعت من جديد نحوه.

جلس خالد في المقعد الأمامي يتفقّد ما بقي في التابلوه من أوراق، وأخذت لينا تتفحّص السيّارة من الخارج. كانت إصابتها بالغة. الزجاج الأمامي والخلفي مليئان بالشروخ، والحديد منبعجٍ في أكثر من موضع، والدواليب على الأرض، أما النوافذ فاثنتان منها محطمتا الزجاج بالكامل.

"معِك المفتاح؟"، سألها.

"هيدا الـ spare"، قالت لينا وهي تعطيه المفتاح.

أخذه خالد منها وحاول أن يدير السيّارة. غصّ الموتور بلا جدوى. كرّر خالد المحاولة مرّة ثانية وثالثة فلم ينجح، وقال للينا: "مش مهمّ أصلًا تدور. الدواليب ع الأرض. بدًّا قطر. وين صارت الشركة؟ اعطيني رقمُن".

أخرج خالد هاتفه فأمْلَت لينا عليه الرقم. وقبل أن يباشر الاتّصال، ظهر الشاب، وطلب منه فتح غطاء السيّارة، فنفّذ طلبه. رفع الشاب الغطاء وانحنى فوق الموتور، وانهمك يتفقد باطن السيّارة. بدا أنّه يعيد وصل شيءٍ ما، أو يصلح شيئًا ما. ثمّ رفع رأسه ونفض يديه، وطلب من خالد أن يجرِّب من جديد.

غصّ المحرِّك ثانيتين وما لبث أن اندلع الصوت هادرًا مختلطًا مع أصوات غريبة. أخذ خالد يكبس على دعسة البنزين بطلب من الشاب الذي كان يقول له: "اعطيها، اعطيها".

تفقّد خالد مستوى البنزين، ثمّ ترجّل من السيّارة وشكر الشاب، واستفهم منه إن كانت القاطرة تحتاج إلى إذن للدخول إلى المقبرة. أجاب الشاب وهو يرفع جهاز التوكي – ووكي: "قلّن يِجو ع الباب التاني، هيدا اللي هون، أقرب. ح إحكي مع الشباب يفتحوه".

انتحى خالد جانبًا ليقوم باتّصاله. في هذه الأثناء، تقدّمت لينا من الشاب وشكرته، فأومأ الأخير وقال إنّه سيغادر للّحاق برفاقه. لكنّها طلبَت منه البقاء، لأنّها تريد التحدُّث معه في موضوع. سألته:

– في شاب ساعدني وقت الانفجار، وكنت حابّة أعرف إذا كان منيح.
– بتعرفي شو اسمو؟
– لأ. بس كان شعره قصير وجسمو ضخم شوي.
– أكترنا شعرو قصير، و... ما في شي أكتر مذكّرتيه عنّو؟
– ضهّرني من شبّاك السيّارة. وبعدين حملني، أو نوعًا ما سنّدني. ما مذكّرة. تركني ع الرصيف. حكي معي شوي هوي وماسكلي إيديّي أو عم يهدّيني من كتافي. وقتا اتطلّعت فيه. بعتقد كان أسمر شوي. ودقنو طالعة... بس مش كتير. شي إنّو طالعة. بس كان... في شي ع ايدو اليمين أو الشمال. رسمة يعني. حيّة أو شي. مش مذكّرة... تاتو بركي؟... وبعدين رجع فات بقلب الدخنة... وصار الانفجار التاني. ما عْرِفتْ شو صار بعدا...

توقّفت لينا بين تفصيلٍ وآخر تصحّح وصفًا، أو تتدارك بإضافة ما تذكّرته فجأة. تركها الشاب تتكلّم ولم يقاطعها حتّى انتهت، ثمّ ردّ أنّ كلّ ما قالته لا يساعد في الوصول إلى هويّة الشاب. وَشّ التوكي – ووكي في يده بصوت أحد رفاقه، فاعتذر منها، وابتعد وراء كومة سيّارات ليجيب.

أثناء انتظارها، أخذت لينا تحدّق في خالد الذي كان يصف على الهاتف المكان الذي يجب أن تحضر إليه القاطرة.

مضت دقائق قبل أن يعود الشاب باتّجاهها. أخرج الشاب هاتفه، وبدأ يُريها بعض صُوَر الشباب، موضحًا لها: "هول اللي بعرفن من بين رفقاتي". وطلب منها أن تتعرّف بنفسها على الشاب إذا كان من بينهم.

تتالَت الصُّوَر. "هيدا؟"، يسألها الشاب فتُجيب لينا بالنفي، لينتقلا إلى صورة أخرى. ظلّا هكذا دقيقةً، كان الشاب يوزّع فيها نظره بين رفاقه المتجمّعين على بُعْد، وخالد الموجود على مقربة. وصلا إلى صورة شاب أسمر مبتسم حليقِ الشعر بذقن نابتة قليلاً يجلس على كرسي بلاستيكي أبيض، ويدخّن نارجيلة في ما بدا أنّه مقهى رصيف، فطلبَت لينا من الشاب

أن يبقى عند الصورة لتتفحَّصها أكثر، ثمَّ سألته إن كان يملك صورة أخرى للشخص نفسه.

"هيدا محمود. رفيقي اللَّزَم"، ردَّ الشاب وأراها صورة يظهر فيها هو معه.

"بعتقد هيدا هوِّي. مبلا! هيدا هوِّي"، قالت لينا مكبِّرةً الصورة ومتفحِّصةً وجهه وسألته:

– هوي منيح؟

– إي... محمود منيح.

– فيني شوفه؟

– لأ ما فيكي.

– ليه؟ باه شي؟ متصاوَب؟

– لا لا. بس منُّو هون. ورا الحدود عم يقاتل. هوِّي منيح، اتطمَّني. بيحكينا من وقت للتاني...

– ما فيني اتِّصل فيه؟

ردَّ الشاب بالتحدُّث على التوكي – ووكي مع رفاقه، مُفْهِمًا لينا بلطف أنَّ النقاش انتهى. كان خالد لحظتها يتَّجه نحوهما ويقول: "وُصْلِتْ القاطرة!".

راديو أبو بيتر: عبطة

أعلن قسم الطب النفسي في مستشفى الجامعة الأميركية عن تنظيم حملة توعية للوقاية من الانتحار. وجاء إطلاق الحملة خلال مؤتمر صحافي رعاه وحضره وزير الصحة. ولفت رئيس القسم الدكتور كامل حداد إلى أنَّ الاحصائيَّات التي قام بها القسم أظهرت ارتفاعًا ملحوظًا في عدد الانتحارات اليوميَّة في لبنان، التي وصلت إلى انتحار واحد يوميًّا، مقارنةً

بانتحار واحد في الأسبوع خلال العام الماضي.

ورجَّح حداد أن يكون الرقم الحقيقي لعدد حالات الانتحار أعلى، خاصَّةً أنَّ الجوانب الاجتماعية والدينية والقانونية للثقافة اللبنانية السائدة تدفع للتكتُّم على حالات الانتحار وعدم الإبلاغ عنها. وأوضح الدكتور حداد أن ليس كل مَنْ يُقدِم على الانتحار يريد الموت فعلًا، وفصَّل قائلًا إنَّ كل ما يريده المنتحر هو التخلُّص من الألم الذي يعاني منه، وهذا لا يعني أنَّ من ينتحر هو شخص ضعيف أو أناني أو يحاول جذب الاهتمام على عكس المُتداوَل، فالكثير من حالات الانتحار هي نتيجة شكلٍ من أشكال المرض النفسي، وهذا يوصل لضرورة الحديث عن الصحة النفسية وتشارك المعلومات عنها مع أوسع جمهور ممكن، والبدء بخطة طارئة لتغيير مسار المرضى والحد من عدد الحالات.

وفي نهاية المؤتمر، أطلق القسم مع جمعية "عبطة" المدنية المتخصِّصة بمجالات المؤازرات النفسية وحلقات تَشارُك التجارب الخاصة، حملة للتوعية والوقاية من الانتحار ستبدأ بإعلان تلفزيوني وعلى الطرقات بشعار موحَّد هو: "صار لازم نوعى".

وبدورها، دعَتْ جمعية "عبطة" إلى مسيرة صبيحة يوم الأحد بعنوان "غدًا يوم آخر". وستنطلق المسيرة من أمام فندق فينيسيا وتنتهي بالتجمُّع على الكورنيش المُطلّ على صخرة الروشة، نظرًا لرمزيَّة ذلك المكان بالنسبة لموضوع الانتحار العلني.

وقالت ممثلة الجمعية إنَّ الهدف من هذه المسيرة هو التأمُّل والشفاء والوقاية وتعزيز وعي المجتمع عن الانتحار، وأضافت أنَّ الجمعية تقوم بجمع التبرُّعات لإنشاء خط ساخن للمساعدة على تجنُّب الانتحار، وهي خدمة ضرورية لم تتوفَّر بعد في لبنان.

ما رواه ضرغام – ١٤

كان ضرغام في الشرفة يستمع للراديو عندما ظهر خالد. ابتسم له وسأله عن ريم، فأجابه العجوز أنَّها في المطبخ، تحضِّر غداءً خفيفًا.

اتَّجه خالد إلى شقَّة العجوز وفتحها بالمفتاح الذي أعطاه إيَّاه، ثمَّ دخل فورًا المطبخ يتفقَّد ريم. رحَّبَت به وهي تواصل عملها. "رْجِعت بكير". قبَّلَته على عجل. استبقاها خالد قليلًا، وأمسك يديْها، واستمرَّ يقبِّلها، فتجاوبت معه للحظة، قبل أن تبتسم وتبتعد قائلةً إنَّ عليها تحضير الغداء.

وقف خالد يلقمش بعضًا من البطاطا المقلية الموضوعة في صحن قريب. سألته ريم عن لينا: "مشِي حال السيَّارة؟"، فأخبرها بكلِّ ما حدث.

ظهر ضرغام في كرسيِّه عند عتبة المطبخ وسألهما: "بشو بقدر ساعدكُن؟"

***

مع تدهور الأوضاع الأمنيَّة منتصف العام ١٩٨٣، استجدَّ خوف جانيت على سليم. كان الفتى قد بدأ يذهب إلى المدرسة وحده، من دون أن يدري أنَّه مصحوب بحماية لا يراها، وكنتُ قد فرزتُ له عنصرًا جديدًا لا يعرف هويته، وطلبتُ أن يراقبه من قربٍ أو بُعدٍ بحسب تقدير الخطر وبشكل لا يسمح لسليم أن يراه.

كان مثيرًا بالنسبة إليّ أن أرى جانيت غاضبة منِّي وتتجاهلني، وعندما صارت تقترب لتسألني باقتضاب عن يومي، كنتُ أجيبها بالاقتضاب نفسه. لكنَّ هذه الإثارة سرعان ما عادت لتصير خوفًا حقيقيًّا عندي من تطوُّر الأمور، ولم يمضِ وقت طويل قبل أن تنقلب الأدوار من جديد، لأعود أنا أفتعل الأحاديث معها.

كأنَّ حاجزًا ما كان قد ارتفع، حاجز يشبه العقبة التي تنشأ قبل اتخاذ

القرار بالكلام الأول مع شخص تُعجَبُ به ولا تعرفه. كأنّنا عدنا إلى البدايات في غير مواعيدها. كان الأمر غريبًا، وأحيانًا مُوَتِّرًا.

انقطع الجنس بيننا. من دون أن تواجهني، كانت جانيت ترفض أن تُقاسِمَني الفراش، فتنتظرني لأنام، وتقوم لتنام في غرفة أخرى. صرتُ أصحو صباحًا فلا أجدها، وأقدِّر من ملمس الغطاء والمخدَّة قربي أنَّها لم تنم بجانبي. ظلَّ الأمر على هذا النحو أيامًا معدودة قبل أن أصحُوَ في منتصف إحدى الليالي لأجدها نائمة في الغرفة المجاورة، فقرَّرتُ عندها تجنيبها الحرج، وصرتُ أبادر بالنوم في تلك الغرفة قبلها، وتركتُ لها الغرفة الرئيسية.

وَرَغبنا – من دون أن نتحدَّث – في أن نُخفِيَ ما يحدث بيننا عن سليم، فحاذرنا إظهار خلافنا له. كانت جانيت مختلفة معي في حضوره. تفتعل طريقة معاملة مختلفة، فقررتُ مجاراتها في تظاهرها. حتَّى إنَّني دفعتُ بملاطفتها لي أمام سليم إلى حدودها القصوى، بعد مضيٍّ أسبوعين من الخلاف، مستعينًا بتعليقات الفتى المحفِّزة، فقبَّلتُها أمامه، وكانت تلك الحادثة بابًا لأول محادثة صريحة بيننا، بعد خروج سليم من المنزل.

بدأت حديثها بنبرة غاضبة قائلة إنَّه لم يكن عليَّ فعل ذلك، فردَدْتُ بمنتهى البرود أنَّني كنتُ فقط أستجيب لملاطفاتها. استنكرَتْ إلقائي اللوم عليها. لكنَّها كانت تعرف أنِّي محقٌّ جزئيًا، ولذا ربَّما بدا عليها الارتباك في ردِّها، فما كان منِّي إلا أن اقتربتُ مُرْجِعًا الحديث إلى أصله وسألتُها: "إي ولايمتى ح نضلّ هيك؟".

قبل أن تتحدَّث، وجدتُني أقبِّلها. لم تُوقفني، وتجاوبَتْ معي حتَّى وجدنا أنفسنا في السرير. قالت إنَّها تشعر بالخوف، وردَّدَت على مسمعي توجُّساتها القديمة، فعدتُ ألعبُ دور المطمئن لها، وأعلمتُها أنِّي أعرف تحرُّكات سليم حركة بحركة، فرفعَتْ نظرها وطلبَت منِّي ألَّا أخفي عنها شيئًا بعد الآن، وسألتني: "مخبّى عنِّي شي تاني؟".

كان يمكن أن أقول لها، لكنَّ ذلك كان ليؤجِّل - وربما ليُنهي - مسألة عودة العلاقة بيننا إلى طبيعتها، فلم أخاطِر ولم أقُل. وبدلًا من أن أضحك، أو أستهجن سؤالها، أو أردف بإجابة سلبية هادئة، وجدتُني ألتزم أمامها بلا سبب بأمنها وأمن ولدها، وأقول إنَّ باستطاعتها محاسبتي إن أخلَلْتُ بوعدي.

نظرَت إليّ وابتسمت ابتسامةً لم تحضر عندها منذ زمن بعيد، وعُدنا إلى سابق عهدنا. وكما قبل، ظننتُ أنَّ هذه نهاية الحكاية، غير أنَّني كنتُ مُخطئًا من جديد.

كنتُ قد عاوَدتُ دفع المال إلى الكاهن من دون مناقشة أهميَّة ما يعرفه. ففي الشهور التالية، صادفتُه أكثر من مرَّة في منزلنا يزور جانيت. وكان كلَّما التقيتُه، يقوم ويسلِّم عليَّ مبتسمًا، كأنَّ شيئًا لم يحدث بيني وبينه. وهذا ما جعلني أفكر في حِلول أكثر جذريَّة، انبثقَت من ماضٍ بعيد أدفع المال لطمره. أجل. لقد فكَّرتُ فعليًا بحلِّ المسلَّح القديم، وكِدتُ أبدأ بالتخطيط له، لولا أنَّ حدثَيْن آخرَيْن شغلاني عنه.

الحدث الأول كان احتراق مستودعات رئيسية لي في بيروت الغربية إثر معركة شوارع نشبَت بين طرفَيْن وُجِدا في المنطقة. وبالرغم من أنَّنا، أنا وجيراني من الملَّاك، واظبنا على دفع أموال طائلة لحماية ممتلكاتنا، إلَّا أنَّ ذلك لم يشفع لنا عندما اندلعت المعركة، التي سأعرف في ما بعد أنَّ أسبابها تافهة، تراوحَت بين الخلاف على أفضلية ركن سيَّارة، والصراع على قلب امرأة، وتدافع أمام فرن. بل إنَّني سمعتُ بعدها من يسمِّيها بـ"معركة المنقوشة"!

وإذ وقفتُ في المستودع أتأمَّل محتوياته التي استحالَت رمادًا، وجدرانه التي انقلبت سوداء، فكَّرتُ في معنى أن يحدث هذا الحريق، بعد عودة الأمور بيني وبين جانيت إلى طبيعتها. فبالرغم من الأفكار التي طغت عليَّ مع توالي الظهورات المُجفِلة بالنسبة إليّ، لم أكن أجد في الكاهن مصدرًا

لأيِّ خطر حقيقي، وكنتُ أرى العلاقة معه علاقة غير مخيفة، بقاؤها مشروط ببقاء السرِّ سرًّا، وثمنها يُدفَع عند الحاجة.

ثمَّ سرعان ما اصطدمتُ بالحدث الثاني، وهو حدث سيرسم كل ما سيحدث بعدها، حتَّى لا يعود يحدث شيء يُذكَر في قصَّتي.

عرف سليم أنَّ رجلًا من رجالي يراقبه. وبلا إنذار، دخل المنزل غاضبًا، واتَّجه نحوي مباشرةً في الشرفة. شَهَرَ في وجهي غضبه وخيبته، ولم تنفع معه كل محاولاتي لتهدئته. كان يتحدَّث من دون توقُّف.

لا تثق بي؟ تعاملني كطفل؟ تريدني أن أقول لماما ما حدث حينها؟ أن أسألك أمامها كيف أنْهَيْتَ المسألة فتقول ما لم تخبرنا إياه؟ تريدني فعلًا أن أفعل ذلك؟

أتَتْ جانيت على صوت سليم. وصلت بعد أن أنهى كلامه، فلم تسمع ما قاله. نظر سليم إليَّ غاضبًا كأنَّه يحذِّرني ممَّا سيفعله تاليًا، ثمَّ استدار ناحية جانيت مكملًا تحذيراته بصوتٍ عالٍ. وكما يحدث معه دائمًا عندما يغضب، عاد إلى عادته القديمة في علكُ الحروف، وقال: "جوزِك... باعت حدا... ورايي... بالمخفي... يراقبني... كل يوم! فِكرُو... إني... مش... رح انتبه!".

نظرَتْ جانيت إلى ابنها، وانهمكت تمسح يدَيْها بمئزر المطبخ الذي تلبسه، ففهم سليم حركتها، ليكمل غاضبًا: "وإنتي... إنتي كمان عارفة! لا... يمكن إنتي... اللي طالبة... منه... يعمل هيك! متفقين... سوا! كيف... كيف... كيف... ما انتبَهْتْ؟".

خرج سليم من الشرفة، فركضت جانيت وراءه تسأله أين يذهب. أكمل طريقه من دون أن يردَّ عليها. وقفَتْ عند عتبة البيت تناديه وتطالبه بالعودة. اقتربتُ ورَبتُّ بيدي على كتفها، وقلتُ لها ألَّا تقلق. سيخرج قليلًا ثمَّ يعود.

تلك الليلة، لم نستطع النوم. بقينا مستيقظين ننتظر رجوع سليم، لكنَّه لم يعد.

قدَّرتُ أنَّه نام عند أحد رفاقه، وأنَّه سيذهب إلى المدرسة في اليوم التالي، لكنِّي لم أُرِدْ أن أرسل عناصري وراءه للتأكُّد بالرغم من طلبات جانيت المتكرِّرة. قلتُ لها إنَّ ذلك سيفاقم الوضع، وصرختُ عسى أن تهدأ قليلاً وتدعني أتصرَّف. فنظرَت إليَّ، وذكَّرَتني من جديد بتعهُّدي أمامها بحماية سليم.

في اليوم التالي، سأتيقَّن من أنَّ وعدي الذي لم أعرف له سببًا حين تلفَّظتُ به، سيجد مبرِّرات قوله. تلخَّصَت المأساة في أنَّ ما جَهِدْتُ لتخبئته طيلة هذه السنوات لم يكن هو ما أحدث الصدع الأخير. وتلك سخرية قاتلة، أن تنتظر الخطر من باب مُقفَل، فيأتيك بسهولة من باب مفتوح، ويبادلك السلام.

انفتحَت العلبة، وطار كلُّ ما فيها في الهواء، ولم يلتقطه أحد.

راديو ضرغام: أمن قومي

قامت النيابة العامة التمييزية في لبنان، باستدعاء صحافيِّين تلفزيونيِّين تبعًا لإشارة وزير الإعلام. وقال الوزير إنَّ الصحافيِّين أثاروا حالة من الهلع بين المواطنين ببثِّهم المباشر طيلة النهار، مُوهِمين الرأي العام بوجود حالة طوارئ صحيَّة، ومهدِّدين الأمن القومي بادِّعاء أخبار لا صحة لها.

واستشهد الوزير بالحادثتيْن اللتيْن تعرض إليْهما الصحافيُّون أثناء البثِّ، إذ ضُربوا ولُوحقوا مرَّتين عندما سألوا عن موت أشخاص كانوا لا يزالون أحياء لحظة زيارتهم لمنازلهم.

وتداعى زملاء الصحافيين من وسائل إعلامية مختلفة إلى ساحة الشهداء بوسط العاصمة حيث رفعوا أقلامهم أمام الكاميرات، وعبَّروا عن سخطهم لاستهداف الإعلام الذي قالوا إنَّه ينقل ما يحدث على أرض الواقع ولا يتكره. وطالب الصحافيون السياسيِّين أن يتفقوا على حكومة جديدة

بدلًا من التضييق على الحريات، وأن يفسّروا الخلاصات التي انتهت إليها التجربة الاستقصائية التي قام بها الزملاء المستدعون للتحقيق.

وحدث هرج ومرج عندما ظهر وزراء من حكومة تصريف الأعمال للتضامن مع الصحافيين، نتج عنه تضارب بالأيدي ممّا حتّم تدخُّل القوى الأمنية لفضّ الاعتصام بالقوة.

حكاية تطفو فوق لندن – ٥

كنتُ في زيارة عمل طويلة إلى لندن، عندما حدث ما لم أخطّط له.

كان خالد يهاتفني يوميًّا، فوجدتُني أطلب منه التوقّف عن الاتّصال بي. قلت إنّي في اجتماعات طيلة النهار، واستدركتُ طالبةً منه أن يرسل لي رسائل نَصيّة، وسأردُّ عليه عندما أستطيع. للمرّة الأولى شعرتُ أنّه انتبه لتغيُّر ما، وربّما أعطاني البعد عنه مثل هذا الإحساس، لا أدري. صمت للحظة قبل أن ينهي الاتّصال قائلًا: "طيّب. خليكي مَنيحة".

في المكتب هنا، كان أحد الزملاء يلاطفني. مذ كنتُ في بيروت، كنّا نتواصل عبر الإيميلات، وعندما جئتُ إلى لندن، وضعنا وجهيْن لاسميْنا، وتعارفنا من جديد. عرفتُ من لحظة اللقاء الأولى به أنّه أُعجِب بي، وكان يمكنني أن أوقفه، وأن أحسم الأمر بمنتهى السهولة، إلّا أنّني لم أفعل.

هل كنتُ محتاجة إلى هذا النوع من الملاطفة؟ أم هي الحاجة إلى ملاطفة من شخص آخر غير خالد؟ هل كنتُ أقوم بتجربة ما؟ هل كنتُ أثبت لنفسي أنّ الأمر مع خالد انتهى، أم كنتُ أضيف أعذارًا جديدة لا تترك طريق عودة وراءها؟

لا أعرف، لكنّي لم أكن أودُّ إيقافه عند حدّه، وكان هذا سببًا كافيًا لي كي أستمر. صار الأمر يتطوّر بسرعة، فأمسكني ذات مرّة في مطبخ المكتب، وتراجع، بعد أن أفلتُّ يده بلطف وابتسمتُ له. ثمّ عاد بعد ساعات ليقف

أمام مكتبي، ويهمس معتذرًا منّي. أومأتُ له مبتسمة، ولم أُشعِره بالذنب. أعطاني ورقة، وقال إنَّ فيها عنوان مطعم يذهب إليه بعد العمل. استدرك مشيرًا إلى أنَّه بار أكثر منه مطعم، لكنَّه يقدم طعامًا جيدًا، ولا حاجة لي أن أغيِّر ملابسي. أجبتُه أنَّني متأخِّرة في العمل، فردَّ أنَّه سيكون هناك، سواء أجئتُ أم لم أجِئ، وطلب منِّي أن أحاول جهدي، ثمَّ ترك الورقة على المكتب وغادر.

تلك الليلة كنتُ آخر واحدة تغادر المكتب.

وقفتُ وراء مكتبي، واستدرتُ نحو الزجاج أنظر إلى الشارع. بعد دقيقة، أظلم المكتب كله ما عدا البقعة حيث كنتُ أقف. كانت الورقة متروكة في مساحة النور المحدودة المسلطة فوق مكتبي، تضيء وتشير إليَّ وتقول لي: أنا هنا. التقطتُها، ودسستُها في جيبي، ورفعتُ الهاتف لأتَّصل بخالد.

كان خطُّه مقفلًا. ظلَلْتُ اتَّصل به لما يقرب النصف ساعة. أرفع سماعة الهاتف وأضعها، وأمشي بين محاولة وأخرى في أرجاء المكتب. أترك الأضواء تتحسَّس وجودي وتضيء فوقي، وأكتشف مساحات وزوايا جديدة. حضَّرتُ القهوة، وشربْتُ الماء، وبقي الخط مقفلًا.

وفي لحظة... في لحظة واحدة فقط، وجدتُ نفسي أخرج من المكتب، وآخذ المترو وأتَّجه إلى أقرب محطة توصل إلى العنوان المدوَّن على الورقة. لم أتعب كثيرًا لأصل إلى البار. مشيتُ شارعين ووجدتُه عند ناصية الشارع الثالث. وبدل الدخول، وقفتُ اتَّصل بخالد من جديد.

هذه المرَّة كان الخطُّ مفتوحًا، وسرعان ما ردَّ. أتَتْ جملته الأولى هجوميَّة... تركتُه يتحدَّث. كانت تعليقاته تافهة، لم تقُل شيئًا يُذكَر، ولم تناقش التفاصيل التي أدَّت إلى تدهور العلاقة. بقيَت عند حدود آخر تفصيل فقط: طلبي منه ألَّا يتَّصل بي. لم يسألني لِمَ أتَّصل به. باختصار، لم يكن يفهم. صرتُ أجادله، وعلَتْ نبرتي. أجبتُه أنَّ ما يقوله محض هراء، وأنَّه

لا يسمع ما يقول، وأنَّه يركِّز في التافه الذي يحدث الآن، وبدل أن يجيبني بحجج مقنعة، اكتفى بالاستماع، قبل أن يخفت صوته، ويطلب منِّي أن أهدأ. هذا التراجع أشعل غضبي، وجعلني أتلفَّظ بنعوت لم أقلها له من قبل، وأنهي المكالمة.

أطفأتُ الهاتف، ووضعتُه في جيبي، ودخلتُ البار. وجدتُ الشاب جالسًا إلى البار، يتحدَّث مع امرأة ويضحك. جلستُ قربه من دون أن أقول شيئًا وطلبتُ كأسًا. بعد أن أنهى حديثه، التفت ليطلب من الساقي كأسًا أخرى، ففوجئ بوجودي.

كنتُ متوتِّرة، وأظنُّه لاحظ ذلك؛ ومع ذلك فقد تجاهل حالتي ورحَّب بي، ثمَّ طلب لي كأسًا بعد الكأس الأولى التي شربتها بسرعة، وقال إنَّ علينا شرب نخب وصولي إلى لندن.

تحادثنا كثيرًا، وكان معظم ما أقوله إجابات على أسئلته، حتَّى وصل إلى الاستفسار عن أمنياتي لما تبقَّى من هذه السنة. رددتُ أنِّي لا أشغل نفسي بالتفكير بالمستقبل، وأنِّي أفكر بما أفعله يومًا بيوم. ولمَّا انتبه إلى أنِّي صرتُ في حال من الزهزهة الواضحة، سألني ماذا أريد من هذه الليلة، فأجبْتُه أنِّي أودُّ أن أفرح، وسألتُه: "هل أنت قادر على إفراحي؟" ردَّ بطلب أقداح من كحول لم أسمع عنه من قبل، وقال: "فلنبدأ. نخب الفرح والمرح".

لكَ أن تتخيَّل ما حدث بعدها. صحوتُ لأجد نفسي في سريره. نهضتُ وأنا أترنَّح، ثمَّ أخذتُ ملابسي المرمية على الأرض. دخلتُ الحمَّام، وجلستُ على الأرض بتأنٍ، وحاولتُ أن أتذكَّر ما حدث، لكنِّي لم أستطع أن أقبض على التفاصيل. كل ما بقي معي كان ذلك الشعور الحتمي بأنِّي شعرتُ مع الشاب ما شعرتُه مع خالد في تلك المرَّة التي قبَّلني فيها، بل ربَّما أكثر.

فتحتُ الهاتف لأجد رسائل اعتذارية يتتابع وصولها من خالد.

وليت الأمر توقَّف عند هذا الحد. ليته...

الصورة تنظر

وقفا يتودعان أمام باب الإستديو. قالت له وهي تتفحَّص عينه: "عم تصير أحسن". قاطعها خالد وطلب منها البقاء. فكرَت ريم بالتذرُّع بأغراضها المتروكة في شقَّة سهى، لكنَّها كانت تعرف أنَّ حجَّتها غبيَّة، وأنَّ خالد سيذكِّرها بأنَّها تملك ما يكفي من الأشياء في الإستديو، فردَّت بلا نقاش: "طيِّب".

وقفَت أمام اللوح حاملةً صورة وجه جانيت، فلم تجد مساحة فارغة فيه. اضطرَّت إلى تعليق الصورة فوق القصاصات في الزاوية اليسرى العليا للوح، ثمَّ عادت واستلقَت قربه على السرير.

عانقها وأخذا ينظران من السرير إلى صورة جانيت. قال خالد بصوت خافت: "كأنَّا عم تتطلَّع فينا". فردَّت عليه ريم: "كنت بعدني بدِّي قلَّك".

تابع يحدِّثها عن طلب مديره السابق منه، فاهتمَّت بحديثه:

– شو ح تعمل؟

– ح فكر بالموضوع.

– ما بدَّا تفكير. أكيد إي!

– ح إشْتِغل التحقيق، وبالأخير ح يقولولي إنُّو كان بدُّن شي تاني. حافظُن صِرْت!

– مش مهم. اشْتِغلو!

همهم ثمَّ صمت للحظة، قبل أن يسألها عن السبب الذي جعلها تطلب صورة لوجه جانيت، فردَّت باقتضاب: "بكرة بتعرف". أكمل يحضنها من الخلف. أغمضا عينيهما. ورويدًا رويدًا، ناما، بينما تابعت جانيت النظر إليهما.

في اليوم التالي، وبعدما أنهى ضرغام سرد حكايته، وقفا أمام مدخل المبنى. غاب خالد داخل محلٍّ قريب، وعاد بعلبة دخان وقدَّاحة، فوجد

ريم تجيب على اتصال هاتفي.

أخرج خالد سيجارة، وراح يدخّنها وهو يراقبها. كانت ريم تقول ما معناه إنّها ستكون هناك بعد ربع ساعة. أنهَت الاتصال وتقدّمَت نحوه، فأعطاها سيجارة، وأشعلها لها. سألَته وهي تنفث الدخان:

- ٩؟

- إذا بدّك!

- هيك صرنا رسميًا مدخّنين.

- لا بعد بكير. هاي احتفال بس. السيجارة دايمًا منيحة لنهاية سهرة. نهاية يوم. نهاية قصّة. لنهاية أيّ شي!

- بس بعد ما خلصتْ القصّة. لازم نفتّش ع جانيت.

- ما بظنّ ح نلاقيها.

- أنا بْظُنّ العكس.

قطعَت الطريق، فرافقها. سألها إلى أين يذهبان، فلم ترد. وصلا إلى ساحة ساسين ومن هناك أكملا في شارع متفرّع من السّاحَة، وانحدرا من جديد، ثمّ التفّا في شارع أضيق، لينتبه خالد أنّهما صارا في الشارع الذي حدث فيه الانفجار، ففهم فورًا إلى أين تذهب ريم.

جمد في مكانه وظلّت هي تمشي. عندما لم تجدْهُ قربها، التفتَت، وعادَت إليه، وأخذَت تشرح:

- ح إطلَع لحالي... ما تخاف. مش ح تِطْلَع معي.

- ما خاف؟ إنتي مفكرة إني خايف؟

- لا. ما قصدي.

- وكمان مقرِّرة تطلعي لحالك؟

- ما بْتقدَر إنتَ تَطلع معي أصلًا.

- والله؟

- اوثاق فيّي شويّ، ممكن؟

- وهوِّي؟ كيف بوثَق فيه؟ بركي عملّك شي؟
- مش ح يعمل.
- شو بدِّك منه أصلًا؟ استقيلي وخَلَص!
- بدي قلُّو شو طلباتي لإستقيل وفلّ.
- وشو بدِّك؟
- بدِّي لاقي جانيت.
- بلا جانيت، بلا خرا! ما تجنِّنيني ريم!
- طَبْ روق.
- ما بدِّي روق!

عَلَت نبرة خالد وهو يحدِّثها. كان الأمر خارجًا عن سيطرته. صعد غضبه من داخله، وظهر في جُمَل انفجرَت في الفضاء بينهما، لكنَّ الانفجارات لم تكن تؤدِّي إلى شيء. كانت ريم تخفِّف من حدَّتها كلِّها بأجوبتها الباردة الواثقة. كأنَّها كانت تعرف أنَّ هذا سيحدث، واستعدَّت لتستوعب كل التعليقات. ولمَّا استمرَّ حديثهما بلا طائل، ولم تعُدِ الإجابات تنفع، عانقَته وكرَّرَت هامسةً في أذنه: "اوثاق فيي بليز".

قالت إنَّها ستتَّصل به قبل دخولها إلى شقَّة ألبير، ليسمع كل شيء بينهما. انفعل خالد من جديد شارحًا أنَّه لا يريد أن يسمع، وأنَّه يثق بها. عانقته مرَّة أخرى، وقالت إنَّ الاتِّصال سيُشعرها بالأمان، ثمَّ تركته وقطعَت الطريق باتِّجاه المبنى.

جلس خالد على عمود عند الرصيف المقابل. بعد دقائق، رنَّ هاتفه، فردَّ على الاتصال فورًا. سمع رنَّة الجرس، وصوت الباب يُفتَح. وقبل بدء الحوار بين ريم وألبير، قرَّر أنَّه لن يستمرَّ في التنصُّت، فأبعد الهاتف إلى حجره، وأخذ ينظر إليه. بالرغم من قراره، لم يستطع إلَّا أن يركِّز سمعه في الأصوات التي تصعد خافتة من الآلة. لم يكن يريد

أن يفهم المضمون بقدر ما كان يودُّ فقط أن يميِّز أيَّ صرخة أو نداء استغاثة من أيِّ نوع.

بعد ربع ساعة، خرجت ريم من مدخل المبنى. بدا فرحها واضحًا. عندما صارت قريبة منه، قفزت تعانقه، ثمَّ قبَّلته وسألته: "وين ح تسهِّرني الليلة؟"

ما رواه ضرغام – ١٥

يُخيَّل لخالد أنَّ ضرغام يستعيد طاقته في حضور ريم. كأنَّه ليس الرجل المُتعَب الذي طلب منه ذات يوم أن يُعيده إلى سريره، وصار في الجلسات اللاحقة يروي حكايته ببطء شديد.

هل يُحدث وجود العنصر الأنثوي فرقًا في حياته؟

تخطر سلام على بال خالد، ويتذكَّر طاقة العجوز وقتما كانت هنا. أينها الآن؟ ولماذا رحلَت؟ يفكِّر بالاتِّصال بروجيه، لعَلَّه يحفظ رقمها. يخرج إلى الشرفة ويترك ريم وضرغام في غرفة الجلوس. يرنُّ الخطُّ عدة مرَّات، ثمَّ يظهر الصوت يطلب منه ترك رسالة بعد الصفَّارة. يتَّكئ خالد على الدرابزين، وينظر إلى موتورات المياه في الأسفل. يصمت قليلًا، ثمَّ يكتشف أنَّه مشتاق لروجيه، فيأخذ يتحدَّث بلا كثير تفكير: "وينك؟ امتى راجع؟... أنا صرت أحسن، إنتَ منيح؟... قادر تنسِّق وقتَك بين الشغل والدرس؟... كيف عم تقضِّي أوقاتَك؟... مشتقلَك... اتَّصل فيِّي لما تقدر".

يُنهي الاتصال من دون السؤال عن سلام. يعود إلى غرفة الجلوس، ليجد ضرغام يلاطف ريم، والأخيرة تضحك. ينظر العجوز إليه ويقول له إنَّ الإبريق قد فرغ، ويطلب منه ضاحكًا إن كان يقدر أن يصنع الشاي، مبرِّرًا أنَّ نهاية الحكاية تتطلَّب بعض الشراب الساخن. يحمل خالد

الإبريق وينطلق إلى المطبخ، بينما يصدح صوت ضرغام وراءه: "ما تخاف مش ح إسرقا منَّك!".

***

ما من نهاياتٍ بطيئة.

كل النهايات تأتي مسرعة. أما المشاهد الوجدانيّة التي نستغرق فيها، فهي تلي النهايات ولا تُعَدُّ فعليًا من أصلها. هي التبصُّر فقط في عواقب الأشياء، والإشراف من عَلٍ على ما حدث، والتأكُّد من أنَّ ما حدث قد حدث فعلًا. هي الوقوف في الشرفة، والنظر إلى مدخل المنزل، ومراقبة من يدخل ومن يخرج ومن يمرُّ، بلا أيِّ قدرة فعليّة على التدخُّل.

كل النهايات تُقبِل مسرعة. كلُّها تحدث قبل بطء التأمُّل.

وهكذا أقبلَت نهاية علاقتي بجانيت.

لم يحدث الأمر عندما رحلت، ولا عندما صارت جثة صامتة تسمح لي بممارسة الحبِّ معها من دون أن تقوم بشيء، ومن دون أن تقول شيئًا. انتهت علاقتنا قبلها بأربع سنوات، عندما وقفنا مع الأهالي أمام مبنى المدرسة في اليوم التالي لاختفاء سليم.

كانت النيران قد اشتعلت في ذاك الجانب من المدرسة بعد القصف المدفعي صباحًا، ولم تُبقِ منه إلا الجدران السوداء. أخذ أهل البلدة يساعدون في إطفاء الحريق. وبينما اهتمَّ بعض أهالي التلامذة بتفقُّد أبنائهم، وإعادتهم إلى المنازل، ظلَّ البعض الآخر منتظرًا يستفهم جَزِعًا أيُّ صفوف كانت في الجزء المحترق من المبنى.

استمرَّ صوت القصف على القرى المحيطة يصل إلى حيث نقف. لم يكن الوضع آمنًا للبقاء، ولكنَّ الأهالي الذين لم يجدوا أولادهم لم يتزحزحوا من أماكنهم. عندما أخذ عدد المنتظرين يتناقص، عرف الباقون - بعد

تحادثهم – أنَّ أبناءهم الذي لم يظهروا بعد، زملاء في صفَّيْن مدرسيَّيْن، ولم يستغرقوا كثيرَ وقتٍ ليستنتجوا أنَّ القصف أصاب هذيْن الصفَّيْن.

عندما بدأتُ أفهم ما يجري، اقتربتُ من جانيت التي كانت تنتظر بعيدًا، لأحاول إقناعها بالعودة مع أحد رجالي إلى المنزل، إلّا أنَّها رفَضَت باقتضاب وبعنف. كانت تقف وتقضم أظافرها، وبالرغم من أنَّها كانت دائمًا متطرفة في أمانها وخوفها وغضبها، لكنَّها كانت المرَّة الأولى الذي يتبدَّى فيها رعبُها على هذا النحو. كان رُعبًا لا صوت له، يتغذَّى من الانتظار، ومن الرغبة بعدم تصديق ما يجري.

أخرجوا الأجساد من المبنى. بعضها ما زال على روح، وبعضها الآخر جثم على الحمالات هامدًا. أخذ الأهالي يتعرَّفون على أبنائهم، ويرافقونهم إلى عربة الاسعاف. وكان المكان، برغم قلَّة من بقي فيه، تسوده الفوضى، بالأخصِّ عندما صارت جثثٌ غير واضحة المعالم تُخرَج من المبنى. لكنَّ الأهالي كانوا يعرفون أبناءهم من ملابسهم التي خرجوا بها من منازلهم صباح ذلك اليوم. ظلَّت جانيت واقفة على بعد، وانهمكتُ أنا أدقِّق في معالم كل جثَّة وأرفع نظري ناحيتها، وأشير لها بحركة من وجهي أنَّها ليست جثَّة سليم.

لم نجدْه بين الجثث، وعندما حاولنا التأكُّد من سجلات المدرسة، قالوا إنَّهم لسوء الحظ، لم يأخذوا الحضور والغياب في الصفَّيْن ذلك اليوم، ولا يستطيعون تأكيد حضور سليم من عدمه. كان الخيار الوحيد المتبقي لنا أن نسأل من بقي حيًّا من زملائه في الصف، وهكذا فعلنا، لكنَّ أحدًا منهم لم يرَ سليم حاضرًا في الصفِّ ذاك النهار.

كان يُفترَض بالخبر أن يكون جيدًا، لكنَّ الأيام التي سبقت تأكيده، كانت أيامًا مروِّعة لجانيت. فبعدما تركنا الساحة المقابلة للمدرسة، وصعدنا إلى السيَّارة، صارَت ترتجف وتبكي بلا توقف، وانهارت تمامًا. وما إن وصلنا إلى البيت، حتَّى استدعيتُ لها الطبيب، فأعطاها مهدئات

وقال إنَّها تعرَّضَت لأزمة عصبيَّة خطيرة.

أخفيتُ عنها التلفاز والراديو لأجنِّبها الأخبار. وكنتُ أقرأ الصحف بالخفاء عنها خلال نومها، قبل أن أعطيها لمن تبقى من الشباب الذين يحرسون المنزل ليتخلَّصوا منها.

أمَّا من تبقَّى من الشباب فقصَّةٌ أخرى. فمع تصاعد التفجيرات وأعمال العنف في بيروت والمناطق، أخذ عدد المسلَّحين الباقين عندي يتناقص على نحو بَيِّن، ولم أكن أعرف أين يذهبون، وعندما سألتُ من تبقَّى منهم، أجابوا أنَّ هناك من يدفع في بيروت أكثر، وأنَّ "الوضع هون، يا إستاذ، زَهَق".

وسريعًا أدركتُ: حان الوقت لأن نترك سوق الغرب.

لكنَّ جانيت لم تكن تقبل. كانت تعتبر أنَّ مغادرتها للبيت مشروطة بعودة ابنها، وأنَّها ببقائها هناك، تسرِّع عودته، لأنَّه لن يعود إلَّا إلى المنزل الذي غادره.

كانت تظنُّ فعلًا أنَّه حيٌّ وهو سيظهر من جديد، ولم يكن ممكنًا مهادنتها في أفكارها، فالأخبار كانت تنذر بالسوء، وحادثة المدفعيَّة التي قيل بعدها إنَّها أصابت القرية من طريق الخطأ، لم تكن إلا نذير شؤم أوَّل.

قرَّرتُ نقلها إلى بيروت دون موافقتها. أضفتُ بالتنسيق مع طبيبها بعض المهدِّئات إلى طعامها، وانتظرناها أنا والشباب الأربعة الباقين حتَّى تنام، ثمَّ حملناها إلى السيَّارة. كنتُ قد فعَّلتُ علاقاتي واتصالاتي لنجتاز الحواجز من غير معوقات تُذكَر، ولمَّا ظَهَرَت عراقيل سبَّبها غباء شباب جدد عند الحواجز ونزقهم، كان نوم جانيت يساعدنا، إذ كانت تبدو في حالتها تلك امرأة مريضة. وهكذا، عبر طريق التفافيَّة طويلة، وصلنا إلى بيتنا الجديد في المنطقة الشمالية الشرقية من بيروت.

عندما صحَت جانيت بعد ساعات، ووجدت نفسها في بيت مختلف، لم تقم بأيِّ ردِّ فعل مباشرة. التزمت الصمت، وانقلب التزامها بتتالي الأيام

قانونًا. لم تعد تتكلَّم إلَّا لتتحدَّث عن أحداث ماضية، ولم تكن توجِّه حديثها لي، بل صارَت تنظر إلى الأفق، أو تنتقي أناسًا زائرين تعرف أنَّهم لن يكونوا في المنزل يوميًّا، ولن يعودوا ليحاسبوها على كلامها، وتحادثهم.

قاطعتني جانيت، لكنَّها لم تكن تُعلن لي غضبها حتَّى بتعابير الوجه. لم تتَّهمني، ولم تذكِّرني بوعدي القديم بحماية ابنها. كان تجاهلها فعلًا عامًا، وكانت كمَن قرَّر الانتقال إلى عالم بعيد.

في بداية انتقالها إلى ذلك العالم، لم أكن أطلب الجنس معها. أبدلتُ تماسَّنا بالعناق. كنتُ أقترب منها في السرير وأحتضنها فلا تعترض، ولم تكن لتقوم بأيِّ ردَّ فعل. لم يكن يتجاوب معي شيءٌ فيها. حتَّى حرارة جسمها كانت تبقى باهتة بلا أيِّ تغيير. ثمَّ خطر لي أن أمارس الجنس معها. استهجنتُ الفكرة في البداية، ومع هجسي المتواصل بها، اقتنعت. لعلَّ الجنس يحرِّك فيها شيئًا، فيطفو شيء على السطح، أو تحضر ذكرى، أو يبرز أي شيء يمكن وصله بالحاضر.

نمتُ معها، فتعاملَت معي كما في العناق. لم تَتَصلَّب، ولم تَلِن، وتركتني أفعل ما أريد بلا مقاومة. وبينما كنتُ أعمل محمومًا لأشعرها بأيِّ شيء، توقَّفتُ في لحظة ونظرتُ إليها، فوجدتُ عينيْها مفتوحتيْن، ثابتَتيْن باتجاه زاوية السقف.

كانت مرتمية بلا حراك كالجثث المغروزة برمل الشاطئ في أحلامي. استلقيتُ وحاولتُ أن أبحث عن أيِّ تفصيل لافت في الأعلى، فلم أجد إلا السقف بشقوقه، وانتهى بي الأمر أن أبكي بصمت بينما هي نائمة بجانبي.

عندما استطعتُ أخيرًا النوم، رأيتُ حلمًا كان الرائي فيه يُشرِف على حالتنا هذه، ويتأملنا من الأعلى. لم أعرف إن كنتُ أنا الذي أنظر إلينا في الحلم، أم أنِّي أرى ما يراه غيري، لكنِّي عرفتُ عندها أنَّ الأمر قد انقضى إلى غير رجعة.

في الأيام التي تلَتْ محاولتي البائسة، غرقتُ في اكتئاب عميق، جعلني

ألازم المنزل وأتوقَّف عن العمل، فاعتدى مجهولون على كثير من أملاكي، واحتلَّ أناس بعضها الآخر بسلطة الأمر الواقع.

إلَّا أنَّ كلَّ ذلك لم يجعلني أخرج من قوقعتي. تفرَّغتُ لمراقبة جانيت وهي تقوم وتقعد في عالمها الموازي الذي لم أكن أستطيع دخوله، وأخذتُ أفكر في السبب الذي أدَّى بها إلى هذه الحال. هل هو اختفاء سليم، أم انتقالنا إلى هنا؟ من المُلام؟ أنا لأنِّي كذبتُ على سليم، أم هي لأنَّها أحكمَت عليه الخناق؟

فشلي الأول في السرير وأسئلتي المتكاثرة، لم تُثنِني عن النوم معها مرَّة ثانية، وثالثة، ورابعة... لم يكن الأمر ممتعًا، وكنتُ أحاذر أن أكون عنيفًا معها. كنتُ أبحث فقط عن الأشياء المفقودة في علاقتنا، وأحاول أن أجد سببًا لكلِّ شيء حدث، ولأقتنع بأنَّ ما حدث قد حدث فعلًا، وكان السرير المكان الوحيد الذي يثبت ذلك، وأستطيع فيه لمسها.

فشلتُ في العبور، ولم أعثر على إجابات محدِّدة لأيٍّ من أسئلتي. كان الأمر غائمًا وعرضة للتأويل، وكان ذلك سببًا آخر لأواصل الحفر العميق في اكتئابي، وشعرتُ بالاشتياق إلى سليم الذي بقي عندي ذاك الوجه الذي لم أستطع تفحُّص تغيُّر ملامحه في عتمة الطريق الترابية.

شيء واحد كان يعزِّيني، هو يقيني بأنَّني اتَّخذتُ القرار الصحيح بترك القرية. فبعد مغادرتنا بشهر، انسحبت القوات الاسرائيلية، واستَعَرَت المعارك حول سوق الغرب وعليها، وبدأَت دورة من أقسى دورات الحرب: حرب الجبل.

وصلَت الحرب إلى سوق الغرب بعد أن فقدنا كل شيء. لو ورَدَت هذه المصادفة في قصَّة لقلتُ عنها إنَّها مصادفة رديئة. لكنْ، في الحياة تحدث الأمور من دون أن يؤخَذ رأيك فيها، وفي ذلك سخرية أخرى، أن تصير تلك التدخُّلات الهادمة التي ظهرت فجأة من دون أن تنبثق من شيء أو تنتج عن تراكم شيء، لحظات مفصليَّة تحدِّد مسار حياتك، متغلِّبةً على منطق

الأحداث في القصص نفسها.

في عام ١٩٨٧، سآخذ جانيت ونذهب لتفقُّد المنزل، فأنجح في الوصول إليه بعد التنسيق مع قوات الجيش، وأدخل لأجده قد انقلب إلى مزبلة: معلّبات طعام مفتوحة وملقاة في غرفة الجلوس، صحون وأوانٍ مكسَّرة في المطبخ، الأبواب الداخلية وأبواب الشرفات مقتَلَعة من أمكِنتها، الكثير من القمامة في الأرجاء، أما باقي قطع الأثاث التي لم تُسرَق، فلم تعد صالحة للاستعمال.

أترك جانيت في غرفة الجلوس، وأنطلق لأتفقَّد باقي الغرف. أحاذر وأنا أخطو فوق الطين والتراب والقذارة، وأصل أخيرًا إلى مدخل غرفة النوم. واقفًا عند مدخلها، أكتشف أن لا شيء بتاتًا فيها. لا سرير، ولا كراسي، ولا طاولة، ولا ستائر. وما إن أدخل لأتَّجه إلى الشرفة، حتَّى أنتبه أنِّي دعستُ على شيءٍ لزجٍ، فأنظر تحتي لأجد حذائي وقد غطس في كومة من الغائط.

أنهِي تفقُّد الشرفة، وأنادي جانيت، فلا أسمع لها حركة. أرجع إلى غرفة الجلوس، فلا أجدها هناك. أخرج إلى الشرفة الرئيسية من بابها المقتلع، وأُشرِف على الركام والقذارة المتروكة في الباحة، ثمَّ أحاول التفتيش عنها بنظري، فلا أراها في أيِّ مكان.

أتفقَّد الغرف مسرعًا، وأناديها مرَّة أخرى. يظهر عنصر جيش من جهة الدرج يسألني ما الذي يحدث عندي، فأسأله إن كان رأى المرأة التي أتَتْ معي تخرجُ من المبنى، لكنَّه يردُّ بأنَّه لم يرَ أحدًا يخرج.

بعد تحرِّيات لاحقة لأصدقاء لي بالجيش، أتوصَّل إلى المعلومة التي ضمَّنتُها في إعلان الصحيفة: "فُقِدَت جانيت الخوري زوجة ضرغام الصليبي في الطريق بين سوق الغرب وبيروت منذ الثلاثاء الفائت". وبعد نشر الإعلان بشهور، يتَّصل بي طوني عسَّاف ويقول إنَّه قد يكون التقى بجانيت في الأوتيل الذي يعمل فيه، فأقابله، وأعاود اللقاء به أكثر من مرَّة.

كان طوني بالنسبة لي الشخص الأخير الذي أعرف أنَّه التقى بجانيت

من بعدي. كان الدليل على أنَّ جانيت استطاعت في حالتها المَرَضِيَّة أن تقطع الطريق من سوق الغرب إلى سنّ الفيل، وأنَّها قد تكون حيَّة.

تنتهي الحرب، وأنتقل إلى هذه الشقَّة. أنقطِع تدريجًا عن لقاء أيٍّ من معارفي القدامى، وأقصِر اتصالاتي على من يستطيعون خدمتي لقاء مقابل مادي. وأنتظر، كل يوم أنتظر ليتَّصل بي أحد، ويقول لي معلومات جديدة، ولا ينتهي انتظاري.

كان ينبغي لي حينها، قبل أن أصعد للمرَّة الأخيرة إلى منزل سوق الغرب، أن أعرف أنَّ قصتي لن تنتهي إلَّا بعد أن أفقد كل شيء. حتَّى جانيت كان عليَّ أن أفقدها.

لكن هل فقدتُ كل شيء فعلًا فقدانًا نهائيًا؟ هل انتهت القصة فعلاً؟

لا أعرف. شيء ما في النهاية يبدو ناتئًا. أم إنَّني أشعر بذلك النتوء لأنِّي راوي الحكاية؟ من يُنهي القصص؟ من يرويها أم من يقرأها ويستمع إليها؟

هي أم لا؟

قال لها إنَّه سيقضي بعض الوقت في الجريدة ليُكمل بحثه في إعلانات الوفيَّات، فردَّت قبل أن تخرج، وهي تحمل صورة جانيت: "ما في داعي... اقعد بلِّش اكتوب بالتحقيق".

جلس خالد أمام اللابتوب. كتب جملة وتوقَّف. ومض المؤشِّر عند السطر الأخير منتظرًا كلمات إضافية منه. حدَّق في الشاشة لنصف ساعة، ثمَّ وقف ينظر إلى قصاصات اللوح. كان يقرأ القصاصة، وينزعها، ثمَّ يكوِّمها في كفِّه، قبل الانتقال إلى القصاصة التالية.

بعد تكاثر الأوراق في يده، بدأ يضعها على الطاولة. وسرعان ما نزع كل شيء ليعود اللوح عاريًا مثلما اشتراه. حمل كومة القصاصات وجلس على السرير، وراح يقرأها، قبل مباشرة توزيعها في مجموعات حوله.

فرغ من الدورة التنظيميَّة الأولى، ونظر إلى المجموعات، ثمَّ دمج مجموعتيْن منهما. كرَّر الأمر عدَّة مرَّات، حتَّى قلَّ عدد المجموعات بشكل ملحوظ، ثمَّ حمل ما وصل إليه ووضعه على الطاولة.

جلس أمام الشاشة من جديد، وبدأ يكتب. أنهى ثلاثة أسطر، ثمَّ فاضت معه الأفكار. صار ذهنه يعمل أسرع من كتابته. كان يتوقَّف، ويضيف في أسفل الملفِّ ملاحظات تخطر له، ثمَّ يعود بالمؤشِّر إلى الأعلى ليكمل نصَّه من حيث توقَّف.

ظلَّ يُفرِّغ ما في رأسه من جُمَل حتَّى المساء، ثمَّ سمع الباب يُفتَح. دخلَتْ ريم، وجلست تخلع كندرتها، ثمَّ تهالكت على السرير.

وقف خالد فوقها ينتظر منها أن تقول له أيَّ شيء:

- بآخد دوش وبعدين مْنِضْهَر بفرجيك شو عْمِلِتْ. الحفلة أيَّ ساعة؟

- أيَّ حفلة؟

- مش قِلْت ح تاخدني ع حفلة بْ ساسين وْمَعَك بطاقتين؟ مش اللَّيلة الحفلة؟

- مْبَلا. بعتقد اللَّيلة.

- طب يلا! البُوس!

اتَّجهت ريم إلى الحمَّام حاملةً بعض الملابس. انتقى خالد جينزًا وقميصًا من الخزانة، ولبسهما بتأنٍ، ثمَّ جلس ينتعل حذاءه. خرج ليحادث ضرغام، لكنَّ العجوز لم يكن في شرفته. بقي خالد في الشرفة يفكِّر في تفاصيل يجب أن يتطرَّق إليها في تحقيقه، ثمَّ عاد متَّجهًا إلى الحمَّام، ووقف عند العتبة ينظر إلى ريم. كانت قد انتهت من لبس ملابسها، وانهمكت في تجفيف شعرها، ثمَّ باشرت بوضع بعض الماكياج الخفيف على وجهها.

ظلَّ يحدِّق فيها، فانتبهت أنَّه يتفحَّصها. لم تقل شيئًا، ولم تعترِض، بل اكتفت بالابتسام. انتهت من ماكياجها، والتفتت إليه تريد الخروج، فأفسح لها الطريق.

"يلّا؟"، سألته ولم تنتظر ردّه. انطلقت خارج الإستديو باتّجاه المصعد، فأغلق خالد الباب ولحق بها.

عند مدخل البناية، وجدا سيّارة أبو بيتر تنتظرهما. قالت ريم إنّها هي من اتّصل به.

كان مزاج أبو بيتر رائقًا للغاية. يبتسم ويضحك ويقصّ لهما كيف التقى بزوجته، ويردّد كلمات أغنية وردة شارحًا: "قلبي سعيد ويّاك يا حياتي، ويّاك يا حياتي قلبي سعيد...".

توقّفت السيّارة أمام مدخل بيروت الشمالي، بعد مبنى شركة الهاتف بأمتار قليلة. ترجّلت ريم رافعةً نظرها إلى الأعلى، فلحقها خالد من السيّارة، ووجّه نظره إلى حيث تنظر، ليجد صورة وجه جانيت مكبّرة على لافتة إعلانيّة ضخمة، ومصحوبة بجملة: "جانيت الخوري، وينِك؟".

في الإعلان صُوَر أصغر لجانيت موزّعة بشكل لا يحجب الوجه في الصورة الكبرى، لتؤكّد شكل الوجه في حالات مختلفة، وتزيل الشكّ الذي تخلّفه صورة واحدة. أمّا في زاوية الإعلان اليسرى، فقد لاحظ خالد رقم هاتفه مسبوقًا بعبارة: "في حال وجود معلومات، الاتصال بالرقم".

وجد خالد خروج القصّة من شقّة العجوز إلى المجال العام غريبًا، ولم يعرف أن يوصّف شعوره، لكنّه فكّر أنّ هذه الطريقة قد تكون الأنجع لإيجاد جانيت، أن تُعرَض أمام الجميع، والأمل أن يكون من يعرفونها يسلكون هذه الطريق، فيرون الصورة ويتّصلون به.

اقترَبَت ريم منه وسوَّرَت ظهره بيدها، ووقفا ينظران إلى وجه جانيت المُضاء. قالت له إنّ هناك تسع لافتات تتوزّع على المداخل الأخرى للعاصمة، فضلًا عن طرق رئيسية يسلكها الناس يوميًّا للوصول إلى بيروت أو الخروج منها، ثمّ أضافت: "هيدا كان طلبي من ألبير. وْحَ نلاقيها لجانيت. أنا مأكّدة".

ابتسم خالد، وقبّلها غير عابئ بوجود أبو بيتر، ثمّ عادا إلى السيّارة،

لتلفَّ بهما على اللافتات الأخرى. بعد أن انتهت الرحلة، أعادهما أبو بيتر إلى داخل بيروت. جرَّب الوصول إلى ساسين... كان الازدحام خانقًا. بدأ الحفل العام فيما كان الناس يشقُّون طريقهم سيرًا على الأقدام إلى الساحة، فاستأذنهما أبو بيتر سائلًا إن كانا يستطيعان أن يكملا مشيًا، وقال إنَّه سيهرب عائدًا في أول شارع جانبي.

ترجَّلا من السيَّارة ومشيا باتجاه الساحة. كانت ريم في مزاج احتفالي، ترقص وتدور، وتعود لتمسك بيد خالد، الذي وجد نفسه يبتسم ويضحك في آن واحد.

حكاية تطفو فوق لندن – ٦

حملتُ من الشاب.

أمسك دفتري بعد عودتي لبيروت، وأفتح الروزنامة، وأصير أحسب الأيام. كيف حدث ذلك؟ لقد استخدم الشاب واقيًا، أمَّا أنا فقد كنتُ متأكدة أنِّي في وقت لا يمكنني فيه أن أحمل، فكيف انتهيتُ حبلى؟ أعيد الحساب، وأتفقَّد الصفحات القديمة، فأنتهي دائمًا إلى النتيجة نفسها. يجب ألَّا يحدث هذا! أشتري اختبار حملٍ من الصيدلية، وتأتي النتيجة إيجابيَّة. أزور طبيبة جديدة لا يعرفها خالد، وأقوم بالتحاليل فتُبارك لي. تتوالى زياراتي إليها على فترات بسيطة، وفي كلِّ مرَّة تتفاجأ بحضوري. أقول لها إنِّي أريد الإطمئنان على حالة الجنين، فتنظر إليَّ غير فاهمة، ثمَّ تسألني عن تجاربي السابقة مع الحمل، فأتلعثم. تعيد سؤالها بصِيَغ أخرى. تسألني إن كنتُ أجهضتُ قبل. أقول لها لا، لكنِّي فقدتُ جنينين في مراحل مبكرة. تستمع الطبيبة، ثمَّ تقول إن كانت زياراتي المتكرِّرة لها تساعدني، فلا بأس. لكنَّها طبيًّا، لا تستطيع أن تقوم بأيِّ شيء إضافي في هذه المرحلة. تكرِّر لي أنَّ كلَّ شيء يبدو على ما يرام حتَّى الآن، وأنَّه ما من خطر بيِّن،

وتطلب منّي الاتّصال بها ما إن أشعر بأيّ شيء غير طبيعي.

أحاول إخفاء توتّري عن خالد، فأصير أتواصل مع القطّ أكثر، وأبقى ساعات إضافية في المكتب، وأسوق في الشوارع. أنتقي أكثر خطوط السير ازدحامًا في بيروت وأسلكها، وأنظر إلى وجوه الأطفال المتكاثرين عند التقاطعات عندما يدقّون على نافذة سيّارتي، وأتحدّث معهم، وأعرف أسماءهم.

أجنح نحو عوالم أخرى، وأستمع لآخر أسطوانة كلاسيكية أعطيتَني إيّاها يا روجيه. أتذكرها؟ "توتنتانز" لـ"ليسْت"! شيء ما في معزوفة الربع ساعة هذه يبدو محبوكًا وغير متوقّع، لكنّه عندما يحدث، يظهر منطقيًّا غير نافرٍ في السياق، بل ربّما أكثر منطقية من كلّ ما حدث! لعلّه التتابع؟ من البداية التأبينيّة الصاعدة مرورًا بالخفوت الأوّل، ثمّ النقرات الصاعقة وصولًا إلى الصعود الأخير؟ نغمات تبدأ ضخمة ثمّ تخفت وتتصاعد لفترة، قبل أن يحدث الالتفاف نحو نغمة مختلفة راقصة كأنّها الاستثناء، ليعود التسلّم والتسليم قبل الانتهاء بالتصاعد الأكثر جنونًا حتّى القمّة التي هي نفسها تبدو كَخُفوتٍ عظيم.

أستمع إلى "ليسْت" وأفكّر. ماذا سأفعل؟ أُخبر خالد وأنفصل عنه؟ أم أنفصل عنه ثم أخبره؟ أنتقي الخيار الثاني، وأعدّل فيه. لن أخبره، ولن أعطيَه أسبابًا. حملي سبب بالطبع، لكنّه سبب عجّل في تنفيذ القرار، لا في اتّخاذ القرار نفسه. وإذا أخبرتُه به قبل طلب الانفصال، فهو لن يطلّقني بسهولة، وإن أخبرته مباشرةً بعده، فسيعوقه ذلك عن البحث، وسيقدّم له السبب الأسهل، وسيضعني في موقع الملامة. أنا أعرف تمامًا حصّتي من المسؤولية، لكنّي غير مستعدة لتحمُّل مسؤولية الوضع كله. حملي ليس سببًا، وهذا تحوير لن أقبل به.

هل كنتُ أفلسف الأمور؟ ربّما. لكن، لو عرفتَ قصّة والدَيْه، وقصّته مع أبيه، لفهمتَ وجهة نظري أكثر.

خالد، كما توقّعتُ، لم يسهّل الأمور، ولم يكن يفهم. بقي متسلّحًا بالأمل، يكرّر محاولات الاتّصال بي لأسابيع. تجاوبتُ معه في البداية، ثمّ انتبهتُ إلى أنَّ ذلك لا يساعد على ختم العلاقة، فصرتُ أعامله بجلافة، وكان أملي أن ترميه ردودي السمجة وسط تساؤلات أكثر جديّة، وأن تحفّزه على البحث.

أسأل لينا عنه، وأتجنّب أن أسألك. أنت أصلًا كنتَ تبقّ كلّ شيء ما إن تراني، ولولا أنّي انفجرتُ في وجهك مرّة أو مرّتيْن، لظلَلْتَ تفعل ذلك. أمّا لينا فمختلفَة. لينا امرأة مثلي. لينا ستفهم ما أقوله، وستعرف ما أخفيه، وستربّت على كتفي.

لماذا أخبركَ الآن؟ لأنّك الوحيد هنا. لو كانت لينا في لندن، لما كنتُ أخبرتُك. أما الهاتف والسكايب فلا يساعدانني على البوح، فأنا عندما أروي القصّة أراها حدثت هكذا كما الآن: نكون حول طاولة، في بار بموسيقى خافتة، وإضاءة أمينة للون واحد فقط.

قبل أن آتي إلى لندن يا روجيه، حاولتُ أن أُنزل الجنين بشتّى الطُرُق، وذهبتُ أكثر من مرّة لأجهضه في عيادات لا يمكن أن أدخلها في الأيام العادية، وكنتُ دائمًا أتراجع وأهرب قبل العملية.

ثمّ قلتُ سأنتظر، لأنَّ جسمي سيجهض الطفل كما في الحملَيْن السابقيْن. جسمي لم يفعل! ويومًا بعد يوم، تأكّدت. جسمي لا يقتل الأطفال. جسمي يقتل أطفاله فقط.

فكّرتُ كثيرًا وكان الوقت يمر. كان عليَّ أن آتي إلى هنا على وجه السرعة لأعلِم والد الطفل، ولأعرف ما الذي يمكن فعله. أما خالد، فسيعرف لاحقًا. سيراني في المستقبل حاملًا، أو مع طفلي، وسيكون أمر إخباره صعبًا، لكنَّ الأمر سيكون قد قُضِي.

الآن، لم أعد خائفة من الحمل نفسه، بل بتُّ خائفة أن يموت هذا الطفل أيضًا. أتابع أخبار لبنان، وأخاف. أرى خبرًا عن موت أطفال رضّع

في مستشفى، وأخاف. يموت القطُّ، وأخاف. أقنع نفسي: هناك شيء قاتل في البلد.

الآن، اتَّخذتُ قراري، ولم يعد يهمُّني أن يلتزم والد الطفل الذي يتجنَّب محادثتي في المكتب، بشيء. سأنقل عملي لمكتب لندن، وأبقى هنا.

راديو ضرغام: موت في ساسين

يتشارك ناشطون لبنانيون فيديو على الشبكات الاجتماعية، يقولون إنَّه يوثِّق حادثة سقوط قتلى بعد انقطاع الكهرباء في ساحة ساسين البارحة، حيث أقيم حفلٍ فني شارك فيه فنَّانون عديدون.

وشكّك مصدر في وزارة الإعلام برواية الناشطين واصفًا إيَّاها بالخياليَّة. وشرح المصدر أنَّ الفوضى البادية في أنحاء الساحة لا جديد فيها، وهي تشبه الآثار التي يخلِّفها أيُّ حفل فنِّي في ساحة عامَّة. واستشهد المصدر ببيان وزارة الداخلية الذي أكَّد أنَّه لم يُعثَر على أيِّ جثث في الساحة، وببيان الصحة الذي أعلن أنَّ مستشفيات العاصمة لم تبلِّغ عن أيِّ ارتفاع في عدد الإصابات التي عولجت في تلك الليلة.

بيد أنَّ الناشطين يؤكِّدون أنَّ أصدقاءً لهم كانوا في الحفل اختفوا، وأنَّ عائلات كثيرة أبلغتهم عن عدم عودة أولادها إلى منازلهم. ووعد الناشطون بكشف معلومات أكثر في الساعات المقبلة، متَّهِمين الحكومة بالتعتيم على الحادثة أو بالضلوع في ما حدث.

كانا هناك

قبل أن يحدث الأمر، كانا قد تركا الكراسِي وانتقلا إلى حدود الساحة. قالت ريم إنَّ وقوفهما في هذه الزاوية يمكِّنهما من تفقُّد المشهد بشكل

أكثر بانورامية. تفرَّجا قليلًا، ثمَّ أعلن خالد أنَّه سيذهب ليشتري قنينتَيْ بيرة.

قطع الساحة وسط الجمع الراقص على أنغام الموسيقى، ومشى نحو محلٍّ قريب. ما إن دخل، حتَّى انطفأت الكهرباء فجأة. أطلَّ إلى الخارج يتفقَّد ما يحدث، فوجد عتمة كالحة تخيِّم على الساحة. ذكَّره الظلام بما حدث في برنامج "القفزة"، كأنَّ إطلالات النجمات الثلاث كنزي ورايا وأنيسا محكوم عليها بانقطاع الكهرباء. خرج أحد العاملين في المقهى ليدير المولِّد، فأبى أن يدور معه، برغم احتوائه ما يكفي من المازوت بحسب قول العامل.

جاهد خالد في العودة إلى الزاوية التي ترك ريم واقفة فيها. كانت الزحمة عارمة، وصوت الاعتراض على منظِّمي الحفل يعلو، ثمَّ انقلبت صيحات الاستهجان إلى صرخات فزع. لمح خالد وسط العتمة فوضى تمتدُّ باتِّجاهه. كانت الناس تهرب في شتى الاتجاهات. أسرع خالد نحو الزاوية التي غادر منها، لكنَّه لم يجد فيها ريم. أخذ يفتِّش عنها بلا طائل، ولم يكن قادرًا على تمييز الوجوه والأجساد.

قرَّر مبارحة مكانه، واختراق حشود الناس بحثًا عنها. تدافع الناس حوله بطريقة غريبة أشعرته بأنَّ حدثًا جللًا قد وقع. كانت المجموعات الهاربة تسلك طريقًا، ثمَّ تقرِّر أن تتفرَّق وتغيِّر اتِّجاهها، فتخبط ببعضها. وبينما كان يمشي، سمع خالد صرخات استغاثة لم يفهمها، فتوقَّف ليصيخ السمع، إلَّا أنَّ شابَّيْن خبطا به وأوقعاه على الأرض.

لم يقدر خالد على النهوض. كانت الأقدام المسرعة تخطو فوقه وحوله، وأحسَّ أنَّه سيموت دعسًا. وضع يدَيْه فوق وجهه ليحمي عينه المصابة وبقية وجهه، ثمَّ أغمض عينيْه. داس أحدهم على ركبته اليمنى ووقع فوقه ثمَّ قام عنه، فشعر خالد بألم ركبته القديم. استلقى على جنبه، وضمَّ ركبتَيْه محاولًا إبعاد الضربات عنهما وعن عضوه.

عندما بدأ يشعر أنَّ الحركة فوقه قد خفَّت قليلًا، فتح عينَيْه، ثمَّ حاول

تبيُّن ما يحدث. كانت هناك أضواء بيضاء في المكان، واستطاع أن يلمح تركز هروب الناس نحو جهة أخرى، ثمَّ رأى ريم واقفة وسط الساحة، في الطريق التي سلكها للذهاب إلى المقهى، تنيرها أضواء هواتف الناس، الناس الذين يبحثون عن رفاقهم، فقام متعاليًا على آلامه، واتَّجه نحوها. كان يجرُّ رجله اليمنى جرًّا، وعندما وصل إليها، شدَّها من ظهرها فصرخت فزعًا، قبل أن تسأله أين كان.

قال لها وهو يلهث إنَّ عليهما الرحيل فورًا. استند عليها، وخرجا من الساحة إلى شارع جانبي. هناك، جلس خالد على درج مدخل منزل، وأخذَت ريم تتفقَّد إصابة ركبته بمساعدة ضوء هاتفها. سألته إن كان قادرًا على متابعة المشي فأجاب أنَّه يودُّ أن يستريح دقيقة قبلها. سألته: "شو صار هونيك؟". ردَّ لاهثًا: "ما بَعْرِف".

قاما وأكملا طريقهما إلى شقَّته. وصلا إلى المبنى وكانت الكهرباء لا تزال مقطوعة. صعد خالد الدرج وهو يتَّكئ على كتف ريم، وعندما لاحظ أنَّه ثقيل عليها، طلب منها أن تسبقه قائلًا إنَّه سيتدبَّر أمره، لكنّها رفضت، فاستمرَّا يصعدان ويستريحان عند كل طابق، حتَّى بلغا باب الإستديو.

جلسا على السرير يلتقطان أنفاسهما، ويحاولان استيعاب ما حدث. وعلى ضوء الشمعة، نظَّفت ريم جرح ركبته، ثمَّ استلقيا من جديد، وما هي إلَّا دقائق حتَّى غرقا في النوم.

رأى خالد جيادًا تركض في ميدان الخيل في المتحف. كان بصره يركِّز أولًا على حصان واحد، ثمَّ اتَّسع المشهد ليظهر حصانان آخران. اقترب الحصانان من الحصان الأول، وحاولا أن يتخطَّياه. اصطدم حصانٌ منهما بحصان المقدمة فوقع كلاهما، ليتابع الثالث الذي كان وراءهما سيره وحيدًا. بدا للحظة أنَّ الحصان الثالث يسلك طريقه لربح السباق، لكن فجأة، ظهر حصان رابع من لا مكان، وتخطَّى الحصان الثالث بمسافة بعيدة، وأكمل يعدو متَّجهًا وسط المشهد. شعر خالد أنَّه يعرف وجه

الحصان الرابح، لكنَّه لم يقدر أن يحدِّد هويَّته. أخذ يفكِّر في كلِّ أسماء الناس الذين يعرفهم، وقبل أن يتوصل إلى إجابة، كان الحصان قد اقترب منه وقفز عليه.

أفاق خالد جزعًا بفانيلَّة مبلَّلة بالعرق. التفت إلى جانبه ليجد ريم مستغرقة في النوم، فاعتدل ببطء، وجلس على طرف السرير. تفقَّد جرح ركبته، فوجده ينزُّ. التقط زجاجة المطهِّر، وأعاد تنظيف الجرح. عندما انتهى، تناهى إليه صوت راديو ضرغام، فقرَّر بالرغم من وجعه وإنهاكه أن ينهض إلى الشرفة. عندما خرج، كانت الشمس ترمي نورها على وجهه، فأشاح مبعدًا وجهه. التفت إلى شرفة ضرغام، فوجده جالسًا يتابع الاستماع إلى الراديو، ويشرب شايه الصباحي.

هذه المرَّة، لم يلتفت ضرغام إلى خالد، بل كان جالسًا يحدِّق في البلاط كأنَّه في عالم آخر، كأنَّه في هذا العالم لكنَّه لا يأبه به، كأنَّ موتًا لم يحدث البارحة، وكأنَّ شيئًا لم يحدث.

في مركز الشرطة

كان اليوم يوم عطلة. ردَّت سهى على الاتصال وهي نصف نائمة. تحدَّث أحدهم معها بلكنة بريطانية، واستفسر منها إن كانت تستطيع الحضور إلى مركز الشرطة اليوم. سألَتْ عن السبب، فأجابها الرجل أنَّها ستفهم كل شيء عند قدومها.

قامت ولبست مسرعة، وركبت المترو. حاولت الاتصال بروجيه لتعلمه بالمحادثة. بعد أن تغلَّبت على ضعف الإرسال تحت الأرض، أتاها المجيب الصوتي يقول إنَّ خطَّه مغلق، فأعادت الهاتف إلى حقيبتها.

عندما خرجت إلى سطح الأرض، حاولَت الاتصال به مرَّة أخرى، لكنَّ الخطَّ كان لا يزال مقفلًا. وصلت إلى المركز، وعرَّفَت عن نفسها بالاسم،

مبرزةً جواز سفرها. شرحت أنّه قد طُلب منها الحضور لسبب لا تعرفه بعد، فاستبقاها شرطي أوّل في غرفة انتظار واسعة كان فيها أناس آخرون، وغاب دقائق قبل أن يرجع ويدعوها إلى مرافقته.

لحقَت سهى بالشرطي، ثمّ دخلت غرفة بدا أنّها مخصّصة للقاءات أصغر. رحّب بها شرطي ثانٍ وطلب منها الجلوس، ثمّ سألها الشرطي الأول الذي رافقها إن كانت بخير، وإن كانت تودُّ أن تشرب شيئًا، فشكرتهما.

نظر الشرطي إلى بطنها وسألها:

– حامل؟

– نعم.

– أيّ شهر؟

– آخر الخامس.

لاحظ الشرطي أنّ سؤاله في غير محلّه، وأنّ الضيق قد ظهر على ملامح سهى، فحاول أن يلطّف الوضع مستدركًا، وشرح: "زوجتي في شهرها السابع. الأشهر التي تلي الشهر الرابع هي الأصعب". لم تناقشه سهى، فبالنظر إلى حمليْها السابقيْن، المسألة عندها مقلوبة. اكتفَت بالابتسام، وآثرت أن تنهي الحديث بالسوال عن سبب استدعائها.

صمت الرجلان، ثم تطوّع الشرطي الثاني للحديث. قال لها إنّهم وجدوا صديقها روجيه ميتًا في غرفته بالفندق البارحة بعد الظهر، وإنّ الشرطة عايَنت المكان والجثّة، وحقّقَت، وتأكّدَت من انعدام الشبهة الجنائية. ثمّ تابع الشرطي يقول إنّهم ما إن فرغوا من تحقيقاتهم، حتّى اتّصلوا بأول رقم محلّي وجدوه في ذاكرة هاتف روجيه، فكان رقمها، وإنّهم أخرجوا بياناتها تباعًا ليعرفوا علاقتها به، قبل أن يتّصلوا بها.

لم تفهم سهى. أطلقَت نصف ضحكة هازئة، ثمّ كتمتها. أكمل الشرطي تفصيل ما قاموا به من تحرّيات، ولأنّه كان يعرف أنّ سهى في حالة صدمة

واضحة، كان يوقف حديثه ويبرِّر ويشرح ويجيب عن أسئلتها مهما كانت سخيفة.

صارت عيناها تدمعان، وشعرت باختناق فجائي، ثمَّ وجدَت نفسها تبكي، فاعتذرت، وحاولت مسح دمعها. توقَّف الشرطي عن الكلام، وخرج رفيقه من الغرفة. سألها ما إذا كانت تريد شيئًا، فردَّت بصوت مخنوق بالنفي، وطلبت منه أن يكمل. فُتِح الباب، وعاد الشرطي الأول بعلبة محارم وقنينة ماء.

في حمَّام السيدات بالمركز، تقيَّأت سهى وانتابتها حالة ارتعاش شديدة. بقيت على أرض الحمام فترة، إذ لم تكن تقوى على الوقوف. دخلت شرطية ونادتها بالاسم، ثمَّ وقفت قرب باب الحمَّام المغلق تسألها إن كان كلٌّ شيء على ما يرام، وإن كانت تحتاج للمساعدة. طلبت منها سهى التمهُّل لحظة، ثم جاهدت للوقوف، وفتحت لها الباب. لاحظت الشرطية حالتها، فاستدعت فريق إسعاف، ونقلتها بمساعدة زملائها إلى غرفة جديدة حيث تركوها تستلقي على كنبة.

مرَّت دقائق قليلة قبل أن يظهر فريق مكوَّن من ثلاثة مسعفين فوقها. تفحَّص المسعف الأول ضغطها، وانهمك الثاني يستمع إلى ضربات قلبها، بينما ظلَّ الثالث على مقربة يساعد هذا وذاك. استفهم مسعف منها إن كانت أكلت أيَّ شيء في الصباح، فأشاحت سهى بوجهها، وقالت إنَّها لم تأكل بعد. سألها أحدهم عن شهر حملها فأجابته، فانتقل يفحص نبض الطفل.

قالوا إنَّ ضغطها منخفض، وإنَّهم يرتأون نقلها إلى الطوارئ، لكنَّ سهى اعتدلت، وجلست على الكنبة، وردَّت أن لا لزوم لكلِّ ذلك، لأنَّها ستصير أحسن بعد دقائق. ثمَّ سرعان ما ألمَّت بها نوبة أخرى من البكاء، فتوقَّف المسعف عن الحديث، وأراحها من جديد على الكنبة، وطلب منها التنفُّس بطريقة معيَّنة، وهو يعطيها إبرة مهدِّئ.

عليها أن تُخبر لينا. لكن كيف تُخبرها؟ لا، لن تقول لها الخبر على الهاتف، وهي وحيدة في بيروت. الرؤية تتغبّش. روجيه مات قبل أن يعرف إنّه سيصير أبًا. الأصوات تتباطأ أكثر. لكنْ لينا! أحد ما يجب أن يكون بالقرب منها. ليس هناك غيره، وعليها الاتّصال به. عليها أن تتّصل بخالد! وجه من هذا الذي يتفحّصها؟ روجيه مات؟ فعلًا مات؟ وهؤلاء ماذا يفعلون؟ يحملونها؟ يمشون بها؟ إلى أين يأخذونها؟

ستعود إلى بيروت مع جثّة!

تلفاز مقهى المول: انفلات أخلاقي

داهمت قوى الأمن فندق "Night Moon Hotel" بحضور رئيس بلدية سنّ الفيل كمال شاوول وأعضاء في المجلس البلدي. وروى شاوول أنّه "رأى بأمّ العين الفجور على عينك يا تاجر" في زيارته المفاجئة مع أعضاء المجلس البلدي إلى الفندق، إذ استقبلهم في ردهته رجال في أوضاع غريبة.

واكتشف الوفد بعد جولة سريعة على الغرف، أنّ الفندق وكر لممارسة الجنس من قبل المثليّين وغير المتزوجين، إلى جانب خدمة توفير المخدرات والمنشطات الجنسية من قبل الطاقم الذي يدير الفندق، والذي تفتقد غرفه إلى معايير النظافة التي تحدّدها وزارتا الصحة والسياحة.

وقال شاوول في مقابلة تلفزيونية إنّ طلبه مداهمة وإغلاق الفندق، جاء تلبية لمناشدات أهالي المنطقة، نظرًا "لما يحدث فيه من موبقات". وذكّر شاوول بأنّ سنّ الفيل التي صمدت في الحرب الأهلية الماضية، وقدّمت الشهداء من أبنائها على مذبح الوطن، لن تقبل بهذه المهزلة المنافية للأخلاق، التي تسيء لسمعة عائلات المنطقة ورجالها.

وساقت قوى الأمن طاقم عمل الفندق ومن وُجدوا في الغرف إلى التحقيق، بينهم أربع نساء تبين أنهنَّ رجال قاموا بتكبير أثدائهم ونزع الشعر عنها. كما عثرت القوى الأمنية على بقايا مواد مخدرة وحقن وخلافه من الممنوعات في الغرف.

وأصدرت القوى الأمنية بعد ساعات من عملية الدهم بيانًا ورد فيه أنَّ التحقيقات بيَّنت أنَّ الفندق كان يؤجِّر غرفًا لغير المتزوجين، ويستقبل مثليِّين لممارسة الجنس. وأضاف البيان أنَّ الموقوفين أحيلوا إلى النيابة العامة التمييزية استنادًا إلى المادة ٥٣٤ من قانون العقوبات اللبناني التي تنص على أنَّ "كل مجامعة على خلاف الطبيعة يعاقب عليها بالحبس حتَّى سنة واحدة"، وللمادتيْن ٥٣١ و٥٣٢ اللتيْن تعاقبان على الإخلال بالآداب والأخلاق العامة، وللمادة ٥٢٣ التي تجرِّم تعاطي الدعارة السرية وتسهيلها، وللمادة ٥٢٧ التي تعاقب من يعتمد في كسب معيشته أو بعضها على دعارة الغير. كما أوضح بيان القوى الأمنية، أنَّ تدخلها جاء استنادًا إلى المادة٧٤ من قانون البلديات التي تتيحَ للمجلس البلدي التدخل لحماية الأخلاق والآداب العامة، وأنَّ الفندق قد خُتِمَ بالشمع الأحمر.

وانتشرت أخبار عن وجود عدد من أولاد مسؤولين كبار كانوا في غرف الفندق في اليوم الذي جرت فيه المداهمة، وأنَّ القوى الأمنية رفضت في بداية الأمر تنفيذ عملية الدهم التي طلبها رئيس البلدية خشية التعرض لأولاد المسؤولين، وأنَّ التدخُّل لم يحدث إلَّا بعد الاتِّصال بهؤلاء الأشخاص، والطلب منهم الخروج من الفندق.

ولم يمكن التأكُّد من صحة هذه المعلومات، فبينما رفضت قوى الأمن التعليق، قال شاوول إنَّ المراد من هذه الأخبار المجافية للحقيقة التغطية على نجاح العملية. ووجَّه شاوول تحياته للقوى الأمنية الساهرة على راحة المواطن، ولوزارة الداخلية داعيًا إياها إلى مواصلة الضرب

بيد من حديد في كل المناطق اللبنانية لمنع الانفلات الأخلاقي.

اتّصالان أخيران

قام خالد مسرعًا من كرسيِّه عندما لمح طوني في التلفاز يُساق مكبّل اليديْن مع زملائه. طلب من النادل رفع الصوت، فنفَّذ الأخير طلبه من دون تعليق. كان النادل هو نفسه الذي كان أثناء لقائه الأول بريم، وكان محافظًا على وجومه بثبات ملحوظ، جعل خالد يظنُّ أنَّه التقى ريم البارحة، لا منذ أشهر.

انشغل خالد بمتابعة التقرير التلفزيوني عن "نايت مون". انتهى التقرير، وظهر المذيع يكمل قراءة ما تبقَّى من نشرة الأخبار، فشكر خالد النادل، وطلب منه فنجان دابل إسبريسو، وعاد إلى كرسيِّه.

أخرج اللابتوب، وبدل أن يباشر العمل، صار يتأمل الطاولات حوله. كان المقهى فارغًا من الزبائن، فحوَّل نظره نحو الشارع: لم تمر سيارات كثيرة. فمنذ حادث ساسين، قبل أسبوعَيْن، ومعظم الناس يلازمون بيوتهم.

في النهار الذي تلا حادث ساسين، اكتشف خالد أنَّ جسمه مليء بالرضوض. وقف أمام مرآة الحمَّام يتفحَّصه ثم نادى ريم، وطلب منها أن تنظر إلى مواضع يشعر بها بالألم ولا يستطيع رؤيتها في المرآة.

بقيت ريم معه في البيت تعتني به، وتتابع ما تبقَّى لها من أيام عمل بعد استقالتها، وعاد خالد يكمل العمل على تحقيقه. كانا معًا، ولم تكن هناك حاجة للخروج.

مرَّ أسبوعان لم يَرِدْ خلالهما لخالد أيُّ اتِّصال بخصوص جانيت. بلى. اتَّصل به مجموعة شباب، وصاروا يسألونه عن الإعلان. تحمَّس وصار يجيب، ثمَّ انتبه من توالي أسئلتهم التي لا تعني شيئًا، وضحكاتهم

التي ظهرت في الخلفيَّة، أنَّهم يتسلُّون، فقطع الاتصال معهم. اكتأب وأفصح لريم أنَّهما لن يجدا جانيت، فردَّت عليه أنَّ أحدًا سيتَّصل، مؤكِّد. هذه المرَّة، أحسَّ من نبرتها أنَّها لا تعني ما تقوله.

وتوالت الأحداث في البلد...

شهدت الشوارع أكثر من حادث ضرب لمن كان يُشتبَه في كونهم غير لبنانيين. من شرفة ضرغام المُشرِفة على الشارع، رأى خالد أكثر من ملاحقة لعمال نظافة وبناء. وفي الأخبار، عرضوا صورًا لمداهمات القوى الأمنية لشقق بالمنطقة، قبل أن يُساق ساكنوها من العمَّال إلى أسطح المباني، حيث أجبروا على الركوع وكُبِّلَت أيديهم بينما كان الناس الذين يتابعون سير العملية من الأسطح الأخرى يصفقون للقوى الأمنية ويشتمون المقبوض عليهم.

ولم تمض أيام قليلة قبل أن تظهر حواجز طيارة ليلية في أكثر من منطقة. امتدَّت الظاهرة القديمة الجديدة من أطراف بيروت سريعًا إلى داخلها. تُرِكَت الشوارع لشباب الأحياء الذين تَشَجَّعوا وصاروا يلبسون الملابس الحزبية النظامية، بعدما كانوا يراقبون بخفاء خلال جلسات الأراجيل الليلية. كان الشباب يوقفون كلَّ من لا يروق لهم، ويدقِّقون في الهويَّات. وتباعًا، أُبلِغ عن حدوث عمليات نشل، وحالتي اغتصاب لمراهقتيْن انشغل بها الرأي العام لبضعة أيام، قبل أن يموت الخَبر ويعود الناس ليتابعوا أخبار الموت مجهول السبب.

ثمَّ ابتدعت قناة تلفزيونية فواصل تحديثية تُعلم الناس بأسماء الموتى الجدد الذين وردت أسماؤهم على موقع "موكب الموت"، وسرعان ما لحقت بها القنوات الأخرى، فصار الأمر بمثابة فقرة ثابتة تتكرَّر أكثر من مرَّة خلال اليوم. سادت حالة من الهلع البلد. لكنَّ أيَّ دليل مادي يثبت وقوع الموت لم يُقدَّم في الإعلام. وفي ما عدا فيديو التسجيل القديم للسيارات المتصادمة عند تقاطع الأونيسكو، الذي عادت القنوات إلى

الترويج له، لم يُبثَّ أيُّ تسجيل جديد. انتشرت فقط فيديوهات تبيِّن أناسًا موتى في أماكن عامة. لكنَّ هذه الفيديوهات لم تكن تثبت شيئًا، والتقارير الطبية لم تشرح وجود أيِّ مرض من أي نوع عند المتوفِّين.

واصلت الحكومة النفي، وتابعت القنوات التلفزيونية بثَّ البرامج الحوارية السياسية التي تناقش الموضوع، وفيها ظهر الوزراء والصحافيون والنواب والسياسيون يتشاتمون. بدورهم، أخذ رؤساء القوى الأمنية يتبادلون الاتهامات في مقابلات صحافية، وانعكس هذا التلاسن مشاكل تنسيقية بين القوى الأمنية في أكثر من حادثة على الأرض.

الإشاعات كثيرة. منها ما يُصدَّق، ومنها ما لا يُصدَّق، ومنها ما صار لكثرة تداوله قابلًا للتصديق. الكلام يستمر ولا ينتهي. أخبار الانتحارات رغم استمرار حدوثها، نُفِيَت إلى الصفحات الداخلية من الصحف، وعدد الشباب الذين يذهبون للقتال خلف الحدود ازداد بشكل مضطرد.

لم يكن هناك من جديد في هذا كلِّه. الجديد كان في كثافة حدوثه وتوسُّعه على الأرض. وبعدما كانت الأحداث محدودة بفترات معيَّنة يكون فيها التوتر السياسي طاغيًا، أو بأماكن معروفٌ غياب القوى الأمنية الرسمية عنها، لم تبدُ أنَّها هذه المرَّة في طريقها للانحسار.

أخذ خالد ينظر إلى تتابع الأحداث في الملف الذي فتحه أمامه على اللابتوب. كرَّر محاولته إيجاد صلة بينها، وانتهى إلى التفكير أنْ ليس مهمًا البحث عن علاقة بين الأحداث، أو حتَّى البحث في أسباب حدوثها. هناك أشياء تحدث، وتستمر في الحدوث، وتراكم في اتجاهات ليست مطمئنة، وكلُّ ما يقرأه في ملفه ما هو إلا سمات انهيار قريب غير مفاجئ.

دخل رجلٌ المقهى وجلس إلى طاولة في آخر المقهى، فعرفه خالد فورًا: عجوزُ عيدِ الميلاد. أخذ يتابعه بنظراته. أخرج العجوز صحيفة مطوية من تحت إبطه، وفردها أمامه، وشرع يقرأ فيها، ثمَّ جاء النادل الواجم إلى الطاولة، ورحَّب بالعجوز. تحادثا، وضحكا، وسجَّل النادل

الطلب وعاد ليغيب داخل المقهى.

رنَّ هاتف خالد، فأخرجه من جيبه ليردَّ. قال الرجل على الطرف الآخر إنَّه يتَّصل بخصوص الإعلان.

"أيَّ إعلان؟"، سأل خالد.

"بخصوص الستّْ جانيت"، ردَّ الرجل.

"الستّْ جانيت؟"، استفهم خالد غير مصدِّق ما سمعه.

"مْنِقْدَر نشوفك نهار الأحد، الأسبوع الجاي؟"، تابع الرجل.

"مين معي؟"، ردَّ خالد.

"أنا بِس بشتغل هون. واللي بدو يشوفك بيوصل الأحد الجايي، الصبح بكير، ومنُّو باقِي لوقت طويل بالبلد"، قال الرجل.

"طب ما في إسم لَيَلِّي بدُّو يشوفني؟"، سأل خالد مستغربًا، وأكمل يتابع عجوز المقهى الذي كان قد فرد الجريدة أمامه على الطاولة.

"صراحة، بيفضِّل ما يقول اسمو هلَّأ، ليعرف شو قصَّة الآرمات بالشوارع. نحنا مضايقين شويّْ من يلِّي صاير"، أَجابه الرجل.

"طيِّب، طيِّب. اعطيني العنوان بالتفصيل وقلِّي أيَّ ساعة بِجِي"، قال خالد.

فصَّل الرجل مكان اللقاء وزمانه، وشكر خالد ثمَّ أنهى الاتصال. رفع خالد رأسه بعدما كان انشغل بكتابة العنوان على شاشة اللابتوب، لينظر إلى العجوز، فوجد النادل يضع فنجان الإسبريسو على الطاولة، وينحني ليهزَّ الرَّجل، لكنَّ الأخير لم يستجِبْ لحركته. هزَّ النادلُ الرَّجلَ أكثر من مرَّة، فمال جسد الأخير على الكرسيِّ المجاور.

مات العجوز؟

نادى النادل رفاقه من داخل المقهى. أراد خالد أن ينهض ليتأكَّد ممَّا يحدث، لكنَّ هاتفه رنَّ من جديد. أجاب مسرعًا من دون أن ينظر إلى الرقم، مفترضًا أنَّ الرجل يعاود الاتصال ليضيف تفاصيل أخرى عن

اللقاء، لكنّه سمع بكاءً عند الطرف الآخر.
"خالد"، جاءه الصوت النسائي يلفظ اسمه.
عرف صوتها فورًا.

حكاية تطفو فوق لندن – ٧

لو كنتَ هنا، لأخبرتُك أكثر. لأكملتُ لك الحكاية، ولالتزمتُ بما وعدتُك به في بداية حديثي، ولم أكن لأخفي عليك أيًا من التفاصيل. لو كنتَ هنا، لأخبرتُك أنني قبل مغادرتي بيروت قمتُ بمحاولة أخيرة. لم تكن هذه المحاولة وليدة شعوري بالذنب. فأنا كنتُ متأكِّدة، وما زلتُ، أنَّ الحمل من رجل آخر هو محض تفصيل في سياق، وأنِّي اتَّخذتُ قراري بإنهاء العلاقة مع خالد قبل حملي، لأنِّي كنتُ واثقة من أنَّه لا شيء إضافيًا ليُجرِّب. وحملي الذي بدا لي في البداية عبثيًا، انقلب لي خريطة طريق، ولو انتهيتُ أمًّا عازبة. ربّما هذا ما أحتاجه فعلًا، أن أصير أمًّا عازبة.

عندما تكرَّرت محاولات خالد لاسترضائي بعدما قرَّرنا الافتراق، أخذتُ أفكِّر في حلٍّ نهائي يشغله عنِّي ويساعده على أن يرى أكثر. فكرتُ في تعريفه على فتاة تكون مناسبة له، ويكون مناسبًا لها. وأستطيع القول إنِّي كنتُ أعرفه بما يكفي لأقرِّر عنه.

وانتقيتُها بالشراكة مع لينا: ريم.

لينا لم تكن تعرف ريم، وريم لم تكن صديقة مقرَّبة منِّي. كانت صديقة لصديقات قديمات، حدث أن دعوتُها مرّات قليلة إلى الحفلات التي كنت أقيمها مع خالد في بيتنا في بداية زواجنا. كنتُ متأكِّدة من أنَّ خالد سيُعجَب على الأقل بشكلها الخارجي، ومتيقّنة من أنَّها ستستطيع المغادرة إن أرادت، وأنَّ الاثنين لن يشتبكا في علاقة، إلا إذا قرَّرت ريم

نفسها المضيّ فيها.

بعد جدال طويل، ومناقشات بيني وبين لينا التي لم تكن محبِّذة إطلاقًا للفكرة، اتَّفقنا أن نضعهما في طريق بعضهما. وقبل الشروع بتنفيذ الخطة، كان لزامًا عليَّ أن أعيد التواصل أولًا بريم ليبدو طبيعيًا، بعدئذٍ أدعوها إلى لقاءات تالية. ولمَّا كنتُ قرَّرتُ السفر إلى هنا، كان يجب أن يعتني أحدٌ ما بالقط. لم أرد أن أكلِّم خالد، ولينا لم تكن لتلبّي طلبي بسبب مواعيد عملها وضغطها، وبسبب بُعد بيتكما ومكتبها عن شقَّتي، وجدتُها ذريعة جيِّدة لأفتتح تواصلي مع ريم، فطلبتُ منها أن تقوم هي بالأمر. استغربَتْ ريم في البداية، فأخذتُ أشرح لها أنِّي أحاول الابتعاد عن الأصدقاء المشتركين بيني وبين خالد قدر الإمكان.

بعد حديث تخلَّلَته موضوعات كثيرة، وافقَت ريم بلطف. وفي لقائنا الثاني، تغدَّينا في أسواق بيروت، وأعطيتُها نسخة عن المفاتيح، وشرحتُ لها المطلوب. ثم قرَّرتُ بعد هذا اللقاء أن أباشر تنفيذ الخطة، فاتصلتُ بها بعد أيام، ودعوتُها إلى فنجان قهوة في المول القريب من الإستديو الجديد الذي يقيم فيه خالد، وهاتفتُ لينا، وقلتُ لها أن تواعد خالد في المكان نفسه.

كنَّا نخطِّط، أنا ولينا بحيث لا يجيء أيٌّ منَّا إلى اللقاءين، وأن نترك خالد وريم وحيدين في المقهى، وافترضنا أنَّهما إذا رأيا بعضهما – وتوفَّرت فرصةٌ ما – فهما سيدخلان في علاقة ما، أيًّا كان شكلها.

لكنِّي يوم اللقاء، تراجعتُ. شعرتُ أنِّي أقوم بشيء لا يحقُّ لي القيام به، فعدتُ واتَّصلتُ بريم، واعتذرتُ منها، وقلتُ إنِّي غير قادرة على المجيء لانشغالي في متابعة تفاصيل كثيرة قبل السفر. ثمَّ حاولتُ الاتصال بلينا لأطلب منها إلغاء موعدها مع خالد، لكنَّ هاتفها كان مغلقًا، وكانت على الأرجح تصوِّر برنامجًا أو حملة من حملاتها الإعلانية.

وبسبب شعوري بالذَّنب، قررتُ أن ألتقي ريم مرَّة ثالثة، وهذه المرَّة

في الشقَّة. وجدتُها فرصة لأُرِيَها المكان، ولأشرح لها عادات القطِّ، وقلتُ لها إنَّ بإمكانها تمضية الوقت الذي تريده في الشقَّة، بل أن تقيم فيها لو أحبَّت.

ظَنَنْتُ أنَّ الأمر انتهى عند هذا الحد، وسافرت. ظَلَلْتُ اتَّصل بريم من وقت لآخر بعد مغادرتي، لأطمئن على حال القط. وفي يوم، كنَّا أنا وأنت في بارٍ نتحدَّث، هاتفَتني لينا، وقالت لي إنَّ خالد أخبرها أنَّه يحبُّ فتاة جديدة، وأنَّها الفتاة نفسها التي خطَّطنا لوضعها في طريقه.

لقد حدث الأمر برغم إلغائي الموعد. لقد قرَّرَت ريم الذهاب إلى المقهى لسبب ما، والتقَت بخالد، وبدآ علاقة. هذه إشارة، أليس كذلك؟

لو كنتَ هنا، لحدَّثْتُك عن الإشارات في حياتي، منذ طفولتي حتَّى المرَّة الأخيرة التي جلستُ فيها معك، ولقلتُ لك كلَّ هذا وأكثر، لكنَّك لست هنا.

أغمضُ عينيَّ بينما ترتفع الطائرة، وأحاول أن أتنفَّس عميقًا. أضع جريدة البارحة التي أخذتُها من المضيفة في حجري، وأجرِّب أن أنام. أرى وجهك يبتسم لي. تزورني أيام الجامعة، وأرانا، أنا وأنت وخالد ولينا، في مشاهد لم أكن أعرف أنَّ ذاكرتي ما زالت تحتفظ بها. أرانا شبابًا نبتسم ونضحك.

كيف خَفَتَتْ وجوهُنا؟ كيف صرنا هكذا؟ ولماذا أنتبه بعد رحيلك إلى كلِّ هذه الأشياء؟ هل هذه إشارة منك؟ لِمَ لَمْ ترسل لي إشارة إذًا قبل الرحيل؟ ألم يكن ممكنًا تفادي كل ما حدث؟

أشدُّ من إغماضة عينيَّ، وأحاول طرد الذكريات، ثمَّ أفتحهما وأنظر خارج النافذة.

السَّحاب يجري. السَّحاب أبيض. الأرض بعيدة.

سأصل بعد ساعات إلى بيروت. سأدخل الكنيسة بعد أيام. سأرى خالد وَيَراني. سأنتبه أنَّه ينظر إليَّ مليًّا، فأتقصَّد أن أنشغل عنه بملازمة

لينا. سأهتمُّ بتنظيم الدفن والقدّاس والعزاء، وأحادث أصدقاءك القدامى، وأقوم بكلِّ ما يشغلني عن مبادلتِه النظرات. لكنّي سأظلُّ أكيدة أنّه يكمل التحديق كلَّ الوقت في بطني المنتفخ، وأعرف أنَّ خاطرًا مغايرًا للحقيقة يجول في ذهنه، وأنّه ينتظر نهاية المراسم ليحادثني، ظنًّا منه أنَّ هناك بارقة أمل يمكنه البناء عليها.

ماذا سأفعل عندما يقترب منّي ويطلب محادثتي؟ ماذا سأقول له؟ وكيف سأُخبره؟

سأمشي مع لينا وراء النعش.
السماء فوقنا. السماء زرقاء، لا غيم فيها.
القبور مفتوحة، يصعب عدُّها.
الموت كثير، وأنت قربنا في التابوت.
لكنَّك لن تقول.

صحيفة الطائرة: خطف جثث

بيروت – أُبلِغ عن نشاط غريب تكرَّر حدوثه في شوارع العاصمة اللبنانية، إذ أفاد شهود عيان أنَّ أشخاصًا مجهولي الانتماء يظهرون في الشوارع التي يسقط فيها الناس موتى، ويقومون بسحب جثث الموت إلى جهات مجهولة. وأضاف الشهود أنَّ الأشخاص يحضرون بسرعة في جماعات مكوَّنة من ثلاثة عناصر أو أكثر، ويرتدون ملابس مسعفين للتمويه، ويستخدمون باصات نقل صغيرة لينقلوا الجثث.

ويساعد خوف الناس من الاقتراب من الجثث، لاحتمال احتوائها على أمراض معدية، وتركهم لها في أمكنتها وهروبهم الدائم إلى مداخل المباني، هذه الجماعات في أداء مهمّتها، فتسحب الجثث بسهولة، وتختفي من دون أيِّ ردٍّ فعل يذكر تجاهها.

وبعث مواطنون - قالوا إنَّهم فقدوا أبناءهم في أحداث الموت مجهولة السبب - برسائل مفتوحةً إلى المسؤولين اللبنانيين طالبوهم فيها بالعمل على استرداد جثث أبنائهم لدفنها.

وبدأت قوى الأمن الداخلي والجيش اللبناني تجوب شوارع العاصمة والمدن الساحلية الرئيسية لضبط الأوضاع. لكنَّ حالة الهلع التي يردُّها محللون إلى غموض الأسباب وراء أحداث الموت، معطوفةً على فوضى التصريحات من قِبَل مسؤولين لبنانيين، امتدَّتا إلى عمل القوى الأمنية أنفسهم، التي يفتقر عناصرها للتدريب والخبرة إزاء أحداث استثنائية كهذه، ولا يستطيع حجم عديدها تغطية كل المناطق اللبنانية.

وارتفعَت مطالباتٌ من أفرقاء لبنانيين تناشد المجتمع الدولي دعم تسليح القوى الأمنية وتدريبها وإرسالها إلى الخارج ببعثات عاجلة مستشهدين بظهور جماعات مسلَّحة أخرى تقطع الطرقات وتوقف العامَّة وتدقِّق في الهويَّات.

وبالرغم من أنَّ طلبات عدة مشابهة كانت قد قُدِّمَت للحكومة اللبنانية خلال الأعوام القليلة الماضية من قبل أكثر من دولة، فإنَّ النزاع السياسي الداخلي كان يحول دومًا دون قبول المساعدات أو صرف هذه التي اتُّفِق على قبولها.

ولم يصدر عن منظمة الصحة العالمية أيُّ توصيات بخلاف بيانها اليتيم الذي نُشِر قبل أيام، والذي أوضح أنَّ المنظمة تُتابِع الوضع في لبنان عن كثب.

ما حدث، وما لم يحدث

يوم الأحد، صباحًا.

قطعت سيَّارة أبو بيتر ثلاثة حواجز ووصلت إلى الحاجز الرابع.

تفرّس شاب الحاجز في وجه خالد، ثمّ سأله عن اسمه، وطلب منه أن يُخرج هويّته. حاول أبو بيتر التدخُّل فجاءه الردُّ من نوع "ما دَخَلَك إنتَ". أعطى خالد الهويَّة للشاب، فنظر الأخير فيها، ثمّ إلى وجهه مجدّدًا، وطلب منه الترجُّل من السيّارة. انبرى أبو بيتر يقنع المراهق بأنَّ الإستاذ "إبن ناس" و"موظّف محترم"، فطلب الشاب منه أن يسلِّمه هويَّته أيضًا.

أخذ الشاب الهويَّتيْن وأمر أبو بيتر بركن السيَّارة إلى جانب الطريق وراء السيارات المنتظرة، والانتظار خارجها حتّى يعود إليهما.

بعد انصراف الشاب، شهر أبو بيتر هاتفه وقال إنَّه سيتَّصل بمعارفه، فأوقفه خالد طالبًا منه عدم تصعيد الأمر، وقال: "هلَّأ بيرجع بعد شوي، وبيمشّينا".

تفحَّص خالد الشارع حوله. كان صفُّ السيارات المنتظرة يطول بمرور الوقت، لكنَّ أحدًا من الركّاب والسائقين لم يكن يعترض على الإجراءات. كانوا ينتظرون كما لو أنَّ ما يجري أمامهم حدث يومي عادي اعتادوه منذ زمن، وبجانب السيارات، كان الرصيف يفيض بالنفايات المتكوِّمة.

أسبوع واحد كان كافيًا لتظهر كل هذه القمامة عند النواصي ووسط طرقات المدينة. أسبوع بدأ بمعرفة خالد بموت روجيه من سهى. عندما اتَّصلت به وأخبرته، لم يعرف أن يبكي، بل لم يقل شيئًا يُذكَر. قال "آلو" فقط، وهي تكفَّلَت بباقي المعلومات. عندما شعر أنَّ حديثها انتهى، سألها متى تصل الجثة إلى بيروت، وما هو المطلوب منه، فردَّت أنَّها ستتَّصل مرَّة أخرى لتُعلمه بالتفاصيل المطلوب منه ملاحقتها.

لم يتورَّطا في أيِّ أحاديث خارج الموضوع. لم تستدرج سهى مثل تلك الأحاديث، ولم يسأل خالد أسئلة إضافية. كانت اللحظة أكثف وأشدَّ وطأة من أن يتورَّطا في حديث يكونان محوره. لكن في نهاية الاتصال حدث صمت غريب، قالت سهى من بعده: "خالد. إنت اللي

ح تقول للينا. ما بقدر أنا قلّا ع التلفون".

لم تكن تسأله. كانت تُعلمه، وهو لم يعترض.

زار خالد لينا مع ريم، وأخبراها. لازماها لأيام. كانت في حالة صدمة بالغة، وانهارت أكثر من مرّة. استدعيا لها الطبيب، وكان الأمر مؤرِّقًا. خاف خالد عليها. خاف على الطفل. خاف على كل شيء. خاف ولم يفهم. كيف يتصدّر حدث كهذا حياتهم فجأة؟ كيف يظهر هذا الحدث هكذا من لامكان؟

روجيه ولينا. لم يسمع قطُّ عن مشاكل بينهما. لينا ناجحة في عملها. روجيه لا يهدأ. لدرجة أنّه اختفى في الفترة الأخيرة تمامًا. انشغل بدراساته وعمله في لندن. ألم يكن يجب أن يتّصل به أكثر؟ كان يمكن لخالد أن يواصل لوم نفسه، لكنّه كان يعرف أنّه لم يكن يستطيع فعل شيء. وإن كان من شعور عنده، فهو أقرب إلىَ الإحساس بالخسارة منه إلى لوم النفس.

وصلت جثّة روجيه، وغادر خالد بيت لينا لكي لا يلتقي بسهى. ريم فضّلَت البقاء قليلًا. انتحَت به جانبًا وقالَت إنّها ستعود عندما تطمئن أنَّ كل شيء على ما يرام، وعندما عادت في اليوم الثاني، كان نائمًا. قبّلَته على وجنته، واستلقت قربه وحضنته.

أراد أن يسألها إن كانت التقَت بسهى، لكنه لم يفعل. لم يشعر أنّه قادر على قول شيء. لم يكن يملك الطاقة. أخذ يُشغل نفسه بمتابعة تحضيرات الدفن والقدّاس والعزاء، وبمقابلة أشخاص من أجل التحقيق الذي التزم بتقديمه.

كانا – هو وريم – قريبيْن بلا كلام. مارسا الجنس مرّة واحدة، وفي آخره اختلى خالد بنفسه تحت الدوش، وبكى.

اليوم، الأحد. اليوم، الدفن. سيُنهي هذه الزيارة، ويُسرع عائدًا إلى الكنيسة.

ظهر شاب الحاجز بعد نصف ساعة من الغياب، وأعطاهما الهوية،

وطلب منهما الرحيل، ولما لاحظ أنَّ أبو بيتر يتمهَّل عن قصد بالمضيِّ في طريقه، خبط بسلاحه على صندوق السيَّارة صارخًا: "يلّا... يلّا خلّصنا. إمشي. عم تعطِّل العالم".

"أخو الشرموطة"، قال أبو بيتر عندما صار بعيدًا عن الحاجز.

توقَّفت السيَّارة أمام فيلا مسوَّرة بجدار رمادي، فطلب أبو بيتر من خالد أن يتأكَّد ممَّا إذا كان هو العنوان الذي معه. نظر خالد إلى الورقة التي في حوزته وقرأ العنوان له.

"هيدي هيِّي لكن"، أجابه أبو بيتر.

نزل خالد من السيَّارة، فأعلمه أبو بيتر: "ح أُنْطرَك هونيك".

كبس خالد على زرِّ الدخول، ومضت ثوانٍ قبل أن يُفتَح الباب. دفعه ودخل.

وجد نفسه أمام طريق مرصوف ببلاطات صغيرة نبتت الحشائش بينها. على جانبَيِ الطريق، امتدَّت مساحتان من العشب الأخضر تناثرت فيهما بضعة أشجار صغيرة، وبعض الورد الأحمر والأبيض، بالإضافة إلى طاولة وكراسٍ في المساحة الأولى، وأرجوحة في المساحة الثانية.

بقي خالد واقفًا في مكانه. فُتح باب الفيلا، وخرج منه كلب أسرع يعدو باتِّجاهه. ظهر رجل ستينيٌّ عند الباب، ونادى الكلب باسمه. وعندما رآه يشمُّ خالد، نزل الدرجات القليلة بتأنٍّ ومشى باتجاههما، ثمَّ سلَّم على خالد واعتذر عن سلوك الكلب مبرِّرًا: "بينْبُسط بس يشوف عالم جديدة".

طلب الرجل من خالد اللحاق به. سلكا الطريق نفسها التي أتى منها، وصعدا الدرجات، ثمَّ دخلا من باب الفيلا.

طلب الرجل من خالد الانتظار في الصالون، مشيرًا إلى غرفة قريبة، وسأله إن كان يفضِّل القهوة أو الشاي، فردَّ خالد: "إذا في قهوة، بيكون تمام".

استأذن الرجل منه، وغاب في ناحية أخرى من الطابق الأرضيِ، فمشى خالد متجهًا إلى الصالون. في طريقه، لمح نفسه في مرآة معلّقة على الحائط. اقترب منها كي يعدِّل من هندامه، لكنَّه لاحظ وجود صُوَر في إطارات على المنضدة تحتها.

لمح جانيت فيها.

سمع نبض قلبه يتسارع.

أخذ يركِّز في الصُّوَر أكثر. في صورتيْن، وقفَت جانيت تحتضن رجلًا بدا في الثلاثينيّات من عمره. فتّش خالد بعينيْه سريعًا عن ضرغام، لكنَّه لم يجدْه في أيِّ صورة. كانت الصور إمَّا تُظهر جانيت وحدها، أو تُظهر الرجل وحيدًا في مراحل عمريَّة مختلفة، أو تظهرهما معاً، أو مع أشخاص آخرين. حاول خالد أن يتبيَّن تعابير وجه جانيت، لكنَّه لم يجد أيًّا من تفاصيل المرأة التعبة السارحة التي أخبره عنها طوني وضرغام.

سمع جلبة آتية من الطابق الثاني، فآثر أن يدخل الغرفة التي دلَّه عليها الرجل درءًا للإحراج. جلس على الكنبة وحاول أن يهدِّئ من شعور اللهفة الذي أخذ يتعاظم داخله، فصار يُوزِّع نظره بين قطع الأثاث الفارهة حوله.

ثمَّ انتبه. الرجل في الصور يشبه سليم في الصور القليلة التي رآه فيها بشقَّة ضرغام. ولم يكدِ الخاطر يعبر رأسه، حتَّى دخل الرجل الغرفة، وقال مرحِّبًا: "أهلًا".

وقف خالد وسلَّم عليه، ثمَّ جلسا. آثر خالد ترك الكلام لمضيفه، فبدأ الرجل حديثه بالخوض مباشرةً في الموضوع، وقال إنَّه كان خارج البلد عندما أرسل له العاملون معه هنا صورًا للافتات إعلانيَّة تظهر فيها صور شخصيَّة لأمِّه، ثمَّ صمت الرجل لثانية، قبل أن يطلب من خالد شرح السبب وراء هذه اللافتات وهدفها.

قال "إمِّي"، ومضى يعلك الأحرف في أواسط الجُمَل.

"حضرْتَك إبن الستّ جانيت؟ سليم؟"، سأله خالد.
"نحنا مْنَعِرْفَك؟"، استفهم سليم وهو يعقد حاجبيْه.
"لا. أنا بعرف جوز إمّك. عم يفتّش عليها، وكنت عم ساعدو إنه يلاقيها"، أجاب خالد.
دخل الرجل الستّيني بصينيّة القهوة ووضع الفنجانيْن أمامهما وانسحب، فتابع سليم يسأل:
– ما فهمْت عليك؟ عم تساعد عمّو ضرغام ليلاقي ماما؟
عندما أومأ خالد برأسه إيجابًا، ردَّ سليم مستغربًا:
– بس ماما توفِّت من خمس سنين، وعمّو ضرغام بيعرف هالشي.

السقوط جزء من العبور

في لحظة واحدة، تتَّجه الأشياء إلى نهاياتها. ينفتح بابٌ يُفضي إلى مكان لا أعرف أن أُوَصِّفه. أندهش للوهلة الأولى، ثمَّ أحاول الهرب، فلا أفلح. أجدُني أسقط، ولا أعود قادرًا على وقف التهاوي، فآخذ أردِّد: "السقوط جزء من العبور... السقوط جزء من العبور".
أشعر بخفَّتي وأنا أعبُر. أرى ما حدث، وما يحدث، وما سيحدث. ولا أعود أعرف إن كان الذي أراه قد صار فعلًا. ماذا لو كنتُ أغيِّر مضمون القصص؟ ماذا لو كنتُ أراها كما كنتُ أرويها، كما كنتُ أحبُّها أن تحدث؟
أخترق السواد، وأصعد. أصير في السماء، بين غيمٍ أبيض، فتتَّخذ الأشياء تحتي هيئات أكثر تشكُّلًا.
فوهة البئر مسوَّاة بالأرض، والشجرة حيَّة تحمل ثمارًا.
تسقط تفَّاحة من أحد الأغصان، فأهبط قربها. أمضي ماشيًا في الجلول حتَّى أجد نهرًا لم أزره من قبل. أجلس على ضفَّته، وأغمض عينيَّ. أشعر

بالماء يبلِّل ساقيَّ. أنتظر ولا أعرف ما الذي أنتظره. وعندما أفتح عينيَّ، يكون ماء النهر قد صار أحمر، يفيض بجثث تنظر إليَّ.

يظهر آخرون لا أعرفهم، ويجلسون قربي، ويغمِّسون أرجلهم كما أفعل. لا يحادثونني، ولا أحادثهم، ولا يحادثون بعضهم، وتستمرُّ الجثث تعبر قربنا وتحدِّق فينا.

أغمض عينيَّ وأعبر مرَّة أخرى.

أينٍ أنا؟ أين أنا؟

أفكر فيها، وأحاول أن أستحضرها. أكرِّر المحاولة لعدد من المرَّات لا أستطيع أن أحدِّده. ثم تطفو فجأة صورة في البعيد، تطير في الفضاء. تتلوَّى برفق صعودًا ونزولًا، قبل أن تهبط قبالتي. أرى وجهها في الصُّورة، ثمَّ يخرج الوجه وتتجسَّد أمامي، فأنظر إلى نفسي، لأراني أيضًا قد تجسَّدت.

"جانيت"، أقول ولا أسمع أيَّ صدى لصوتي. أحاول الاقتراب منها، فيتضخَّم عندي شعور غريب، أفكِّر فيه، وأعيد التفكير أكثر كأنِّي أفعل ذلك لأبقيَه معي، وأصير أردِّد: "يا لجمال ما حدث بيننا... يا لجمال ما لم يحدث بيننا".

أقترب، فتتشوَّش المسافة بيننا بمشاهد من أمكنة أخرى. أقترب، فأصبح أكثر قدرة على تبيُّن تفاصيل المشاهد. ثمَّ أراهما يمشيان في ساحة مكتظَّة بكبار سنٍّ لا أعرفهم. تميل ريم نحو خالد، وتعانقه. وتقول له شيئًا لا أقدر على سماعه. يعانقها بعد الهمس، ويقبِّلها، ثمَّ ينسحب من الساحة باتِّجاه مبنى "بيت الرجاء". تلتفت ريم، وتبتسم. تنظر إليَّ، وأحدس أنَّها تريد أن تقول لي شيئًا، فأحاول الإنصات، لكنَّها تختفي، ويختفي المشهد كلُّه، لأجدني قد صرتُ قريبًا جدًّا منها، من جانيت.

نقف معاً.

كما لو كانت أول مرَّة، نقف.

كما لو كنّا على أدراج سوق الغرب، نقف.
كما لو أنَّ الذي حدث من قبل كان تمهيدًا لما يحدث الآن وما سيحدث بعدها.
نقف معًا، ونُذهَل لكمِّ الأشياء التي نراها للمرَّة الأولى.
كانت دائمًا هناك، لكنَّنا رأيناها الآن فقط.
لقد متنا وأشرفنا على العالم كلِّه.

شكرًا

أحمد وائل، محمد أحمد شومان، زينب ترحيني، روجيه عوطة، رشا عبَّاس، ريتا خوري، رضا حريري، مو مصراتي، محمَّد ربيع، حسن ياغي، رامية عبيد، هوفيك حبشيان، سناء خوري، بشير عزَّام، أحمد ناجي.

تنويه

استُفيد خلال كتابة هذه الرواية من نُوى لأخبار وتصريحات وأرشيف من مواقع: ناو ليبانون، النهار، السفير، الأخبار، **memory at work**.

ومواقع أخرى.

سلسلة حوادث غامضة ضجّت بها بيروت: عربات غاز تزامن ظهورها مع حوادث موت. قتلى في حوادث سير قيل إنهم قضوا بسكتات دماغية واختناقات. قطط نفقت بأعداد كبيرة. موت أطفال رضّع في المستشفيات. انفجارات، وحروب. لكن في المقابل، الفنانات الشهيرات الثلاث: رايا وكنزي وأنيسا قرّرن وضع حدّ للخصومات المزمنة وحلق شعورهنّ دعمًا لحملة بعنوان: 'ما تحلق لبلدك'...

وسط هذه الأحداث، ينهمك خالد بعلاقة جديدة مع ريم محاولًا التغلب على فشل زواجه بسهى، ويساعد جاره العجوز في البحث عن زوجته المفقودة، بينما سهى في لندن تحاول خوض رحلتها الخاصة.

هلال شومان كاتب وروائي لبناني. صدر له في الرواية 'ما رواه النوم'، 'نابوليتانا'، 'ليمبو بيروت' (ترجمت إلى الإنكليزية).

ISBN 978-6-14425-959-7

9 786144 259597 >

DAR AL SAQI
دار الساقي

www.daralsaqi.com